محاكمة أولاد حارتنا

د. احمد السيد عوضين



دار المعارف

محاكمة أولاد حارتنا

د. أحمد السيد عوضين

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة

د. حسن أبو طالب

سلسلة كتب ثقافية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عوضين، احمد السيد.
محاكمة أولاد حارتنا، بقلم : احمد السيد عوضين. - ط ١٠ -
القاهرة : دار المعارف، ٢٠١٤.
٢٨٨ ص، ٢٤ سم.
تدمك ٨ - ٠ - ٨٠٥٠ - ٠٢ - ٩٧٧ - ٩٧٨.
١ - القصص العربية - تاريخ ونقد.
(ا) العنوان.

ديوى ٨١٣,٠٠٩

رقم الإيداع ٢٢٩٥١ / ٢٠١٤   ١/ ٢٠١٤/٤٢

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
- ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة -
جمهورية مصر العربية

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

كلمة

للحقيقة فإننا لسنا بصدد «محاكمة» واحدة، بل نحن بصدد عدة محاكمات، جرت فى أوقات متباينة، وفى أوساط مختلفة، وبمعرفة أشخاص لايجمع بينهم جامع واحد.. وقد دارت تلك المحاكمات – جميعها – على أثر قيام كاتبنا الكبير بنشر روايته «أولاد حارتنا» مسلسلة فى جريدة الأهرام، فما إن أوشكت الرواية على أن تبلغ نهايتها حتى ثارت بشأنها الأقاويل، وجرت التفسيرات والتأويلات، ووصفت الرواية بأسوأ الأوصاف التى تمس العقيدة، كما تمس صادق الإيمان.

ولا نود أن نبدى رأيا – منذ الآن – بشأن تلك المحاكمات، ومدى ما اتصفت به من بعد عن تحرى العدل، أو قصد الإنصاف، لأن ما هدفت إليه لم يكن سوى الإساءة إلى كاتب عُرف عنه الإبداع، ومن تشويه لصورة فنان كان مما شرف مصر انتسابه إليها.. فكل تلك الأمور مؤجلة إلى ما بعد عرض «عناصر الدعوى ووقائع الاتهام» فالحكم العادل لا يصح أن يصدر إلا بعد درس للموضوع من جميع نواحيه وبعد الإحاطة بـ «القضية» بكل تفاصيلها.

والحكاية أن «نجيب محفوظ» وعقب إنجازه لثلاثيته الشهيرة: بين القصرين – قصر الشوق – السكرية، توقّف لفترة عن تقديم أعمال روائية جديدة، فلما دُعى فى عام ١٩٥٩م إلى نشر أعماله وإبداعاته فى الأهرام، قدم للنشر روايته «أولاد حارتنا» التى وجدت فى الغالب إقبالا من القراء، لنشرها مسلسلة، ولما تحمله من عناصر التشويق.

وكان النشر بهذه الصورة مما يحجب عن القارىء الفكرة الكاملة التى تقوم عليها الرواية، ويجعل من المتعذر، إدراك المرامى التى يهدف إليها المؤلف، ومن هنا فلم يبدأ الحديث عن الرواية، والتنبه إلى مراميها إلا بعد أن أوشكت أن تبلغ غايتها، ويصل بها مؤلفها إلى النهاية التى أرادها لها.

وعلى ذلك فعندما تنبّه البعض إلى ما تنطوى عليه أعماق تلك الرواية من معان ومن دلالات، ثارت بشأنها الأقاويل، وقامت ضدها الهجمات تلو الهجمات، بل وأجريت لها العديد من المحاكمات التى استمرت لفترة تقارب النصف قرن قضاها الكاتب وهو محروم من أن يرى روايته تنشرها دار نشر مصرية وتعلن عنها، وتعرضها فى مكتباتها، وتتيح للقراء أن يتبادلوها.. ولم يحدث ذلك إلا بعد انتقال المؤلف إلى جوار ربه الكريم..!!

وقد حوكمت الرواية أول ما حوكمت على نطاق السلطة، وفى غضون ذلك لم تعدم الرواية البعض ممن يتطوع بالكتابة – أو بالحديث – عنها فلا يدخر فى وسعه قدرا من أوصاف سيئة قد تصل إلى التكفير إلا ووصم الرواية بها – بل وربما.. نسب الكفر إلى المؤلف نفسه..!

ومن ناحية أخرى فقد تطوَّع عدد من النقاد مسايرة لهؤلاء المتسرعين، فكتبوا عن الرواية بما يسىء إليها وإلى مؤلفها.. وإن كان هناك عدد آخر من النقاد قد تصدُّوا لتلك الحملة، وحرصوا على أن يدافعوا عن الرواية بتفسيرها التفسير الذى يروْن أنه الأقرب إلى الصواب..!!

وإذا كانت هاتان المحاكمتان قد جرتا على مرأى ومسمع من الجميع – فقد كانت هناك محاكمة أخرى تجرى فى الظلام، بدون سماع أقوال أو مناقشة اتهام.. ليصدر عنها الحكم فى سرية كاملة، ويعهد بتنفيذه إلى نفر من الشباب أوكلت إليه مهمة تنفيذ حكم الإعدام فى مؤلف الرواية.. غير أن عملية التنفيذ التى تمت بتاريخ ١٤ من أكتوبر ١٩٩٤م لم يكتب لها النجاح الكامل، وإن كانت قد أسفرت عن إصابة المؤلف بإصابات جسيمة ظلَّ يعانى من آثارها إلى أن وافته المنية.

وقد رُوِّع المجتمع عندما أذيع عليه خبر ذلك التعدِّى الآثم الذى كان تنفيذا لحكم صدر فى الظلام.. فظل لمدة يتابع ما يجرى من محاكمات للمعتدين..!

ولم يكتف من اتخذوا لأنفسهم موقف العداء من الرواية – بما يستتبعه موقفهم من تكفير للمؤلف – بذلك كله، بل رأوْا أن يطرقوا باب «القضاء الجنائى» متهمين الكاتب بالتعدِّى على الأديان بأن نسب إلى الذات الإلهية اسما من غير أسمائه – سبحانه وتعالى – مطالبين بمعاقبته بالمواد المنطبقة عليه من قانون العقوبات والتى تصل عقوباتها إلى الحبس والغرامة..!!

وهكذا، فقد أجريت محاكمات عديدة للرواية ولمؤلفها: بعضها جرى فى العلن، وبعضها جرى فى الظلام، كما صدر أكثر من حكم بالإدانة، بل وبالتكفير فى بعض الأحيان ممَّا ظلت معه الرواية مطاردة، وممنوعا نشرها، دون أن يكون معلوما بيقين الجهة التى أصدرت قرار المنع.. وكما كان قرار المنع مجهول المصدر، أو على الأقل هناك شك فى أن الجهة المنسوب إليها أنها أصدرته ما زالت تصر عليه ومتمسكة به.. فقد أتيح للرواية مؤخرا أن تخرج إلى النور، وأن يتداولها النقاد بالنقد فى حرية وصراحة تامتين..!!

ومؤلـف الكتـاب الذى بين أيديكم وإن كان قد شـارك فى متابعة هـذه القضية وتلك المحاكمـات ضمـن من تابعوها من جماهير المصريين.. إلا أنه كان له دور عملى فى طورها الأخـير إذ تـولىّ الدفاع – أمام محكمة جنايات – عن «نجيب محفوظ» وكان حرصه على أن يثبت سلامة موقفه، وطهارة قصده، وسموّ مراميه، وبراءته من كل ما هو منسوب إليه – بالغا أقصى ذروته – ولكن على نحو موضوعى برىء من كل انفعال.

ومـن هنا كانت فكـرة هذا الكتاب: محاكمـة «نجيب محفـوظ» – بمحاكمة «أولاد حارتنـا» – ليضـم كل مراحل تلك المحاكمة، ما كان منها فـى العلن، وما كان منها فى الظلام، ثم ما جرى منها فى أروقة السلطة، أو على صفحات الجرائد، أو فى بطون الكتب والمؤلفات... ما قيل منها على ألسـنة رجال الديـن أو من يدّعون أنهم من رجال الدين، أو ما جرى نشـره بأقلام كبار الكتاب – أو بأقلام من هم دون الكبار من الكتاب.. ثم ما جرى أخيرا فى سـاحة المحكمة ورددته جنباتها من مرافعات عديدة سواء جاءت اتهاما «لنجيب محفوظ» أو دفاعا عنه..!!

كل هـذه الصـور والأحداث والأحاديث نطمـع أن نرويها فى أمانة، ونسـجّلها بكل تفاصيلها، لما لذلك من أهمية كبيرة فضلا عن كونه تسـجيلا لما كان لها من صدًى بالغ، وبخاصـة أن الأمر كان يتصل بعمل فنّى – فى المقام الأول – ليس المقصود منه بحال من الأحوال التحدث عن الأديان أو التعرض للعقائد، أو استعراض قصص الأنبياء.. كان مجرد عمل روائى يسـتعرض الحياة المصرية متمثلة فى إحدى الحارات على أسـاس أن الحارة هى نموذج لتلك الحياة حيث تبرز سماتها الأصيلة، وأسرارها الدفينة، وطباعها المتأصلة، وحيث تتعقد مشاكلها بحثا عن لقمة العيش حينا، وصراعا بين القوى فى أحيان أخرى، ولكنها فى جميع الأحوال تؤكد أنها ملحمة البحث عن الحق والعدل والمساواة..!

* * *

على أن ذلك كله يستلزم بالطبع أن نبتدىء بعرض الرواية كما كتبها مؤلفها، معرضين عمّا قيل بشـأنها من تفسـيرات وتأويلات، حيث إن مثل تلك المقـولات لا يتأتى فهمها – وتقديرها – إلا بعد الوقوف على ما قاله المؤلف أولا. لأن ما قاله بالفعل هو الأساس والمرتكز، وكل مـا قيل على ألسـنة الغير من نقد، أو فهـم، أو تقرير، أو اتهام – إنما هو اجتهاد – قام بـه أصحـاب تلك المقولات التى يريد صاحب كل مقولـة منها أن يظهر أنه هو وحده صاحب

الفراســة النافذة الذى أمكنه أن يصل إلى الحقيقة، ويدرك ما قصد إليه المؤلف بالفعل..!
ولسنا فى حاجة إلى أن نؤكد ما هو مسلم به من أن كل قول – أو تفسير – فإنه كما يحتمل الصواب، فإنه يحتمل أيضا الخطأ.. وبنفس النسبة وربما بنسبة أكبر..!

وهكذا، فإننا سنمضي بعد عرض – واستعراض – الرواية – كما كتبها صاحبها – إلى الحديث عن كل ما تعلق بها من تفسيرات وتأويلات أدَّت إلى تعرض الرواية – ومؤلفها – لمحاكمــات متوالية، بعضها جرى كما ذكرنا فى العلانية وبعضها جرى فى الخفاء.. كما أن منها ما تولاه أشــخاص لهم دوافع ظاهرة، ومنها ما تولاه أشــخاص مغرضون لا تعرف طبيعة هويتهم ولا حقيقة مقاصدهم.. ومنها أخيرا ما تداولته ساحة محكمة الجنايات..!

وكما ذكرنا – فإننا نعيد القول بأن هدفنا هو جلاء الحقيقة، وسبيلنا إلى ذلك هو معاودة دراســة الأحداث، وبســط الوقائع، وتحليل كل ما أحاط بالرواية من ظروف وملابسات – وهو جهد كبير وثقيل نسأل الله أن يسدد خطانا فيما نبذله بصدده، فهو الموفق وهو الهادى إلى كل ما فيه الخير.

وعلى الله قصد السبيل

د. أحمد السيد عوضين

تحريرا فى ٣٠ / ٤ / ٢٠١١ م

* * *

خطة.. ومنهاج

سـوف نمضي في هذه الصفحات طبقـا للخطة التي وضعناها، وباتبـاع المنهاج الذى رسمنـاه متخذين من الوصـول إلى الحقيقة وجلائها هدفا أساسـيا لا نعدل به هدفا آخر، ملتزمـين معيـارا لا نحيد عنه هو معيار الحيدة والإنصاف، معتبرين أن مهمتنا الأساسـية علـى مدار هذه الصفحات هي الرصد للأحداث بكل دقـة وموضوعية، والتعبير عن الآراء بكل صدق وأمانة، ولكل صاحب رأى عندنا احترامه وتقديره، وإن كان ذلك لا يحول دون أن نكشف عن عثراته وانحرافاته - من وجهة نظرنا التى نحرص على أن نتحرى بشأنها وجه الحق وحده - وإن كنا لا نعفى أنفسـنا من الزلل فى بعض الأحيان - كما أننا نلزم أنفسـنا فى ذات الوقت بأن نبرز وجهات النظر التى أصابت الحقيقة، وتحرت فى نقدها وحديثها شرف الكلمة وسلامة المعيار.

وعلى ذلك فسوف يمضى بنا الحديث على النحو التالى:

١ - سيكون حديثنا - فى «الفصل الأول» - عن الرواية والراوى... حيث نعرض قصة الروايـة، ومـا صادفها - أو صادفته - من عقبـات وما ثار حولها من مقولات، وما اتخذ بشأنها من إجراءات جعلت الناس لاتدرك الحقيقة بشأنها لزمن طويل.

حتـى إذا ما كشـفنا ذلك كان علينا أن نقدم «الـراوى» - ولانقول المؤلف - فهذا هو الوصف الذى اختاره مؤلف تلك الرواية. صحيح أنه قد كتب عن «نجيب محفوظ» الكثير، فلم يعد ثمة جديد يمكن لصاحب قلم مثلى أن يضيفه. لكن ليس من شك فى أن الحديث عـن الراوى يبدو وثيـق الصلة بالحديث عن الرواية، ومن يـدرى فكثيرا ما يجهل المرء قيمة ما يقدمه.!

٢ - ونخصص «الفصل الثانى» لنقدم مضمون الرواية - أحداثا، وأشخاصا، وأفكارا فى صفحـات معدودة، وقد وجدنـا أن تقديم هذا المضمون - ولانقول الملخص أو الموجز - هو أمر هام وضرورى حتى بالنسبة لمن طالع النص الأصلى أكثر من مرة، لأننا فى حديثنا عمّا تعرضت له الرواية من محاكمة - بل محاكمات - سـوف نضطر إلى مراجعة كل أحداث الرواية وكل وقائعها، وكل أشـخاصها، وما حمله كل شـخص منهم من أفكار، وما عبر

عنه من آراء، وما هدف إلى تحقيقه من رسـالات، ولايتسـنى ذلك لمن يقدم ملخصا موجزا يقتصر على الأحداث الكبرى والشخصيات الرئيسية دون ما اهتمام بتطوّر الأحداث، وبنمو الأشـخاص، وبتأثـير الظروف. فلكل ذلك دوره وأهميته وهو مـا انعكس فى حرصنا على تقديم مضمون متكامل للرواية.

٣ – وسوف يسلمنا ذلك إلى «الفصل الثالث» والذى يدور حول تصرف السلطة الحكومية حيال الرواية فى أول الأمر ومدى ما كان لهذا التصرف من انعكاس بشـأن وضع «الرواية» فى الداخل، وعدم وصولها إلى أيدى جمهور القراء فى الداخل، وغيابها بالتالى عن جمهور أبنـاء «البلد» الذين يتابعون فى حـرص كل ما يقدمه «نجيب محفوظ» من إبداعات.. وقد سار معها فى نفس التيار – الأزهر إلى حد ما..

٤ – علـى أنه مع تقدم الأحداث، وحصول «نجيب محفوظ» على جائزة نوبل العالمية نشـط كثيرون لتناول أعماله بصفة عامة، ولعرض رواية «أولاد حارتنا» والتعرض لها بصفة خاصـة.. وكان هذا التناول من خلال أكثر مـن وجهة نظر، كانت كل منها تخالف، بل قد تناقض سواها.

٥ – تمثلـت وجهة النظر الأولى فى تناول عدد مـن رجال الدين، وخطباء المنابر لتلك الرواية، وكان منهج معظمهم، هو تفسـير رموز الرواية تفسـيرا مرجعه سير الآنبياء وتوالى الأديان، ومدى توافق الأحداث وصحيح «الرواية الدينية» كما هى ثابتة فى الكتب السماوية وأخصها القرآن الكريم، ومن هنا جاء التقييم للرواية فى الكثير مما ورد على ألسنة خطباء المنابر ورجال الدين قاسـيا مؤلما.. ونتحاشى أن نصفه بالإجحاف. ولهؤلاء سوف نخصص «الفصل الرابع» الذى يتحدث عما قيل من فوق المنابر أو بأقلام عدد من علماء الدين.

٦ – علـى أنه كانت هناك محاكمة أخرى تجرى للرواية فى الخفاء، وكانت تحكمها الإشـاعات التى تناولت الرواية بما يسـئ إليها وإلى كاتبها شر إساءة، وبما يوغر الصدور على الرواية والراوى حتى يدفع بعضهم إلى التخطيط لاغتيال «نجيب محفوظ»، وإن كانت محاولتـه باءت بالفشـل، إلا أنها أحدثت صدى مدويا من ناحيـة، كما أصابت الكاتب بإصابـات خطيرة خلـفت عنده بعض نواحى العجـز التى ظل يعانى منها حتى وفاته – وهذا هو موضوع «الفصل الخامس».

٧ – أما «الفصل الســادس» فعنوانه: «محاكمة... قُضاتُها كتاب» وقد صبغت كتاباتهم – وبالتــالى أحكامهم – بصبغات مختلفة تراوحــت بين صبغة دينية ضيقة الأفق، وأخرى تأخذ من الإســلام سماحته وســعة أفقه.. وبين صيغة أدبية نقدية تعرض للرواية باعتبارها عملا فنيا بحتا.. ومن ثم فالعبرة هى بمقدار تفوقه الفنى، وعمقه الإبداعى..

٨ – على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى ساحات القضاء حيث أقيمت دعــوى جنائية أمام محكمــة الجنايات وكان المتهم فيها «نجيب محفوظ» والتهمه: ازدراء الأديان.. واســتمر نظر الدعــوى طويلا، وتداولت بالجلســات إلى أن قضى فيها بعد عدة جلسات بعدم قبول الدعوى الجنائية ورفض الدعوى المدنية.

٩ – وبعــد اســتعراض كل تلك المحاكمــات التي جرت من فــوق المنابر حينا، وعلى صفحــات الصحف والجرائد والمؤلفات المطولة فــى أحيان أخرى، أو فى الخفاء ثم إصدار حكم والشروع فى تنفيذه على الفور.. ثم تعرض الدعوى على القضاء وتتداول فى المحاكم.. بعد ذلك كله يكون السؤال الذى يفرض نفسه هو:

وما هو وجه الحق فى ذلك كله؟ وعم تكشــف كل هذه الأحداث والأقوال والآراء التى أذيعت ونشــرت فــى كل الأرجاء؟ وما هى الكلمة الســواء التى نخلــص إليها، ونقدمها بأســانيدها وأدلتها وبراهينها، وســيكون ذلك هو موضوع الفصل الأخير من هذه الدراسة.. وفيه «فصل الخطاب»

والواقــع إننا لانرجو من وراء ذلك كلــه إلا إعلاء كلمة الحق – والله ولى التوفيق: وهو الهادى إلى سواء السبيل.

* * *

الفصـــل الأول

الــرواية والــراوى

فى افتتاحية رواية «أولاد حارتنا».. ورد على لسان الكاتب ما يلى:

«هــذه حكايات حارتنا، لم أشــهد من واقعها إلا طوره الأخــير الذى عاصرته، ولكنى ســجلتها جميعا كما يرويها الرواة وما أكثرهم. جميع أبناء حارتنا يروون هذه الحكايات، يرويها كل كما يسمعها.. أو كما نقلت إليه خلال الأجيال..».

وإذن فمصدر القاص هو ما سمعه من روايات تتناقلها الأجيال، سجّلها كما سمعها، ثم قدّمها لنا فى الرواية التى تحمل هذا الاسم: «أولاد حارتنا».

فنحن إذن بإزاء «رواية» هى: أولاد حارتنا، وإزاء راو لها أوصلها إلينا هو «نجيب محفوظ». ومن هنا كان علينا أن نفتح حديثنا بكلمة عن الرواية، ثم بأخرى عن الراوى.

أولا: عن الرواية

١ - حديث «نجيب محفوظ» عن أولاد حارتنا:

تحدث «نجيب محفوظ» عنها فى حديثه مع «رجاء النقاش»: (نجيب – صفحات من مذكراتــه وأضــواء جديدة على أدبه وحياته – «رجاء النقاش» – ١٩٩٨م – ص ١٤١ وما بعدها) فقال: «أولاد حارتنا» هى أول رواية أكتبها بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م، وسبقتها خمس ســنوات من الانقطاع التام عن الكتابة – وتحديدا بين عامى ١٩٥٢م، ١٩٥٧م – وهى من أشــق الفترات التى عشــتُها فى حياتى، وأصعبها على نفسى. والحقيقة أننى لم أعرف سببا واضحا لهذا الانقطاع. بعض الأصدقاء قالوا لى إنه نتيجة إجهاد حدث لى بعد كتابة «الثلاثية» والتى اســتغرقتُ فى كتابتها أربع ســنوات متصلة ابتداء من عام ١٩٤٨م وحتى ١٩٥٢م. ولكن ربما كان الســبب هو أن قيام ثورة يوليو ١٩٥٢م قتل الرغبة عندى فــى الكتابة. فقد كنت أعتبر الهدف الرئيســى لكتاباتى هــو نقد المجتمع المصرى ودفعه

للتغيير والتطور. وبعد قيام الثورة واتجاهها لتحقيق ما كنت أنادى به، كان السؤال الذى يلـح علـى: ما جدوى الكتابة حينئذ ؟! الطريف أنه كان فى مكتبى سـبعة مشـروعات لروايـات كنت أنوى كتابتها، منها روايـة اسمها «العتبة الخضراء»، وقد حكيت فكرتها «لعبد الرحمن الشرقاوى» فأعجبته جدا، وقال لى يومها أنه تمنى أن يكتب فى هذا الموضوع واستنكر عدم إكمال الرواية. ولما طالت فترة التوقف وأصبحتُ كالتائه، استقر فى وجدانى أننى انتهيت كروائى، وأنه لم يعد عندى جديد أقدمّه للناس. لدرجة أننى ذهبت إلى نقابة الممثلين وقيدت اسمى ككاتب محترف «للسـيناريو» وكنت قبل ذلك أعمل كهاو فى كتابة «السـيناريو» مع المخرج «صلاح أبو سيف» وتصورت أن كتابة «السيناريو» سوف تكون هى عملى الوحيد الذى يمثل لى العزاء، ويسدّ الفراغ الذى تركه الأدب فى حياتى. وكنت فى تلـك الأيـام مقبلا على الزواج، وتزوجت بالفعل فى عـام ١٩٥٤م، وكان لابد لى من عمل أحصل منه على دخل إضافى أواجه به مسئوليات الزواج والأسرة الجديدة. وفى أيام عملى كسينارست محترف زاد دخلى بشكل ملحوظ مقارنة بأيام عملى كروائى. والحقيقة أن فترة عملى فى كتابة «السيناريو» كانت من أحسن فترات حياتى من الناحية المادية.

فى عام ١٩٥٧م شـعرت بدبيب غريب يسرى فى أوصالى، ووجدت نفسى منجذبا مرة أخـرى نحو الأدب. وكانت فرحتى غامرة عندما أمسـكت بالقلـم مرة أخرى، ولم أصدق نفسى عندما جلست أمام الورق من جديد لأعاود الكتابة. وكانت كل الأفكار المسيطرة علىّ فى ذلك الوقت تميل ناحية الدين والتصوف والفلسفة، فجاءت فكرة رواية «أولاد حارتنا»، لتحيى فى داخلى الأديب الذى كنت ظننته قد مات. ولذلك لاحظ النقاد تغييرا فى أسلوبى واتجاهاتى الأدبية وهم يقارنون رواية «أولاد حارتنا» بما سبقها من أعمال، فهى لم تناقش مشـكلة اجتماعية واضحة كما اعتدت فى أعمـالى قبلها، بل هى أقرب إلى النظرة الكونية الإنسـانية العامة، ومع ذلك فرواية «أولاد حارتنـا» لاتخلو من خلفية اجتماعية واضحة، ولكن المشكلات التى صاحبتها، والتفسيرات التى أعطيت لها، جعلت كثيرين لايلتـفتون إلى هذه الخلفيات. وقد نشرت رواية «أولاد حارتنا» فى جريدة «الأهرام» كحلقات مسلسلة. ولهذا النشر قصة أخرى.

٢ - قصة نشر الوراية مسلسلة:

يواصل «نجيب محفوظ» حديثه فيروى قصة نشر الرواية فى الأهرام مسلسلة فيقول فى نفس المرجع (ص٤٢):

لأننى فى عام ١٩٥٧م حصلت على جائزة الدولة.. فأقام لى «إحسان عبد القدوس» حفل تكريم فى منزله.. ودعا إليه عددا كبيرا من الأدباء والصحفيين على رأسهم كامل الشناوى وفى حفل التكريم اقترب منىّ «على حمدى الجمال» مدير تحرير الأهرام وقال لى إنه يكلمنى باسم الأستاذ «محمد حسنين هيكل» رئيس التحرير، وأنه يريد منىّ رواية لتنشر فى الجريدة على حلقات مسلسلة. لم أكن قد بدأت فى كتابة رواية «أولاد حارتنا» – وبالتالى اعتذرت بأنه ليس لدىّ الآن رواية جاهزة للنشر، ووعدت «الجمال» بأن أول رواية أكتبها سأرسل بها إلى «الأهرام». وانتهيت من كتابة رواية «أولاد حارتنا» فى شهر أبريل ١٩٥٨م، حيث استغرقت كتابتها سنة «نجيبية» حيث تبدأ سنة الكتابة عندى فى شهر أكتوبر وتنتهى فى شهر أبريل، وتذكرت بعد أن انتهيت من الرواية الوعد الذى قطعته على نفسى، فاتصلت بالأستاذ «على حمدى الجمال»، واتفقنا على موعد، وذهبت إليه بأوراق الرواية التى قرأها، وأعجب بها وصرّح بنشرها دون أى ملاحظات. ويبدو أن الأستاذ «الجمال» قرأها على أنها رواية عادية عن حارة مصرية وقع بها صراع بين مجموعة من الفتوات.

هذا وقد أخذت «الأهرام تنشر» الرواية على حلقات، وغالبا ما كانت تنشر الحلقة فى صفحة(٨).. وكانت الحلقة ربما تضمنت فصلا، أو أكثر من فصل، وقد استغرق نشرها الفترة من ٢١ سبتمبر سنة ١٩٥٩م حتى ٢٥ ديسمبر ١٩٥٩م. وكانت تنشر يوميا، ومعها رسم تعبيرى مستوحى من شخصيات الرواية..

وانتظم النشر حتى الحلقة الأخيرة التى انطوت على الفصل رقم ١١٤، وبعدها كانت عبارة «انتهت القصة».

٣ - زوابع حول الرواية:

فى حديثه السابق ذكر «نجيب محفوظ» أن الأستاذ «على حمدى الجمال» هو الذى قرأ الرواية لدى تسليمها للأهرام، وهو الذى صرح بنشرها بدون إبداء أية ملاحظات ويعقب «نجيب محفوظ» على ذلك بقوله: «ويبدو أن الأستاذ «الجمال» قرأها على أنها رواية عادية

عــن حارة مصرية وقع بها صراع بــين مجموعة من الفتوات» ولعله كان يمكن أن يضيف: مثلما هو الشــأن فيما قدم «نجيب محفوظ» من قبل: فى زقاق المدق، وفى بعض صفحات الثلاثية، فقد كانت الحارة والحوارى هى عالم «نجيب محفوظ» المفضل، الذى لفت النظر إلى براعته فى تناول هذا العالم والغوص فى أعماقه.

وعلى ذلك فلم ينتبه الأستاذ «الجمال» إلى ما قامت عليه رواية «أولاد حارتنا» من رموز ومن إيحاءات، بما تســتتبعه من محاولة قارئها أن يحاول استكشــاف القصد من وراء تلك الرموز، والحقيقة التى تعنيها الرواية والمعانى التى تهدف إلى إبرازها..

وكان مــن الطبيعــى – لأن ذلك هو أول ما يرد على الخاطـر – أن الرواية إنما تروى قصة الخلق، وحكاية الكون، وتطوُّر البشرية.. ومن ثم فإن الخطوة التالية هى محاولة حلّ الرموز، وتسمية الشخصيات بأسمائها المعروفة.

ومتى جرى ذلك فإنه يستتبع إجراء مقارنة ما ورد فى الرواية وبين الحقائق التاريخية الثابتة والمعروفة بشأن الأنبياء والديانات والذات الإلهية..

ومن الطبيعى أن يجد القارئ اختلافات جوهرية فيما بين ما هو معلوم لديه يقينا، وبين ما يستشفه من قراءته للرواية ومتابعته لأحداثها.. فيندهش من الكاتب وكيف يجيز لنفسه أن يخالــف ماهــو ثابت، وأن يخرج على ماهو معلوم علما يقينيا.. ويزداد الأمر ســوءا إذا كانت تلك الاختلافات تمسُّ أمورا مقدسة، وتنال من شخصيات لها قداستها..!

وإذ آثار البعض هذه التفســيرات، فما لبثت أن انتشرت انتشارًا سريعًا، ممَّا أثار حول الروايــة زوبعة ضخمة، أدت إلى اتخاذ إجراءات حيالها لحجبها عن الجمهور، ولتحجيم مدى انتشارها بين القراء..

غــير أن الزوبعة ما لبثــت أن همدت، وبصفة خاصة بعد حجب نشــر الرواية فى الداخــل (فــى كتاب)، مما جعل الكتابة عنها أمرا عديم الجدوى، ولا يجد من يتابعه بالدراسة والتعليق.

ولكــن ذلك التوقــف كان لفترة.. إذ مــا أذيع نبأ فوز «نجيب محفــوظ» بجائزة نوبل حتــى صــارت أمور «نجيب محفــوظ» – كل أموره – موضع اهتمام، بمــا فى ذلك رواية «أولاد حارتنا» وذلك كله هو ما سوف نعرض له بالتفصيل فى فصول هذا المؤلف التتالية..

وإن كان ذلك لا يمنعننا من ملاحظة أن كل ما قيل من تفســيرات للرموز ســار جميعه – أول الأمر – فى اتجاه واحد، هو التفسير الدينى دون سواه من التفسيرات الأخرى التى

يحتملهـا النص، ومـن ثم رتبوا ما رتبوا من نتائج أصبـح تداولها يجرى على أنه الحقيقة الموضوعيـة الوحيدة التـى تحكم كل مايتصـل بالرواية، متجاهلين أننـا بصدد عمل فنى إبداعى، وأننا لسـنا بصدد أحد الكتب البحثية، أو المؤلفات الدراسـية، وأن الأمر أبعد ما يكون عن أن يمس العقيدة، أو يحمل أى عدوان على المقدسات..!!

ولكـن الواقـع أن هذا كان مسـار الأمور لفترة طويلة، ولم تنفـرج الأمور إلا بعد أن ودع «الراوى» حياتنا الدنيا، وصعد إلى بارئه، تاركا أعماله وسائر نتاج قلمه أمانة بين أيدى بنى وطنه وغيرهم من محبىّ الفن، وهواة الأدب، والدارسين فى إخلاص لمختلف صور الإبداع.

* * *

٤ - هل كانت «أولاد حارتنا» سببا فى فوز «نجيب» بجائزة «نوبل»؟

وقد أشاع بعض المغرضين عقب فوز «نجيب محفوظ» فى عام ١٩٨٨م بجائزة «نوبل» أنه إنما منحها لأنه ألف رواية «أولاد حارتنا» – وهى رواية يرى هؤلاء المغرضون أنها تهاجم «الدين»، وتمس «العقيدة» – كما هو دأب الغرب فى إعلاء شأن الخارجين من المسلمين.

وقد ردّد كثيرون هذه الشائعة، وراحوا ينشرونها، ويؤكدون ذلك، بل وادعوا أن هذا ما قالته اللجنة التى منحت «نجيبا» الجائزة..

وسـوف نورد فيما بعد نص تقرير «لجنة نوبل» كاملا بما ينفى صحة هذا الادعاء، لأن جائزة نوبل منحت «لنجيب» على تفوقه فى جملة أعماله الروائية.. وليس من شك فى أن «أولاد حارتنا» كانت من بين الأعمال المتميزة «لنجيب محفوظ».

وقد تناول الأسـتاذ «محمد سلماوى» – الكاتب المعروف – هذا الموضوع، وتحدث عنه حديثـا مطولا فى كتابه: «نجيب محفوظ: المحطـة الأخيرة – ٢٠٠٧م، ص ٥٢، ٥٣» حيث ذكر ما نقله عنه:

سـألنى مذيع إحدى القنـوات الفضائية عن «أولاد حارتنا» وهل كانت سـببا فى فوز **«نجيب محفوظ بجائزة نوبل»**...!

- قلت: «من الذى قال ذلك؟»
- قال: «ذلك أمر معروف»
- قلت: «ذلك شـئ مغلوط ولا يصح أن تردده دون معرفة. أولا: جائزة نوبل لا تُعطى

لعمـــل، بل لكاتب.. هناك جوائـــز تعطى لعمل بعينه، مثل جائـــزة (بوكر) البريطانية أو جائزه (بوليتزر) الأمريكية، لكن ليست جائزة نوبل كذلك، ولو أنها تُمنح لعمل بعينه لفاز بها بعض الكُتاب الشباب إذا قدّموا عملا أدبيا جيدا، لكنها لا تعطى إلا للكبار لأنها تعطى للتأثير الذى تركوه على الوجدان الإنســانى على مدى ســنوات، والذى لا يمكن أن يقتصر على رواية واحدة. ثم إن حيثيات منح «محفوظ» جائزة نوبل موجودة ومنشورة، وليس بها ما يقول إنه حصل عليها بسبب رواية واحدة هى «أولاد حارتنا» فقد ذكرت الحيثيات أهم أعمــال أديبنا الأكبر، فذكرت «أولاد حارتنا»، كما ذكرت «الثلاثية» وغيرهما من روائعه، فلماذا القول إنه لم يحصل على نوبل إلا بسبب «أولاد حارتنا»؟..»

«وقبل أن يجيب المذيع الشاب على سؤالى الاستنكارى، سألته سؤالا آخر: هل تعرف فى أى ســنة نشــرت «أولاد حارتنا»؟ لم يرد قلت: «نشرت سنة ١٩٥٩م، وحصل الأستاذ على نوبل عام ١٩٨٨م أى بعد ثلاثين سنة.

«هل لو كانت نوبل ســتمنح إليه بســبب هذه الرواية كانت ستجئ بعد ثلاثة عقود من الزمان؟!».

وكان فـــى هـــذا الجواب خير دليل على كـــذب هذه المقولة، وابتعادهـــا عن الحقيقة، ومخالفتهـــا للواقع وقيامها على ادعاءات كاذبة.. وكما أشـــرنا فســـوف نـــورد نص تقرير «لجنة نوبل» فى موضع تال.

ثانيا: عن الراوى:

١- السمات الشخصية:

• يصفه «رجاء النقاش» فى كتابه «فى حب نجيب محفوظ» بأنه:

رجل متوسط الطول، نحيف جدا، يعانى من مرض السكر، وضعف السمع.. ولكن قلبه ملـــئ بنور الحب وذكاء المعرفة وقوة النبوغ.. وهو شـــديد التواضع، صاحب نفس قوية لا تعرف الجزع الشديد، ولا تعترف بالأفراح الصاخبة، ولكنها نفس تعرف المواجهة الدافئة القويـــة لكل الأفراح والأحـــزان. ينظر إلى الأمام، فإذا وجد فى طريقة طوبة انحنى وحملها بيديه وألقى بها فى هدوء إلى جانب الرصيف حتى لا تعوق مســيرته أو مســيرة الآخرين. يحبه الجميع، ولايعرف فى قاموســـه كلمة الكره، يلبس ملابس نظيفة، ولكنها غاية فى

البســاطة، ويرفض طيلة حياته أن يقيد نفسه بأى رباط عنق، كان أمامه أن يكون صاحب جــاه ومنصــب ومال، ولكنه آثر على الدوام أن يكون صاحب قلب وقلم، ورضى بأن تكون ثروته هى الســتر، واحتفظ بإبتســامة الرضا على شفتيه ودفء المشــاعر فى قلبه. («رجاء النقاش» – فى حب «نجيب محفوظ» – ط ٢ ص ١٥).

هذا الرجل – بهذه الســمات، هو «نجيب محفوظ»، صاحب هذه الرواية وغيرها من الروايات والقصص – التى صورت الحياة فى مصر أبدع وأعمق تصوير فى مســتوى متصل الرفعة، لم يتدن فى أى مؤلف من مؤلفاته.

٢ - مسار حياته:

كان مولد «نجيب محفوظ» فى يوم الإثنين الموافق الحادى عشر من ديسمبر عام ١٩١١م ولد «نجيب محفوظ»، وسمى على اســم الطبيب المشــهور: الدكتور «نجيب محفوظ» الذى تمت ولادة «نجيب محفوظ» المتعثرة على يديه فى بيت قديم يقع فى ميدان بيت القاضى بحىّ الجمالية بالقاهرة بجوار مسجد الحسين، واسم والده: «عبد العزيز أحمد باشا».

ومــن حى الجماليــة أخذ أسماء كثير مــن رواياته: خان الخليلى، زقــاق المدق، بين القصرين، قصر الشــوق، السكرية، وكل هذه الأسماء هى أسماء الحوارى المتلاصقة الطويلة الضيقة الدافئة فى حى الحسين.

ومــن حى الجمالية، أخــذ «نجيب محفوظ» فكرة «الحارة» التــى أصبحت عنده رمزا للمجتمع والعالم أى رمزا للحياة والبشر.

ومــن حى الجمالية أخذ شــخصية «الفتوة» التــى تظهر كثيرا فى أدبــه. والفتوة عند «نجيــب محفوظ» هو رمز للســلطة فى كل وجوهها وتقلباتهــا المختلفة بين العدل والظلم، بين الســماحة وضيق الأفق، بين العنف والاعتدال والشهامة أحيانا وكسر رقاب الناس فى أحيان أخرى.. فعين «نجيب» لا تغفل عن استخدام هذه التفاصيل التى أصبحت جزءا لا يتجزأ من أدبه، والتى عرفها وأحبها منذ نشأته الأولى فى حى الحسين. («رجاء النقاش» – المرجع المذكور – ص ١٧، ١٨).

وفى عام ١٩٢٠م انتقلت الأســرة إلى حى العباســية الغربى الذى كانت تقطنه عائلات الطبقة المتوســطة. وكان «لنجيب» أخوان: «محمد» الذى كان ضابطا بالجيش. و«إبراهيم» الذى عنى بتدريس الرياضيات.. وكانت له أخوات أربع تزوجن وتركن منزل الأسرة وكان «نجيب» الأصغر إذ يفصل بينه وبين أصغر الأخوين خمسة عشر عامًا.

قضى «محفوظ» عدة أعوام فى الكتاب ثم التحق سنة ١٩٢٠م بمدرسة خليل أغا ثم مدرسة فؤاد الأول الثانوية.. وبعد حصوله على البكالوريا – القسم الأدبى التحق بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد) واختار قسم الفلسفة دون غيره من الأقسام.. وعقب تخرجه حصل على وظيفة فى إدارة الجامعة دامت أربع سنوات وفى خلال تلك السنوات أنتج رواياته الأولى: عبث الأقدار، رادوبيس، كفاح طيبة. ومن إدارة الجامعة نقله أستاذه «مصطفى عبد الرازق» إلى وزارة الأوقاف «سكرتيرا برلمانيا» حين عين وزيرا للأوقاف.. وعمل «محفوظ» بهذه الوزارة لمدة خمسة عشر عاما تقلد فيها مناصب مختلفة فى الوزارة.. ثم نقل إلى «مصلحة الفنون» مديرا لمكتب رئيسها الأديب «يحيى حقى».. ثم عين مديرا للرقابة على المصنفات الفنية، ثم شغل منصب رئيس صندوق دعم السينما ثم تركه ليعمل مستشارا للوزير إلى أن بلغ سن التقاعد فى عام ١٩٧١م

وظل يواصل الكتابة فى الأهرام – وإصداراته – حتى وفاته بتاريخ ٣٠ أغسطس ٢٠٠٦م.

٣- أحداث هامة:

• سوف نكتفى بأهم تلك الأحداث:

من أهمها تتلمذ على يد الشيخ «مصطفى عبد الرازق» فى قسم الفلسفة، ثم صداقته للأستاذ: «سلامة موسى» بأفكاره المتقدمة، وتشجيعه له.. فأولهما كان له أثره فى تكوينه الفكرى والخلقى، بل وربما الطبعى.. وثانيهما هو الذى شجعه على الكتابة، ونشر له بعض إنتاجه، وربما كان له أثره فى اتجاهه القصصى..

ومن أهمها حصوله منذ مبتدأ حياته على العديد من الجوائز، ما بين جوائز أهلية وأخرى رسمية. وهى جوائز وإن كانت قيمتها ضئيلة إلا أنها كان لها أثر كبير فى رفع المعنويات والشعور بأن أعماله تلقى القبول والتقدير.. وكان آخرها حصوله على جائزة الدولة التقديرية. ثم حصوله على أعلى وسام فى الدولة على أثر حصوله على جائزة نوبل.

ومنها أيضا تعرفه على من شكلوا فيما بعد «لجنة النشر للجامعيين» فقد كانوا جميعهم من الأدباء الموهوبين الذين ساهموا فى بناء – بل وضع أساس – النهضة الأدبية المعاصرة...

ومنهـا أيضًا لقاؤه مع الأديب الكبير «إبراهيـم عبد القادر المازنى» الذى طلب أن يلقاه بعـد ظهور روايته «زقـاق المدق» فقد أبدى له إعجابه بفنه الروائى، ونصحه بألا يغرق فى الواقعية، بل يخفف منها ويختار..

ومنهـا تعرفـه على شـلة الحرافيش الذيـن كان يصاحبهم ويصحبهم فـى العديد من السـهرات والجلسـات التى لم يكن يدور فيها سـوى أحاديث الفن والأدب والحياة بكل صورها.. بما يفتح العقول، ويوسّع من آفاق الفكر.

ومنها - بل أهمها - حصوله على جائزة نوبل العالمية التى أقرت بلوغه درجة العالمية وفتحت الطريق له - وأمامه - لترجمة العديد من رواياته إلى مختلف لغات العالم.. ولعل الأدق أن نقـول إنها زادت حركة ترجمة مؤلفاته، لأنـه كانت له مؤلفات عديدة مترجمة من قبل.. وإلا فكيف حصل على تلك الجائزة؟ ونذكر أن إعلان حصوله على تلك الجائزة كان بتاريخ ١٣ أكتوبر ١٩٨٨م.

ومن أهم تلك الأحداث تعرض «نجيب محفوظ» لعدوان آثم كان يهدف إلى اغتياله لكن شاءت العناية الإلهية أن يخرج من هذا العدوان بعدد من الجراح، والمتاعب الجسدية دون أن يتحقق الهدف الرئيسى من ذلك العدوان الآثم الذى وقع يوم ١٤ أكتوبر عام ١٩٩٤م.

وتعرض «نجيب محفوظ» لخصومات عديدة، ولكنه كان يلقاها جميعا بسماحته الكبيرة، وانصرافه إلى أعماله وإنتاجه الذى استمر منتظما حتى فترة متقدمة من عمره، بل إنه يمكن القول إنه استمر فى العطاء حتى المرحلة الأخيرة من حياته.

٤ - كلمة ختامية عن الراوى:

لم تكن رواية «أولاد حارتنا» هى الوحيدة من بين روايات «نجيب محفوظ» التى قامت علـى الرمز، ففى الكثير من رواياته كان يعمد إلى الرمز، حتى ليحرص نقاده على محاولة فكّ رموز تلك الروايات فمن يكون «سـى السـيد» فى الثلاثيـة، ومن يكون «كمال».. ومن تكون شـخصيات «ميرامار» وكذلك شخصيات «ثرثرة فوق النيل» وهكذا.. فهو يستغرق مع رمـوزه، ويضفـى عليها من مظاهر الحيوية والحياة ما يجعلها شـخصيات معروفة لدينا، ويهمنا فى المقام الأول أن نتعرف إليها وإلى حقيقتها.. فقد أوتى من المقدرة على التصوير، وإبراز الملامح، ما يجعل كل شخصية لها ميزاتها وطباعها وأخلاقياتها وسماتها وتفكيرها حتى لكأننا نعاشر أشخاصا نعرفهم..

كما أوتى من المقدرة على التعمق ليس فقط فى الأشخاص بل فى الأحداث، بما يضفى عليها سمة الواقع، ولكنه ليس الواقع المعتاد، بل الذى يوحى بأفكار، وفلسفات، وأهداف يلمســها كل من يقرأ «نجيب محفوظ» فيحســن قراءته، ويجهد نفســه للوصول إلى مراميه والوقوف على أفكاره..

و«نجيب محفوظ» طرق - فى الواقع - نواح عديدة من نواحى الحياة الواقعية، بما فيها من شــئون سياسية، وعلاقات اجتماعية، إنســانية، وتطورات اقتصادية. وأوضاع حياتية حتى ليخيل إلى قارئه أنه قد أحاط بكل النواحى، ولم يترك إحداها إلا تناولها بكتاباته.

و«نجيــب» وإن كان واقعيــا يخيل إلى قارئه أنه إنما ينقــل عن الواقع الملموس، إلا أن الحقيقة - لمن يتأمل كتابات محفوظ - تتكتشــف عن أن الاختيار ســواء للشــخصية أو للحدث أو للفكرة، أو لمضمون الرمز، لم يكن بالأمر اليسير، بل كان يمرّ بمراحل عديدة.. تزيد كل مرحلة منها عما سبقها عمقا وعروجا إلى اليمين أواليسار ليحيط بكل ما هو متصل أو مرتبط من قريب أو من بعيد بتلك الفكرة أو بذلك الهدف.

وعندما وقع اختيار لجنة نوبل عليه وترشيحه لجائزتها، فقد وقع على من كان جديرًا بها، حقيقا بنوالها، وجاءت تلك الجائزة تتويجا لإبداعاته، واعترافا بمكانته المتميزة فى عالم الرواية والقصة، والأدب.. ليس بين من يكتبون بالعربية بل وبين سواهم ممكن يكتبون بمختلف لغات العالم.

٥- تقرير لجنة نوبل:

• وقد نشرت الأهرام بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٩٨٨م تحت عنوان «وثيقة» ما يأتى:
النص الرسمى الكامل لحيثيات منح الجائزة.

وقد مهدت الجريدة للنشر بما يلى:

«طلب الأهرام من السكرتارية الدائمة للأكاديمية الملكية السويدية موافاته بالنص الرسمى الكامل لحيثيات منح جائزة نوبل فى الأدب لعام ١٩٨٨م للكاتب الكبير «نجيب محفوظ»، وفيما يلى نص الوثيقة».

وفقا لقرار الأكاديمية السويدية هذا العام منحت جائزة نوبل فى الأدب لأول مرة لمصرى هــو «نجيــب محفوظ» الذى ولد ويعيش فى القاهرة. وهو أيضــا أول فائز بجائزة نوبل فى الأدب ولغته الأم هى العربية.

وبالتأريخ «لمحفوظ» نجد أنه يكتب منذ حوالى خمسين عامًا، والآن وهو فى سن السابعة والسبعين مازال يواصل الإنتاج.

وإن الإنجاز العظيم والحاسم «لنجيب محفوظ» يتمثل فى الرواية والقصص القصيرة، وكان إنتاجه يعنى نقطة انطلاق عملاقة للرواية كفن أدبى. ونحو تطوير لغة الأدب فى الدوائر الثقافية للغة العربية. غير أن الذى كان أعظم من ذلك أن أعماله تتحدث إلينا جميعا.

تناولت بواكير رواياته الحقبة الفرعونية لمصر القديمة، بيد أن فيها بالفعل إيحاءات للمجتمع الحديث.

وقد جرت أحداث سلسلة رواياته التى صوَّرت البيئة الشعبية القاهرية فى العصر الحديث، وإلى هذه الروايات تنتمى «زقاق المدق» (١٩٤٧م) حيث يصبح الزقاق مسرحا يجمع حشدا متباينا من الشخوص يشدهم الحديث عن واقعية نفسية. والحقيقة أن «محفوظ» حفر اسمه بالثلاثية الكبرى (٥٦ - ١٩٥٧م) التى تناول فيها أحوال وتقلبات أسرة مصرية منذ نهاية العقد الأول من هذا القرن وحتى منتصف الأربعينيات. وهناك عناصر ذاتية فى هذه الثلاثية. ويرتبط تصوير الأشخاص بوضوح بالظروف الفكرية والاجتماعية والسياسية. ومن خلال مجمل كتابات «محفوظ» فقد أثَّر تأثيرا كبيرا فى أدب بلاده الوطنى.

وموضوع الرواية غير العادية «أولاد حارتنا» (١٩٥٩م) هو البحث الأزلى للإنسان عن القيم الروحية. «فآدم» و«حواء» و«موسى» و«عيسى» و«محمد» وغيرهم من الأنبياء والرسل بالإضافة إلى العالم المحدث يظهرون فى شقق طفيف.

«ثرثرة فوق النيل» (١٩٦٦م) ولم تترجم بعد إلى الإنجليزية هى نموذج لروايات «محفوظ» المؤثرة. فهنا تجرى محاورات ميتافيزيقية على حافة الحقيقة والوهم. وفى الوقت نفسه فإن النص يأخذ شكل تعليق على المناخ الفكرى فى البلاد.

ومحفوظ أيضا كاتب قصة قصيرة ممتاز.

• وقد قال «محفوظ» مؤخرا فى حديث له: «لو حدث أن تخلى عنى الدافع للكتابة فى أى يوم، فإننى أتمنى أن يكون هذا اليوم آخر أيام عمرى».

• وقد نشرت الأهرام إلى جانب هذا النص بيانا بالأعمال المترجمة حتى ذلك التاريخ:
إلى الإنجليزيـة: زقـاق المـدق (١٩٤٧م) – بدايـة ونهايـة (١٩٥١م) – أولاد حارتنا (١٩٥٩م) – اللص والكلاب (١٩٦١م) – السمان والخريف (١٩٦٢م) – دنيا الله (١٩٧٣م) – الطريق (١٩٦٤م) – الشحاذ (١٩٦٥م) – ميرامار (١٩٦٧م) – المرايا (١٩٧٢م) – أفراح القبة (١٩٨١م) – حضرة المحترم (١٩٧٥م).

إلى الفرنسية: زقاق المدق (١٩٤٧م) – بين القصرين (١٩٥٦م) – قصر الشوق (١٩٥٧م)

إلى الألمانيـة: زقاق المـدق (١٩٤٧م) – اللص والـكلاب (١٩٦١م) – ثرثرة فوق النيل (١٩٦٩م) – أولاد حارتنا (١٩٥٩م).

إلى السـويدية: زقـاق المـدق (١٩٤٧م) – ثرثرة فوق النيـل (١٩٦٦م) – بين القصرين (١٩٥٦م).

* * *

٦ - كلمة «نجيب محفوظ» عند تسلم الجائزة:

وإذ كان المفروض أن يسافر «نجيب محفوظ» إلى السويد ليتسلم شخصيا جائزة نوبل من «ملك السـويد» ويحضر احتفال العالم بفوزه بتلك الجائزة – إلا إنه لأسـباب خاصة اختار الأسـتاذ «محمد سـلماوى» – الكاتب والأديب المعروف – ممثلا شـخصيا له فى استلام تلك الجائزة.. غير أن الأديب «محمد سـلماوى» – وكما يذكر فى كتابه المشـار إليه فيما سلف – ص ٣٢ – أفلح فى إقناع الأديب الكبير بأن تصاحبه كريمتاه: «أم كلثوم وفاطمة» إلى السـويد فى هذه الاحتفالات ويذكر قوله: «وبينمـا ألقيت أنا خطاب أديبنا الأكبر فى الأكاديمية السويدية قامت «أم كلثوم» و«فاطمة» بتسلم الجائزة من يدى الملك».

هذا وقد حدثنى الأسـتاذ «محمد سـلماوى» أن الأسـتاذ «نجيب محفوظ» كتب كلمته باللغة العربية – وأوكل إلى الأستاذ «محمد سلماوى» مهمة ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية – على أن يلقى هذه الكلمة أولا باللغة العربية – ثم يلقيها ثانيا باللغة الإنجليزية.

وفيما يلى نص كلمة «نجيب محفوظ» التى ألقيت فى حفل تسليم الجائزة:

• نص الكلمة:

فـى البدء أشـكر الأكاديمية السـويدية ولجنة نوبـل التابعة لها علـى التفاتها الكريم لاجتهادى المثابرالطويل وأرجو أن تتقبلوا بسـعة صدر حديثى إليكم بلغة غير معروفة لدى الكثيرين منكم، ولكنها هى الفائز الحقيقى بالجائزة، فمن الواجب أن تسـبح أنغامها فى واحتكـم الحضارية لأول مرة. وإنى كبير الأمل ألا تكون المرة الأخيرة، وأن يسـعد الأدباء من قومى بالجلوس بكل جدارة بين أدبائكم العالميين الذين نشـروا أريج البهجة والحكمة فى دنيانا المليئة بالشجن.

سادتى:

أخبرنـى مندوب جريـدة أجنبية فى القاهرة بأن لحظة إعـلان اسمى مقرونا بالجائزة سـاد الصمت وتسـاءل كثيرون عمَّن أكون – فاسمحوا لى أن أقدم لكم نفسـى بالموضوعية التى تتيحها الطبيعة البشرية. أنا ابن حضارتين تزوجتا فى عصر من عصور التاريخ زواجا موفقا: **أولاهما:** عمرها سـبعة آلاف سـنة وهى الحضارة الفرعونية، **وثانيتهما:** عمرها ألف وأربعمائة سـنة وهى الحضارة الإسـلامية. ولعلىَّ لست فى حاجة إلى تعريف بأى من الحضارتين لأحد منكم، وأنتم من أهل الصفوة والعلم، ولكن لا بأس من التذكير ونحن فى مقام النجوى والتعارف.

وعن الحضـارة الفرعونية: لن أتحدث عن الغزوات وبنـاء الإمبراطوريات فقد أصبح ذلك من المفاخر البالية التى لا ترتاح لذكرها الضمائر الحديثة والحمد لله. ولن أتحدث عن اهتدائها لأول مرة إلى الله سـبحانه وتعالى وكشـفها عن فجر الضمير البشرى. فلذلك مجال طويل فضلا عن أنه لا يوجد بينكم من لم يلمّ بسـيرة الملك النبى إخناتون. بل لن أتحدث عن إنجازاتها فى الفن والأدب ومعجزاتها الشـهيرة: الأهرام وأبو الهول والكرنك. فمن لم يسـعده الحظ بمشـاهدة تلك الآثار فقد قرأ عنها وتأمّل صورها. دعونى أقدمها – الحضارة الفرعونيـة – بما يشـبه القصة طالمـا أن الظروف الخاصة بى قضت بـأن أكون قصاصا، فتفضلوا بسماع هذه الواقعة التاريخية المسجّلة. تقول أوراق البردى إن أحد الفراعنة قد نما إليه أن علاقة آثمة نشأت بين بعض نساء الحريم وبعض رجال الحاشية. وكان المتوقع أن يجهز على الجميع فلا يشـذ فى تصرفه عن مناخ زمانه. ولكنه دعا إلى حضرته نخبة من

رجـــال القانـــون. وطالبهم بالتحقيق فيما نما إلى علمه، وقـــال لهم إنه يريد الحقيقة ليحكم بالعدل. ذلك السلوك في رأيي أعظم من بناء إمبراطورية وتشييد الأهرامات وأدل على تفوق الحضـــارة من أى أبهـــة أو ثراء. وقد زالت الإمبراطورية وأمســـت خبرا من أخبار الماضي. وســـوف يتلاشـــى الأهرام ذات يوم ولكن الحقيقة والعدل ســـيبقيان مادام فى البشرية عقل يتطلع أو ضمير ينبض.

وعن **الحضارة الإسلامية**: فلن أحدثكم عن دعواتها إلى إقامة وحدة بشرية فى رحاب الخالق تنهض على الحرية والمســـاواة والتســـامح، ولا عن عظمة رسولها. فمن مفكريكم من كرَّمه كأعظم رجل فى تاريخ البشـــرية. ولا عن فتوحاتها التى غرست آلاف المآذن الداعية للعبـــادة والتقـــوى والخير على امتداد أرض مترامية ما بين مشـــارف الهند والصين وحدود فرنسا. ولا عن المؤاخاة التى تحققت فى حضنها بين الأديان والعناصر فى تسامح لم تعرفه الإنســـانية من قبل ولا من بعد. ولكنى ســـأقدمها فى موقف درامى – مؤثر – يلخص سمة من أبرز سماتها ففى إحدى معاركها الظافرة مع الدولة البيزنطية ردُت الأسرى فى مقابل عدد من كتب الفلســـفة والطـــب والرياضة من التراث الإغريقى العتيد. وهى شـــهادة قيمٌة للروح الإنسانى فى طموحه إلى العلم والمعرفة. رغم أن الطالب يعتنق دينا سماويا والمطلوب ثمرة حضارة وثنية.

قدر لى يا ســـادة أن أولد فى حضن هاتين الحضارتين. وأن أرضع لبانهما وأتغذى على آدابهما وفنونهما. ثم ارتويت من رحيق ثقافتكم الثرية الفاتنة. ومن وحى ذلك كله بالإضافة إلى شجونى الخاصة – ندُت عنىٌ كلمات. أسعدها الحظ باستحقاق تقدير أكاديميتكم الموقرة فتوجـــت اجتهادى بجائزة نوبل الكبرى. فالشـــكر أقدمه لها باسمى وباســـم البناة العظام الراحلين من مؤسسى الحضارتين.

سادتى:

لعلكم تتســـاءلون: هذا الرجل القادم من العالم الثالث كيف وجد من فراغ البال ما أتاح له أن يكتب القصص..؟

وهو تساؤل فى محلـه.. فأنا قادم من عالم ينوء تحت أثقال الديون حتى ليهدده سدادها بالمجاعة أو ما يقاربها. يهلك منه أقوام فى أسيا من الفيضانات. ويهلك آخرون فى أفريقيا مـــن المجاعة. وهناك فى جنـــوب أفريقيا ملايين المواطنين قضى عليهـــم بالنبذ والحرمان

من أى من حقوق الإنســان فى عصر حقوق الإنســان وكأنهم غير معدودين من البشر. وفى الضفة وغزة أقوام ضائعون رغم أنهم يعيشــون فوق أرضهم وأرض آبائهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم. هبُّوا يطالبون بأول مطلب حققه الإنسان البدائى وهو أن يكون لهم موضع مناسب يعترف لهم به. فكان جزاء هبتهم الباسلة النبيلة – رجالا ونساء وشبابا وأطفالا – تكسيرا للعظــام وقتلا بالرصاص وهدما للمنازل وتعذيبا فى الســجون والمعتقلات. ومن حولهم مائة وخمســون مليونا من العرب. يتابعون ما يحدث بغضب وأسى مما يهدد المنطقة بكارثة إن لم تتداركها حكمة الراغبين فى السلام الشامل العادل.

كيــف وجد الرجل القادم من العالم الثالث فراغ البال ليكتب قصصا؟ ولكن من حســن الحظ أن الفن كريم عطوف. وكما أنه يعايش الســعداء فإنه لا يتخلى عن التعســاء. ويهب كل فريق وسيلة مناسبة للتعبير عما يجيش به صدره.

وفى هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الحضارة لا يعقل ولا يقبل أن تتلاشى أنات البشر فى الفراغ. لا شــك أن الإنســانية قد بلغت على الأقل ســن الرشــد. وزماننا يبشر بالوفاق بين العمالقة ويتصدى العقل للقضاء على جميع عوامل الفناء والخراب. وكما ينشط العلماء لتطهير البيئة من التلوث الصناعى فعلى المثقفين أن ينشــطوا لتطهير البشــرية من التلوث الأخلاقــى. فمن حقنا وواجبنا أن نطالب القادة الكبار فى دول الحضارة كما نطالب رجال اقتصادهــا بوثبــة حقيقية تضعهم فى بــؤرة العصر. قديما كان كل قائــد يعمل لخير أمته وحدها معتبرا بقية الأمم خصوصا أو مواقع للاســتغلال. دونما أى اكتراث لقيمة غير قيمة التفوق والمجد الذاتى. وفى سبيل ذلك أهدرت أخلاق ومبادئ وقيم. وبرزت وسائــل غير لائقــة. وأزهقــت أرواح لا تحصى. فكان الكذب والمكر والغدر والقســوة من آيات الفطنة، ودلائــل العظمــة. اليوم يجب أن تتغــير الرؤية من جذورها. اليــوم يجب أن تقاس عظمة القائد المتحضر بمقدار شمول نظرته وشــعوره بمســئوليته نحو البشــرية جميعا. وما العالم المتقدم والثالث إلا أســرة واحدة. يتحمل كل إنســان مسئوليته نحوها بنسبة ما حصَّل من علم وحكمة وحضارة. ولعلى لا أتجاوز واجبى إذا قلت لهم باسم العالم الثالث: لا تكونوا متفرجين على مآســينا ولكــن عليكم أن تلعبوا فيها دورا نبيلا يناســب أقداركم. إنكم من موقع تفوقكم مســئولون عن أى انحراف يصيب أى نبات أو حيوان فضلا عن الإنســان فى أى ركن من أركان المعمورة. وقد ضقنا بالكلام وآن أوان العمل. آن الأوان لإلغاء عصر قطّاع

الطرق والمرابين. نحن فى عصر القادة المسئولين عن الكرة الأرضية. أنقذوا المستعبدين فى الجنوب الإفريقى. أنقذوا الجائعين فى إفريقيا. أنقذوا الفلسطينيين من الرصاص والعذاب بل أنقذوا الإسرائيليين من تلويث تراثهم الروحى العظيم. أنقذوا المديونين من قوانين الاقتصاد الجامدة. والفتوا أنظارهم إلى أن مسئوليتهم عن البشر يجب أن تقدم على التزامهم بقواعد علم لعل الزمن قد تجاوزه.

سادتى:

معذرة. أشعر بأنى كدرت شيئا من صفوكم ولكن ماذا تتوقعون من قادم من العالم الثالث. أليس أن كل إناء بما فيه ينضح؟

ثم أين تجد أنات البشر مكانا تتردد فيه إذا لم تجده فى واحتكم الحضارية التى غرسها مؤسسها العظيم لخدمة العلم والأدب والقيم الإنسانية الرفيعة؟ وكما فعل ذات يوم برصد ثروته للخير والعلم طلبا للمغفرة فنحن - أبناء العالم الثالث - نطالب القادرين المتحضرين باحتذاء مثاله واستيعاب سلوكه ورؤيته.

سادتى:

رغم كل ما يجرى حولنا فإننى ملتزم بالتفاؤل حتى النهاية. لا أقول مع الفيلسوف «كانت» إن الخير سينتصر فى العالم الآخر. فإنه يحرز نصرا كل يوم. بل لعل الشر أضعف مما نتصور بكثير. وأمامنا الدليل الذى لا يجحد. فلولا النصر الغالب للخير ما استطاعت شراذم من البشر الهائمة على وجهها عرضة للوحوش والحشرات والكوارث الطبيعية والأوبئة والخوف والأنانية. أقول لولا النصر الغالب للخير ما استطاعت البشرية أن تنمو وتتكاثر وتكون الأمم وتكتشف وتبدع وتخترع وتغزو الفضاء وتعلن حقوق الإنسان: غاية ما فى الأمر أن الشر عربيد ذو صخب ومرتفع الصوت وأن الإنسان يتذكر ما يؤلمه أكثر مما يسره. وقد صدق شاعرنا «أبو العلاء» عندما قال:

إن حزنا ساعة الموت أضعاف سرور ساعة الميلاد

سادتى:

- أكرر الشكر وأسألكم العفو.
- (أعيد نشر النص فى مجلة الثقافة الجديدة - ديسمبر ٢٠١٠م - «نجيب محفوظ» مائة سنة من الإبداع).

الفصل الثانى

أولاد حارتنا

«الرواية فى صفحات»

تمهيد:

ليس هذا تلخيصا للرواية، فهى رواية لا تقبل التلخيص، وأعتقد أن كل محاولة لتلخيصها سوف تبوء بالفشل، لأن الرواية وإن كانت تدور فى نطاق إحدى الحارات المصرية التى تقع قريبة من حىّ الحسين، إلا أنها فى الواقع تمتد بآفاقها لتشمل العالم بأسره، بكل ما يثور فيه من مشاكل، ومن صراعات، ثم إنها تمتد فى زمانها لتشمل تاريخ البشرية بكل عصورها وأزمنتها، كما أنها بأحداثها، وتواليها وتتابعها تتسع لكل ما عرفناه من واقع مادى، ومن أحداث جارية، ومن مواقع مشهورة، ثم إن الصراع يدور فيها ليس حول شئون الحياة وحدها، بل يشمل تاريخ الفكر الإنسانى منذ طفولته وعبر نزعاته المختلفة. رواية بهذا الامتداد والاتساع، ورحابة الأفق وضخامة ما تقوم عليه من أفكار.. يتعذر على الكاتب أن يعرض لها بالتلخيص، أو يحاول أن يعرض موجزا لها، أو عرضا لأحداثها. وبخاصة لأن وراء كل حدث فكرة، ولكل واقعة مغزى بعيدا، يتجاوز واقعه القريب بكثير.

والأكثر مدعاة إلى الدهشة فى هذه الرواية أنها تبدو بسيطة فى أحداثها، قريبة فيما تقدمه من أشخاص، سلسلة فيما تعرضه من توالى الأحداث، ولكن ما إن يطيل القارئ الفكر فيما تعنيه تلك الأحداث، وفيما يعبر عنه أولئك الأشخاص، وفيما ينطقون به من كلام أو يقومون به من تصرّفات وأفعال، حتى يدرك أنه بإزاء عالم آخر، رحب فسيح، وأن ما يقرأ من وقائع أو أحداث، ما هو إلا رمز لما وراءه من أفكار وآراء.

حتى إنه ليمكن القول إن هذه الرواية إنما تعبّر عن كل ما يمكن أن يقع من صراعات أو يدور من معارك سواء على المستوى الفردى أو الجماعى، الوطنى أو الدولى، المحلى أو العالمى.. كل تلك العوالم والمجالات تجد التعبير عنها فى رواية «أولاد حارتنا».

فكيف يمكن لنا إذن أن نعرض تلك الرواية فى صفحات؟

لقد استبعدنا فكرة التلخيص، وإن كان ذلك لن يمنعنا من أن نورد الأحداث الرئيسية، وأن نعرض للأشخاص الأساسيين – لأن ذلك هو قوام الرواية وعماد بنائها – ولكننا مع ذلك سوف نكتفى بإشارات موجزة للتعبير عن الحدث أو وصف الشخصية.

ومن هنا فإن ما نعرضه لا يعطى صورة كاملة للرواية، ولا ملخصا وافيا لأحداثها، ولا يرسم سمات شخصياتها، وإنما يكتفى فى كل ذلك بمجرد الإشارة، فيكتفى بالإيماء دون التفصيل، وبالتلميح دون التصريح.. حيث إن الهدف مما نختاره ونقدمه هو مجرد بيان الأعمدة التى تقوم عليها «الرواية»، وما تودّ أن تبسطه من أفكار، وتقدمه من رؤى وآراء، ليس بالنسبة للحارة المصرية أو للواقع المصرى فحسب، بل بالنسبة للبشرية جمعاء.

ويهمنى مصارحتكم بأن تلك كانت مهمة فى غاية الصعوبة، ومنتهى المشقة وبخاصة وأن المدقق فى الرواية يجد أن كلماتها قد وزنت بميزان الذهب، فليس فيها وصف زائد، ولا لفظ يعتبر حشوا أو تكرارا لمعنى سابق، وكذلك أحداثها رُويت فى دقة وتتابعت فى سلاسة وإتقان، ونمت نموا طبيعيا وتصاعدت فى مسارها تصاعدا طبيعيا منطقيا، وكأنها الواقع الحقيقى بعد أن أعيدت صياغته على نحو نقّاه من الزوائد، وطهّره من كل ما قد يبدو منافيا لما كان يجب أن يمضى به المسار.

سأمضى مع الأحداث ومع الأشخاص مستعرضا كل ما وقع وكل ما قيل، دون إضافة من قبلى، أو تعليق أو تحليل منىّ أو من سواى فى محاولة صادقة لبيان صورة كاملة عما أراد المؤلف قوله، وعما عمد إلى روايته وبسطه.. وسوف أجيز لنفسى بعد هذه المرحلة أن أعرض بالتفسير أو بالتحليل سواء لما ورد فى الرواية – مما عرضنا على القارئ – أو مما ورد على ألسنة الآخرين مما سنطرحه بالتفصيل.

وكل ما نأمل الوصول إليه، هو أن نعطى القارئ صورة عن هذه الرواية وعن الأحداث التى صاحبت ظهورها، ولاحقت مؤلفها بالدفاع عنه حينا، وبالهجوم عليه فى كثير من الأحيان.. ولعلنا أن نوفق إلى أن نقدم الصورة الصادقة وأن نكشف عن الحقيقة الدفينة – ما واتانا الجهد، وحالفنا التوفيق..

وفى عرضنا لأحداث الرواية سوف نلتزم نفس الترتيب الذى التزمه المؤلف فى كتابة روايته..

وقد سار الكاتب فى روايته منتهجا المنهج التالى:

• افتتاحيه – «أدهم» – «جبل» – «رفاعة« – «قاسم» – «عرفة».

وكما ذكرنا فسوف نلتزم فى عرضنا للرواية بذات الترتيب، وإن كنا نودّ أن نؤكد أن ما سوف نقدمه لن يرقى إلى مستوى الأصل بحال من الأحوال، بل إن كل مهمته هو أن يغرى من لم يسبق له قراءتها بالمبادرة إليها، يطالعها فى متعة، كما تدعو كل من سبقت له قراءتها أن يعاود قراءة الأصل، والحياة فى رحابه.. بما تحققه من متعة روحية، ونشاط فكرى، يدفعه إلى أعمق أعماق الحياة.

* * *

الافتتاحية:

الرواية – وإن رويت على لسان الغائب – إلا أن «الافتتاحية» وردت على لسان من يذكر أنه كاتبها.. ويقدم لذلك بقوله إنه شهد العهد الأخير من حياة «حارتنا» وعاصر الأحداث التى دفع بها إلى الوجود «عرفة» ابن «حارتنا» البار، وأنه إلى أحد أصحاب «عرفة» يرجع الفضل فى تسجيل حكايات حارتنا على يدىْ الراوى الذى كان من القلة التى تعرف الكتابة. وقد نشط إلى تنفيذ الفكرة اقتناعا بوجاهتها من ناحية، وحبا فيمن اقترحها من ناحية أخرى.

ويقدّم الراوى الحارة بأن على رأسها البيت الكبير: بيت جدنا، جميعنا من صلبه ونحن مستحقو أوقافه. فلماذا نجوع؟ وكيف نضام؟.. ويذكر عن الجد قوله: «وجدنا هذا لغز من الألغاز، عمّر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب المثل بطول عمره، واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد، فلم يره منذ اعتزاله أحد.. كان يدعى «الجبلاوى»، وباسمه سميت حارتنا، وهو صاحب أوقافها، وكل قائم فوق أرضها. يقال عنه إنه هو أصل حارتنا، وحارتنا أصل مصر أم الدنيا».

ثم تسأل: أليس من الغريب أن يختفى هو فى هذا البيت الكبير المغلق وأن نعيش نحن فى التراب؟!.. على أن أحدا لم يره منذ اعتزاله، ولم يكن هذا بذى بال عند أكثر الناس، فلم يهتموا منذ بادئ الأمر إلا بأوقافه وبشروطه العشرة التى كثر القيل والقال عنها..

«ومـن هنا ولد النزاع فى حارتنا منذ وُلدت، ومضى خطره يسـتفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم والغد، ولذلك فليس أدعى إلى السخرية من الإشارة إلى صلة القربى التى تجمع بين أبناء حارتنا».

وتختم الافتتاحية بقوله أنه سـوف يكتب عـن «حارتنا العجيبة» كيف وجدت؟ وماذا كان من أمرها؟ ومن هم أولاد حارتنا؟ بادئا حديثه – بلسان الغائب – عن «الجبلاوى»..!

(١)
أدهـــم

«الجبـلاوى» هو صاحب «البيت الكبير» وأب لكل من فيه من رجال ونسـاء، وله فى البيـت أكثر من زوجة، وكما أنه هو صاحب البيت فهو صاحب «الوقف» والمتصرف فيه، هو فى بيته كالأسطورة يتصرف كما يشاء، ويصدر أوامره دون مشورة من أحد، فهو صاحب السلطة العليا، والكلمة المطاعة.

دعا ذات يوم أولاده الرجال، ليعلن إليهم أنه آن له أن يعهد بإدارة الوقف إلى أحدهم، وقـد اختار لتلك المهمة أصغرهم وهو «أدهم»، فما كان من أكبر أولاده وهو «إدريس» إلا أن نهض يبدى اعتراضه، وأنه الأحق بذلك، وقد صدَّه أبوه، ولم يول اعتراضاته أى اهتمام، غـير أن «إدريس» أصر علـى موقفه، وعلى أنه هو الأحق، فما كان من «الجبلاوى» إلا أن طـرده خارج «البيـت الكبير» إلى الصحراء أو الخلاء دون أن يعـدل عن قراره. فكان ذلك درسا لسائر الأبناء بالنزول على ما يراه السيد الأكبر، فليس لأحد أن يناقشه، وهو صاحب الكلمة الأولى والأخيرة بلا معقب عليها.

خرج «إدريس» إلى حياة التشـرد والشـقاء ليعيش فى حرمان متصل، إلى أن لحقت به إحدى نساء البيت جاءته مطرودة حيث ظهرت عليها علامات الحمل الذى كان «إدريس» قـد أودعها «نطفته» تلقاها غـير مرحب بها، ولكنه – مع ذلك – أتاح لها أن ترافقه فى حياة الشقاء التى يحياها..

* * *

أمـا «أدهم» فقـد كان يقضى معظم وقته فى الحديقة، يعيش فى حلم متصل، ينفخ فى الناى، سعيدا برفقة الطير، وتفتُّح الأزهار، متفيئا خلال ما يملأ الحديقة من أشجار.. إلى أن أحس ذات يوم بنصفه الآخر ينشـق عنه ظله الذى كان يتبعه عند سـيره.. وكانت تلك هى «أميمة» التى ارتاح إليها، وسـعد بها، وأذن له أبوه فى الزواج منها، فكان فى ذلك تمام سعده، واكتمال نشوته..

غير أن «أدهم» إذ تصل إليه أنباء «إدريس» السـيئة، فإن نفسـه تتقطّع حسـرات، ثم يضيـق بعجـزه عن أن يمدّله يد العون، وأنه لا يملك سـوى أن يرثى لحاله.. إلى أن وجد «إدريس» – ذات يوم – أمامه، دخل عليه متسـللا ضمن طابور مسـتأجرى الأحكار إذ كان يقف فى نهاية الطابور فما إن يسـمع أخوه اسمه حتى يفاجئه ولكنه يلقاه شـخصا آخـر أكثـر هدوءا، وبعدا عن العنف والشراسـة، ويتبادل الأخـوان رقيق العواطف إلى أن يصـارح «إدريـس» أخاه بمقصده الحقيقى، وهو أن يتسـلل «أدهم» إلى مخدع أبيه – فى غيبته، ويسمح لنفسه بأن يتلصص على ما ضمنُه أبوه حجة الوقف من مصير خطّه فحددّه «لإدريس»، وهل قرر حرمانه من كل شـئ.. ففى وقوفه على حقيقة الأمر راحة له.. وراح يغريه بأنه بذلك يخفّف عن أخيه، دون أن يكون قد ارتكب ما يلام عليه؛ إلا أن «أدهم» يبدو مترددا، ويودّع «إدريس» دون أن يعده بأن يحقق له طلبه..!

غـير أن «أميمة» ماتزال «بأدهم» تغريه بأن يسـتجيب لما طلبه منه «إدريس» حتى يخضع آخر الأمر، فيتسـلل فى الفجر – بعد خروج أبيه إلى الحديقة – ولكنه ما إن يصـل إلى مكان الصندوق حتى يفاجأ بأبيه على رأسـه، فتكـون بذلك نهايته، حيث يخرج هو وزوجه مطرودين من «البيت الكبير» – ليتلقاهما «إدريس» شـامتا سـاخرا، ولكنـه كان المصـير المحتوم طرد «أدهم» من البيت لعصيانه أمر أبيه ومحاولته الوقوف على ما يحجبه من أسرار..

ولا يجد «أدهم» أمامه سوى حياة الخلاء والشقاء فاستبدل بالبيت الكبير كوخا حقيرا، وبالحيـاة الناعمة أخرى شـقية لا ينال فيها طعامه وطعام زوجه إلا بشـق النفس، وفائق الجهد، فضلا عن تجرّعه سـخرية وشماتة «إدريس».. ولكن حياة الشقاء والحرمان تمضى

ويعقب «إدريس» «هند» ويرزق «أدهم» بـ «قدرى وهمّام» اللذين يسعيان فى الحياة راعيين للأغنــام. وإن كان كلاهمــا نقيضا للآخر فى الأخلاق والطباع، فبقدر ما كان «قدرى» عنيفا وقاسيا لا تهمه سوى نفسه وتطلعاته، كان «همّام» هادئ النفس، يتميز بالقناعة والرضى. وكبرت «هند» وازدادت ملاحة، فكان أن اتصلت أسبابها فى خفية بأسباب «قدرى» على مرأى ومسمع من «همَّام» ودون علم من «إدريس» أو شقيقه.

وذات يوم ينفتح باب «البيت الكبير»، ليشاهد «أدهم» و«إدريس» «عم كريم» – حارس البيت – خارجا منه وقاصدا كوخيهما، فيتنبه الجميع ويتلهفون على معرفة مقصده الذى لم يكن سوى كوخ «أدهم»، ليبلغ رسالة محددة: أن سيده يطلب حضور «همَّام» إليه..!

ويثــير الطلــب غير المتوقع مشــاعر عديــدة اختلطت فيها الغيرة بالحســد، ولم يترك «إدريس» ابن أخيه يتجه وحده، بل حرص على أن يصحبه كما تصحبهما «هند»، وينفتح بــاب البيت الكبير ليؤذن «لهمّــام» وحده بالدخول، وحينما يهم الآخــرون بأن يتبعوه.. يتقدمهــم «قدرى» و«هند».. فهنا يعلو الصوت المعــروف يقول فى صرامة: «إذهبا بعاركما أيها الملوثان».. ويغلق الباب على «همَّام» وحده الذى يســتقبله الجد الكبير.. ليخبره بأنه قد اختاره دون ســواه لإدارة الوقف والعيش فى «البيــت الكبير» وحينما حاول «همَّام» أن يتشفع لأبويه يردّه الجد فى صرامة، ويطلب إليه أن يعود إليهما ليخبرهما ثم يعود. ولكن رحلــة الرجــوع لا تنتهى إلى خير، إذ تراءى «لهمَّام» ألا يعود – رغم أن أبويه كانا يلحّان عليه فى العودة، وانطلق مع أخيه إلى ما كانا عليه من رعى الأغنام. غير أن روح الشر التى تتملــك «قــدرى» ثارت به فقتل أخاه – «همَّاما» – مما كان له بالغ الآثر لدى الأبوين وفى حياة الأســرة جميعها.. وتمضى الأيام ســيئة بالجميع إلى أن يدرك الموت «أدهم»، ويأتيه – وهو فى ســكرات الموت – أبوه «الجبلاوى» ليطمئنه إلى أن الوقف ســيكون لذريته، وأن عليه ألاّ يجهد نفســه، بل يركن إلى النوم.. وبذلك ودع «أدهم» الحياة وهو راض، لتلحق بــه «أميمة»، ثم «إدريس».. ويمضى زمان يعود بعده «قدرى» ومعه «هند» وأطفال كثيرون، وينشــر العمران بفضل أموال الوقف، وبفضلها أيضا ارتســمت صفحة الوجود فى «حارتنا» – و«من هؤلاء وأولئك جاء أبناء حارتنا»..!

* * *

(٢)
جبـــل

وحارتنــا: «حــارة الجبلاوى» أطول حارة فى المنطقة.. ولــن تتم الصورة إلا بذكر بيت ناظر الوقف على رأس الصف الأيمن من المســاكن، وبيت الفتوة على رأس الصف الأيســر قبالتــه. وكان «البيت الكبــير» قد أغلق أبوابه على صاحبه وخدمــه المقربين. ومات أبناء «الجبلاوى» مبكرين، فلم يبق من سلالة الذين أقاموا وماتوا فى البيت الكبير إلا «الأفندى» ناظـر الوقف فى ذلك الوقت. أما عامة أهل الحارة، فمنهم البائع الجوال، ومنهم صاحب الدكان أو القهوة وكثيرون منهم متسولون. وكان طابع حارتنا الزحام والضجيج – والأطفال حفاة، بل وأشــباه عرايا.. وتكتظ مداخل البيوت بالنســاء.. يتبادلن الأحاديث والنكات، وعند الضرورة الشتائم والسباب. وما إن يجد شاب فى نفسه جرأة أو فى عضلاته قوة حتى يندفع إلى التحرش بالآمنين والاعتداء على المسالمين فيفرض نفسه فتوة على حىّ من أحياء الحارة، يأخذ الإتاوات، ويعيش ولا عمل له إلا الفتونة. وكان «زقلط» أحد هؤلاء الفتوات، فخاض معارك كثيرة مع فتوة بعد فتوة حتى هزم الجميع، وصار فتوة الحارة كلها، وفرض الإتــاوات علــى الفتوات جميعا، ورأى «الأفندى» «ناظر» الوقــف أنه بحاجة إلى مثل هذا الرجــل ليكــون أداته فى تنفيــذ أوامره، وفى أن يدفع عنه ما قد يتهدده من شــرّ، فقرَّبه ورتــب له راتبا من ريع الوقف، فأقام «زقلط» فى بيته المقابل لبيت «الناظر». واســتحكم ســلطانه.. وكان «الجبلاوى» قد وعد «أدهم» بأن يكون الوقف لخير ذريته وشيدت بالفعل الربــوع، ووزعــت الخيرات. وحظى الناس بفترة من العيش الســعيد. إلا أنه بعد ما أغلق الجد بابه، واعتزل الدنيا احتذى «الناظر» مثاله الطيب حينا، ثم لعب الطمع بقلبه، فعمدا إلى الاســتئثار بالريع.. أما شــعراء المقاهى المنتشرة فى حارتنا فقد ظلوا لا يروون إلا عهود البطولات متجنبين الجهر بما يحرج مراكز الســادة، بل وكانــوا يتغنون بفضائل «الناظر» والفتوات، بينما أهل الحارة لا ينالون من خيرات الوقف ســوى الحسرات، ولا يلقون من الفتوات شيئا غير الأذى والإهانات، ونحن صابرون نتطلع إلى مستقبل لا ندرى متى يجئ حينما نمضى إلى البيت الكبير، لنلتقى بالجدّ المنقطع عنا دون أن يتيح لنا رؤيا أو لقاء.

وكانت الحارة التى تلى بيت «الناظر» هى حارة «آل حمدان».. أكبر الحوارى وأجلها، وأهلها من سلالة «أدهم» ولكنهم لا ينالون شيئا من خيرات الوقف و«حمدان» صاحب المقهى الكبير يقول فى صراحة: «آل حمدان» ضاع حقهم، ضاق بهم الحال، يعيشون فى كرب وفقر.. وفكروا.. ماذا يفعلون - قال «حمدان» نلجأ إلى «الناظر» - وفكروا كيف يكون اللقاء، قال «حمدان» إنه لو ذهب وحيدا فقتله شئ يسير، ولكن قتل «آل حمدان» أمر لا يقدرون عليه. وكان أن تجمهر «آل حمدان» أمام بيت «الأفندى» و«الناظر». طرق «حمدان» الباب ففتح بعد قليل وفاجأهم البواب بسؤاله: ماذا تريدون؟ فكان الجواب: مقابلة «الناظر».. وخرج إليهم «الأفندى» بنفسه متجهم الوجه، بادى الغضب. ثم توجه بالسؤال إلى «حمدان» عمن يكون هؤلاء؟ فأجابه: «آل حمدان» يا حضرة «الناظر» ونحن أسرة واحدة: جميعنا أبناء «أدهم» و«أميمة».. وراح يشكوا إليه ما يعانون من كرب وسوء معاملة فهل يليق ذلك بأبناء «الجبلاوى» مستحقى وقفه؟! فما كان من «الناظر» إلا أن صاح فيهم بأن هذا وقف جده وليست لهم به صلة وما لديهم حجة.. ولم يضيع وقته فى مناقشاتهم، بل استجاب لما اقترحته زوجه «هدى هانم» من أن يدعهم ويدخل، ويتركهم ينعون حالهم ويستغيثون «بالجبلاوى» ألاّ يتركهم تحت رحمة من لارحمة لديهم.. ثم لم ينس أن يأمرهم بأن يخرجوا بلا تردد.. فلم يسع «حمدان» إلا أن يستجيب وهو يرفع رأسه.. ويصيح بقوة: يا «جبلاوى».

ولم يكن أمام «الأفندى» إلا أن يستعين «بزقلط» استجابة لطلب «هدى هانم» وإن كان قد تساءل: عما يكون أمر «جبل»، فقالت «الهانم» بثقة وطمأنينة: إنه ربيبنا، بل إنه لم يعرف من الدنيا إلا بيتنا. اطمئن من ناحيته..

....

وجاء «زقلط»، وأعلن أنه «سيدوس» أولئك المتردِّين بقدميه كالصراصير. وسمعه «جبل» وهو يدخل البهو.. وحيًا الجميع بأدب وجلس يتكلم عما أنجزه فى يومه من أعمال.. ولما سألته «الهانم» عن رأيه فيما حدث كان جوابه: سيدتى إنى ربيب نعمتك، ولكنى لا أدرى ماذا أقول، فلست إلا أحد أبناء «حمدان».. وإنكار الحقائق لا يغيرها. وقام «الأفندى» نافذ الصبر، وقام «زقلط» باسما، وإذا «بالهانم» تقول له: لا تجاوز المعقول يا معلم «زقلط»، نريد تأديبهم لا إبادتهم..

وكانت «هدى هانم» قد سـألت «جبل» عما إذا كان لديه ما يقوله، فلم يزد عن قوله: «الأمر منكم وإليكم يا سـيدتي».. فلما اسـتوضحته أكثر اضطر إلى أن يصرح بقوله: «إني ربيب نعمتك، ولكني.. لست إلا أحد أبناء حمدان».. واستمر النقاش، وتدخل «الأفندي» فيـه مؤنبا مكررا تحقيره «لآل حمدان»، مما اضطر «جبل» إلى أن يقول: «إننا أبناء «أدهم» ومازال جدّنا حيا أطال الله بقاءه..». لينهي «الأفندي» هذا الحوار بأمر حاسـم يوجهه إلى «جبل»: «إذهب إلى عملك ولا تفكر في سواه».. وغادر «جبل» البهو.. وقد أحزنه ما يدبر «لآل حمدان» من شـر.. أحزنه أكثر مما أسخطه سلوكهم الجريء، وكم ود أن يدفع عنهم الشـر لولا إشـفاق من إغضاب البيت الذي آواه، ورباه، وتبنّاه.. فمنذ عشـرين عاما رأت «الهانم» طفلا عاريا يسـتحم في حفرة مملوءة بمياه الأمطار.. فمال قلبها الذي حرقه العقم من نعمة الأمومة إليه. أرسـلت من حمله إليها وهو يبكي خائفا.. وهكذا نشـأ «جبل» في بيت «الناظر»، ينعم بأسـعد أمومة في الحارة وأدخل الكتاب فتعلمَّ القراءة والكتابة، ولما بلغ رشده ولاّه «الأفندي» ولاية الوقف.. وسار الناس يدعونه «حضرة الوكيل» وإن كان ذلك لم يمنع عنه تساؤله في حيرة: «وآل حمدان»؟

وما كان أسـرع ما اندفـع «زقلط» في عملية التأديب.. كانـت البداية مقهى «حمدان» حيث قصده، فملأ الجو شتائم وألفاظا سيئة أتبعها بتحطيم لكل شئ.. وانتهى إلى أن صاح بصوت كالرعد: «كل واحد يلزم بيته» فبادر إلى تنفيذ الأمر كل شـخص من «آل حمدان» أو من غيرهم.. ثم أتبع ذلك بأمر أخير «لا يغادر رجل من «آل حمدان» داره إلاّ ضرب».. وطلع النهار فلم يغادر الربوع رجل من «آل حمدان».

وكـم آلم ذلك «جبلا» وأشـقاه! وأحس برغبة قاهرة في الخلوّ بنفسـه التي زلزلها ما حاق «بـآل حمـدان»، وقد رأى أن جميع الأمور تجري في الحارة على سـنة الإرهاب.. فالحارة لم تعرف يوما الغذالة أو السلام.. منذ طرد «أدهم» و«أميمة» من البيت الكبير.. والظلم تشتد كثافة ظلماتـه.. فمضى إلى الخلاء لعل في الخلاء ما يسـكت الأصوات التي تثـيره وتعذّبه.. فحتى متى تسـكت يا «جبلاوي»؟ ورفع رأسه إلى السـماء فوجدها صامتة هادئة ناعسة. وفجأه سمع «جبل» صوتا غليظا يصيح من قريب أن استيقظ.. فنهض قائما.. ثم اتجه نحو صخرة «هند» إلى الجنوب فرأى رجلا يركض في رعب وآخر يطارده ويوشـك أن يلحق به. وأمعن النظر فعرف فـي الهارب «دعبس» وفي المطارد «قـدْرة» فتوّة حيّ «حمدان».. ومضى «جبل» يراقب المطاردة ومـا لبث «قدْرة» أن أدرك «دعبس»، فقبض بيده على منكبيه، وتوقف الإثنان عن العدو وصاح

«قدرْة» فى «دعبس»: كيف تجرؤ على مغادرة جحرك..؟ وراح «دعبس» يتملص من يد القابض عليه ويحاول أن يفلت من قبضته دون جدوى.. وحانت من «دعبس» نظرة نحو موقف «جبل» فاستنجد به، «قدْرة» يوجِّه إليه شتائمه ويهدده بأن لا مغيث له. وجد «جبل» نفسه يتقدم من المتصارعين، وطلب فى هدوء من «قدرْة» أن يترفق بالرجل.. استهان «قدْرة» بهذا الطلب وحدّج «جبلا» بنظرة باردة قائلا أنه يعرف ما ينبغى أن يفعله، وما دفع «دعبس» إلا «قدرْة» المحتوم، وراح يشد على منكبه حتى إن «دعبس» راح يئن أنينا مسموعا، فما زاد ذلك «قدرْة» إلاّ تهجما وعدوانا بل وانهال عليه ركلا وصفعا حتى انكفأ «دعبس» على وجهه ليبرك فوقه «قدْرة» يكيل له الضربات.. مما أدى إلى اشتعال الغضب فى دماء «جبل» فصاح «بقدرْة» يأمره بأن يتركه فما كان من «قدرْة» إلا أن كف بالفعل، ولكنه اتجه إلى «جبل» مبديا دهشته من طلبه إليه أن يترك «دعبس»، بينما أن ما يفعله ما هو إلا نزول على أمر حضرة «الناظر» بتأديب «آل حمدان».. فما كان من «جبل» إلا أن أصر على طلبه إلى «قدرْة» بأن يترك «دعبس».. فانتفض هذا الأخير ليهدد «جبل» بأن خدمته فى بيت «الناظر» لن تحميه إذا أراد «قدرْة» محاسبته. وكانت تلك الكلمة هى التى أثارت «جبلا» ثورته الهائلة فانقض على «قدرْة» كمن فقد وعيه فركله، وألقاه جانبا.. فوثب «قدرْة» يتناول نبوته من على الأرض ويرفعه بخفة قاصدا توجيه ضربة قاضية إلى «جبل»، ولكن «جبلا» بادره بضربة فى بطنه من يد قوية، فترنحَّ متألما.. وخطف «جبل» النبوت.. فأصاب به رأس «قدرْة» الذى تعالى صراخه، ودار حول نفسه ثم سقط على الأرض والدم يتفجر من جبينه فى غزارة.. وانحنى فوقه فعدله على ظهره ثم تمتم بأنه قد أغمى عليه.. وراح يهزه برفق دون أن يتمكن من إفاقته.. فاقترب «دعبس» وأشعل عودا من الثقاب.. ثم وقف وهو يهمس: «إنه ميت» – فاقشعر بدن «جبل» وهو لا يصدق.. بينما «دعبس» يرى الأمر هينا.. فكم ضرب! وكم قتل!.. ويبدى «جبل» أنه لم يكن يقصد أو يريد القتل..! وكيف ينقلب قاتلا من أول ضربه؟ ولكن «دعبس» نبه «جبلا» إلى أن الأمر الهام هو أن يتعاونا لدفنه ومعه نبوته.. وما لبث «جبل» أن انضم إلى «دعبس» فى هذه المهمة بقلب كئيب، وواصلا العمل حتى تمكنا من دفن القتيل ومعه أيضا «النبوت».

ويختم الراوى روايته لهذا المشهد بقوله إن «جبلا» لما رفع رأسه رأى الليل قد أخفى الدنيا وما عليها، فتنهد من الأعماق وهو يكبت نزوعا نحو البكاء.

* * *

وكان من الطبيعى أن يثير اختفاء «قدرْة» التساؤلات والتكهنات. أين ذهب؟ كأن الأرض انشقت وابتلعته؟ حامت الظنون حول «آل حمدان»، ففتشت بيوتهم دون أن يسفر التفتيش عن شئ.. لم تعد المسألة صراعا بين «آل حمدان» و«الناظر» بقدر ما صارت أمرا متصلا بكرامة الفتوات، «فقدرْة» لم يكن يهمهم لذاته؛ بل لم يكن أحد منهم يحبه، ولم يكن أحد منهم يحب الآخر قط، ولكن جمعتهم رغبة واحدة فى الإرهاب والذود عن الفتونة. وتساءلوا: ما العمل؟ قال «زقلط»: ينبغى أن أرجع إلى «الناظر».

وعندما ساق «زقلط» الخبر إلى «الناظر» على أن «آل حمدان» قتلوا فتوتهم – وكان جالسا وإلى يمينه «هدى هانم» – زوجه – وإلى يمينها «جبل» – كان جوابه أن أنباء عن اختفائه قد بلغته.. ولكنه تساءل: هل يئستم تماما من العثور عليه؟ وقالت «الهانم»: لو صحَّ أنه قتل لكان حدثا خطيرا.. وكان جواب «زقلط» أن ذلك يقتضى عقابا شاملا وإلا ساءت العواقب.. وخرج «جبل» عن صمته قائلا: لعلها جريمة مزعومة لم تقع.. وإلا فهل ثمة دليل على مقتله.. فرجال «حمدان» فى بيوتهم مسجونون. فكان جواب «زقلط» أن «جبلا» لا يهمه إلا تبرئة أهله.. واحتد «جبل» وهو يقول إن ما يهمه هو الحقّ، وإن كل ما يهم «زقلط» هو الحصول على إذن لإحداث مذبحة فى قوم مسالمين.. فما كان من «زقلط» إلا أن واجهه بقوله بأن له عذرا فى دفاعه عن المجرمين مادام منهم.. ثم طلب من «الناظر» أن يأذن له فى تأديب الجناه.. وهنا اتجه «جبل» إلى «الهانم» قائلا إنه فى هذه الحالة سيجد نفسه مضطرا إلى الانضمام لأهله، وكان ذلك يمثّل خيبة رجاء «للهانم».. التى طلبت إلى «زقلط» أن يؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر.. ولكن «الناظر» تمادت به موجة الغضب حتى بلغت قمة رأسه فهتف «بجبل»: إما أن يبقى معهم كواحد منهم، وإما أن يذهب إلى أهله.. فأثار هذا القول «جبلا».. فهتف أنه ذاهب، وبالفعل نهض، وسار بخطوات ثابتة نحو باب البهو، وحاولت «الهانم» أن تمنعه ولكن ذراع «الناظر» حالت دون تحركها.. وسرعان ما اختفى «جبل».. ولم يأذن «الناظر» – مع ذلك – للفتوة بما طلب، وكان كل ما أنهى به الحديث أنهما سيعاودان الحديث مرة أخرى.

* * *

وقد مضى «جبل» لفوره، مغادرا البيت، وقد تمثلت له مأساة «أدهم» عندما غادر البيت الكبـير.. وقصـد لتوّه ربعا كبيرا من ربوع «آل حمدان» وطرقـه.. ومضى يطرق الباب حتى فتحت نوافذ الربع. وأطلت رءوس كثيرة.. وقال «جبل» بهدوء: افتح الباب يا «عمّ حمدان». وفتح باب الربع فدخل «جبل» مسـتقبلا جوا رطبا، وهواء غريب الرائحة. واسـتقبله أهله بالعناق واختلطت الكلمات الطيبات.. ولكن قطع الترحيب عليهم جعجعة شـجار آتية من أقصى الحوش.. أحد طرفيها «دعبس» الذى يتهم آخر بسرقته.. فصاح به «جبل» ألا يقضى بغير دليل. إلا أن «دعبس» أصر على تأديب السارق المتهم. ووثب عليه فنطحه وترنّح المتهم بالسـرقة وسـال الدم من جبينه، ومع ذلك راح «دعبس» يكيل له الضربات فى غير مبالاه مما أثار «جبلا» وانقض عليه وقبض على عنقه بشـدة، وعبثا حاول «دعبس» أن يتخلص من قبضة «جبل»، فما كان منه إلا أن تساءل: أتريد أن تقتلنى كما قتلت «قدرة»؟.. وردد الرجـال أبصارهم بين الرجلـين: أحقا «جبل» هو الذى قتل «قدرْة»..؟ وتقدم منه أكثر من واحد – كل يدعوه إلى اسـتضافته واصفا إياه بأنه «سـيد آل حمدان».. وشعر «جبل» بأن الهاويـة التـى انفتحت اليوم تحت قدميه لا قرار لها.. وأن السـبيل الوحيد هو الهرب.. والخلاء واسع لايحيط به خاطر.

* * *

وتيسر الفرار «لجبل» فى الهزيع الأخير من الليل.. ومضى نحو الدرّاسة، ثم مال نحو الخلاء، متجها نحو صخرة «هند» و«قدرى»، فلما بلغها على ضوء النجوم الخافت لم يعد بوسـعه أن يغالـب النوم وفتح عينيه مع أول شـعاع. فقام من فـوره ليصل إلى الجبل قبل أن يعبر الخلاء عابر.. وبلغ سـفح المقطم ونفسـه تفيض بالأسـى والوحشة فسار معه نحو الجنوب حتى بلغ سـوق المقطم.. ورأى عند حافة الخلاء كوخا من الصفائح صَـفّت حوله مقاعد خشبية.. فاتجه نحو مقعد خال وجلس بجسم اشتد حنينه إلى الراحة.. ومالبث أن جذب سمعه ضوضاء اشتدت حول «كشك» حنفية مياه عمومية كان الناس يتزاحمون أمامها ليملأوا أوعيتهم بالماء.. فارتفع الصخب وتهاوت اللعنات ثم ندت صرخات حادة من الوسط عـن فتاتين غرقتا فى لجة الزحام.. وراحتا تتراجعان لتنجوا بنفسـيهما حتى خرجتا من المعترك فأقبلتا نحو مكان خال قريب من مجلسـه، ووقفتا تسـويان ماتشـعث من شعرهما وتعيدان الخمار إلى رأسـيهما ثم جلسـتا تتشـاكيان الضعف، وقلة الحيلة.. فقام «جبل» – وقـد جذبته الفتاتان – اللتان لم تقع عيناه على مثلهما فى الملاحة فى حارته ليملأ لهما

وعاءيهما وعاد إلى الفتاتين ليجدهما مشتبكتين مع بعض الشبان فى معركة كلامية فتصدّى للشبان مهددا وتحرش به أحدهم، ولكنه صرعه بضربة فى صدره، فتجمع الشبان للهجوم عليه، غير أن صوتا غريبا صاح بهم يأمرهم بأن يذهبوا عنه – وكان صاحب الصوت رجلا كهلا.. فهتفوا خجلين: «المعلم البلقيطى»؟ وسرعان ماتفرقوا.. فقال المعلم «لجبل» إنه من أهل الشهامة وما أندرهم فى أيامنا! دفع عن ابنتيه الأشرار.. وأمثاله يستحقون الحب.. وبدأ المعلم فعرّفه بنفسه إنه «البلقيطى الحاوى».. وكان «جبل» قد سمع عنه، فأضاء وجهه بنور التذكر المباغت.

وكان من الطبيعى أن يعرفه «جبل» بنفسه، وبأنه من «حارة الجبلاوى»، مما دفع بالمعلم إلى الظن بأن «جبلا» إنما حضر للفرجة على «المولد» القائم فى ذلك الوقت، ولكن «جبلا» بادر ينفى ذلك ويؤكد أنه إنما جاء يبحث عن مقام جديد بعد أن هجر حارته.. وقد حدس الرجل دواعى القتل وواجهه بها. لابد أن تكون القتل.. فهو ليس من الرعاع الذين يبعث بهم الفتوات، ولا هو من أهل السرقة.. ولم يسلّم «جبل» بشئ، فدعاه المعلم إلى فنجان قهوة فى داره، وكان ذلك مما صادف قبولا لدى «جبل» الذى مال بقلبه إلى إحدى المليحتين، فبادر قائلا «حبا وشرفا» واتخذا طريقهما إلى الدار.. وفى الطريق عرف «البلقيطى» أن «جبلا» لا مأوى له، فعرض عليه فى شهامة أن يستضيفه إذا شاء حتى يجد لنفسه مأوى، فكان جواب «جبل» الشكر والتقدير، وكان تعليق «البلقيطى» الأعجب من ذلك ففى داره تقيم الحيّات والثعابين – فكيف تضيق عن إيواء إنسان؟ وعرف «جبل» أن مضيفه يعمل حاويا وسيعرف – عنده – ومنه – كيف تستأنس الثعابين..!

* * *

ودخلا البيت.. و«البلقيطى» يتحدث عن الثعابين التى يدين لها برزقه، والتى بفضلها أقام هذا البيت. ووصلت إلى سمعهما لدى دخول البيت ملاحاة تجرى بين الشقيقتين علم منها «جبل» أن مهبط هواه اسمها «شفيقة».. ما أبدع المليحة! فى عينيها السوداوين شكر صامت، وكم يودّ لو يجد من يخبرها بأنه ما قبل هذه الضيافة الخطرة إلا من أجل عينيها السوداوين!

سأله «البلقيطى» عن عمله، فأجابه بأنه سيجد عملا.. فقال له «البلقيطى» إنه ذكىّ كالعفاريت، فهلا أدرك أنه يصلح حاويا.. يكون للرجل معين فى عجزه.. وكان كل جواب «جبل» أنه سيفكر فى ذلك على مهل..

وقبل العصر خرج الرجلان معا، فمضى «البلقيطى» إلى تجواله، وقصد «جبل» السوق للفرجة والتسوق.. وعادا مع المساء إلى البيت.. وقبل أن يخطو إلى الداخل وصل إلى سمعه نقاش محتدم.. «فشفيقة» المليحة تحذر من استضافته طالما إنه وراءه جريمة، والمليحة ترد بأنه لا يبدو عليه أنه مجرم.. ويتساءل الأب: وهل عرفته لهذا الحد يا بنت الأفاعي؟ وتكمل الشقيقة قائلة: وإلا فلماذا يهرب من النعيم؟ ويكون دفاع المليحة بأنه «ليس عجيبا أن يهرب الإنسان من حارة اشتهرت بكثرة فتواتها..» وكان تساؤل «البلقيطى» للمليحة عن مصدر القدرة التى أعانتها على معرفة الغيب، مقررا أن معاشرة الثعابين جعلته ينجب حيتين.. ومع ذلك فهو قد اتخذ قراره باستضافة الرجل مستندا إلى نظرته التى لا تخيب إلا ما بدر منه من شهامة جعلته يقرر استضافته..

وما كان «لجبل» أن يتردد فى ولوج البيت بعدما سمع.. وكأنه قد وصل إلى بر الأمان بجوار هذه الصبية الودودة الطيبة، أو إلى القوة الساحرة التى تشدّه إلى بيت هو وكر الثعابين.. يمضى إليه وهو يردد: ما أطيب الحياة إلى جوارك يا عمْ..!

* * *

وكان أمرا طبيعيا ألا يواتيه نوم، ليس فقط لما مرَّ به من أحداث، وإنما أيضا لما هو مقبل عليه من حياة مجهولة أقل ما فيها «معاشرة الثعابين والحيات».. وعندما فتح عينيه مع إشراقة الصباح رأى «البلقيطى» جالسا فى مواجهته فحيَّاه بتحية الصباح، فكان جواب «البلقيطى» ردا للتحية بمثلها للمعلم «جبل» وهو يناديه بـ «من لم ينم من الليل إلا أقلهُ وهو يتقلب فى الظلام والتفاتات رأسه نحوى كالخائف! «ومضى «البلقيطى» يفسِّر له سبب خوفه أنه كان يخاف على نفسه حيث توهم أن «البلقيطى» سيقتله ويسلبه نقوده ثم يدفنه فى الخلاء.. ثم مضى ينصحه بأن الخوف شديد الإيذاء والثعبان لا يلدغ إلا عند الخوف وفيما هما يتحادثان تراءى له صوت «شفيقة» تنادى، فشعشع الصوت روحه بانبساط غير متوقع.. حلت على أثره السكينة بقلبه، وفاضت نفسه بالمودة.. ووجد نفسه يقص قصته كاملة على «البلقيطى».. الذى أثنى عليه وقال له إنه سوف يبادله صراحة بصراحة لأن من حقه أن يخبره بأنه ينتسب هو الآخر – فى الأصل – إلى حارة «الجبلاوى» ولكنه فرّ منها فى صدر الشباب ضيقا بفتواتها، بل إنه كان من «حىّ حمدان» بالذات.. وهنا حُق له

أن يطلب إلى «جبل» أن يشغل نفسه بمستقبله، وأنه يكرر له القول بأنه يصلح حاويا ماهرا.. فما إن أبدى «جبل» موافقته حيث وثب الرجل فى سـرعة بهلوانية يحييه مؤكدا له أنه يحبه أكثر من أى ثعبان عنده.. ضحك «جبل» فى نشـوة طفل، وشـد علـى يد الرجل، ثم قال باندفاع لم تجد حيلة فـى منعه: «يامعلم: «جبل» يطلب القـرب منك.. فضحك «البلقيطـى» وهو يقول إنه كان دائما يتسـاءل: متى ياترى يفاتحه «جبل» في ذلك؟ وأضاف أنه من حسـن الحظ أن «سـيدة» فتاة ممتازة كما كانت المرحومة أمها.. ما إن قال ذلك حتى اعترى ابتسامة الابتهاج فى فم «جبل» ارتباك غير خاف.. فقهقه «البلقيطى» قائلا: ولكنك تطلب شقيقة، أعلم هذا يا ابن والـدى، أخبرتنى به عيناك.. فلا تؤاخذنـى، فهذه طريقة الحواة فيما يعقدون من اتفاقات فى الضحى زغردت «سيدة».. ثم شهد سوق المقطم زفة «جبل».

* * *

وركن «جبل» إلى الدعة أياما، وراح يعيش مع أحلامه، ولكن «البلقيطى» – و«شفيقة» – نبهـه كلاهمـا إلى أنه لا حياة بلا عمل.. فمضى مع «البلقيطى» فى طريقه المعهود، وطلب إليـه أن يتعلـم بعينيه كما يتعلم بعقله، ولينظر ماذا يفعل «البلقيطى» دون أن يسـأله أمام أحد من الناس. ولكن «جبلا» وجد تلك الحرفة شاقة حقا، ولكنه وطّن نفسه على البراعة فيها، ومضى مع حياته الشـاقة الجديدة، راضيا متحملا لائـذا بزوجه المحبة المحبوبة كلما خطر له خاطر حزن أو هوان.. وتفوّق علىأحزانه وذكرياته وأتقن صنعته الجديدة بما أدهش «البلقيطى» نفسـه.. عرف الحوارى واسـتأنس الثعابين والحيات ولعب أمام آلاف الصبية وذاق حلاوة النجاح والربح.. وعندما تلقى بشـرى الأبوة المقبلة أحيا ذلك فى نفسه ذكـر الحارة و«زقلط» و«الأفندى»، وراح يتسـاءل من حين إلى حين، «أين الجبلاوى» فلما أبدت له «شفيقة» إشفاقها عليه هتف بها: إلى هؤلاء ينتسب الذى فى بطنك؟؟!

ويوما – وهو يعرض ألاعيبه فى زينهم – إلتقى «بدعبس» – الذى ما لبث أن لحق به مبديا دهشـته من أن يعمل «جبل» حاويا، فـكان جوابه أن ليس هذا بأعجب ما يقع فى دنيانا..! وراح «جبل» يتقصى منه أحوال الحارة – فعلم منه أنهم وإن رفعوا عنهم الحصار

إلا أنهم تركوهم فى ذلـهم وجوعهم يسـعون فـى أعمالهم طوال النهار بعيدا عن «حارتنا» وإذا عـادوا تـواروا وراء الجدران، بل إنهم قتلوا منهم عشـرة فى عهد الحصار ذهبوا فداء لقـدرة.. دون أن يتوقف الفتوات عـن الصفع والبصق والعدوان. أثار ذلك «جبلا».. فمضى يقول وكأنه يحدث نفسه: لا تطيب الحياة وبها أمثال أولئك الأوغاد».

* * *

كانت حارة «الجبلاوى» تغرق فى الظلمة، وكان الليل يوشك أن ينتصف، وحى «حمدان» قد تلفّع هو الآخر بظلمة خرساء، وقد جاء إليه شبحان من ناحية الخلاء – كل منهما يحمل بقجة – وطرق أحدهما باب الربع الأوسط، وفتح الباب عن وجه «حمدان» نفسه وبيده السراج ليتبين وجه الطارق. وما إن عرفه حتى هتف: «جبل».. وخلفه امرأته – حامل – وتعانق الرجلان ودخل «حمدان» بضيفه الذى مضى به إلى حجرة واسـعة، وأدخلت «شـفيقة» إلى الحريم. وما لبث أن أقبل كثيرون من «آل حمدان» على أثر ذيوع خبر عودة «جبل».. وهال «جبـلا» ما يرى من مظاهر الأسـى والبؤس بعد أن راحوا يقصُّـون عليه أنباء ما يلقون من هـوان وأعلـن «جبل» أنه جاء ليقيم معهم حيث لا مقـام له إلا هنا.. وجذبت الأسماع فى صوته نبرة قوة.. ثم ما لبث أن أعلن أنه ما جاء ليسـتريح، ولكنه جاء ليحدثهم فى شـأن خطير أخطر مما يتصورون – روى أنه منذ أيام شـعر بالرغبة فى المشـى وحده رغم البرد والظلام فخرج إلى الخلاء فإذا بقدميه تقودانه إلى البقعة المشـرقة على «حارتنا» وما يدرى إلا وهو يوشـك أن يصطدم بشـبح هائل.. بدا له شـخصا ليس كمثله أحد.. طويلا عريضا كأنـه جبل، فامتلأت نفسـه رهبة وهم بالتراجع، وإذا بالآخـر يقول فى صوت عجيب: «قف ياجبل» فتسمر «جبل» فى مكانه وسأل وجلده ينضح بالخوف: من؟ من أنت؟.. فقال بصوته العجيب: «لا تخف.. أنا جدك الجبلاوى!» فلما أبدى الجميع تشككهم وعبروا عن شكوكهم.. أصر «جبل» على روايته ومضى يكملها فيذكر إنه قال له إنه لم يحلم أن يقابله فـى هذه الحياة فكان جوابه: «ها أنـت ذا تقابلنى» وحاول «جبل» أن يحدّ بصره ليتبين وجهه المرتفع فى الظلام – فقال له: «لن تسـتطيع رؤيتى ما دام الظلام» مضيفا أنه يرى فى الظلام منذ اعتاد التجوّل فيه قبل أن توجد الحارة فقال «جبل» بإعجاب: «الحمد لرب السـماوات على أنك ما زلت تتمتع بصحتك» هنا قال «الجبلاوى»: «أنت يا «جبل» ممّن

يركن إليهم، وآى ذلك أنك هجرت النعيم غضبا لأسرتك المظلومة، وما أسرتك إلا أسرتى، وهـم لهـم فى وقفى حق يجـب أن يأخذوه، ولهم كرامة يجـب أن تصان، وحياة يجب أن تكون جميلة» فسـأله «جبل» فى قوة وحماس، (وكيف السـبيل إلى ذلك؟ فكان جواب «الجبـلاوى»): بالقوة تهزمـون البغى، وتأخذون الحق، وتحيـون الحياة الطيبة «فهتف «جبل» من أعماق قلبه»: سنكون أقوياء فقال «الجبلاوى»: «سيكون النجاح حليفكم».

وتـرك صوت «جبل» وراءه صمتـا كالحلم بدوا فيه جميعا مسـحورين.. كانوا يفكرون ويتبادلون النظرات ثم يتجهون بأعينهم إلى «حمدان» الذى خرج عن صمته قائلا: فلنتدبر هـذه الحكاية بعقولنـا وقلوبنا.. إن هذا الكلام وإن كان خليقا «بالجبلاوى» حقا، ولكن ما أخلقه أن ينفذه بنفسه..!!

وتبادل الجميع الآراء.. حتى قطع عليهم «جبل» حبل الحديث وهو يعلن تصميمه:

«سـأذهب إلى «الناظر» وحدى.. عندما أقرر الذهـاب. ولكننى أريد أن أطمئن إلى أنكم ستكونون ورائى وحدة متماسكة خليقة بمواجهة الشدة والصمود لها!»

وآثار قوله الحماس بينهم.. وبخاصة بعد أن أكّد لهم أن زوجه اختارت معه نفس الطريق.. ودفع ذلك «حمدان» إلى أن يقرر أنه سيدبر له مقاما فى مسكنه.. وأن هذه ليلة لها ما وراءها..

* * *

علمت الحارة بعودة «جبل»، وأنه يسير بجرابه، ورأت الحارة زوجته وهى تسعى إلى الجمالية لابتياع حوائجها، ولم يتوقف «جبل» عن ممارسة مهنته وألاعيبه السحرية ولكن فى الأحياء المجاورة دون حارته متجنبا اسـتعمال الثعابين فى ألاعيبه – ولقيه «زقلط»، فتحرش به بسـؤاله: أين كانت غيبتك؟ فكان جوابه: فى الأرض الواسـعة، فعاد «زقلط» ليسـأله متمرسـا: وماذا عاد بك؟ فقال فى هدوء إنه عاد به ما يعود بالإنسـان إلى حارته، فقال له بصوت ينم عن وعيد: لو كنت مكانك ما عدت.. وسار فجأة بقوة فكاد أن يرتطم به لولا أن تنحّى «جبل» عن سبيله. وإذا بصوت بواب «الناظر» يناديه.. ليخبره أن «الهانم» تودّ رؤيته. وكان «جبل» يتوقع هذه الدعوة منذ ظهوره.. وصعد السـلم وهو يطرد عن قلبه بقـوة أسـراب الذكريات. نظر إلى أمـه فتلاقت نظراتهما وقامت المرأة لاسـتقباله فى تأثر شـديد، فهوى على يديها يقبلهما، ولثمت جبينه فى حنان، والتفت رأسـه إلى «الناظر»

فرأه جالســا وطالعهما بعينين باردتين.. فمد له يده ليصافحه.. وجرت عينا «هدى هانم» على «جبل» فى دهشــة ممزوجة بانزعاج لما هو عليه من زىّ خشن، ومظهر ليس كمظهره الســابق، فتجلـى فى عينيها الرثــاء، وأدرك «جبل» ما يدور فى نفســها، فراح يحدِّثها بصوت قوى عن حياته فى ســوق المقطم وعن مهنتــه وعن زواجه حديث الراضى عن تلك الحياة.. وإذا «بالأفندى» يسأله عما دعاه إلى العودة ما دام العيش قد طاب له فى الخارج، فقــال «جبل» باسما: لعلىَّ عدت ياســيدى طامعا فى لقياك.. ولكن «هدى هانم» ســبقت قائلة: علمت بلا شك بعفونا عن «آل حمدان» إكراما لك.. فكان جوابه:

- الحق ياسيدى أنهم يعانون ذلا ألعن من الموت، وقد قتل منهم من قتل.
- فهتف «الأفندى» بحدة:
- إنهم مجرمون، وقد نالوا ما يستحقون، وما كان يجوز أن يضيع دم «قدْرة» هدرا.
- فكان جواب «جبل» فى ثبات:
- المجرمون حقا هم الفتوات..
- رمقه «الناظر» بنظرة توجس وارتياب وهو يســأله عما يريد من مجيئه.. فما كان من «جبل» إلا أن قال فى شجاعة لا تتزعزع:
- جئت مطالبا بحقوق «آل حمدان» فى الوقف وفى الحياة الآمنة..
- أسود وجه «الأفندى» من الغضب وهو يتساءل: أتجرؤ حقا على معاودة هذا الحديث؟
- أنسيت أن المصائب تتابعت عليكم منذ تقدم شيخكم بهذه المطالب الخرافية..؟؟
- فما كان من «جبل» إلا أن قال بصوت قوى:
- إنما رددت على مسامعك رغبة من لا ترد له رغبة، وهو جدك وجدنا «الجبلاوى»!!

واندهش «الأفندى»، وتساءل فى ذهول: ماذا حصل لعقل «جبل»؟..

فما كان من هذا الأخير إلا أن قال: اسمع قصتى واحكم بنفســك وقص عليهما ما سبق أن قصــه علــى «آل حمدان».. فما كان من «الأفندى» إلا أن أنكر عليه كل ما معه مقررا أن الواقــف لم يغــادر بيته منذ اعتزل فقال «جبل» أن يزايله هدوؤه: «علم الله أنى ما جاوزت الحق، فلنحتكم إلى «الجبلاوى» نفســه إن اســتطعت وإلى شــروطه العشرة». انفجر غضب «الأفندى». ارتعشت أطرافه.. صاح «بجبل» واصفا إياه باللص المحتال، مهدّدا إياه بمصير أســود، بــل وصاح فيه بأعلى صوته أن اخرج يا محتــال، اخرج من بيتى، وإن عدت إلى هذيانك قضيت على نفسك، وعلى أهلك بالذبح كالنعاج.

قطـب «جبل» غاضبا، وهو يصيح «بالأفندى» محذرا من أن يحيق به غضب «الجبلاوى». هجـم «الأفندى» على «جبل» ولكمه فـى صدره بأقصى قوته، وتلقى «جبل» اللكمة بثبات وصبر وهو يقول «للهانم»: إنما أكرمه إكراما لك.. ثم ولاهما ظهره وانصرف..

* * *

ما هو رد الفعل المتوقع؟ ذلك ما شـغل بال «جبل» وفكر «آل حمدان» وقد توقعوا شـرا داهما، ولكن مضت فترة دون أن يصدر رد فعل. ومع ذلك فقد خرج «جبل» مخالفا نصيحة «آل حمـدان» ليتجـول كعادته. كان يتوقع شـرا عند كل خطوة لكـن أحدا لم يتعرض له بسـوء.. ففكر طويـلا فيما ينبغى عمله لينفض الدماء عن الجمـر. فكان أن وقعت أحداث غريبة.. ثعبان يدخل على سـيدة زاحفا بين قدميها فصرخت وخرجت تجرى إلى الطريق وتطوّع رجال للتفتيش عن الثعبان وقتله ولم تكد تمضى ساعة حتى ارتفعت صرخة استغاثة ثانيـة فى بيت فى مطلـع الحارة، وما حلّ الليل حتى تعالـت صرخة فى ربع من ربوع «حمـدان».. وذاع أن ثعبانـا لدغ «حمـودة» الفتوة. ولم يتوقف نشـاط الثعابين العجيب، وغطّت أخبار الثعابين على ما سواها إلى أن ظهر ثعبان ضخم فى بيت حضرة «الناظر» – وترامـى فى نفس الوقـت صراخ وضجة، فقد لدغ ثعبان ابن «زقلط» ثم اختفى.. وفى بيت «الناظـر» قال «حسـنين» إن «جبلا» حاو وله خبرة باصطيـاد الثعابين.. وأمرت «الهانم» البـواب بأن يسـتدعى «جبلا»، وجاء «جبل» حاملا جرابه الخـالى. ووقف أمام «الناظر» و«الهـانم» فـى أدب وثقة.. وطلبت إليه «الهانم» أن يطهر البيت من الثعابين – فقال إنه تعلم ذلك فيما تعلّمه.. وتساءل «جبل»، هل يأذن حضرة «الناظر»، فهمهم الرجل بالموافقة وهـو يدارى حنقه وقهره.. فقال «جبل»: إن خبرته تحت أمر الجميع، ولكن لكل شـىء ثمنه كما تجرى المعاملات فى «حارتنا» فتطلع إليه الفتوات فى دهشـة فتسـاءل «جبل»: «علام تدهشـون؟ إنكم تحمون الأحياء نظير الإتـاوات، وحضرة «الناظر» يدبّر أمر الوقف نظير التصرف فى ريعه» ولما سئل: وماذا تطلب نظير عملك؟ وجاء جوابه: إنه يطلب كلمة شـرف باحترام «آل حمدان» فى كرامتهم وحقهم فى الوقف.. وساد الصمت، وتنفس الجوّ بالحقد المكتوم.. ولكن «جبلا» عاد يقول: «لا تظنوا أننى أتحداكم.. الحقُّ أننى أذكّركم بما

يمليـــه عليكم العدل والحقّ نحو إخوانكم المغلوبين على أمرهم وقيلت ردود عديدة حســمها «الناظر» – والحقد يستعر فى صدره – بقوله مخاطبا «جبلا» أنه معطيه كلمة الشرف التى يطلبها وليبدأ عمله..

ومضى «جبل» إلى العمل حتى طهر بيت «الناظر».. وحيّاه وهو ينصرف مذكِرا إياه فى شجاعة بأن وعد الحر دين عليه.

* * *

تمكــن «جبل» من تطهير جميع بيوت الحارة على مرآى من الجميع، وقوبل بالتهليل والتصفيــق بــل وتظاهر الأفراد لتحيته فخــرج إليهم الفتوات وتعرّضــوا للمتظاهرين صفعا وركلا.. وكمــا هو متوقع فقد تآمر الفتوات و«الناظر» على النكوص بالعهد إيمانا منهم بأنه لا مكان إلا للقوة، وكلمة الشرف لا تساوى شيئا فى مواجهة الفتوة والنبوُّت وحتى لا يضيع الوقــف و«الناظــر» والفتوات، ومن هنا رسمت خطة المؤامــرة لتأديب «آل حمدان»، وكان «جبل» قد وضع هو الآخر خطته المضادة ووّزع الأدوار على الجميع: من الرجال والنساء، فلكل منهم دوره المرسوم..

غادر «زقلط» بيته وســط هالة من الفتوات يتبعهم الأعوان مســلحين بنبابيتهم قاصدين حى «حمدان».. ولما وصلوا إلى بوابة الحىّ هجموا عليها حتى فتحت لهم تحت هجماتهم وصرخ «زقلط» لرجاله بالاندفاع داخلين وقاصدين رأسا إلى «الدهليز» و«زقلط» يطلق ضحكاته الســاخرة.. وما كاد المهاجمون يتوســطون الدهليز حتى مادت أرضه بهم بغتة وهوت بمن عليهــا إلى عمق هوة حفرة عميقة، وفى ســرعة مذهلة فتحت النوافــذ على جانبى الدهليز وانصبّت المياه.. وتقدم رجال «حمدان» دون تردّد ورموا الحفرة بمقاطف الطوب، والرمال.. ولأول مــرة سمعــت الحارة الصراخ يصدر عن فتواتها، ورأت الدم يتفجر من رأس «زقلط»، والنبابيت تتخطف رؤوس الفتوات الآخرين..

وسرى الخبر فى الحارة مسرى الهشيم، وعرف الجميع أن «جبلا» الذى أهلك الثعابين تمكن بعد ذلك من إهلاك الفتوات.. ولم يتوقف «جبل» لحظة، فكل شىء مدبَّر فى رأسه، وصاح بأهله.

• هلموا الساعة إلى بيت «الناظر».

* * *

وسـار الجميع يحطمون، وينهبون، ويعتدون فـي فوضى لاضابط لها، حتى لحق بهم «جبل» على رأس أهله نساء ورجالا، فأوسعت الجموع لهم، وتعالى الهتاف.. ونظر «جبل» فى الوجوه المتطلعة، وطلب إليهم أن يتفرقوا فى هدوء ويدعوه لكى يحقق لهم إرادة الواقف ودخـل «جبـل».. وكانت «الهانم» واقفة فى استسـلام على حين بـدا «الأفندى» على عتبة الباب، خافض الرأس، شـاحب الوجه.. وواجهه بقوله: ها أنت ذا ترى نفسـك ذليلا بلا حول ولا قوة، لافتوة يحميك، ولا شجاعة تؤيدك، ولا مروءة تشفع لك.. ارتعدت فرائص الرجل. غير أن «الهانم» تقدمت من «جبل» وخاطبته بأنها لا تحب أن تسمع منه غير طيب الـكلام.. فأجابها بأنه لولا منزلتها عنده لجرت الأمور بغير ما جرت به.وبادر «الأفندى» يخـرج عـن صمته فكان كل ما قاله أن عرض على «جبـل» أن يحتل مكان «زقلط»، وكان الرفض القاطع هو الجواب فليست الفتونة مطلبه، وما يريد إلا حقوق «آل حمدان» كاملة.. فكان جواب «الأفندى»: «هى لكم دون نقصان».. واقترحت «الهانم» أن يعود «جبل» فيقيم معهم – فما كان من «جبل» إلا أن قال فى تصميم: (سـأقيم فى ربوع آل «حمدان») وقال «الناظر» إن حق «آل حمدان» سيسـجل على رءوس الأشهاد. وبذلك تحقق «لجبل» كل ما يبغـى من انتصار، ولذلك عندما طلبت إليه «الهانم» أن يتناول عشـاءه الليلة معها.. وأن تلك هى رغبة أم.. لم يسعه إلا أن يقول: لك ما تشائين ياسيدتى.

* * *

سـعد «آل حمدان»، خاصة بعد أن وصلهم حقهم من الوقف كاملا، ولكن «جبلا» عمد فى توزيع تلك الخيرات عليهم إلى التزام العدل والمسـاواة فلا تمييز لأحد على آخر، حتى هو نفسه أخذ نصيب اثنين هو وزوجه، وأثار ذلك من كانوا يرون أنفسهم حقيقين بالتميز عن سـواهم، وقد عبّروا عن ذلك، ولكنه ردهم إلى أن شـيمته العـدل ومراعاة الحق.. وقد مضـى «دعبس» بما حظى به إلى حيث ما جدّ مـن القهاوى ليمارس لهوه وعبثه: وتراءى لـه أن يقامر كعبل، ولكن هذا كسـب الجولة، واحتـاز كل ما كان مع «دعبس» من أوراق مالية هى نصيبه من ريع الوقف، فاغتاظ وثار، ولم يشأ أن يذعن للحظ، وأراد أن يستعيد ماله بالقوة، فأبى الآخر، فتعدّى «دعبس» عليه ولطمه لطمة شـديدة أصابت إحدى عينيه

ففقأتها. مما أثار «جبلا»، ودعا القوم الذين تشفعوا «لدعبس»، وقالوا يكفى أن يرد المال إليه، ولكن «جبلا» لم يرتض ذلك، بل أصر على العقاب: العين بالعين.. ولما وجد الإباء نهض فأمسك «بدعبس» من ظهره وشد عليه بكلتا يديه وأمر المجنى عليه بأن يأخذ ثأره عينا بعين ولم يترك «دعبس» من قبضته حتى تم تنفيذ ما قضى به مما أثار فى النفوس ردود فعل مختلفة، ولكنهم اضطروا إلى كتمانها.

وجاء إلى «جبل» نفر من أهل الحارة من غير «آل حمدان»، يشكون إليه ماهم فيه من ذلّ وفقر، ويطلبون إليه أن يحصل لهم على حقهم من الوقف، ولكنه قال إنه إنما كلف بمهمة محددة وهى أن يسترد حقوق «آل حمدان»، ولم يكلف بأكثر من ذلك، فلما ناشده اللاجئون بالرحمة والعدل، كان كل ما وعدهم أنه سوف يفكر دون أن يفعل لهم شيئا...

وقد ترددت فى الحارة وبين «بنى حمدان» أقاويل متناقضة، فمنهم من راح يتهامس بقسوته وظلمه ولكن هؤلاء وجدوا دائما من يردّ عليهم قولهم ويذكرهم بالوجه الآخر لقسوته وهو الرحمة بالمعتدى عليهم والرغبة الصادقة فى إقامة نظام يضمن العدل والنظام والإخاء «لآل حمدان»..

أجل فقد ليث «جبل» بين آله مثالا للعدل والقوة والنظام.. ولكنه لم يهتم بالآخرين من أبناء حارتنا.. «ولعله كان يضمر لهم احتقارا وازدراء كسائر أهله. ولكنه لم يعتمد على أحد منهم، ولاتعرض له بسوء».

* * *

(٣)
رفاعة

انقضى زمن «جبل».. وعادت بعده الأمور إلى ما كانت عليه: أهل الحارة يعيشون فى ذل، يحكمهم الفتوات ويتحكمون فيهم وعلى رأسهم الفتوة الأكبر حامى حمى ناظر الوقف.. وهذا الأخير يوزع بعض ثمار الوقف على الأحياء، فهو يسلمها إلى الفتوات الذين يؤثرون بها أنفسهم، ويؤثرون أهل الحارة بصفعاتهم وركلاتهم وإيقاع أقسى آيات الظلم، فمن خطف للصغار وتجهيل لصائرهم إلى تعدّ على رجالهم.. من ذلك تعدى «زنفل» الفتوة

على «شافعى» النجار لا لشئ إلا لأنه جعل مرة الوقف حديثه ثم استطرد قائلا إن المجرم الملعون خطف وليد «سيدهم» بياع لحمة الرأس ثم لم يسمع أحد عن الوليد شيئا بعد ذلك.. فكان جزاؤه أن أخذ «زنفل» بتلابيبه، يهزه بعنف حتى كاد يقتلع ضلوعه، ثم راح يمرغه فى التراب أمام الخلق.. ثم مضى «زنفل» يحطم دكان «شـافعى» حتى تركه حطاما.. ولم يجد «شافعى» سبيلا إلا أن يتحسر على «جبل» وأيام «جبل»...

وشـوهد «شـافعى» والفجر يوشـك أن يطلع يصحب زوجه الحامل حاملين متاعيهما الضئيل فارين من الحارة خوفا من مزيد من العدوان وخوفا من أن ينال العدوان طفلهما القادم فى الطريق.. مضيا حتى وصلا إلى الخلاء، وعند صخرة «هند» ركنت المرأة لتسـتريح قليلا وتلتقط أنفاسها لتواصل من بعد الرحلة إلى «سوق المقطم» حيث انتوى «عم شافعى» أن يفتح محـلا للنجـارة ليعيش هو وزوجه ووليده من كد عمله. ولما أبدت الزوجة حسـرتها لفراق الحـارة والبعد عن الأهـل راح يذكِّرها بما كانا يلقيان فى الحارة من مذلة وإهانة وبما كان يهددهمـا من أخطار.. وبخاصة بعـد أن تأكد لديه أن جدهما – «الجبلاوى» – لن يظهر ثانية، فقد اعتزل فى البيت إلى الأبد.. ومع ذلك راح يردد نداءه «للجبلاوى» إلى أن نهضت «عبده» زوجه، تناول كفها في يده، وسارا نحو الجنوب، نحو سوق المقطم.

* * *

واسـتقر بالمهاجرين المقام فى سوق المقطم، وأنجبا وليدهما «رفاعة»، الذى نشأ فى غير موطنه الأصلى فلم يعرف له موطنا سـوى «سوق المقطم» ولارفاقا سوى من عاشرهم ولاعبهم فى «السوق»، ونما «رفاعة»، وشب عن الطوق، طالت قامته، واشتد عوده، ولكنه ظل عودا نحيلا يميزه وجه مضاء لفتى جذاب المنظر ينضح بالوداعة والرقة..........

ولكن عن لتلك الأسرة من بعد أن تعود إلى الحارة، وبخاصة بعد أن توفى «زنفل» الفتوة ليحلّ محله «خنفس» ويسير سيرته فى النهب والعدوان..

عـاد الغريبـان وإن أصبحا ثلاثة وكان الشـوق إلى الحارة طاغيا بالنسـبة للأبوين أما «رفاعة» فكان إحساسه الأول هو الغربة فى ذلك المكان الجديد غير المألوف إليه وإن كانت «عبده» تحاول أن تحببه إليه بأنه حارته الأصلية حيث أهله سادة الحارة وما أجمل حى «آل جبل» بعد وفاة «زنفل»..

والتقــوا بأهــل الحارة الذين تلقوهم مرحبين.. وكانت نظــرات «رفاعة» تتأمل ما حوله فى شــغف وهو يســتمع إلى أمه تحدثه عن «البيت الكبير» بيت جده صاحب هذه الأرض حاكمهــا ومــا عليها.. وأنه لولا عزلته لملأ الحارة نورا.. وقد أكمل «عم شــافعى» الحديث بقوله: وباسم هذا الجد ينهب «الناظر» الحارة ويعتدى الفتوات علينا..

مالت الأســرة إلى حى «جبل»، فصادفهم من رحب بهم وأخذهم بالأحضان، ولكنهم واصلوا السير، و«رفاعة» يتفحص ما حوله فى اهتمام وشغف، ومضت عيناه فى التجوال حتــى وقفتــا عند نافذة، تطلّ منها فتــاة راحت تحملق فى وجهــه باهتمام فلما التقت عيناهمــا رفعــت ناظريها إلى الأفق، وسمع من يردد إنها «عيشــة بنت «خنفس»، نظرة إليها تسبب مذبحة».

وواجههــم بعد قليل «خنفــس» يرفل فى جلباب فضفاض، وينظر فى عدوانية وتحرش فتســارع الجميع يقدمون إليه الأســرة الجديدة التى انحنى أفرادهــا يلثمون يده، ويبدون آيــات الــولاء والاحترام.. وصافحهــم باحتقار.. وهو يهدّدهم بأنهم لــن يجدوا منه مهربا عنــد الغضــب عليهم.. ومضوا و«عبده» تقول إن المعلم لــن يجد منهم إلا كل طاعة وولاء.. وصحبهم كثيرون إلى مأواهم الجديد.. وتراءت فى نافذة مطلة عليهم فتاة حسناء ذات جمال وقح، وقفت تمشــط شعرها.. وهى تتساءل فى دلال عمّن يكون القادم كالعريس فى الزفة.. فتضاحــك الجميع وقــال رجل: جار لك جديد يا «ياسمينة» ســيقيم فى الدهليز أمامك.. هتفــت ضاحكة: ربنا يزيد فى الرجال وتوقفت عيناهــا على «رفاعة» باهتمام وإعجاب.. ولكنه تبع والديه إلى باب مســكنهما الجديد المقابل لمســكن «ياسمينة» على الجانب الآخر من الدهليز.. وصوت «ياسمينة» يغنّى، «آه من جماله يامه».

* * *

ســارت الحياة بالأســرة فى الحارة مسارها الطبيعى – فتح «عم شافعى» دكان النجارة ومضى هو وابنه إلى الدكان، جلســا على عتبته ينتظران الرزق. خرجت «عبده» تتســوق – راح الرجــل يحــدّث ابنه عن «الدهليز المبارك» الذى أغرق فيه «جبل» الأعداء.. وفيما هما يتحدثــان وصــل إلى سمعهما صوت فيه غنج مناديا «عم يانجار» نهض الأب ورفع رأســه فــرأى «ياسمينة» تطلّ من النافذة وضفيرتاهــا الطويلتان تتأرجحان.. طلبت إليه أن يبعث

صبيــه ليأخذ «الترابيزة» لإصلاحها، صعد «رفاعة»، وجد الباب مفتوحا، و«ياسمينة» فى جلباب بنى ذى كلفة بيضاء حول الطوق وفوق نهضة النهدين، حافية وعارية الســاقين، لبثت صامتة.. ثم أشــارت إلى «الترابيزة» بثلاثة أرجل والرجل الرابعة فى ركن الصالة - حمل «رفاعة» حمله ومضى..

عند المساء ذهب الرجل وابنه إلى قهوة «جبل».. حيث أبديا للفتوة تحية الخضوع، ثم جلسا ليستمعا إلى جواد الشاعر يمضى يقص حكايته، ويروى أشعاره وكلها «حكايات حارتنا» بدءا من «الجبلاوى» ومرورا «بأدهم» ومن عاصره، ثم حديث «جبل»، اســتمع «رفاعة» إلى هــذه الحكايات جميعها، فوجد فيها عزاء عن ملاعب ســوق المقطــم وخلواته، كما وجد فيهــا راحــة لقلبه المحترق بهيام غامض غموض البيت الكبير المغلق دون أن يكون فيه أثر لحيــاة.. وأبدى «رفاعــة» لأبيه رغبته فى أن يزور المقاهى الأخرى، وتلمســا طريقهما إلى البيت فترامت إليهما من بيت «ياسمينة» ضجة مخمورة.. وكان ما قاله «رفاعة» أنه سوف يزور «عم جواد» الشاعر.

وعندما طرق «رفاعة» باب جواد الشاعر تلقاه هذا الأخير بترحيب ومضى به إلى حجرة صغيرة مربَّعة اصطفت بأضلاعها الشــلت وانبســطت فوق أرضها حصيرة مزركشة، ونادى الرجــل زوجتــه فجاءت «أم بخاطرهــا» حاملة صينية القهوة: امــرأة فى منتصف الحلقة السادســة مســتقيمة العود، قوية البنية - تلفت النظر إليها بعينين نافذتين، ووشــم فوق الذقــن، فأثنى لها «جواد الشــاعر» على الضيف بأنه «سميع» فــكان جوابها التلقائى إن حكاياته جديدة عليه، معادة عليهم ولم يرتض الشاعر هذا التعليق فقال بغيظ إن هذا صوت عفريــت مــن عفاريتها ثم يلتفت إلى «رفاعة» ليخبره بأن «الوليــة كودية زار» فتطلع إليها «رفاعــة» باهتمام، والتقت أعينهما تمــد إليه يدها بفنجان القهوة، ذاكرا كم كانت تجذبه دقة الزار فى ســوق المقطم! ودارت بينهم أحاديث قال «رفاعة» إنه كم سمع من أبيه عن الوقف ومشــاكله، ولكنه مال إلى حديث أمه عن جده وأهله.. ولفتت صورة مرســومة على الحائط نظر «رفاعة» - تمثِّل رجلا هائلا تبدو إلى جانبه ربوع الحارة ضئيلة.. وعندما سأل عــن صاحب الصورة أجابتــه «أم بخاطرها» إنه «الجبلاوى» رسمه المبيِّض على مثال مايرد من أوضاعه فى الحكايات..

وتساءل «رفاعة» موجها تساؤله إلى «أم بخاطرها»: من أين أتتها القدرة على العفاريت؟ فأجابته بأنها حرفتها كما أن النجارة حرفة «عم شافعى».. جاءتها من وّهاب المنح...

وقطع عليها الحديث صوت «عم شـافعى» يصلهما متصاعدا من الحارة ينادى «رفاعة» لينزل إلى الدكان، فقام «رفاعة» إلى النافذة وأطلّ منها ليعد أباه بأنه سـيمضى بعد نصف ساعة، وعندما أخذ «رفاعة» يغلق النافذة رأى «عيشة» فى موقفها كما رآها أول مرة، ترنو إليه باهتمام. وخيل إليه أنها ابتسـمت أو أن عينيها تكلمتا.. وتردّد لحظة، وما لبث أن أغلق النافذة وعاد إلى مجلسـه.. وعندما سـأله جواد عمّا يرغـب أن يكون – كان جواب «رفاعـة»: «علىّ أن أكون نجارا كأبى، ولكنى أحب الحكايات وهذه الأسـرار التى تدور حول العفاريت التى أرجو أن تحدثنى عنها عمتى» فكان جوابها أن طلبت إليه أن يلازمها كلما سمح الوقت ولكن على شرط ألا يغضب «عم شافعى»..

ومضـى وقد أثارت «أم بخاطرها» خياله كما لم يثره شـىء مـن قبل.. وإن لزم الدكان وعمل فى النجارة إلا أنه كان يفكّر طويلا فيما تقول أو تفعل «أم بخاطرها»، وقد رسـبت فى نفسه أحاديثها: لكل إنسان عفريت هو سيده، وكما يكون السيد يكون العبد.. وكم من ليلة قضاها فى حضرة «السـت» يتابع دقات الزار، ويشـهد ترويض العفاريت.. وقالت له المرأة إنه أول رجل يرغب فى هذا العمل وسـألته عما اسـتهواه فيه، فأكد قائلا: إن أحكم ما فى عملك أنك تهزمين الشر بالطيب الجميل.. ولما مضت تبيح له أسرارها طاب نفسا.. وقد تعود أن يصعد إلى سطح الربع فى نشوة الفجر ليشهد يقظة النور. ولكن البيت الكبير كان يسـتأثر بلبّه دون النجوم والسكون.. ويرنو إليه طويلا متسائلا: أين أنت ياجدى؟ لم لا تظهـر ولـو لحظة؟ لماذا لا تخرج ولو مرة؟ لماذا لا تتكلم ولـو كلمة؟.. وكان كلما أفضى بخواطره إلى أبيه سمع عتابا.. لأن عمله أولى باهتمامه.

* * *

ويومـا كانت أسـرة «رفاعة» مجتمعـة بعد الغداء.. قالت «عبده» وهـى تنظر إلى ابنها بإعجاب: خبر سـعيد يا «رفاعة»، زارتنى سـت «زكية» زوجة فتوتنا «خنفس»! ورددت لها الزيارة بطبيعة الحال، فاسـتقبلتنى بحفاوة، وقدمت لى ابنتها «عيشـة»، بنت جميلة «كالقمر»، ثم زارتنى مرة أخرى ومعها «عيشة».

ولما لم يبد «رفاعة» تجاوبا للحديث.. قالت له أمه: فلنذكر أن «خنفس» سيد «آل جبل»، وأن صداقة أهله دعاء مستجاب، فما كان من «رفاعة» إلا أن قال في ضجر «مباركة عليك هـذه الصداقة».. ضجـر الأبوان من ابنهما الذى يتجاهل الأمـر.. وراحت «عبده» تناجيه بإغراء ورجاء بأنه وحده الذى بيده أن يدخلهم جميعا نظارة وقف «آل جبل»، سـيرحبون بـه إذا هو تقدم لخطبة «عيشـة»، حتى «خنفس» سـيرحب به؛ إذ لـولا ثقة امرأته من موافقته ما أقدمت على الزيارة.. إن أمامه جاها سـوف تحسـده عليه الحارة من أولها إلى آخرها.. وتضاحك «عم شافعى» وهو يقول: «ومن يدرى لعلنا نرى «رفاعة» يوما ناظرا لوقف «جبـل».. نحن اليوم نعيـش كما يعيش غيرنا، فلا يجوز أن نهمـل انتهاز فرصة جاءت بنفسـها إلينا..» وكان جواب «رفاعة» تسـاؤلا: كيف أصهر إلى عفريت وأنا لا أهتم اليوم إلا بمطاردة العفاريت.. ثم أعلنها صريحة بأنه لن يتزوجها.. ورغم مناشـدة أمه وأبيه إلا أنـه أصر على رأيه.. مما زاد انقبـاض «رفاعة»، وضيقه لحد البكاء.. حتى بدا البيت فى ناظرية سجنا كئيبا.. وأدرك «رفاعة» أن مراده ليس فى هذا المكان، ولا بين هؤلاء الناس.. وفجأة قام فغادر الحجرة..

* * *

تغيب «رفاعة» عن الدكان: مضى النهار يزحف وضوء الشـمس ينحسـر: دون أن يظهر «رفاعة»، وأتى المسـاء فأغلق الرجل الدكان وهو فى غاية الضيق.. قصد كعادته القهوة، فلما رأى «جواد» الشـاعر قادما وحده تولاه العجب وسـأله عن «رفاعة»، فلما أخبره بأنه لم يره منذ الأمس ضاق «شـافعى» وقام مغادرا القهوة ماضيا إلى بيته، لينقل قلقه إلى «عبده».. التى صحبته إلى سوق المقطم، ليعودا إلى الحارة كما ذهبا ولكن على حال من الجزع أشد.. ومرضت «عبده» من الحزن، وعمل «شـافعى» فى دكانه بعقل شـارد، أمـا «زكية» زوجة «خنفس»، فقـد انقطعـت عن زيارة «عبده» وتجاهلتها فى الطريق. ويوما كان «شـافعى» مكبا على عمله إذ صاحت به «ياسمينة» وهى عائدة من مشـوار: «عم شـافعى» انظر وجدها تشـير إلى نهاية الحارة عند الخلاء – نظر فرأى ابنه «رفاعة» يتقدم نحو الربع فى استحياء، هرع الأب نحو ابنه، وراح يسأله أين كان، فلا يجد منه جوابا، واقتربت منه يا«سمينة» وسألته فى ارتياب أين كان، فلم ينظر نحوها وسـار به أبوه إلى البيت رأته أمه وثبت من الفراش مبدية الشـوق والحنين فتناول راحتها بين يديه وأجلسها على الفراش وجلس إلى جوارها.. وحاول أبوه أن يحادثه فقال إن الأمر لا يعدو أنهم قصدوا إسعاده.. فقال «رفاعة» بحزن إنه متعب، فسأله

صوت: وأين كان ؟.. فكان جوابه أنه ضاق بحياتة فذهب إلى الخلاء، شعر برغبة فى الوحدة والخلاء. وراح أبوه يعبِّر عن تحســره بقوله: ما هكذا يفعل العقلاء! فراحت «أم بخاطرها» تقول: ليس حاله بالغريب علي: صَّدقونى إنه شاب نادر المثال. ليس فى الحارة فتى مثله.. وصاحت «أم بخاطرها» «بشافعي» مردِّدة: وحِّد الله يارجل. أنت لا تدرى ما تقول، ولا تفهم ما يقال.

* * *

«رفاعــة» يتداخل في الحديث الــذى كان يدور فى الدكان بين عدد من أقطاب الحارة فيعارضهــم بمثل قوله: «أراد اســتخلاص حقنا بالحســنى، ولم يعمــد إلى القوة إلا دفاعا عن نفســه» وقوله: «لايعوزنا الجبروت، كل ســاعة من نهار أو ليل نرى أناســا يضربون ويجرحــون ويقتلــون.. ولكن أين العدل؟ ما أقبح هذا كله» وعندما قال أحدهم إن القوة هى الواجبة، وبغيرها لا يســود العدل قال «رفاعة» وبإصرار: «الحق أن حارتنا فى حاجة إلى الرحمة».. وعندما انفض المجلس ترك «عم شافعى» عمله ليعاتب ابنه طالبا إليه: «لاتحشر نفسك فى أحاديث أولئك الناس» ما كان من «رفاعة» إلا أن وقف أمام أبيه. ثم تناول يده وتراجع به إلى ركن الدكان بعيدا عن الآذان. بدا منفعلا، لكن انطبقت شــفتاه فى تصميم، وشع من عينيه نور عجيب.. وهو يقول:

- «لن أستطيع السكوت بعد اليوم».. ليقول بعد ذلك بهدوء غريب:
- «لايجــوز أن أخفى عليك ما قر فى نفسي»وســأله أبوه عمــا عنده فاقترب منه أكثر وهو يقول:

(أمس عقب خروجى من بيت الشاعر عند منتصف الليل شعرت برغبة فى الانطلاق.. فقصــدت الخلاء، مشــيت فى الظلام حتى تعبت، ثم اخترت مكانا أســفل ســور البيت الكبير المشــرف على الخلاء فجلست مســندا ظهرى إلى السور.. سمعت صوتا غريبا يتكلم كأنما يحدث نفســه فى الظلام فدهمنى شــعور مشرق بأنه صوت جدنا «الجبلاوى») قمت حال سماعي الصوت فاســتدرت نحو البيت، وتراجعت إلى الوراء لأتمكن من رؤيته ولكنى لم أر إلا ظلامــا.. سمعت الصوت وهو يقول (أما «جبل» فقد قام بمهمته وكان عند حســن الظــن بــه، ولكن الأمور ارتدت إلى أقبح مما كانت عليــه!).. وقد جاء الصوت من البيت هتفــت قائلا: (ياجدى، «جبــل» مات، وخلفه آخرون، فمد إلينا يدك).. ومضى «رفاعة»

يكمل حديثه قائلا: «جدى سمعنى، وجاءنى صوته قائلا: (ما أقبح أن يطالب شاب جده العجوز بالعمل، والابن الحبيب متى يعمل.؟) فسألته: (وما حيلتى حيال أولئك الفتوات أنا الضعيف؟) فأجابنى: (الضعيف هو الغبى الذى لا يعرف سر قوته، وأنا لا أحب الأغبياء).. وهنا ضاق «شافعى» فتساءل مستنكرا أن يكون شىء من هذا قد حصل أو أن «رفاعة» قد دار بينه وبين «الجبلاوى» هذا الكلام – ولكن «رفاعة» يؤكد صدق ما يقول مقسما برب السماوات – ويكون تعليق «شافعى» متوجعا قوله: إن الأوهام خلاقة المصائب!

ومضى «رفاعة» وكأنه لم يسمع ما قاله أبوه قائلا: «صدقنى يا أبى، ليس فيما أقول شك.. فأنا الآن أعرف ما يراد منى.. نعم، إنى ضعيف، ولكنى لست غبيا، والابن الحبيب من يعمل.. وأنا لا أتطلع إلى الوقف.. فما أتفه الوقف إن أمكن بلوغ الحياة الصافية بدونه، وهذا أمر ممكن لمن يشاء، وبوسعنا أن نفنى منذ الساعة.. جدى قال إنه لا يحب الغباء، وقال إن الغبى هو الذى لا يعرف سر قوته، وإنى آخر من يدعو إلى قتال فى سبيل الوقف. الوقف لاشىء يا أبى، وسعادة الحياة الغناء هى كل شىء، ولا يحول بيننا وبين السعادة إلا العفاريت الكامنة فى أعماقنا، ولم يكن عبثا أن أشغف بطب العفاريت وأن أحسنه، لعلها إرادة رب السماوات هى التى دفعتنى إليه».

نظر «عم شافعى» فى أركان دكانه متحسِّرا على قلة دخله ثم متسائلا: ماذا سيأتى به الغد من جراء ما يقول «رفاعة» أجاب «رفاعة» بأنه لن يأتى إلا كل خير، لأن شفاء المرضى لن يقلق إلا العفاريت..

وتوهج ضياء فى الدكان منبعث من مرآة صوان قرب الباب عاكسة شعاع الشمس المائلة.

* * *

قلقت «عبده»، ولكنها راحت تطمئن نفسها بأنه طالما ركز اهتمامه بالنفوس لا بالوقف ومادام لا يؤذى أحدا فلن يؤذيه أحد.. وكان ذلك خلال حديث جرى بين الزوجين – أما «رفاعة» فكان فى الخارج.. فى أقصى الحارة عرس تترامى منه أصوات طبل وزمر وزغاريد ولكن تلك الأنغام ما لبثت أن اختفت وراء ضجة انفجرت فى الدهليز، وأطلا من نافذة ليجدا الدهليز مزدحما بالرجال، وقد اختلطت الأصوات، وعمَّت الضوضاء.. وأصوات ترتفع: «هذه المرأة مجنونة.. إنها لا تعرف معنى الشرف» وسرعان ما ظهر «خنفس»

يتســاءل عن الخبر، فأجابه أكثر من صوت: «ياسمينة» لوثتنا وراحوا يحكون أنها رئيت منذ قليل خارجة من بيت «بيومى» الخلفى.. وهى فى غاية الســكر، كانت رائحة الخمر تخــرج من فيها فتملأ المكان.. فماذا كانت امرأة ســكرانة تفعل فى بيت فتوة؟ وكان ذلك امتحانا لفتوة «خنفس»، فماذا يفعل ازاء فتوة الحى؟ والأصوات تتعالى بضرورة إقامة الحد. وترامت صرخات «ياسمينة» من وراء الباب.. وتساءل «رفاعة»: أليس الأولى أن يصبوا جام غضبهم على «بيومى»؟ واحتدم النقاش وصاح من صاح إن الكلمة للمعلم. وتعالت صرخات «ياسمينــة»، فأفلــت «رفاعة» من يد أبيه وهــو يهتف برجاء: رحمــة بضعفها وذعرها.. ارحموهــا.. ألا تحرك الاســتغاثات قلوبهم؟ فلما لم يزجرهم رجــاؤه.. أعلنها عالية: هل يرضيكــم أن أتزوجهــا؟ وأجابوه أن ذلك بعد أن تنال جزاءهــا، ولكن «خنفس» وجد فى اقتراح «رفاعة» منقذا له من ورطته وإن لم يكن – فى قلبه – مقتنعا به.. فقال «خنفس»: الولد ارتبط أمامنا، فله ما يطلب.. وإذ اعترض أحدهم على هذا الحل إذا بقبضة «خنفس» تحطـم أرنبــة أنفه فتراجع مولولا والدم يســيل من أنفه وكان ذلــك داعيا لتأييد «خنفس» وإســكات كل صوت يعارضه، بل ذهب الجميع يترضونه.. وعندما جاراهم «عم شــافعى» وراح ليصافح «خنفس» فإذا بهذا الأخير يستشــيط غضبا ويضرب يد «شــافعى» بظاهر كفه فتأوه الرجل وهرع إليه ابنه وزوجه على حين غادر «خنفس» الدهليز وهو يسب الجميع.. وكان ما قاله «عم شافعى» إن الجبان نسى أن ابننا الأحمق هو الذى أنقذه من «بيومى».

* * *

وكان فيما حدث خيبة أمل كبيرة «لشــافعى» و«عبده»، وقد صار هذا التصرف مضغة فــى الأفواه، غير أن «ياسمينــة» هرعت بعد الحادث إلى بيت «عم شــافعى» وجثت أمام الرجل وزوجه باكية وســجدت على قدميها ببعــض ما فاض به قلبها من الامتنان بعد أن أعلنــت فــى حرارة وجد توبتها وإذا لم يكن من المكن العدول عن إتمام الزواج فقد ســلم الجميع بضرورة ذلك وإن كانوا موقنين باســتحالة عمل زفة للعروســين، فلن يشارك فيها أحد. وتم الزفاف، وانتقل «رفاعة» إلى بيت «ياسمينة».. بدت الفتاة فى ثوب العروس آيه فــى الجمال، وإلى جانبها جلس «رفاعة» فى جلباب حريرى مهفهف وعلى الرأس لاســه مزركشه وفى القدمين مركوب فاقع الاصفرار. جلس العروسان على كنبة يقابلها فى الناحية

الأخرى الفراش المورّد، وقد لاحت في مرآة الصوان صورة الطشت والإبريق تحت الفراش. ومن الطبيعي أن تنتظر العروس من رجلها هجوما أو في الأقل تمهيدا للهجوم المنتظر وهو ما لم يحدث وقد لبث يـردّد البصر بين الفانوس المدلّى من السـقف والحصيرة الملونة.. وقد حاولت بأكثر من وسـيلة أن تسـتثيره.. وأخيرا سألته: ماذا عندك لي؟ فكان جوابه: السـعادة الحقيقية.. واتجهت بخطوات ثقيلة نحو الفراش وجلست على حافته في فتور، ورنا إليها بحنان وهو يقول لها إنها كجميع أهل حينا لا تفكر إلا في الوقت الضائع.. ثم طلب إليها أن تأخذ راحتها وتنام على السـرير، لأنه سينام على الكنبة.. وأدارت وجهها إلى الحائـط وقلبها يحترق غيظا وقلقا.. أمـا «رفاعة» فقام إلى الفانوس وأخفض ذبالته، ثم نفخه، فانطفأ وساد الظلام.

* * *

ومضى «رفاعة» في حركة دائبة بعد أن انقطع عن الدكان ومضى يدعو من يصادفه من «آل جبـل» إلى أن يثـق فيه كي يخلصّه من عفريته، فيحقق بذلك سـعادة صافية لم يحلم بهـا من قبل وتهامس الأهل بأن «رفاعة» خف عقله وأصبح في زمرة المجذوبين.. وتراءى له أن يعرض خدماته على «أم بخاطرها» التي اسـتنكرت أن يكون عليها عفريت شـرير، فأكـد لها أن تلك هي الحقيقـة لأنها لا تخلو من طمع يحملها على الاتجار بالمرضى، فلو تخلصت من سيدها لو هبت الخير بلا ثمن!!.. وقد قابلت «أم بخاطرها» قوله بالضحك.. وقد تداول ما دار بينهما من حديث بين الأهل والمعارف.. ولم يتردد «رفاعة» في أن يقول لأبيه أنه نفسـه في حاجة إلى «رفاعة»، وأنه من البرّ أن يبدأ به.. فهز الرجل رأسـه في كمـد مـرددا: أما كفاك أن جعلتنا أحدوثة الحيّ.. ثم مضى «رفاعة» إلى إحدى الغرز التي يعرف مرتاديها — الذين تطلعوا إليه بغرابة واسـتقبلوه بسخرية وكلمات جارحة حتى إن «زيتونة» قال له: «على زوجتك عفريت اسمه «بيومي»، فخلصها منه إن استطعت» ورغم ذلك لم يغضب «رفاعة».. وكان جوابه — هو أن يقول لهم: إنه لا يريد لهم غير السـعادة — وقد ووجه بتسـاؤل موجّه إليه عمّن أخبره بأنهم غير سـعداء؟!.. وغادر المكان وبعضهم ينظر نحوه في رثاء وعاد إلى بيته بفؤاد كسير.. غير أن «ياسمينة» استقبلته بابتسامة هادئة بعد أن كفت عن لومه يائسـة، ووطنت نفسـها على الصبر على تلك الحياة التي لا تدرى على أي وجه ستنتهي.

ودق الباب، فإذا بالقادم «خنفس» ليسأله: ماذا قلت عن الوقف فى غرزة «شلضم»؟ فكان جواب «رفاعة» فى هدوء: قلت إن جدنا يود لنا السعادة، فلما سأله عن الوقف – وهو قابض على منكبه بيد شديدة – كان جواب «رفاعة» وقد أنهكه الآلم: لا يعنينى الوقف فى شئ، لأن السعادة التى لم أحققها بعد لأحد هى شئ آخر غير الوقف، وغير الخمر، وغير الحشيش. قلت ذلك فى كل مكان بالجبل، وسمعنى الجميع وأنا أقوله... فهزه مرة أخرى وهو يهدده ثم دفعه فهوى على ظهره، وهرعت إليه «ياسمينة» لتواسيه، وتدلك له منكبه من الوجع – عند خروجه لقيته امرأة من غير أهل الحى، بادلته التحية فى احترام وتوقير، وقالت له بضراعة إن ابنها ممسوس وهى ترجو أن يخلصه، وكان «رفاعة» «كآل جبل» يحتقر أهل الحارة فاستنكف أن يضع نفسه فى خدمة المرأة فيضاعف من ازدراء آله له.. فسألها: ألا توجد كودية فى الحارة؟ قالت المرأة بصوت باك: «بلى ولكنى امرأة فقيرة.. رق لها قلبه، كما أسره لجوؤها إليه – بينما لم يكن من آله إلا الهزء والاحتقار – نظر إليها فى تصميم وهو يقول لها إنه طوع أمرها.

* * *

وقد أعقب ذلك بأن انتقل من حى «جبل» إلى حىّ آخر.. وجد فيه من يستجيب له، ومن يقبل عليه، فنشط إلى عمله.. وراح يغرى «ياسمينة» بأنها ستكون أجمل وأفضل عندما تقهر ما يملؤها من الغرور، فليس «آل جبل» بخير أهل الحارة. إن خير الناس أطيبهم.. وها هم هؤلاء الناس الطيبٌون يقبلون عليه، ويبرءون على يديه من العفاريت. كان جواب «ياسمينة» أن كل الناس هنا يعملون بأجر إلا «رفاعة».. ولم يجادلها «رفاعة»، وكان كلّ ما قاله «لولاى ما وجد الفقراء من يشفيهم. إنهم يقدرون الشفاء ولكن لا يملكون ثمنه، وأنا ما عرفتُ الأصدقاء حتى عرفتهم» والحق أن «رفاعة» لم يلقَ من عمره أسعد من هذه الايام. كان يدعى فى الحى الجديد بالمعلم «رفاعة»، وكانوا يدعونه بها فى إخلاص ومحبة، حيث عرف أنه يخلص من العفاريت ويهب الصحة والسعادة لوجه الله وحده.. وكان لكل من برئ على يديه قصة يرددها.

وقد اصطفى «رفاعة» من مرضاه أربعة رجال هم «زكى» و«حسين» و«علىّ» و«كريم» – اصطفاهم لصداقته فصاروا إخوة. لم يعرف أحد منهم الصداقة ولا الحب من قبل أن

يعرفه.. كانوا قبل أن يعرفوه من أسوأ الخلق، فانقلبوا – بعد معرفته – رجالا ذوى قلوب كبـيرة، يجتمعون فى الخلاء عند صخرة «هند» حيث الهواء والخلاء، فيتبادلون أحاديث المحبة والمودة والصفاء، ويتطلعون إلى طبيبهم بأعين تفيض بالحب والإخلاص، ويحلمون جميعا بسـعادة تُظل الحارة بأجنحتها البيضاء. وبدت الغبطة فى الوجوه.. وابتسـم إليهم «رفاعة» قائلا: «سـتكونون مفاتيح السـعادة فى حارتنا».. وعند عودتهم إلى حيهم وجدوه يضـئ بأنوار عرس فى أحد الربوع، ورأى كثيرون «رفاعة» فأقبلوا عليه مصافحين. وتغيَّظ فتوة الحى، فقام من مجلسـه وهو يسـب ويلعن، ويصفع هذا وذاك ثم تحـول إلى «رفاعة» سائلا: «ماذا ترى فى نفسك يا ولد ؟» فقال «رفاعة» فى رقة: «صديق المساكين يا معلم».. فصاح الرجل: «إذن امشـى كما يمشى المساكين لا كعريس الزفة. أنسيت أنك طريد حى، وزوج «ياسمينة»، وكودية زار؟».. وبصق فى تحرش. وتباعد الناس. وسـاد الوجوم. ولكن زغاريد الفرح غطت على كل شئ.

* * *

ورغـم ما أبدته «ياسمينة» من إخلاص «لرفاعة»، ومن توبة عما كانت عليه.. فإنها قد تسـللت من وراء ظهره إلى الفتوة «بيومى» الذى كان ينتظرها خلف باب البيت الخلفى، فى خفية من الأمر حيث يتم اللقاء ثم تعود من حيث كانت إلى بيتها فى سـتر من أمرها فى ذهابها ثم فى عودتها.

* * *

كان لابـد «لبيومى» أن ينقـل إلى «الناظر» كل ما يجرى فى الحـارة متصلا «برفاعة» وأتباعه المخلصين، وقد ألمح «بيومى» إلى ما وراء ذلك من خطر يمسُّ الوقف إذ أن «رفاعة» يـردِّد أنه تلقىَّ من «الجبلاوى» ما هو قائم به. وخَلَصَ إِلىَ أن «رفاعة» مشـاغب معتوه من «آل جبل» يزعم أنه اتصل بالواقف.. واتفقا – «الناظر» و«بيومى» – على ضرورة الإسراع بالعمـل، فـكان أن دعـا «بيومى» إليه كل الفتـوات.. واتفقوا فيما بينهـم على أن يتولى «بطيخة» فتوة الحارة التى يسكن فيها «جبل» مهمة التأديب. وحينما لقى الفتوة «رفاعة» فى اليوم التالى أمره بأن يعود إلى بيته ولا يخرج منه وتهدده – فى حالة العصيان – بكسر رأسه.. لكن «رفاعة» لم يرضخ، ولم يبد القبول، بل راح يجادل.. فما كان من «بطيخة» إلا أن لطم «رفاعة» لطمة دفعته إلى جدار الربع مترنحا.. ورأت امرأة الواقعة فانطلق «صواتها»

حتى ملأ الحارة، وتبعها نسـوة أخريات، وارتفعت أصوات اسـتغاثة من أجل «رفاعة»، وفى لمـح البصـر جرى نحو المكان كثيرون، وما لبث أن ازدحـم الموقع بمحبّى «رفاعة» من الرجال والنساء، ودهش «بطيخة» ودفعه الموقف أن يعاود لطم «رفاعة».. فتصايح الواقفون فى انزعاج، واعتراهم انفعال شـديد.. وتعالت احتجاجات.. ثم أخذ الطوب يتساقط أمام «بطيخة» ليمنعه مـن فعل شـئ ووجد الفتوة نفسـه فى مركز حرج، كان الموت أهون عليـه مما هو فيه، وكان الهجـوم يهدد بالقضـاء عليه تحت وابل الطوب، وكان فى السـكوت الإجهاز على فتونته.. واسـتمر تسـاقط الطوب وتمادى القوم فى تحديهم.. وكان «رفاعة» هو الذى أنقذ الموقف، فقد اندفـع حتى وقـف أمام «بطيخة» ولوَّح للقوم بيديه حتى سـاد السـكوت.. وطلب إليهم أن يتفرقوا، وفهم الناس أنه يريد أن ينقذ كرامة الفتوة حلا للأزمة، فتفرقوا.. حتى أقفر الحى..

* * *

وكان لمـا حـدث رد فعلـه لدى «الناظر»، حتـى لا يدخل فى عقيـدة أهل الحارة أن التكافـل يضمـن لهم الصمود أمام الفتوات، لذلك وجـب القضاء على «رفاعة».. لأنه ليس بالدرجـة التـى يبدو عليها من الضعف فوراءه محبون اسـتطاعوا إنقاذه رغم أنف الفتوة.. وفكر «بيومى»، فلم يجد بدا من العدول عن الاعتماد على «بطيخة»، فأرسل فى استدعاء «خنفس» إلى مقابلته فهو فتوة «آل جبل» ولا يمكن المساس «برفاعة» إلا عن طريقه. وقد لقى «عم شـافعى» «خنفس» وهو فى طريقه إلى «بيومى»، اعترض سبيله مستعطفا بأنه «فتوتنا وحامينـا.. فلا تتخل عـن رفاعة» فكان جواب «خنفس»: «إنى أعلـم الناس بما تقتضيه مصـالح آل جبل» ثم مضى إلى معلمه اسـتجابة لدعوته.. حيـث دعى «رفاعة» لمقابلتهما، ودار بينه وبينهما حوار عجيب، كان ما قاله الفتوة هو الهزء والسخرية، واتسمت إجابات «رفاعـة» بالحكمة والهدوء. وكان كل ما قصد إليـه «خنفس» هو أن يثبت عليه أن قصده هو مال الوقف.. فلما أكد نفيه لذلك وإن غايته ليسـت إلا سـعادة أهل الحارة.. متسـائلا عما يدعوهم إلى كراهتهم للسـعادة وهى بين أيديهم.. فصاح فيه «بيومى» إنها ملعونة تلك السعادة التى تجئ من مثله.. وطلب إليه بأن يقلع عما هو ماض فيه من خداع.. ولما خرج «رفاعـة» — تجرأ «خنفس» بأن طلب من «بيومى» أن يدعه له.. لكن «بيومى» علّق بقوله إن «لرفاعة» محبين كثيرين، ونحن لا نريد مذبحة.

* * *

تشـاور «رفاعـة» مع أصحابه الأربعة بعد أن قص عليهم مـا جرى. بادرت «ياسمينة» تحذرهم بقولها: إنه لا يجوز الاستهانة بأمر «بيومى». فلما أجابها الصحاب بأن «لرفاعة» أصدقـاء هزموا «بطيخة» فاختفى مـن الحارة كان تعليق «ياسمينة» إن ذاك كان «بطيخة» لا «بيومـى»، وأنهم إذا تحـدوا «بيومى» فقل عليهم السـلام.. وكان جواب «رفاعة» أنه ورفاقه لا يفكرون فى العراك وأن الذى يشـقى لإسـعاد الناس لا يهون عليه سفك دمائهم. وإذ استمعت «ياسمينة» إلى ذلك القول وجهت حديثها إليه بأن خير ما يفعل هو أن يرحم نفسـه مـن ذلك العناء.. انفعل «زكى» محتجا قائلا إنهم لـن يتركوا هذا العمل وإن تركوا الحارة.. ولكن «رفاعة» حسم الموقف بقوله: لا أحب أن أهجر حارتنا.

دق الباب فإذا القادم «عم شافعى» و«عبده». تلقاهما «رفاعة» بالعناق، جلسا ووجهاهما ينطقـان بما يحملان من أنباء «مزعجة»: فقد تخلـّـى عنه «خنفس»، وحياته فى خطر، وأعـوان الفتوات لا يكفون عن الحومان حول البيت.. وتأوه «رفاعة» وهو يردد: ماذا فعلنا مما نسـتحق عليه العقاب ؟! وكان تحذير «عم شـافعى» لابنه بأنه هالك إن غادر البيت وليس فى أمان إن بقى فيه..

تسـرب الخوف إلى القلوب، واقترح «كريم» عليهم أن يهربوا إلى بيته من فوق الأسطح وهناك يفكرون فيما ينبغى عمله. أكمل «عم شـافعى» الخطة بقوله: ومن هناك تهربون من الحارة ليلا.. ثم قائلا «لرفاعة» إنه يسـتطيع أن يسـتأنف عمله فيما وراء الخلاء إن شاء.. وأكمل «كريم» خطته بأن المعلم «شـافعى» وزوجه يبقيان قليلا ثم يذهبان إلى ربع النصر، وتخرج «ياسمينة» إلى الجمالية كأنما تتسـوق، وعند عودتها تتسـلل إلى مسـكنه.. وارتاح الجميـع إلى الخطـة.. ومضى «رفاعة» يفكـر فى حاله بقلب حزين.. وقـد عانق «رفاعة» والديـه.. ثم التفـت إلى «ياسمينة» طالبا إليها أن تحبك الملاية والبرقع كى لا يعرفها أحد مضيفا قوله: لا أطيق أن تمتد لك يد بسوء.

* * *

غادرت «ياسمينة» الربع ودعوات «عبده» تتردد فى أذنيها بأن يحفظها الله – ومضت نحو الجمالية دون أن يسـاورها التردد وإن ملأها الخوف.. ولكنها وجدت الأمان أخيرا فى المنظرة بين يدىْ «بيومى»، فبادرها يسـألها عما وراءها فبادرت تخبره بأنهم هربوا من فوق الأسـطح إلى بيت «كريم»، وسيغادرون الحارة عند الفجر.. قالت تستعطف «بيومى» إن «رفاعة» أنقذها يوما من الهلاك فكان جواب «بيومى»: وها أنت ذى تسـلمينه للهلاك. شـعرت بقلق موجع كالمرض.. ولكنها قالت «لبيومى» إنها فعلت ما فعلت لأنه أغلى من حياتك، وأنها لو عرضوا

عليها بيت الواقف من دونه ما قبلت، ولم يكن ثمة وقت لمزيد من الكلام فقامت وقام ليودعها حتى تسـللت من الباب الخلفى، ومضت إلى بيت «كريم»، فجلسـت بجانب زوجها.. وهى تنظر إليه برثاء.. ثم أقبلوا على العشاء فالتفت «رفاعة» إلى «ياسمينة» ليقول لها. أنت لا تأكلين ولا تصغـين، تقلّـص قلبها خوفا بيد أنها تغلبت على انفعالهـا لتبدو طبيعية.. وقال «رفاعة» بيقين إن المعركة لن تنتهى، وإن «رفاعة» ورفاقه ليسـوا ضعفاء كما يتصور الآخرون، إنما هو ورفاقه قد نقلوا المعركة من ميدان إلى ميدان آخر يتطلب شـجاعة أسمى وقوة أشـد، وواصلوا العشاء وهم يفكرون فيما سمعوا وقد بدا «رفاعة» لأعينهم مطمئنا قويا بقدر ما بدا جميلا وديعا.

* * *

تغلب الإخوان على ما هم فيه، ولكن «ياسمينة» كانت فى عذاب تدور بها دوامة الفكر حتى ليخيل إليها أن عينيها ستفضحانها.. وبتقدم الوقت أخذ الصمت يبتلع الضوضاء رويدا رويدا، وأحست «ياسمينة» بأنها قد دهمتها كراهية مفاجئة لهؤلاء الرجال الذين تحس أنهم على نحو ما يعذبونها.. وفجأة قال «كريم»: آن لنا أن نذهب، هنا ركب الجزع «ياسمينة»، كانت تتسـاءل فى نفسـها: ماذا يكون الأمر لو تأخر «بيومى» عن موعده ؟.. قام الرجال، تسـللوا من باب المسـكن واحدا فى إثر آخر، وصعدوا السلم. بدا السطح أرقّ ظلمه.. تتابعوا داخلين، وكان آخرهم «زكى» الذى أحس حركة وراءه فالتفت نحو باب السطح ليرى أربعة أشباح.. تسـمّر الجميع، غمرتهم شتائم الفتوات: «جابر». «خالد». «حندوسة». ندت عن «ياسمينة» آهه، وأفلتت من يد «رفاعة» ثم جرت نحو باب السـطح دون أن يعترضها أحد مـن الفتوات. وأدرك الجميع خيانة المـرأة. وفى لحظة أحاط الفتوات بالجميع، و«بيومى» يتفحصهم عن قرب واحدا بعد آخر متسـائلا: أين «رفاعة» حتى تبيُّنه فقبض على منكبه بيد من حديد وركز الفتوات كل همهم فى القبض على «رفاعة»، تاركين الآخرين على يقين من أنهم لا خوف منهم فلن ينبس أحد منهم بكلمة وإلا هلك.. وقد سار «رفاعة» مع جلاديه مستسـلما للمقادير، وقد غشـيه الظلام والحيرة والشـر الذى يتهدده. وانتهوا إلى الحارة، فقطعوا الحىّ الذى لم يبق فيه مريض بفضل «رفاعة».. ثم تقدموا نحو حى «آل جبل».. ثم مضوا نحو الخلاء.. وسـار الركب حتى خرج إلى الخلاء، فأكملوا مهمتهم.. وساد صمت لم تسمع خلاله إلا حشرجة. ثم مضت الأيدى تحفر الأرض بقوة فى الظلام.

* * *

ما إن غادر القتلة المكان عائدين إلى الحارة متسـتـرين بالظلام حتى نهض أربعة أشـباح مـن موضـع غير بعيد من موقع الجريمة، بكاؤهم مكتـوم، وحزنهم دفين، ولكنهم نهضوا لعمـل جـاد.. بحثوا عن دمه وعن جثمانـه، ليزيلوا الرمال عن الجثمـان، وتعاونوا على اسـتخلاص الجثة من الرمال، قاموا بها فى رفق، وحثوا بعضهم البعض على الإسراع بعد أن ردموا الحفرة وسـاروا بالجثة إلى باب النصر، وأخذ الظلام يخف فوق الجبل، ويشـف على السـحاب، وتساقط الندى فوق الجباه والدموع. سار بهم «حسين» على طريق مقبرته حتى بلغوها، وتمكنوا من مواراة جسـد الغالى، والضياء ينتشـر رويدا حتى تراءى للأعين الجثمان المسجىّ وأيديهم الملطخة بالدم وأعينهم المحمرة من البكاء. وحملوا الجثة وهبطوا بهـا إلى جوف القـبر وهم يناجون صاحبهـم: كانت حياتك حلما قصـيرا، لكنها ملأت قلوبنا بالحب والنقاء.. ولكن حارتنا أبت إلا أن تقتل الحبّ والرحمة والشـفاء ممثلـة فى شخصك، فقضت على نفسها باللعنة حتى آخر الزمن.. وعندما غادروا المقبرة متجهين نحو الخلاء كان النور يصبغ الآفاق بمثل ذوب الورد الأحمر.

* * *

اختفـى أصحاب «رفاعة» من الحارة، اتخذوا لهم مقاما من كوخ فى الخلاء. كان فراق «رفاعة» بالنسبة لهم أشد من الذبح على قلوبهم وزاد من عذابهم تخليهم عنه وقت الشدة: ومـن ثم فقد امتلأت قلوبهم عزما علـى أن ينزلوا العقاب بقاتليه، وهذا ما صمم عليه علىّ بالذات، وذات صباح أعلنت «عبده» كما أعلن «عم شـافعى» أن ابنهما قتل وراحا يبكيانه بل وأعلنا أن «خنفس» – والمفترض فيه أنه حاميه – كان ضمن قاتليه، مما أثار «خنفس» فجاء ينكر ويرغى ويزبد وإن كان قد انصرف عن الحىّ تاركا للخبر أن يذيع وينتشـر ممّا أذهـل النـاس، وراح الأبوان يبحثان عن الجثمان. فرأيا آثـار الدماء والحفر وإن لم يجدا الجثمان.. وردد الناس فى دهشـة كيف يقتل «رفاعة» وماذا فعل حتى يقضى عليه بالقتل بينما «ياسمينة» مقيمة فى بيت «بيومى». ومضى الفتوات هم الآخرون يبحثون عن الجثمان فلـم يجـدوه مما أغاظ «بيومى» وجعله يحس بفداحة خطئـه إذ ترك الصحاب يفلتون من قبضته. واشـتد التوتـر بحيى «رفاعة» و«جبل» مما زاد من اندفـاع الفتوات فى العدوان، وفى ليلة تغيّب «بيومى» عن بيته فتسلل أهل زوجته إلى بيته ليعتدوا على «ياسمينة» التى شعرت بهم ففرت هاربة وظلت تعدو حتى تقطعت منها الأنفاس وظلت لفترة وهى كذلك، وحينما نظرت أمامها رأت عن بعد نورا ضئيلا منبعثا من كوخ، فسارت نحوه آملة أن تجد

عنـده مأمـوى.. وكان كما ظنت كوخا فاقتربت من بابه وهى تنادى أهله.. وفجأة وجدت نفسـها أمام أصدقاء «رفاعة» الحميمين: «على» و«زكى» و«حسـين» و«كريم»، فتسـمرت بالأرض وهى تقلب فى وجوههم بصرا زائغا تراءوا لها جدارا يعترض مطاردا فى كابوس، وتلقوها باشمئزاز، ولم ينصتوا إلى شـىء، مما تّدعيـه أنها بريئة وطلبت إليهم أن يدعوها تذهب.. فصاح بها «علىّ» بأنها سـتذهب بالفعل ولكن إلى جوف الأرض، ولم يتركوها إلا وقد سكتت إلى الأبد..

وفى صباح اليوم التالى وجدت «ياسمينة» جثة هامدة ملقاة أمام بيت «بيومى»، وانتشر الخبر.. فجرى الناس نساء ورجالا نحو بيت الفتوة ليروا حقيقة ماسمعوه. وفتح باب بيت «بيومـى»، واندفـع منه كالثور الهائج ينال بنبوته كل من يصادفه، وهو يسـبّ، ويلعن، ويهدد، ويتوعد، وفى اليوم التالى هاجر «عم شافعى» وزوجه من الحارة، ولكن آثار «رفاعة» ظلت باقية بما حقق للكثيرين من شفاء بدن، وصفاء نفس، وحياة فى سعادة..

تفرق أصحاب «رفاعة» واتخذ كل منهم منهجا سار فيه بإيمان صادق، وتناقلت الحارة أن جثـة «رفاعة» حملها «الجبلاوى» بنفسـه فواراها التراب فى حديقـة البيت الكبير.. واختفى بعد ذلك عدد من الفتوات الواحد بعد الآخر.. ثم استيقظت الحارة ذات ليلة على حريـق هائل يلتهم بيت أحد الفتوات.. ولم يرض ذلك «بيومى»، فخرج على رأس رجاله مصممـا علـى أن يبادر بالضرب قبل أن يسـتفحل الأمر. هنا ظهـر «علىّ» لأول مره ومعه رجال أشداء على رأس الثائرين وما أن رأى أولئك «بيومى» قادما حتى انهال الطوب أسرابا كالجراد على رءوس «بيومى» ورجاله، فتفجرت الدماء، وهجم «بيومى» بجنون وهو يصرخ كالوحش، ولكن حجرا أصاب أعلى رأسه فتوقف، ورغم القوة والفتونة.. ترنح، وسقط فى دمائه، وسرعان ما فر الأعوان واكتسحت أمواج الغاضبين بيت الفتوة حتى ترامت أصوات الكسـر والتحطيم إلى بيت «الناظر».. عند ذلك أرسـل «الناظر» فـى طلب «علىّ» فذهب لمقابلته، وتوقف رجاله عن الانتقام..

وتمخضـت المقابلة عن عهد جديد فى الحـارة جرى الاعتراف بالرفاعيين كحى جديد، فيمـا له من حقـوق وامتيازات، ونصب «علىّ» ناظرا على وقفهم يتسـلم نصيبهم من الوقف ويوزّعه عليهم على أسـاس المساواة الشاملة وعاد إلى الحارة جميع المهاجرين الذين فرُّوا فى فترات سابقة، وحظى «رفاعة» فى موته بما لم يكن ليحلم به فى حياته من التكريم والإجلال

والحب حتى صار قصة باهرة يرددها كل لسان، وتتغنىّ بها الرباب وبخاصة رفع «الجبلاوى» لجثمانه ودفنها فى حديقة البيت الكبير.. لكن الرفاعيين اختلفوا فى أشياء كثيرة، من ذلك اصرار بعضهم على أن رسالة «رفاعة» ينبغى أن تقتصر على مداواة المرضى واحتقار الجاه والقوة، وتغالى البعض فتجنبوا الزواج.. أما «علىّ» فتمسك بكل حقوقه فى الوقف، وتزوج، ودعا إلى تجديد حىّ «رفاعة».. واستبشر الناس خيرا، واستقبلوا الحياة بوجوه مشرقة..

* * *

(٤)
قاسم

ومرت الأعوام طويلة – قبل أن يولد «قاسم» اليتيم ويتكفل به عمه الرجل الطيب: «عم زكريا» – وكانت أعواما جافة قاسية، ازداد خلالها حال الحارة سوءا، وازداد ناظر الوقف: «السيد رفعت» جشعا وطغيانا، وتضخمت سطوة الفتوة الأكبر «لهيطة» وسطوة أعوانه فتوات الأحياء الذين يستأثرون بالريع وليس للمتذمرين سوى الضرب والأذى والعدوان.

نشأ «قاسم» فى هذا الجو يتيما فقيرا وحيدا، وقد رزق عمُّه بطفل هو «حسن» استبشر به خيرا، وعاش «قاسم» ينظر إلى البيت الكبير ويتطلع إليه مفاخرا بجده وبمقام جده.. كما ينظر إلى بيت «الناظر» فى دهشه وإعجاب ويرمق الثمار فوق الأشجار فى الحديقة فى رغبة واشتهاء إلى أن وجد الباب ذات يوم مفتوحا والحارس متغيبا فتسلل إلى الحديقة، وانبهر بعمود الماء المتصاعد من نافورة الفسقية، فما كان منه إلا أن خلع ثيابه وألقى بنفسه فى الماء. وهنا كانت الكارثة إذ رآه «حضرة الناظر»، وفر «قاسم» هاربا، و«عم عثمان» يتابعه إلى أن قبض عليه.. وتدخل أولاد الحلال حتى خلصوه من قبضته ومضت به زوجة عمه إلى الربع على كتفها «حسن» وجارة «قاسم» من يده وهو يشهق باكيا.

* * *

وكان على «قاسم» وقد بلغ العاشرة من عمره أن يصحب عمَّه فى عمله فى التجول بعربته، سعد «قاسم» بهذه المشاركة وتحمَّس لها، وراح يطوف مع عمّه فرحا بما يرى

من الأحياء، ويكتشف من الأماكن، حتى وصلا إلى الخلاء، بعد أن مضيا فى تجوالهما من الحسين إلى بيت القاضى، ومن بيت القاضى إلى الدراسة، و«قاسم» يتطلّع بدهشة إلى العابرين والدكاكين والجوامع حتى انتهيا إلى سوق المقطم فراح الغلام يتأمله بإعجاب متسائلا: أهذا سوق المقطم حقا؟ إلى هنا هرب «جبل». وهنا ولد «رفاعة».. فأجابه عمه بلا حماس: لا لنا فى هذا ولا ذاك، وقال «قاسم»: لكننّا جميعا أولاد «الجبلاوى»، فلماذا لانكون مثلهم ؟.. ووجّه الرجل عربته نحو كوخ من الصفائح على هيئة دكان جلس أمامه عجوز ذو لحية بيضاء.. هو المعلّم «يحيى»، وتصافح ثلاثتهم. وعندما عَرف «يحيى» من يكون الغلام أجلسه إلى جواره وراح يداعبه ذاكرا له أن أباه كان صديقه، وتناول الرجل حجابا ثم علّقه بعنق الغلام طالبا إليه أن يحتفظ به فيحفظه من كل سوء قال له عمُّه إن «عمّ يحيى» كان من حارتنا ثم غضب عليه الفتوة فآثر الهجرة – قال «قاسم» بدهشة إنه فعل كما فعل «عم شافعى» والد «رفاعة»، فضحك «يحيى» معلّقا: ما أعرف «أولاد حارتنا» بالحكايات..! وراح الثلاثة يتذكرون «رفاعة» وكان رأى «يحيى» أن «رفاعة» لم يمت يوم مصرعه، ولكنه مات يوم انقلب خليفته فتوة!. ونهض «زكريا» مع ابن أخيه فأمامهما فى العودة مشوار طويل، و«يحيى» يودّعهما بأن يطلب إلى «زكريا» أن يحضر الغلام معه كلما جاء..

* * *

ولم يلبث «قاسم» أن ترك رفقة عمّه عندما كبر «حسن» ابن عمه وكان له أن يصحب أباه، أما «قاسم» فقد امتهن رعى الغنم، يمضى بها بعد أن يتسلمها من أصحابها إلى الخلاء يرعاها فى الصحراء لتطعم من خشاش الأرض، ويتركها هو لحريتها، وإن كانت هى التى تؤنسه فى وحدته وأتاحت له أن يفرغ إلى نفسه، يتأمل ويفكر فيما تلقاه الغنم منه من عطف ورعاية وما يلقاه هو من أهل الحارة من نظرة الاستعلاء على الرعاة.. فى حين أن الراعى يمارس عملا شريفا مشرفا هو خير من عمل البلطجية والمتسّولين، فضلا عما يتيحه له الخلاء من هواء نقىّ، وأنس إلى المقطم، وصخرة «هند»، وقبة السماء.. ولم يكن يوم يمضى دون أن يزور «قاسم» معلّمه «يحيى»، فهو يحبه، ويسعد بأحاديثه، ووجد فيه رجلا محيطا بكل الأخبار – حاضرها وماضيها.. وكانا يتناقشان ويقارنان بين «رفاعة»

و«جبل» – أولهما زهد فى النساء، وثانيهما تزوج وعاش حياته – الأول حاول استخلاص حق قومه والثانى آثر أن يجعل هدفه تخليص النفوس، وطهارة الروح.. فتساءل «يحيى» عما إذا كان «قاسم» يفضّل «جبلا» على «رفاعة».. فتردّد طويلا ثم قال: – كلاهما كان رجلا طيبا، وما أقل الطيبين فى حارتنا: «أدهم» و«همّام» و«جبل» و«رفاعة»، أولئك هم كل حظّنا من الطيبة، أما الفتوات فما أكثرهم..!

وكان «قاسم» – فيما بينه وبين نفسه – يتساءل عن جده «الجبلاوى»: ترى كيف حاله فى عزلته.؟ هل يذهب ويجيء، أم أقعده الكبر ؟.. وعند الأصيل ينهض متناولا عصاه وهو يصفّر صفيرا منغما يدعو به الغنم لتجتمع وتتحرك قافلتها نحو العمران.. يمضى يسلم خرافه إلى أصحابها من الربوع المختلفة حتى يصل إلى النعجة التى تملكها «ست قمر» والتى تقيم فى بيت مكوّن من دور واحد ذى حوش تتوسطه نخلة، فتتلقاه الجارية «سكينة» وتتسلمها منه، ويمضى إلى حال سبيله، وذات يوم صادف عند عودته صاحبة البيت عائدة من الحارة وطالعته من برقعها عينان سوداوان يندیان بالحنان – تنحىً جانبا غاضا بصره، وتبادلا تحية المساء، ثم داعبته بأن النعجة تسمن يوما بعد يوم.. والتفتت «ست قمر» نحو «سكينة» طالبة إليها أن تحضر له عشاء.. وفى المساء كان يخرج مع ابن عمه وصديقهما «صادق» ليمضوا إلى قهوة «دنجل» ليستمعوا إلى حكايات الشاعر..

* * *

وذات يوم وهو يعود بالنعجة ويسلمها إلى «سكينة» إذا بهذه الأخيرة تطلب إليه أن ينتظر فعندها له شيء.. وغابت وتركته لأفكاره حتى جاءت بلفافة أعطتها له وهى تخبره بأنها «فطيرة بالهنا والشفا» فتلقاها مردِّدا.قوله: «اشكرى السيدة الكريمة» فجاءه صوتها من وراء النافذة مردِّدا برقة: «الشكر للمولى يا ابن الطيبين» ومضى عنها سعيدا منتشيا مرددا وصفها الجميل له بأنه ابن الطيبين.. ولم يكد يمضى خطوات حتى رأى رجلا يجرى مهرولا زاعقا صارخا معلنا ضياع حافظة نقوده التى بها كل ماحصل عليه من أجر عمل كبير.. وتجمّع الناس على صراخ الرجل من كل حىّ. وعلم «قاسم» بأن الرجل الذى يصرخ يعمل «منجدا» وكان يعمل فى بيت «الناظر».. واتجه إلى الرجل أكثر من فتوة من فتوات الحارة.. والرجل يصرخ بأن كل ما معه سرق.. مبلغ عشرين جنيها بالتمام والكمال «والله يخرب بيت

أولاد الحرام» وزعق «جلطة» فتوة «آل جبل» بأن المسـألة متعلقة بسـمعة الحارة وأى عيب سيلبس فى النهاية الفتوات وراح بعض الفتوات يشككون فى صدق الرجل، وكل فتوة ينفى عن ربعه وجود أى لص — مما آثار مناقشـات وملاحاة فيما بينهم وراحوا يتبادلون الشـتائم واللعنات وكل منهم يتوعد الآخرين.. حتى تدخل «سـوارس» بعينين محمرتين من الغضب طالبا من الجميع الكف عن النقاش وأن «التفتيش سيكشـف عن اللص» — ولكن ثار خلاف بـأى الأحيـاء تكون البداية، وكاد الخلاف يسـتفحل لولا أن علا صوت «قاسـم» طالبا إلى الجميع أن ينتظروا «فلن يكشف الدم عن النقود المفقودة» معلنا أن عنده حيلة تردّ بها النقود إلى صاحبها دون عراك.. وهى أن ينتظر الجميع حتى يسـتحكم الظلام — وهو قريب — لن تضاء شمعة واحدة فى الحارة. ثم يسير الجميع من أول الحارة لآخرها كيلا تنحصر الشبهة فى حى دون آخر. وفى أثناء ذلك سـيجد حائز النقود فرصة للتخلص منها فى الظلام دون أن يفتضح أمره، فيعثر على النقود، وتنجو الحارة من شر العراك..

وعندما أعلن عن قبول الحل الذى اقترحه راعى الغنم سـرت فى القوم همهمة ارتياح، وراح الجميع يترّقبون هبوط الظلام.. ومع حلول الظلام دبَّت الحركة بين الأشـباح فمضوا فـى طريقهـم المرسـوم، ثم تفرقوا من بعـد كل إلى حيّه، ثم أضيئت المصابيـح وراح القوم يفحصـون الأرض حتى تعالى صـوت بالعثور على المحفظة.. فتسـلمّها صاحبها، ومضى يجرى قاصدا حيه لايلوى على شـىء.. وعندما ذهب «قاسـم» ورفيقاه إلى القهوة استقبلهم الفتوة «سوارس» بترحيب..!

* * *

عندمـا دخل «حوش قمر» — فى صباح اليوم التالى — ليأخذ النعجة.. إذا بصرير باب الحريم يُسـمع وهو يفتح وصوت السـت تبادله تحية الصباح ثم تقول له إنه صنع بالأمس خـيرا كبيرا للحـارة.. فكان جوابه أن الله هو الهادى.. فقالت له فى نغم وشـى بإعجابها أنه علمهم أن الحكمة أجلّ من الفتوة، وأنها رأته يرعى أولاد الحارة كما يرعى الغنم — ثم دعت له بالسلامة، فمضى يضم إليه أغنام قافلته فى طريقه إلى المرعى، وكان كلما مر بحىّ تلقوه بالترحاب حتى الفتوات ردوا عليه تحياته — وكانوا يتجاهلونها من قبل.. ومضى فى طريقـه المعتاد وجالت عيناه بين صخرة «قدرى» و«هند» وبين البقاع التى جرت بها مصارع

ثم مضى إلى كوخ «يحيى» الذى أشاد بما فعله بالأمس. ثم راح يحذِّره بأن يتجنب المعجبين خشـية أن يستفز الفتوات.. فلما تعجب مستنكرا أن يستفز مثله الفتوات... تنهد العجوز قائلا: «ومن كان يتصور أن يغدر غادر «برفاعة»؟»

فتساءل «قاسم» بدهشة عن وجه التشابه بين «رفاعة» العظيم وبينه هو..

وعند العصر كان يجلس فى الظل الممدود وراء صخرة «هند» عندما رأى جارية السـيدة «قمـر» عنـد رأس النعجة تداعب ذقنها – حيَّاها بابتسـامة فقالت له إنها فى طريقها إلى الدراسـة ورأت أن تمر من عنده اختصارا للطريق.. وجلست فى ظل الصخرة ومضت تقول إنها عندما شـهدت صنيعه بالأمس آمنت بأن أمه دعت له من قلبها قبل وفاتها، فتسـاءل مبتسـماً: «وأنـت ألا تدعـين لى؟» فقالت وهى تـدارى نظرة ماكرة: «لمثلـك يُدعى ببنت الحلال» فكان جوابه تساؤلا عمَّن ترضى براعى غنم – فأجابته بأن الحظ يصنع العجائب وأنـه اليوم بمنزلة الفتوات دون حاجة لسـفك دماء – ثم قالـت فى مكر: هل أدلك على طريق عجيب؟ جرِّب بختك واخطب سيدة حينا – فقال بصوت متهدج: «كان زوجها من الأكابر، ولسـت إلا راعى غنم فكان جواب محدثته أن الحظ إذا ضحك ضحك كل شـىء حتى الفقر» ولما أبدى خشيته من أن يغضبها طلبه كان جوابها: «لايدرى أحد متى ترضى النساء ومتى تغضب! فتوكل على الله – فُتك بعافية».

• رفع رأسه نحو السماء، وأغمض عينيه كأنما دهمه نعاس.

* * *

أثار الأمر نقاشـا وحيرة لدى إخباره عمه وزوجه، فلم يصدق أحد ما سمع، ونسبوا إلى «قاسـم» أنه ربما أسـاء الفهم إلا أنه أكد أن «جاريتها هى التى فتحت لى الباب» فهتفت زوجـة عمه قائلـة: «فهمت..! إذا قالت الجارية، فقد قالت السـيدة» وتذكر الجميع إن عمهـا هـو «عم عويس» البقال أغنى رجل فى الحى.. وبعد أن فكر عمه «زكريا» فى الأمر فضـل أن تكون البداية مع «قمر».. فقال لابن أخيه: «تكلم كما تكلمت يوم واقعة المنجد، إنك شـجاع حكيم، وسـنذهب معا إلى السيدة لنفاتحها فى الأمر، ثم نكلم «عويس»، لأننا لو بدأنا «بعويس» لأرسلنا إلى مستشفى المجاذيب..!»

وجـرت الأمور كما رسـم «عمّ زكريا».. وجلس «عمّ عويـس» مضطرب الخاطر وعندما جـاءت «قمر» وصافحته بأدب وجلسـت وفى عينيها نظرة جمعـت بين الهدوء والتصميم لم يـتردد عمهـا فى أن يبـدى تعجبه من ابنة أخيـه التى حيـرتـه فبالأمس رفضت يد «عمّ مرسى» وكيل أعماله بحجة أنه غير كفء، واليوم ترضى براعى غنم!!

فأجابت «قمر» بأنه وإن كان رجلا فقيرا حقا، لكن ليس من أحد فى حينا إلا ويشهد له ولأهله بالطيبة..

ولم يقتنع عمّها بقولها.. ولكنها أصرت على رأيها، ومضت تقول:

• «دلّنى يا عمى على رجل مهذب مثله فى حارتنا، دلنى ولو على رجل واحد لا يباهى بعمل من أعمال البلطجة أو الخسة أو الوحشية!!».

وكاد الرجل أن ينفجر من الغضب، ولكنه كتم غضبه لأنه فى الواقع يخاطب المرأة التى تسـاهم فى تجارته بمال غير قليل، ومن ثم مضى يحاول إقناعها وإغراءها بالعدول بقوله أنها لو شاءت لزوّجها من أى فتوة فى الحارة، فكان جوابها أنها لا تحب هؤلاء الفتوات ولا هذا النوع من الرجال.. أما «قاسـم» فهـو رجل مهذب ولا ينقصه إلا المال وعندها منه الكفاية – فاضطر إلى أن يلقى بآخر سـهم فى كنانته بقوله أنه يبلغها رسـالة «أمينة هانم» حرم حضرة «الناظر»، فقد قالت له: قل «لقمر» أن تعقل وأنها مقدمة على غلطة ستجعل منا أحدوثة الحارة – قالت «قمر» بحدة أنها لا تهمّها أوامر «الهانم».. واتجهت إلى عمها طالبـة أن يدعها من «الهـانم» التى لا يجئ منها إلا وجع الدماغ.. وأنها قد قبلت الزواج مـن «قاسـم» وأن ذلك يتم برضاء عمّها وحضوره. صمـت «عويس» تفكرا، وإذ لم يكن فى الوسع منعها، ولا فى الإمكان إغضابها.. فقد صمت «عويس».. لاذ بالصمت..

....

* * *

وتم الـزواج علـى خير، وعاش «قاسـم» مع «قمر» فى محبة ومـودة وراحة بال.. وقد تولّى بعد ذلك إدارة أملاكها وأموالها الموزعة بين حىّ الجرابيع والجمالية، وكانت معاملة السكان الشرسين تتطلب لباقة.. لكن مرونة «قاسم» عالجت الأمور بخير ما يمكن أن تعالج بـه. وقد حرص على اكتسـاب ثقـة «عويس» عمّ زوجته إذ أولاه مـن بادئ الأمر احتراما وعنايـة، وتطوّع لمعاونته فـى بعض أعماله حتى أنس الرجل إليه وبادله ودا بود واحتراما

باحترام.. وكان «قاسم» لا يأخذ من المال الذى تحت يديه إلا ما يستحقه نظير إدارة أموال زوجته أو مقابل خدمات يؤديها «لعمّ عويس»..

وكان يلحظ حال من فى الحارة فيدعوه ذلك إلى أن يفكر فى الأمر، إنه يحظى بالمال وبالفراغ، ولكن تعاسة الآخرين تفسد عليه سعادته، إنه يؤدى الإتاوة «لسوارس».. وهذا يؤلمه، ولذلك فهو يودّ أن يشغل بالعمل فراغه كأنما ليهرب من نفسه، أو ليهرب من حارته القاسية..

وفى تلك الأيام طرأت على «قمر» أعراض غريبة.. قالت «سكينة» إنها أعراض الحمل، ولم تكن «قمر» تصدّق.. استخفّها الفرح، وامتلأ قلب «قاسم» بالغبطة فأذاع الخبر فى كل ركن له فيه حبيب.. ثم انطلق إلى الخلاء ليزور المعلم «يحيى»، لكنه توقف عند صخرة «هند»، فمضى إلى ظلّها وجلس وراح يفكر: ما أعطفه على أولاد حارته الذين يحلمون بالسعادة عبثا ثم سرعان ما تلقى الأيام بأحلامهم جانبا..! لماذا لا ينعم بالسعادة المتاحة، ويغمض العين عمّا حوله، لعل هذا التساؤل حير يوما «جبلا» كما حير يوما آخر «رفاعة». كان فى وسعهما أن ينعما بالراحة ويخلدا إلى السكينة، فما سرُّ هذا العذاب الذى يطارده كما طارد من قبل «جبلا» و«رفاعة».. كان يتأمل وهو ينظر إلى السماء فوق «الجبل»، سماء صافية ما عدا قطعا صغيرة من السحب متفرقة كأوراق الوردة البيضاء.. وقام — من بعد — ليواصل رحلته..

* * *

استقبل بيت «قاسم» حياة جديدة بمقدم وليدتهما «إحسان»، وبمولدها ألف البيت ألوانا لم يكن له بها سابقة عهد — بكاء الطفلة، يقظة الأم، أرق الأب، ولكن ذلك كلّه زاده غبطة وسرورا — ومع ذلك فلم يغب عن «قمر» ما كان ينتابه فى بعض الأحيان من شرود النظرة كأن هموما تنتابه.. وعندما تسأله لا يزيد على قوله «المولى أدرى بحالى» واستيقظت ذات ليلة فلم تجده فى البيت. ساورها القلق، وانتظرته طويلا فلم يعد، أيقظت «سكينة» التى رأت أن تسأل عنه فى بيت عمّه، ولكن لم تجد عند العمّ أو ابنه جوابا شافيا، ولكنهما جاءا معها وعلما أنه خرج من بعد العصر.. فقال «حسن» لعلّه ذهب إلى الصخرة فغلبه النوم عندها، فمضيا لتوّهما فى الطريق إليها بعد أن اصطحبا معهما

«صادقا» وداروا حول الصخرة فلم يجدوا له أثرا، والفجر يوشك أن ينبلج وهم فى حيرة، فليـس لـه أعداء ولا هو من أهل المجون، فأين يكون قد ذهب أو اختفى؟ واصلوا الرحلة فى الخلاء. ووصلوا إلى كوخ «عمّ يحيى» فطرقوه، فخرج إليهم الرجل وهو يقول إنه توقّع مجيئهم، فاستبشـروا خيرا، فأخبرهم أنه الآن بخـير، لكن بعض جيرانه كانوا قادمين من العطوف فعثروا عليه عند صخرة«هند»وهو مغمى عليه فحملوه إلى «كشك عمّ يحيى» الـذى قام برشّ العطر على وجهـه حتى أفاق، لكنه بدا متعبا، فتركه لينام وما لبث أن استغرق فى النوم.. وأضاف أنه سيصحو على أحسن حال، ولكن لابدَّ من الانتظار حتى يستيقظ من تلقاء نفسه.

* * *

عاد إلى بيته، وجلس فى فراشـه، ولم يعد معه وزوجته أحد سـوى الصغيرة – كانت نظرات «قمر» المسـترقة إلى زوجها تشـى بالقلق، وتكشـف عن هواجس عديدة تعتمل فى صدرها، فسـألته عن حاله الآن؛ لعلها تسمع منه ما يطمئنها فكان جوابه أكثر باعث لها علـى الحـيرة، فهو يقول بعد أن يطمئن إلى أن باب الغرفـة مغلق أن ما به ليس مرضا ثم بدا كالمتردّد قليلا وهو يقول: لا أدرى! كلا، فليس هذا ما ينبغى أن يقال، إنّى أدرى كل شئ، ولكنّى أخشى أن تكون أيام الراحة قد ولّت – وأشار إلى صدره وهو يقول: لدىّ هنا سرّ كبير أكبر من أن أحمله وحدى.. سأبوح به لأول مرة، أنت أول شخص يسمعه، لكن ينبغى أن تصدّقينى، فما أقول إلا الحق..

وازدرد ريقه وهى تستحثه بنظرة حارة، ومضى يقول:

ليلـة أمس، حدث شـئ عجيب، هنالك تحت صخرة «هنـد»، وأنا وحدى فى الليل والخلاء، كنت جالسـا أتابع سـير الهلال.. وإذا بصوت قريب يهتف باسمى، فارتعدت من وقع المفاجأة، ورفعتُ رأسـى فرأيت شـبح رجل واقفا على بعد خطوة من مجلسـى.. فسألته من يكون.. قال لى: أنا «قنديل»! فعجبتُ لشأنه.. فتابع قوله: أنا «قنديل» خادم «الجبلاوى». وقفت من فورى تأدبا.. وقلت متسـائلا: من أدرانى أنك صادق فيما تقول؟ فقال لى بهدوء: اتبعنى إذا شئت أن ترانى وأنا أدخل البيت الكبير. فاطمأن قلبى، وقلت لنفسـى: فلأصدّقه حتى يتبين لى أمره، ولم أخف عنه فرحى بلقياه، وسـألته عن جدّنا:

كيف حاله؟ وماذا يفعل؟ فقال لى إن جدنا بخير، ولم يزد عن ذلك شيئا فسألته: هل يدرى بما يجرى فى حارتنا؟ فأجاب بأنه يعلم كل شئ.. وأن المقيم فى البيت الكبير يستطيع أن يطلّع على كل صغيرة وكبيرة مما يقع فى حارتنا، وأنه لذلك أرسله إلى. هكذا قال. وندّ عنّى ما يفصح عن دهشتى، ولكنه لم يبال بى، وقال: «لعله اختارك لحكمتك يوم السرقة، ولأمانتك فى بيتك، وهو يبلّغك بأن جميع أولاد الحارة أولاده على السواء، وأن الوقف ميراثهم على قدم المساواة، وأن الفتونة شرٌّ يجب أن يذهب، وأن الحارة يجب أن تصير امتدادا للبيت الكبير».. وساد الصمت، وكأنما فقدتُ القدرة على النطق، ولمحت عيناى المتطلعتان إلى هامته السحب وهى تسفر عن الهلال فى رقعة صافية. فسألت بأدب: «ولماذا يبلغنى ذلك؟» فأجاب: «لكى تحققّه بنفسك..!» هكذا قال، وهممت بأن أستوضحه، ولكنه حيّانى وذهب، فتبعته حتى خيل إلىّ أننى رأيتهُ يصعد إلى أعلى السور المشرف على سلّم خارق الطول.. فوقفت ذاهلا. ثم عدتُ إلى مكانى السابق وفى نيتى أن أقصد المعلّم «يحيى»، لكنى غبت عن الوجود ولم أعد إلى رشدى إلا فى كوخ المعلم.

عاد الصمت يملأ الحجرة و«قمر» لا تحول عن وجهه عينيها الذاهلتين.. وراحت تحدث نفسها بأنه صادق فهو لم يكذبها قط، ومحال أن يختلق تلك الرواية وهو أمين لا يمكن أن تكون له مطامع فى أى شئ.. ووجدت نفسها تقول له: «قاسم»، حياتنا واحدة، وأنا لا تهمنى نفسى بقدر ما تهمنى أنت، وسرك هذا شئ خطير، وعواقبه لا تخفى عليك..

وراحت «قمر» تستوضحه لتتأكد من حقيقة ما حدث، حتى تراءى له أنها لا تصدّقه فارتاعت «قمر» لقوله وقالت: كلُّ ما هناك أنها تخاف عليه.. ولكنها تتساءل لماذا قصدك أنت بالذات؟ فأجابها بتساؤل مثله: ولماذا قصد «جبل» و«رفاعة»؟ اتسعت عيناها.. وغضت بصرها فى جفول، ثم أجهشت فى بكاء، ولما سألها: لماذا تبكين؟ نظرت إليه من خلال دموعها قائلة: – «لأننى أصدقك.. نعم أصدقك.. وأخشى أن تكون أيام الراحة قد ولت.. فماذا أنت فاعل؟».

* * *

وكان لابــد أن يناقــش هذا الموضوع مع عمّه وعمّها وصديقيه «حســن» و«صادق».. بدا «عمّ زكريا» مفكرا مقطّبا، وراح «عمّ عويس» يعبث بشــاربه، وكان «حسن» كأنه يحادث نفسه، أما «صادق» فلم يحوِّل ناظريه عن وجه صديقه «قاسم» على حين انزوت «قمر» فى ركن الحجرة تدعو الله أن يهدى الجميع إلى الرشاد..

• قال «صادق»: إنه رجل صادق، أتحدّى أى مخلوق أن يذكرنا بكذبة واحدة صدرت منه، فهو عندى مصدق.

• وقال «حسن» بحماس: وأنا كذلك، وسيجدنى دائما إلى جانبه..

• لكن «زكريا» قال: ليس الأمر لعبا، فكّروا فى حياتنا وسلامتنا.

• فأمن «عويس» على قوله وهو يقول: صدقت، لم يسمع أحد من قبل مثل ما سمعنا اليوم.

• فقال «قاسم»: بل سمعوا مثله وأكثر من «جبل» و«رفاعة»..

• فكان تعليق «عويس» تساؤلا: أتظن أنك مثل «جبل» و«رفاعة».. ؟!

• وغض «قاسم» بصره متألما.. فقالت «قمر»: عمّى! من يدرى كيف تقع تلك الأمور؟

• فقال «زكريا»: وأىّ خير فى أن يظن نفســه «كجبل» أو «رفاعة»؟ قتل «رفاعة» شــرّ قتله وكاد «جبل» أن يقتل لولا انضمام أهله إليه. ومن لك أنت يا «قاسم»؟

وتساءل – فيما بينه وبين نفسه – هل يجئ الرجال الكبار بهذه البساطة؟ ولم يسعه إلا أن يقول: يبدو أن «قاسم» لا يتأثر بتحذيراتنا.! ترى ماذا يريد الفتى؟ هل عز عليه أن يبقى حينا وحده الذى لا نصيب له فى الوقف؟ أتريد يا «قاسم» أن تكون فتوة وناظرا لحيِّنا؟

ظهر الاحتداد فى وجه «قاسم» وهو يقول: لم يبلغنى بذلك، وإنما قال إن جميع أولاد الحارة أحفاده، وأن الوقف لهم على قدم المساواة، وأن الفتونة شر..

وعلّــق «زكريــا» على ذلــك بقوله إن هذا يعنى أنــه يتحدى قوة «الناظــر»، ونبابيت «لهيطة» و«جلطة» و«حجاج» و«سوارس»..!

• فقال «قاسم» بهدوء كالحزن: هو ذلك.

• قال «زكريا»: سيقضى علينا جميعا بالهلاك، سنُوطأ بالأقدام، ولن يصدقك أحد..

• وقــال «عويس»: دعونا من الحكايات.. وعلينا أن نأخذ الأمر بالحكمة والحذر، فاهتم يا «قاسم» بحيك.. دعك من الإخاء والمساواة.. وما هو خير، وما هو شر. ومن اليسير أن تضم «سوارس» إليك وهو قريبك، ويمكن الاتفاق معه على أن يترك لنا نصيبا فى الريع...

• ولكنى عقدت العزم على تحقيق إرادة جدّنا كما أبلغتها..!!

وعـاد «زكريـا» يدعوه إلى أن يترك ذلك كله ويركن إلى حياتـه الرغيده.. وكان جواب «قاسم» الحازم: «فكرت يا عمّى طويلا ثم أخذت سبيلى.. لست طامحا إلى شئ مما تفكرون فيه. إنما أريد الخير الذى أراده جدنا..».

وحـاول عمّه أن يثنيه فـكان قراره الحازم: «لن أقلع عما فى رأسـى ولو ملكْتُ الوقف وحدى»..

* * *

وكان من الطبيعى أن تسـاور «قاسم» الوسـاوس.. وراح يتساءل فيما بينه وبين نفسه: القريـب لم يصدقك فمن ذا الـذى يصدّقك؟ وما فائدة الحزن؟ ومـا جدوى الانفراد تحت صخـرة «هنـد».! كأنك تأمل فى لقـاء الخادم مرة أخرى ولكـن أى جديد عنده ترتقب؟ وتجـوس فى الظلام حول البقعة التى قيل إن جدك قابل فيها «جبل»، وتقف طويلا وراء السـور الكبير فى الموضع الذى قيل إنه خاطب عنده «رفاعة». لكن لا شـخصه رأيتَ ولا صوته سمعتَ، ولا خادمه رجع. ماذا أنت فاعل..؟؟

وهو يحادث «قمر».. كان يقول: إذا نصرنى المولى فلن أحرم النسـاء ريع الوقف.. لأن الوقف للجميع. والنساء نصف كيان حارتنا..

وتراءى له أن يزور المعلّم «يحيى» برفقة صاحبيه ليسـتمع إلى «يحيى» وهو ينبهه إلى أن لديه عمّه وهو لا فائدة منه ولا ضرر، وأما عمّ زوجته فبوسع «قاسم» أن يكسبه إلى صفه فيما لو منّاه بشـئ كأن يعده بنظارة الجرابيع.. فبادر «صادق» يقول إن «قاسـم» لن يميِّز أحدا بشئ، فريع الوقف ميراث الجميع على قدم المساواة كما قال «الجبلاوى».

ضحـك «يحيـى» وهو يقول: مـا أعجب جدنـا، كان قوة فى «جبـل»، ورحمة فى «رفاعة»، واليوم له شأن آخر.. قال «قاسم»: إنه صاحب الوقف، ومن حقه أن يغيِّر ويبدل فى الشـروط العشـرة.. وكان ما قاله «يحيى» تذكيرا «لقاسـم» بمهمته الشاقة التى تخص الحارة كلّها لا حيا من الأحياء.. فصدق «قاسـم» علـى قوله بأن: «هكذا أراد الواقف».. ومضى «قاسـم» يقول: إن حارتنا التعيسـة فى حاجة إلى النظافة والكرامة.. وذلك يجئ

بالوقف وبالقضاء على الفتونة. هنالك تتحقق الكرامة التى أهداها «جبل» إلى حيه، والحب الـذى دعا إليه «رفاعة»، والسـعادة التى حلم بها «أدهـم».. ولئن نصرنى المولى فلن تجد الحارة حاجة إلى أحد بعدى..

وعرض «قاسـم» خطته بأنه يفكر جديا فى مشـاورة «محام شرعى» فكان جواب المعلم «يحيى» أنه لا يمكن لأى محام أن يتحدَّى «الناظر» رفعت وفتواته. ورجع الأصدقاء الثلاثة فيما يشبه القنوط.

وعانـى «قاسـم» فى خلواتـه من العذاب، وركبـه الهم والكدر.. فدعـا يوما «صادق» و«حسـن» إليه قائلا لهما أنه قد آن لهم أن يبدأوا.. فقد انتهى من تفكيره إلى قرار بإنشـاء ناد للرياضة البدنية.. وسـيجئ الشبان إلى النادى حبا فى القوة واللعب، وسيقَع الاختيار على من هم أهل للثقة والاستعداد..

• وتحمسوا للفكرة.. وشملتهم فرحة غناء.

* * *

وجـرى تنفيذ المشـروع وتحوَّل حـوش البيت إلى ناد لتقوية الأبـدان وتطهير الأرواح، وكان «قاسم» يشـارك الجميع برفع الأثقال وتعلّم التحطيب، و«صادق» امتلأت عضلات ذراعيه. أما «حسـن» فياله من مارد عملاق، والآخرون ما أبهر حماسـتهم، وكان «صادق» حكيما يوم نصحه بدعوة المتعطلين والمتسولين إلى ناديه، وسرعان ما تحمَّسوا لألعابه، كما تحمَّسوا لأقواله. وهم وإن كانوا قلة إلا أنهم لطموحهم إذا وزنوا بأضعاف أضعافهم رجحوا بهم.. و«قاسـم» يحلم بأن تسـتقيم الأمور، ويمتلئ النادى بالأعوان الأقوياء والصادقين.. غـدا يتحدَّى بهم «الناظر» والفتوات، وجميع العقبـات، كى لا يبقى فى الحارة إلا جدُّ رحيم وأحفاد بررة، ويمحى الفقر والقذارة والتسول والطغيان، وتختفى الحشرات والذباب والنبابيت وتسود الطمأنينة فى ظل الحدائق الغناء..!!

وحينما عرفت «قمر» أن «سـكينة» عرفت السر اتهمتها بالتجسس، ولكن «قاسم» نفى ذلك عنها ووصفها بالأمانة والإخلاص، وأنها لم تسـترق السـمع، ولكن الصوت نفذ إليها بمشـيئة المولى.. ووعدها بأن تنال نصيبها من الوقف وأنها سـتكون رسـوله إذا احتاج إلى رسول، فسعدت المرأة ونظرت إلى سيدها بامتنان.. غير أن أمرا لفت انتباه «قاسم» إذ كان

أحد أعضاء النادى مخمورا.. وراح يقول – فى الحارة – جاء دور الجرابيع – جدٌّ واحد للجميع.. والسلام على الفتونة..

وسرعان ما وثب «قاسم» واقفا فتناول عباءته وغادر الحجرة مسرعا، وهو يقول: الله يلعن الخمر وزمانها..!!

* * *

اجتمع «قاسم» برفاقه فى الخلاء، فكان توجيهه لهم أن يتجنبوا الظهور بين الناس وهم سكارى. وبدا «عجرمة» مطرقا أسيفا وهو يعبّر عن أسفه بقوله «ليتنى متّ قبل ذلك».. وراح «قاسم» يبحث مع رفاقه مدى وقع ما قال «عجرمة».. حيث قال «حسن» أنه سمع رجلا يحكى بصوت مرتفع ما كان من أمر «عجرمة».. وأن الرجل وإن كان يحكى وهو يضحك هازئا إلا أن «حسن» لا يستبعد أن تثير حكايته ريبة فى بعض النفوس.. وعاد «قاسم» إلى الكلام قائلا بأنه ينبغى أن يتدبروا الأمر.. وتساءل «صادق» عمّا كان «قاسم» قد فكر فيه يوما من الالتجاء إلى محام شرعى.. وقال «عجرمة» إن هناك محاميا فى بيت القاضى معروفا بالجرأة ويمكن مشاورته فى الأمر، والاتفاق معه على تأجيل رفع الدعوى إلى أن تدفع الضرورة إليها. ووافق «قاسم» والآخرون على هذ الرأى كإجراء احتياطى، وقاموا من فورهم فذهبوا إلى مكتب «الشنافيرى» المحامى الشرعى ببيت القاضى. قابلهم الشيخ، فشرح له «قاسم» قضيتهم، وأخبره عن نيتهم فى تأجيل رفع الدعوى إلى حين. وعلى خلاف ظن أكثرهم قبل المحامى القضية، وقبض مقدم الأتعاب فانصرفوا مغتبطين ومضى «قاسم» إلى المعلم «يحيى» يبادله الرأى وبدا المعلم آسفا على ما وقع ووصّى «قاسم» باليقظة والحذر، وعاد «قاسم» بعد ذلك إلى داره، ولما فتحت له «قمر» رأى فى وجهها ما أزعجه.. وما لبث أن علم منها بأن «حضرة الناظر» أرسل فى طلبه أكثر من مُره.. واغرورقت عيناها وهى تتكلم فقال لها إن هذا ليس هو ما ينتظره منها. وطلبت إليه ألا يذهب، فكان جوابه أن الذهاب آمن من التخلف.. وأنه سيذهب من فوره.. وهو يذكرُها بما سبق له قوله بأن أيام الراحة قد ولت وأنهم جميعا يعلمون بأنهم سيواجهون الشرَّ عاجلا أو آجلا.. ونصحها بألا تجزع هكذا..!

* * *

ودخل «قاسـم» للقاء «الناظر» ثابت الجنان.. ورأى «الناظر» يجلس فى أقصى البهو، فاتجه إليه وألقى عليه التحية – ولمح دون قصد «لهيطة» الفتوه يجلس إلى يمينه، وحينما نظـر إلى الجالـس إلى يسـاره تلقئ صدمـة كادت أن تهيضه، لم يكن الرجل إلا الشـيخ «الشنافيرى» المحامى الشرعى! أدرك «قاسم» لتوِّه خطورة الموقف، بعد أن خان المحامى الأمانة.. فصمَّم «قاسم» على الصمود والتحدِّى إذ لم يكن فى الوسع التراجع. وابتدأ الحوار بين «قاسـم» و«الناظر» على نحو غير طبيعى. فكلمات «الناظر» تنبئ عن تكبر واستعلاء، وردود «قاسـم» تشى بالشجاعة والإيمان.. والمحامى سيفسح «لقاسم» مجالا للتوبة بما هو خير من التورط فى عداوة تؤدى «بقاسـم» إلى الهلاك – وقال المحامى إن حضرة «الناظر» قد أذن له بالتشفع «لقاسم» عنده بالعفو إذا أعلن التوبة.. ثم ردّ إليه مقدم الأتعاب.

رمق «قاسم» المحامى بنظرة قاسية وهو يسأله: لماذا لم تنصحنى بالحق وأنا فى مكتبك؟ فأخذ المحامى بجرأة «قاسـم» ولكن «الناظر» أسـعفه بقوله «لقاسم» إنه هنا ليسأل وليس ليسأل، ونهض المحامى مستأذنا فى الانصراف ومضى عن المجلس تاركا «قاسم» «للناظر» و«للهيطة». وفاجأ «الناظر» و«قاسـم» بسـؤال عن كيف سـوَّلت له نفسه الشروع فى رفع دعوى عليه.. ثم مضى يسأله: هل أنت مجنون؟ قال «قاسم»: أنا عاقل بحمد الله.. وكان تعليـق «الناظـر» بأن هذا ليس مؤكدا، وإلا ففيم أقدم على فعلته المنكره.. وهو لم يعد فقيرا منذ رضيته المجنونة زوجا لها.. فماذا أراد من فعلته؟ أجاب «قاسم» فى ثبات:

لا أريد شيئا لنفسى.. ما أردت إلا العدْل.. وأنا عاقل والحمد لله.. وما أردت إلا العدل للجميع. فبذلك تتحقق شروط الواقف. إنه جدنا جميعا..

وقد أثارت ردود «قاسم» غضب «الناظر»، فهوى بشعر منشته على وجه «قاسم» بأقصى قوته، وهو يصيح بالشـتائم والردود الغاضبة، مما دعا الفتوة إلى التدخل ليسـكن من ثورة «الناظر» حتى اسـتطاع أن يعيده إلى مجلسـه وشفتاه ترتعشـان من الغضب.. وراح الفتوة يواصل دوره فى الأسـئله عمن وراءه؟ ومن دفعه إلى رفع الدعوى؟ ويأتيه جواب «قاسـم» حازما: لا أحد سوى نفسى، فيقول له الفتوة إنه كان راعى غنم، ثم ابتسم له الحظ، ففيم يطمـع أكثر من ذلك؟ ويكون جوابه الحازم: العدل. العدل يامعلم.. وعندما يعيد «الهيطة» سؤاله «لقاسم» عمَّن وراءه يكون جواب «قاسم»: إنه جدنا.. وعندما أبدى «لهيطة» دهشته

قال له «قاسم» فى ثقة: اطلع على شروط الوقف وستعلم أنه هو الذى دفعنى.. هنا لم يتمالك «الناظر» نفسه، فهبَّ واقفا وهو يصيح: ابعده عن وجهى..

• وكان ما قاله وهو يخرج «لقاسم» همسا فى أذنه: «اعقل إكراما لنفسك».

* * *

وعندما عاد إلى منزله كان ثمة زمرة من أصفيائه، تلقوه فى صمت وإشفاق.. غير أن حماه بادره بقوله: «ألم أنصحك؟» ثم مضيفا: إن شر المتاعب ما تجىء صاحبها من نفسه.. أما عمّه فقد تفحصه فى إشفاق وقد آلمه أنهم أهانوه.. وهو يعلم كم هو فى ألم..! غير أن «عويس» لم يتمهل، بل بادر يطلب إلى الجميع أن ينفضُّوا بسلام.. وكان ما قاله «قاسم» لهم أنه لا يخفى عنهم أن الموت يتهددهم، وأنه يعفى من معاونته من يشاء.. هنا طلب إليه عمّه أن ينهى الأمر عند هذا الحد.. فما كان من «قاسم» إلا أن قال بهدوء وتصميم:

• «لن أتخلى عن الأمر مهما تكن العواقب، ولن أكون دون «جبل» أو «رفاعة» برا بجدى وأهل حارتنا».

واختلف وقع هذه الكلمات لدى السامعين.. إلا أن «سوارس» قطع عليهم حديثهم إذ ما لبث أن دخل عليهم وكان أول ما قال وعيناه على «قاسم»: «لم أكن أدرى أن فى حينا فتوة سواى» وحاول «زكريا» و«عويس» أن يترضياه.. ولكنه إزاء ما أسمعه «لهيطة» من كلام ثقيل.. أصدر قراره إلى رفقة «قاسم» بأن يلزموا حدودهم، فلا يقرب أحد منهم بيت «قاسم».. وهكذا وجد «قاسم» نفسه سجينا فى بيته لا يزوره أحد سوى «حسن» ابن عمّه..

وكان أن انتشرت الأقاويل فى الحارة بجميع أحيائها، حسبما يريد الفتوات، الذين عمدوا إلى وصف «قاسم» بالكذب مما زاد ضيقة وألمه..

وارتفع من الطريق صوت «سوارس» يسبّ ويلعن.. كان ممسكا «بشعبان» وهو فى طريقه إلى «قاسم» وينهال عليه ضربا دون أن يتمكن الفتى من الإفلات من قبضته.. وفى أقل من دقيقة كان «قاسم» يقف أمام الفتوة يأمره بحزم أن يترك الفتى.. فلما لم يستجب تقدم «قاسم» فقبض على اليد الضاربة وشدَّ عليها.. فاضطر الفتوة أن يترك ضحيته الذى انهار فى غيبوبة.. ولم ينس «سوارس» ثأره، فرمى «قاسم» بالتراب ثم تولىّ منصرفا.. تاركا «قاسم» مختنقا فيما ألقى عليه من تراب.. ورفع رجال «شعبان» ومضوا إلى بيته..

* * *

غير أنه في مســاء نفس اليوم ارتفع الصراخ في أحد الربوع ينعى ميتا، وقد تبين بعد قليل أن الميت هو« شعبان»، مما زاد من ألم «قاسم» فغادر داره فزعا قاصدا ربع «شعبان».. ليواجــه بآيات الحزن والفزع والكلمــات تتردد بالدعاء على «قاســم» الذى قتله.. فردّت إحدى الحاضرات بأنه ما قتله إلا «قاسم» الذى يفترى الأكاذيب فيتسبب فى قتل الرجال. انقبض قلب «قاسم» حزنا وإن لم يمنعه من أن يصعد إلى حيث شقة القتيل.. ونادى زوجة القتيل فجاءته بعينين دامعتين، لتسأله بنظرات متحجرة عما يريد، فلما أجابها بأنه جاء للعزاء، بادرته بقولها إنه هو الذى قتله، وما كان أغناهم عن الوقف، وأحوجهم إليه هو.. فدعا لها بالصبر، وغادر المسكن كئيبا مغتما.

وفى الصباح خرج النعش عند الضحى، وقد اقتصر المشيعون على الأهل والأقارب ولكن «قاسم» انضم إلى الجنازة غير مبال بنظرات الفتوة المحرقة، وغير مبال بغضب صهر القتيل الذى قال «لقاسم» محنقا: تقتل القتيل وتمشى فى جنازته؟ لماذا جئت؟

فكان جواب «قاسم» فى إصرار:

• «جئت لأقاتل كما قاتل صديقى – رحمه الله – كان شجاعا، ولستم كما كان، فأنتم تعرفون القاتل وتصبون جام غضبكم علىّ».

وتجمهرت النســاء وراء الرجال.. وســارت الجنازة حتى اخترقت الجمالية نحو باب النصر، وما لبثت مراســم الدفن أن تمت، وتفرق بعدها المشيعون.. وتخلّف عنهم «قاسم» الذى رجع إلى القبر، فوجد أصحابه فى الانتظار.. ولم يضيعٌ «قاســم» وقتا، فبادر يجفّف دموعه قائلا لرفاقه إن من يرد السلامة فليذهب، فقال أحدهم إنهم لو كانوا يريدون السلامة ما وجدهم حوله.. ثم قال أحدهم «لاينبغى أن نضيع غدرا كما ضاع فقيدنا، فكّروا فى الغد وكيف نحقق النصر؟ وكيف نجتمع لتبادل الرأى؟ فقال لهم «قاســم» إن هذا ما كان يفكر فيه فى سجنه وقد اهتدى إلى رأى ليس باليسير، ولكن لا محيد عنه.

فلما استطلعوه متساءلين – أردف قائلا:

اهجروا حارتنا فليدبرٌ كل شــأنه وليهاجر. ســنهاجر كما هاجــر «جبل» قديما، وكما هاجــر المعلــم «يحيى» بالأمس، ولنقم نادينا فى مكان آمن بالخلاء حتى يشــتدّ ســاعدنا ويكثر عددنا. فنحن لن نطهر حارتنا من الفتوة ولن نحقّق شروط الواقف ولن يسود العدل

والرحمة والسلام إلا بالقوة. وستكون قوتنا أول قوة عادلة غير باغية.. لقد وضع جدنا ثقته بين أيدينا وهو عن يقين يؤمن بأن فى أبنائه من هم أهل لحملها. وقد استروح «قاسم» لأول مرة نسمة ارتياح وابتهاج..

* * *

وعندما رجع «قاسم» إلى بيته – عند منتصف الليل – وجد «قمر» مستيقظة تنتظره، ولاحظ أنها تبالغ أكثر من عادتها فى العناية به والحنوّ عليه.. لكنه لاحظ عليها تغيّرا طارئا: ذبولا فى عينيها، واحمرارا يخلفه البكاء.. وتعلل ذلك بأن موت «شعبان» أحزن الجميع، فضلا عن اعتداء الفتوة على «قاسم»، فكم ضايقها ذلك.! وإن كانت تخفى فى نفسها الكثير من القلق، كما تخفى عن «قاسم» ما تعانى من آلام المرض.. وإن كان يحسّ به ويهوّن عليها آلامها بما يقول لها من أنها كل شىء فى حياته، وأنها خير رفيق فى الحياة.

علىأن الحارة بدأت تلحظ أمورا غير عادية، فبين اليوم والآخر يختفى أحد الرجال دون أن يعرف أحد أسرار مكان اختفائه! الأمر الذى اضطر معه الفتوة أن يدعو إليه «العمّ زكريا» ليقول له إن ابن أخيه خير من يدل على سر الهاربين.. فلما حاول التنصل أسمعه الفتوة ما آلمه وأزعجه.. ولكنه عند عودته إلى بيته علم بما أحزنه: «قمر» مريضة وفى حالة سيئة وما لبث خبر مرضها أن انتشر فى الحارة كلّها، ولازمها «قاسم» وهو فى غاية من الكآبة والحزن وزاد من أحزانه أنها أخفت عنه مرضها منذ زمن طويل.. وراح يدعو لها بالشفاء: يا إلهى احفظها برحمتك، وأبقها لى، واعطف على بكاء الطفلة الذى لا ينقطع.!

وإن كان الحال يزداد سوءا.. إلا أنه كان مما يزيد آلام «قاسم» عجزه عن أن يفعل لها شيئا.. وراح يلحظها وهى تتلوى من الألم.. إلى أن أسلمت الروح إلى بارئها..

* * *

والعجيب أن يأتى «سوارس» معزيا، وما أسرع أن أقبل وراءه الجرابيع، كما جاء «الناظر» رفعت معزيا هو الآخر فتبعه على الأثر سائر الفتوات.. ثم كل الناس، لتنتظم الجنازة جموعا غفيرة لم تشهد لها الحارة مثيلا من قبل. وتحلّى «قاسم» بصبر الرجل

الحكيم رغم آلامه الدفينة كان يشعر بكل حوّاسه وجوارحه تبكى إلا عينيه. وانصرف المعزّون ولم يبق فى المدفن إلا «قاسم» و«عويس» و«زكريا» و«حسن». وراحوا ثلاثتهم يعزونه ويدعون له بخير، وإن كان «قاسم» قد جاءهم بسؤاله: «ما الذى جاء بهم؟» فأدرك الجميع من يعنى بسؤاله وبادر عمّه يقول إن لهم الشكر على أى حال.

غير أن «عويس» بادر ينتهز الموقف وماظنه من لحظات ضعف تنتاب «قاسم» فتشجع ليطلب إلى «قاسم» أن: «ابدأ معهم من جديد، فهذه الخطوة منهم تتطلب منك خطوات. ومن حسن الحظ أن ما يقال عنك خارج حينا لا يؤخذ مأخذ الجدّ» - ولم يشأ «قاسم» أن يدخل فى جدال فآثر أن يغوص فى الصمت والحزن. وإذ بجماعة تقبل وكأنما كانوا يرصدون اختفاء المعزّين. كانوا كثرة وليس فيهم غريب، فعانقوا «قاسم».. وبادره «صادق» قائلا إنه لم يعد ثمة ما يبقى «قاسم» فى الحارة. قال «قاسم» بلهجة ذات مغزى: «كان بقائى فى الحارة ضروريا، فبفضله ازددتم مع الأيام».. وكان أكثر هؤلاء من أغراهم «قاسم» بالهجرة واللحاق بأصحابه حينما كان يتسلل من داره كل ليلة عقب نوم الحارة فيلقى منهم مودة وحسن استعداد للاقتناع بكلامه.. وانتحى به «صادق» جانبا ليطلب إليه أن يعجّل باللحاق بهم، فقد أصبح اليوم وحيدا فكان جواب «قاسم» «كل شىء رهين بوقته».. ثم تعانق الصحاب وعاد «قاسم» وأهله إلى الحارة..

ومضت الأيام «بقاسم» ليقبع فى داره وحيدا كئيبا، ولكنه كان يواصل جولاته الليلية الخفية بهمة.. ومضى عدد المختفين فى النموّ والناس تتساءل فى حيرة.. ولكن لم يكن من الانتظار بدّ، وكانت أياما مليئة بالعمل والخطر..

ويوما طرق باب الدار طارق. وكانت القادمة فتاة فى مقتبل عمرها مستترة وعلى الوجه حجاب وعرّفت نفسها بأنها «بدرية».. أرسلنى إليك أخى «صادق» ومضت لتخبره بأن «صادق» يخبره أن يغادر الحارة فورا، فإن الفتوات تآمروا على قتله فى نفس الليلة.. وتركها لتعود وهو يطلب إليها أن تبلغ تحياته لأخيها وتخبره أنهما سيلتقيان فى الصباح.

* * *

وللتو راح يضع الخطة ويرتبها.. إلى أن وافاه «حسن» مبتدرا إياه بما لاحظه من أن بالحىّ حركة غريبة.. حربية.. فاضطر «قاسم» أن يصارحه بما أخبره به «صادق».. وطلب

«قاسم» إلى «حسن» أن يلحق بالجارية حيث مضت بابنته، واعدا إياه بأنه سيهرب بالحيلة لا بالقوة.. وجاء إليه عمّه ليخبره بما علم.. وكاشف «قاسم» عمّه بخطته - سيترك مصباحا مضاء للتضليل وسيهرب عبر الأسطح حتى بيت عمّه وأنه - حذرا منه - لن يشرع في الهرب حتى تخلو الأسطح من السمّار.. وسوف يسبقهم إلى الهرب إن شاء الله.

ومضى الوقت وئيدا ثقيلا ولكنه حمل ليل السمار إلى غايته فصمتت الأسطح، وخلا الطريق من العربات والصغار، وأقفرت المقاهى.. ولم يبق فى الظلام إلا ندامى الموت وبذلك حان وقت العمل.. وعند صعوده اكتشف أن الأسطح محاصرة.. فرجع إلى سطحه، وقف عند السلم يتنصت فسمع وقع أقدام صاعدة، وتكتل الصاعدون أمام بابه وخبطوا الباب خبطة شديدة فانفتح، وتدافعوا إلى الداخل، فبادر يهبط مسرعا حتى انتهى إلى الحوش، وكان أن صرع من اعترضه حتى تيسر له أن يصل إلى نهاية الحارة.. ومنها فى طريقة إلى الجمالية حيث لقيه «حسن».. وانطلق الاثنان فى الظلام دون مبالاة بما قد يعترضهما من حجر أو نقرة.

بعد مسافة التقى مع نفر من رفاقه.. وبعد فترة غلب شعور بأنهم يبتعدون حقا عن الخطر.. حتى وصلوا إلى كوخ المعلم «يحيى». فتلقاهم حامدا الله.. وهو ينظر إلى «قاسم» فى مودة قائلا: اليوم أنت «كرفاعة أو كجبل»، وسوف أعود إلى حارتنا عندما يُقيض لك النصر وقد ابتعد «قاسم» ورفاقه يوغلون فى الخلاء نحو الجبل، وتقدمهم «صادق» إذ كان أخبرهم بالطريق. وبلغوا السفح فساروا بحذائه نحو الجنوب حتى عثروا على الممر الضيق الذى يصعد إلى مقامهم الجديد فوق الجبل، وصعدوا وراء «صادق».. الذى أخبره بأنه قد أعد له دارا وسط ديارهم وأن «إحسان» تنام فيها الآن.. وقد تلقاه أهله الجدد فى فرحة وسرور.. وصعد «قاسم» إلى السطح فتلقاه الرجال بالعناق، وصافحته النساء، وارتفعت الأصوات بالتحيات والتهليل والتكبير.. وإذ تطلعت إليه الوجوه الجديدة بادرهم قائلا: «سنرفع النبابيت كما رفعها «جبل»، ولكن فى سبيل الرحمة التى نادى بها «رفاعة»، ثم نستغل الوقف لخير الجميع حتى نحقق حلم «أدهم». هذه هى مهمتنا لا الفتوة».

وبعدما نهض.. فيما بين الظهيرة والعصر برأس مثقل، وجسد متعب.. وغادر الكوخ ليجد «صادق» و«حسن» فى انتظاره.. وألقى نظرة فلم تقع عينه إلا على امرأة أو طفل.. قال «صادق» موضحا إن الرجال ذهبوا سعيا وراء الأرزاق وتخلف «صادق» و«حسن» للاطمئنان

على «قاســم».. وتابعت عيناه النسوة العاملات فى الطهى أوالغسل وتساءل: «ترى هل هن راضيات؟» وكان جواب «صادق» أنهن يحلمن بامتلاك الوقف.. فابتســم «قاسم» إبتسامة عريضة وهو يردّد بصره بينهما فى تســاؤل: ماذا يدور فى رأســيهما عن الخطوة التالية.. بادر «حسن» يبدى رأيه بأن ينتهز غفلة ثم يهجم و«صادق» يقول معترضا: بل نصبر حتى نضــم إلينــا أكبر عدد من أهل الحارة ثم نهجم فنضمن النصــر، كما نضمن قلة الضحايا.. هتف «قاسم» وأساريره تنبسط: أحسنت وشملتهم طمأنينة حالمة..

* * *

وكان وقت الأصيل هو وقت التحطيب، فينبرى الرجال لممارسة تلك التمرينات الشاقة عقب عودتهم من أعمالهم قليلة الرزق، وكان «قاسم» أول المتبارين وكم سرّه أن يرى حماسة رجاله وتوثبهم لليوم العصيب أشــداء بين الرجال ولكنهم يكنُّون له من الحب ما لم تعرفه حارتهم الممزقة بالبغضاء.. وصف الأكواخ يمتد طولا بمن ينضم إليهم من رجال جدد.

وحادث «صادق» حبيبه «قاســم» عن أن مثله لا يســتغنى عن امرأة.. وما زال به حتى أقنعــه بأنه أول من يحتاج إلى أنيس.. ولكنه راح يتســاءل: أيــن أجد زوجة مثل «قمر»؟ واقترحوا عليه «بدرية».. وقالوا له إنها فتاة ناضجة.. وما لبث أن وافق.. واحتفلت الحارة الجديدة بالزفاف.. وزفت «بدرية» إلى «قاسم».

* * *

وفــى كل يوم كان ينضــم إليهم رجل جديد.. وجاءهم من يقــول إنه من حى «رفاعة» واســتقبلوه بترحيــب قائلــين: «نحن لا نفرق بين حــىٍّ وحىٍّ، فالحــارة حارتنا والوقف للجميــع» وأخبرهم القادم أن من وراءه يتســاءلون عن المكان الجديد، ويتوقعون من ناحية «قاسم» ورفاقه شرا، ولكن هناك قلوبا كثيرة تتمنى «لقاسم» النصر.

وقال «صادق» إن القادم جاء بخبر مهم.. فاليوم ســيتزوج «ســوارس» للمرة الخامسة، وستســير زفته.. ونبت اقتراح بأن يجرى هجوم على زفتــه وأن هذه فرصة للقضاء عليه.. وتفكر «قاسم» مليا ثم أبدى موافقته على الهجوم على الزفة كما يفعل الفتوات مذكـِّرا رفاقه بأن يذكروا دائما «أننا نهاجم للقضاء على الفتونة».

وقبيــل منتصــف الليل تجمع الرجال عنــد حافة الجبل يهبطون واحــدا فالآخر وراء «قاسم» وأيديهم قابضة على النبابيت. وانتهوا إلى الخلاء، واتجهوا ناحية الشمال من وراء ســوق المقطم ثم ساروا بحذاء الجبل، ولما اقتربوا من صخرة «هند» أقبل نحوهم من أخبرهم بأن الزفة ستسير نحو باب النصر — ولن تسير كما هى العادة نحو الجمالية — ولعلهم بذلك يحرصون على الابتعاد عن الأماكن التى يظنون مقام «قاسم» ورفاقه قريبا منها..

فكـر «قاسم» بسرعة ثم قال إن «صادق» وبعض الرجال يذهبون إلى ما وراء بوابة الفتوح ويمضى آخرون إلى خلاء باب النصر، وســوف ينتظر «قاســم» و«حسن» وبقية الرجال وراء باب النصر.. وعندما يدعو «قاســم» إلى الهجوم فعليهم بالهجوم. وكانت وصية «قاسم» أن يركـزوا الضرب على «سوارس» ورجاله أما الآخرون فسيكونون إخوانا لهم فى الغد.

وأخذت أصوات الزفة تقترب، وتتضح، ثم ترامى الزمر والطبل.. وعلى ضوء المشــاعل بدت الزفة وهى تتقدم، وتراءى «سوارس» للعين.. واستمر تقدم الزفة.. حتى أطلق «حسن» صفــيره ثلاثا فهبط الرجال من كل ناحيــة وانقضوا على مؤخرة الزفة، فاجتاح الاضطراب صفوفها، وارتفع صراخ الغضب والخوف. وصفر «حسن» ثلاث مرة أخرى فاندفع «صادق» ورجاله على الزفة من الناحية الآخرى، وفى الحال هجم «قاسم» ورجاله على مقدمة الزفة هجمة رجل واحد..

اســترد «ســوارس» ورجاله أنفاسهم من شــرك المفاجأة.. فاشــتبكوا فى معركة مريرة واشتد ارتطام النبابيت، وسالت الدماء على الأوجه والرءوس، وتحطمت المشاعل، وضرب «ســوارس» بقسوة وبخفة، واشــتد الضرب، وتكاثف الحقد، ووجد «سوارس» نفسه بغتة أمــام «صادق»، فوجــه إليه ضربة تلاقت مع ضربة وجهها إليه «صادق».. ولمح «حســن» منقضا عليه كالوحش، فتحول نحوه وهو يطفح بالغضب.. وأطلق نحوه ضربة هائلة تفاداها «حســن» بوثبة جانبية وطعن «حسن» «ســوارس» فى أثناء وثوبه فأصاب عنقه.. وعطلته الطعنة لحظات ســيطر خلالها «حســن» على توازنه ووجه ضربة شــديدة بقوته الخارقة فأصابت وجه «سوارس»، وفجرت الدم من رأسه، وسرعان ما تراخت قبضته عن النبوت، ثم سقط على ظهره دون حراك وارتفع الصياح: «سوارس قـتل!»

وبذلك قويت عزيمة رجال «قاســم» فاشــتدت ضرباتهم، وتخاذل رجال «ســوارس»، وهالتهم كثرة الساقطين من رجالهم فتقهقروا ثم أسلموا أرجلهم للفرار، وأخذ رجال «قاسم»

فى التجمع حوله وهم يلهثون.. وقال «قاسـم»: يوم النصر قريب، يوم يلقى بقية الفتوات نفس المصير، يوم نصبح سادة حارتنا، وأصحاب وقفنا، وأحفادا بررة لجدنا.

* * *

وانتشـرت - فى حارتنا - الأنباء السود كالحريق، فتعالى الصوات فى مساكن كثيرة، وانطفأ العرس، وانطلقت الحناجر تنعى «سوارس» ثم تنعى من قتل معه من رجاله..

وراح كثـيرون ينفّسـون عن غضبهم بتهديدات زاعقـة، وإن بدت الحارة فى اليوم التالى فى مأتم شامل. وبادر الفتوات إلى الاجتماع فى بيت «الناظر رفعت» الذى ركبه الغضب والحنق...!

• وقال «لهيطة» بغضب: راعى غنم ؟! والله لقد هزلت..!

• ولم يخف «الناظر» قلقه فقال: «راعى غنم؟ ولكنه أصبح ذا خطر.. اسـتفحل شـره، وهو الآن معتصم بالجبل، ولن تقف أطماعه عند حد..

• وتبادلوا النظرات فى غضب.. فواصل «الناظر» حديثه الغاضب قائلا:

• وهـو يلـوح للناس بإغراء. هذه هى مصيبة حارتنا. إنه يعد الناس بالوقف.. وهو يعد بالقضاء على الفتونة، فيطرب لذلك الجبناء وما أكثرهم! حارتنا حارة الجبناء، وستجدون أهلها دائما مع الغالب، ففى القعود هلاكنا..

• وراحوا يتشاورون: فيم العمل؟ وكيف السبيل؟

• وتعالـت ضجة فى الخارج غير مألوفة كأنما تنذر بشـر مسـتجد.. وعلم الجميع أن «الغنام» انضم إلى «قاسم» سائقا معه جميع أغنام الحارة..

• فتصايح الجميع يسبون ويلعنون «زقلة» الغنـام. !   ....

* * *

واسـتقبل «قاسـم» «زقلة» الغنّام بحماس.. وألقى «قاسـم» نظرة علـى مجمع الأغنام وتـرددت أقـوال بأنها حلال لقاء ما نهبوا من أموال فى الحارة. وفى أثناء النهار انضم إلى «قاسم» أفراد من الحارة بكثرة لم تعهد من قبل فاشتدت العزائم، ورسخت الآمال، استيقظ «قاسـم» فـى الصباح الباكر لليوم التالى على ضجة غريبـة، فرأى رجاله قادمين نحوه فى

عجلـة واضطراب وهم يردّدون أن الحارة جاءت للانتقام وهم مجتمعون أسـفل المر.. وهم على مبعدة خطوات من الخلاء.. ونظر «قاسم» نحو رأس المر فرأى «حسن» وبعض الرجال واقفين عنده بأيد قابضة على الأحجار وقال: نسـتطيع أن نصدّهم هناك بعشـرة رجال.. وقال البعض لاأظن أن لدينا من الماء ما يكفينا أكثر من يومين.. فقال «قاسم»: «لقد جاءوا للانتقام لا للحصار، وإذا حاصرونا عمدنا إلى المسلك الآخر لفك الحصار».

ومضى «قاسـم» يفكر وهـو يحافظ على هدوء وجهه الذى تتطلـع إليه الأبصار.. وقال «حسـن»: «ليس أمامنا إلا أن نضرب.. سـيتعذر علينا التجوال سعيا وراء أرزاقنا، فليس أمامنا إلا أن نهجم».

• أيده «قاسم» قائلا إنه بالصواب نطق.. وتفكر «قاسم» مليا ثم قال:

• «إذا قتل «لهيطة» ضمنا النصر.. وإذا سقط تقاتل «جلطة» و«حجاج» على الفتونة»

وتعالـت الأصـوات بأن هجوما وقع مـن الناحية الأخرى، فارتـدّ الرجال عن الحافة منطلقـين نحو السـاحة فيما يلى الجنوب. وأوصى «قاسـم» المدافعين عـن المرّ بمزيد من الانتبـاه. لاح للجميـع «لهيطة» وهو يقـود عصابة كبيرة من الرجـال قادمين من جنوب الجبل. قال «قاسـم»: شاغلنا برجاله حتى يقوم برحلته حول الجبل ثم يجيئنا من مسلك الجنوب..

ومضى القادمون يقتربون.. ودخلوا فى مجال البصر، فقال «صادق»: ليس فيهم «جلطة» ولا «حجاج». وأدرك «قاسم» أن «جلطة» و«حجاج» على رأس المحاصرين أسفل الجبل، وحدس أنهما سيهاجمان المر مهما كلفهما ذلك من مشقة.. لكن «قاسم» لم يفض بوساوسه إلى أحد، واندفع «قاسم» مهاجما فاندفع حوله الرجال، وأقبل الآخرون.. وفى الوقت ذاته انهالت الطوب من المدافعات على رأس المر على المهاجمين من أسـفل.. واشـتبك «قاسـم» ورجاله مع المهاجمين وكانت الغلبة «لقاسـم» ورجاله.. واشـتد القتال، تلاطمت النبابيت بلا هوادة، وانبثقت الدماء تحت أشـعة الشـمس المحرقة وتوالت الإصابات فخرَّ الرجال تباعـا من الفريقين وكان ممـن تمكن الرجال من قتلة «لهيطة».. وصرخ «حسـن» بصوت كالرعد: «لهيطة» قتل.. فتوتكم قتل.. انظروا الى جثته..!

وأحدث مقتل «لهيطة» غير المتوقع أثرا عنيفا، فاشتدت عزائم، ووهنت عزائم، واندفع الأمل واليأس فى قتال مرير.. وانتشر المنطرحون على الأرض، والتمعت الدماء تحت أشعة الشمس.

وانتحى «قاسـم» جانبا فأرسـل بصره نحو رأس الممر الذى أقلقه أمره، فرأى «صادق» ورجالـه يصبـوُّن الطوب فى توتر شـديد دل على اقتراب الخطر المتصاعـد.. قدَّر خطورة الأمر فمضى من فوره إلى جثة «لهيطة» وراح يسـحبها - يسـاعده «حسـن» - نحو رأس الممر، وتعاون هو و«حسـن» على حمل الجثة.. وقذفا بها معا فتهاوت ثم تدحرجت حتى وقعت تحت أرجل الصاعدين، ووقع اضطراب واضح.. وصاح «قاسم»: تقدموا.. هذه جثة فتوتكـم، وورائى جثـث رجالكم الآخرين. تقدَّموا فنحن فى انتظاركم. وأشـار إلى الرجال والنساء فانهال الطوب كالمطر حتى توقفت طليعة المهاجمين، وأخذوا فى التراجع البطئ.. وصاح «قاسم»: يا «جلطة»، يا «حجاج».. أقدما ولا تهربا!.. فارتفع إليه صوت «جلطة» وهو يصيح انزلوا أنتم، ثم ارتفع صوت «جلطة» بالشـتائم فتناول «قاسـم» حجرا وقذفه به بكل قوته. وتواصل انهمار الأحجار.. وأسـرعت الموجة المرتدة، حتى أوشـكت أن تنقلب جريـا. وراح رفاق «قاسـم» يضمدون جراحهم وقد أراحهـم رؤيتهم لأعدائهم يركضون فى نهاية الممر.. وأووا إلى الأكواخ، وأخذت النساء فى تضميد الجراح..

• وأخذت «حسن» صحوة ابتهاج فقال:
• سننتصر عما قريب، «فتودع حارتنا عهد الدم والإرهاب».
• فقال «قاسم»: «سحقا لعهد الدم والإرهاب».

* * *

كارثـة..! كارثة لم تشـهد الحـارة لها مثيلا من قبل، رجع الرجـال صامتين ذاهلين ووجدوا أنباء الهزيمة قد سبقتهم إلى الحارة، والربوع ترتج باللطم والعويل، وتبيَّن أن حىّ الجرابيع قد غادر بأسره الحارة خوفا من الانتقام، وكان المعروف أنهم سينضمون حتما إلى ابن حيهم المنتصر.. وخيَّم الحزن على الحارة المكللة بالحداد.

وثار تساؤل عن فتونة الحارة، ولمن تكون؟ وثار الأمر فى كلا الحيين: «جبل» و«رفاعة».. وعلـم «الناظر رفعت» بما تهجس به الخواطر فدعا «حجاج» و«جلطة» إلى مقابلته، فذهب الرجـلان وحول كل منهما رجاله الأشـداء حتى غص بهم بهـو البيت، واحتلّ كل فريق جناحـا من البهو. وأخـذ «الناظر» يبصِّرهم بدقة الموقف، وضرورة «الوحدة» بينهم جميعا. وقال «الناظر» فى حسـم إنه لم يعد فى الحارة إلا حيان: «جبل» و«رفاعة» فليكن عليهما

فتوتــان ولا ضــرورة للفتوة الواحد.. وأثــار ذلك التلاحي بين «حجــاج» و«جلطة». ولكن «الناظر» حسم الأمر واتفقوا على ألا يهاجموا «قاسم» ورجاله، بل يحبسونهم في الجبل، ويحاصرونهم من جميع المنافذ حتى تنفذ حيلهم فيضطروا إلى التسليم، وانصرفوا على هذا الرأي وإن كان قد تولّد في الحارة – رغم التعاهد والأقسام – جو خفي من الريبة.. وعند مســاء اليوم الســابق ليوم الخروج تجمعوا في شــتىّ المقاهي، وراحوا يطربون ويسكرون.. حتى وقت متأخر من الليل، وودَّع الأعوان «حجاج» أمام ربعه بحيّ «رفاعة» وهو في غاية الانبســاط والســلطنة، ودفع الباب ومضى في الدهليز.. وإذا بشبح ينقض عليه من ورائه، فســد فمه بيده، وطعنه بسكين في قلبه. انتفض الجســد بقوة بين يديه، فلم يتركه حتى أنامه على الأرض بلا حراك في الظلام الدامس.

* * *

اســتيقظت الحارة علــى ضجة صارخة مفزعــة.. تجمهر جمع غفــير، واختلط اللفظ بالصــراخ والعويــل: فقد قتــل «حجّاج» فتوة «آل رفاعــة». وهرع إلى الربــع الرفاعية من كل حــدب وصــوب. وما لبث أن جاء «جلطة» ورجالــه، وصاح «جلطة»: مصيبة ولا كل المصائب، ليتني كنت فداك يا «حجاج».!

- مع إعلانه لحزنه لم يلق «جلطة» كلمة مجاملة واحدة.. فعاد يقول:
- مكيدة دنيئة! ليس الغدر من شيم الفتوات.. لكن «قاسم» راعي غنم لا فتوة..
- صاحت امرأة في حدة ملتاعة: «مباركة عليك فتونة الحارة يا جلطة»

تقلصت سحنة «جلطة» بالغضب.. وكان ما أمكنه من رد حاضر هو أن رفع صوته بغلظة مصدرا أمره للنساء بأن يغلقن أفواههن في هذا اليوم الأغبر.. ثم راح يؤكد أنها مكيدة دُبرت بليل للإيقاع «بيننا».

هتفت امرأة مســتنكرة أن تكون مكيدة.. بينما «قاســم» ورجاله في الجبل، و«حجاج» قتل في حارته بين قومه وجيرانه الطامعين في الفتونة!

فلم يملك إلا أن ينفث عن غضبه بأنها امرأة مجنونة. ومجنون كل من يتقبل ظنها.

ومضى من توه نحو بيت «الناظر»، واشتد اللغط بعد ذهابه، وإذا برجلين – «رفاعي» و«جبلي» – يتشــابكان في شــجار عنيف، وتبعتهما على الآثر امرأتان، وتضارب غلمان

من الحيين، واستمرت معارك قذف وسب من النوافذ، وشاع الاضطراب فى الحارة حتى تجمهر فى كل حى رجاله، وارتفعت النبابيت وخرج «الناظر» من بيته طالبا إلى الجميع استعمال العقل، لأن الغضب سيعميهم عن عدوهم الحقيقى قاتل المعلم «حجاج».. فاستنكر الرفاعية قوله، وهدد «آل جبل» بأنهم لن يخضع الرفاعية لهم، وأن «آل جبل» سيدفعون الثمن غاليا.. فابتأس «الناظر» وراح يضرب كفا بكف فى حسرة وخشية من أن يدرك الخراب الحارة فتعالت الأصوات بأن الخراب خير من «جلطة»، وراح الرجال من حى «رفاعة» يقذفون الآخرين بالطوب فيردّ «آل جبل» بالمثل، وسرعان ما اشتبك الحيان فى معركة دامية، واشتد الضرب فى قسوة بالغة، وتواصل الاشتباك فترة طويلة..

وراحت نسوة تشرن نحو طرف الحارة.. فلما التفت الرجال إلى حيث تشير النساء رأوا «قاسم» أمام البيت الكبير يتقدم فى عصبة من رجاله تسبقهم نبابيتهم، ورأوا فى الطرف الآخر «حسن» يتقدم فى عصبة أخرى، ضج المكان بصيحات التحذير، وتتابعت الأحداث فى سرعة خاطفة.

أمسك أهل الحيين عن التضارب، وبدافع عفوى تكتلوا وتداخلوا، وانقسموا فريقين لمواجهة القادمين.. وصاح «قاسم» بأعلى صوته:

«لا نريد أذى لأحد، لا غالب ولا مغلوب، أبناء حارة واحدة، وجد واحد، والوقف للجميع..».

وصاح «جلطة» فى مقابلة ذلك بأنها: مكيدة جديدة.. وصرخ «جلطة».. اهجموا..

وانقض «جلطة» على مجموعة «قاسم» وتبعه رجاله، وانقض آخرون على «حسن» ورجاله. وتردد كثيرون، وتسلل الجرحى والمنهكون إلى الربوع. ثم تبعهم المترددون.. ولكن «جلطة» وعصابته بقوا فى الميدان خاضوا معركة شديدة، تضاربوا بالنبابيت والرءوس والأقدام والأيدى، ركز «جلطة» هجومه على «قاسم» بحقد أعمى، تبادلا ضربات عنيفة، مضى «قاسم» يتلقى ضربات خصمه فى خفة وحذر، لكن رجال «قاسم» أطبقوا بكثرتهم على عصابة «جلطة».. حتى سقط النبوت من يده، واندفع يجرى كالثور الذبيح، ثم انكبَّ على وجهه..

انتهت المعركة.. سكتت صرخات التضارب والقتال.. وقف المنتصرون.. خاطب «صادق» «قاسم» قائلا: فى ثقة وطمأنينة: انتصرت – نصرك الله – إن جدنا لا يخطئ فى اختياره، ولن تسمع حارتنا العويل بعد اليوم.

إبتسم «قاسم» إبتسامة هادئة، ثم استدار فى عزم موجها بصره نحو بيت «الناظر»، فاتجهت الرءوس إليه..

* * *

سار «قاسم» على رأس رجاله إلى بيت «الناظر»، فوجدوا الباب والنوافذ مغلقة، والصمت والكآبة يخيمان عليه.. لم تنفتح الأبواب للطرق، ولكنها انفتحت أمام دفعات الرجال القوية، حيث اندفع الرجال وراء «قاسم». لم يعثروا على أثر لأى من قاطنى الدار، تبينوا أن «الناظر» وأهله وخدمه قد غادروا البيت هاربين..

وهكذا تم النصر «لقاسم» وأصبح رجل الحارة دون منازع، وتولى شئون النظارة لأنه كان لابد للوقف من ناظر. وعاد كل من هاجر من الحارة خوفاً من الفتوات، وعلى رأسهم المعلم «يحيى».. ومضت أربعون يوما فى هدوء فالتأمت الجراح، وسكنت النفوس، واطمأنت القلوب.

ويوما وقف «قاسم» أمام البيت الكبير ودعا إليه أهل الحارة رجالا ونساء من جميع الأحياء فمضوا إليه فى لهفة، وتطلّع. واكتظ بهم المكان. وبدا «قاسم» باسما رقيقا مهيبا معا.. فأشار إلى البيت الكبير وهو يقول: هنا يقيم «الجبلاوى». جدّنا جميعا. لا تمييز فى الانتساب إليه بين حىّ وحىّ، أو فرد وفرد، أو رجل وامرأة.. وحولكم وقفُه، سيكون لكم جميعا على السواء. وعلينا أن نحسن استغلاله حتى يكفى الجميع ويفيض،..فنحيا كما تمنى «أدهم» فى رزق موفور، وطمأنينة شاملة، وسعادة صافية غناء.. لن يوجد فى حارتنا بعد اليوم فتوة.. بيدكم أنتم ألاّ يعود الحال كما كان. راقبوا ناظركم، فإذا خان اعزلوه، وإذا نزع أحدكم إلى القوة اضربوه، وإذا ادعى فرد أو حى سيادة أدبوه..

ووزّع «قاسم» الريع على الجميع بالعدل بعد أن احتفظ بقدر للتجديد والإنشاء.. ومضى عهد فى تجديد وبناء وسلام.. وكان ثمة آحاد من «آل جبل» يضمرون غير ما يظهرون.. بل إن الجرابيع رأوا فيه طرازا من الرجال لم يوجد مثله من بعد، جمع بين القوة والرقة،

والحكمة والبســاطة، والمهابة والمحبة، والســيادة والتواضع، والنظارة والأمانة، وإلى ذلك كان ظريفا بشوشا أنيقا، وعشيرا تطيب مودته.. لم يتغير شئ من شأنه اللهم إلا أنه توسَّع في حياته الزوجية – وقال «عمّه زكريا»: إنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا.

ومهما يكن من أمر فإن حارتنا لم تشعر قبله بالسيادة حقا، وبأن أمرها قد آل إلى نفسها دون ناظــر يســتغل، أو فتوة يســتذل، ولا عرفت قبله ما عرفت أيامه مــن الإخاء والمودّة والسلام.

• وقــال كثيرون: إنه إذا كانت آفة حارتنا النســيان، فقــد آن أن تبرأ من هذه الآفة، وإنها ستبرأ منها إلى الأبد.

• هكذا قالوا.. • هكذا قالوا يا حارتنا..!

* * *

(٥)
عرفــة

كان هناك – في حارتنا – تباين ظاهر، بين ما تقوله، وتتغنى به الرباب من أحاديث وأشــعار عن «جبل» و«رفاعة» و«قاســم» من ناحية – وبين ما هو قائم في واقع الحارة من ناحية أخرى، فالرباب يتحدث عن عدل ومساواة وإنصاف واحترام للجميع، والواقع يؤكد أن هناك قلة تضم «الناظر» والفتوات هي التي تتمتع وحدها بكل الخيرات، «للناظر» نصف ريــع الوقف وللفتوات النصف الآخر، أما باقي أهل الحارة فلا شــئ يعود عليهم من ريع الوقــف بل ويتقاضى منهم الفتوات ما يفرضون من إتاوات، وأصبح حال الحارة في انهيار مســتمر وانحدار متصل.. ويحكون أن «قاسم» إذ توفاه الله فقد خلفه «صادق» فسار سيرته وإن كان قوم قالوا: إن «حســن» أولى بأن يتولى الأمر من بعده وإن كان «حســن» لم يساير رأى هؤلاء.. ولكن الذى حدث من بعد أن الحارة عانت بعد ذلك من الانقسامات ونشوب العديد من المعارك حتى قتل «الناظر» نفســه، وســادت الفوضى، فبحثوا عن آخر من بقى من نسل «الناظر» فتولّى أمر النظارة ليعيد الأمر إلى نصابه فيلتزم الحق والعدل لفترة ثم ما يلبث الطمع أن يســتولى عليه، فتعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل بل إلى ما هو أســوأ

منه، وعاش أهلها قابعين، راضين، يجترُّون الإصغاء إلى هاتف من الأعماق يهتف بصوت خافت أنه ليس من المستحيل أن يقع فى الغد ما وقع فى الأمس، فتتحقق مرة أخرى أحلام الرباب، وتختفى من دنيانا الظلمات..!

* * *

وذات يوم رأت الحارة فتى غريبا قادما من ناحية الخلاء، يتبعه آخر كالقزم.. وكان الفتى أسمر اللون، مستدير العينين، حادُّ البصر، تلوح فى عينيه نظرات قلقة نافذة، وفى حركاته ثقة واعتداد.. ولمَّا سأله البعض عمَّن يكون ذكر أنه «محسوبكم «عرفة»، من أولاد حارتكم كالآخرين، وهو عائد بعد غيبة طويلة.. هو ابن خالدة الذكر: «جحشة نبين زين» بعينها ولحمها. وراحت النسوة يتبادلن الحديث عن أمه ويترحمن عليها.. ولكن ماذا عاد به بعد الغيبة الطويلة – وكان الجواب –: مصير الحىّ إلى حارته وأهله.. ودلوه على بدروم خال فى حى «رفاعة» منذ ماتت ساكنته حرقا – الله يرحمها – معلقين بأنه لا خوف عليه، لما وصفته به امرأة مطلة من نافذة بأن «هذا رجل تخاف منه العفاريت».. وتظاهر بالضحك والانبساط وهو يعلّق على ما سمع بقوله: «يا حارتنا يا حلوة، ما أرق ظرف أهلك! الآن عرفت لماذا نصحتنى أمى عند الوفاة بالعودة إليك!».

ومضى نحو الربع.. وهو ينال تعليقات ممَّن يلقاهم – قال رجل ساخرا: «عرفنا أمَّه.. فمن ذا يعرف أباه ؟» وصار ذلك مثار تعليقات متبادلة.. وعُرف منذ تلك اللحظة بأن اسمه «عرفة»، وأن لقبه هو «عرفة بن حجشة». ومضى الرجال والنساء يضحكون ساخرين.. ولكنه قبل أن يتسلم البدروم جاءه من يخبره بأن المعلم «عُجاج» فتوة الحىّ يطلبه.. فلم يتردد فى الذهاب إليه لتوّه.. وبادره بإرسال «التحيات المباركات على فتوتنا، من نحتمى بحماه، ونسعد بجواره» فكان تعليق «عجاج».. بأن هذا كلام حلو، ولكنه عملة لا يعترف بها وحدها.. دسَّ «عرفة» يده فى عبِّه وأخرج حقا صغيرا دقيقا وتقدم فى خضوع من المعلم ومدَّ يده فتناوله المعلم بعدم اكتراث.. وقال «عرفة» فى ثقة لا حدَّ لها: «قمحه منه على فنجال شاى قبل (لامؤاخذة) بساعتين، وبعدها فإما أن ترضى عن محسوبك «عرفة» وإما أن تطرده من الحارة مشفوعا باللعنات.. وأضاف أن عنده أيضا البخور النادر، والوصفات العجيبة، الطبّ والدواء، الأحجبة.. وأن قدره يعرف حقا عند المرض والعقم والضعف»..

ومضـــى إلى البدروم.. ونظر فيما حوله بارتياح وهو يلاحظ أنه ليس عنده إلا نافذة واحـــدة فـــى الحجرة المطلة علـــى الطريق ومنها يمكن رؤيـــة الطريق من تحت خلال النافذة ذات القضبان الحديدية.. وراح ينعى حظه من أنه يعطى «فوائد للناس» ولكنه لا يلقى منهم إلا الإساءة..!

* * *

كان «عرفـــة» يرقب الحارة من وراء النافذة.. أرض الحارة على مســـتوى بصره بكل ما يدبّ عليها من أقدام وعجلات وكلاب وقطط وحشـــرات وأطفال.. أما الوجوه والصدور فلم يكن ليراها، وكان كثيرا ما يردّد من مســـمع من صبيّة «حنش» أنه فى كل شـــبر من هذه الحـــارة تجد دليلا على وجـــود الفتوات ولكنك لن تجد دليلا واحدا على وجود أناس مثل «جبل» أو «رفاعة» أو «قاسم».. وأضاف «عرفة» قوله: «إنهم وجدوا» وراح يسأل «حنش»: «أليس كذلك ؟».. ولكن «حنش» لم يعره التفاتا، ولم يجب على سؤاله.. فقال «عرفة» إن كل واحد من أهل الحارة يفاخر برجله – «جبل» أو «رفاعة» أو «قاســـم» – بغباء وعمى. يفاخـــرون برجـــال لم يبق منهم إلا أسماؤهم، ولا يحاولون قـــط أن يجاوزوا الفخر الكاذب بخطوة واحدة..!

ومضـــى يتردد على جميع المقاهى، فيجد فـــى كل قهوة زبونا يعرفه.. وراحت الزباين تتردد عليه، ما بين امرأة تريد الفتك بأخرى فيردّها ردا حسنا، وما بين شيخ طاعن يطلب إليـــه «الهدية» فلا يبخل عليه.. وكان آخر مـــن زاره «عمّ يونس» بواب حضرة «الناظر»، فتلقاه «عرفة» مرحبا.. ومال «يونس» عليه ليهمس فى أذنه بأن «نظيرة هانم» حرم حضرة «الناظر»، تحلم أحلاما مزعجة ســـيئة حتى قلّ نومها.. فطمأنه بأن تلك حال عارضة تمرّ بســـلام، ولكن «يونس» يلح بقوله إن «الهانم» منزعجة،وقد أرســـلته إلى «عرفة» ليجد لها شـــيئا مناســـبا. انتهز «عرفة» تلك الفرصة فقال له إن الأفضل أن يحادثها بنفســـه.. فقال البواب بحدّة: إن ذلك محال، أن تجىء هى إليه، أو يذهب هو إليها! فقال «عرفة» أنه يلزمه «منديلها» أو شـــئ من «طرفها»! فأحنى البواب رأســـه المعمم، وقام ليذهب.. وتلكأ «عـــمّ يونس» قبل خروجه ليطلب منه «الهدية» التى أعطى مثلها «لحجاج» فتوة «رفاعة». ولما ذهب البواب بالهدية ضحك «عرفة» و«حنش» طويلا وتساءل الأخير، لمن أخذ الهدية يا ترى؟ لنفسه أم «للناظر» أم «للهانم»؟..

ومضى «عرفة» إلى النافذة ينظر إلى الحارة فى الليل، يستمع إلى صوت الشاعر يأتيه من قهوة الحى.. ثم تحوّل عن النافذة فى سأم وهو يتساءل: متى تكف حارتنا عن حكى الحكايات؟

* * *

فى حجرة البدروم الخلفية اتخذ «عرفة» و«حنش» مقر عملهما، وزوّد الحجرة بكل ما هو ضرورى من أدوات العمل: أوراق الأحجبة، أتربة، جير، نباتات وتوابل، حيوانات ونباتات وحشرات مجففة، وأكوام من قطع الزجاج، وقوارير، ومياه، وسوائل ذات روائح نفاذة، وفحم، فضلا عن وجود كانون.. وراح «عرفة» يعبّر عن تيهة بنفسه لأن كل من يقصده يعتمد عليه كل الاعتماد. وإن للسحر لذة. لذة استخراج مادة مفيدة من مادة قذرة، لذة الشفاء حين يأتمر بأمرك. وكان يضيف قوله إن أى مغفل ممنًّ يحسبون أنفسهم معلمين فى هذه الحارة لا يستطيع أن يدرك خطورة الأشياء التى تصنع فى هذه الحجرة المعتمة.. المجانين لا يدركون قيمة «عرفة» الحقيقية.. فالسحر شئ عجيب حقا، لا حدَّ لقوته، ولا يدرى أحد أين يقف..

وراح «عرفة» يقول: شاعر «آل قاسم» يقول إن «قاسم» أراد استغلال الوقف حتى يجد كلٌ حاجته، فيستغنى عن العمل، ويفرغ للسعادة - الغناء التى حلم بها «أدهم».. ولكن الغناء ليس هو الهدف الآخير! الأجمل حقا أن نستغنى عن العمل لنصنع الأعاجيب..!

لاحظ «عرفة» - من النافذة - أن شيئا جديدا اتخذ مكانه عند الجدار المواجه لنافذته قهوة متنقلة.. مكونة من قفص.. صفت عليه علب البن والشاى والقرفة، وموقد، وكنجات، وفناجيل وأكواب وملاعق. وقد جلس عجوز على الأرض يروح على الموقد ليسخن الماء، على حين وقفت وراء القفص فتاة فى ربيع العمر.. كانت القهوة تقع عند ملتقى القاسمية بالرفاعية. وبدا أكثر زبائنها من أصحاب عربات اليد. وجعل «عرفة» يطيل النظر إلى الفتاة من بين القضبان: هذا الوجه الأسمر المتلفح بخمار أسود، وهذا الجلباب الذى يغطيها من العنق حتى القدمين، وهذه القامة الرشيقة والعينان العسليتان! هى ابنة العجوز! ودون تردد صاح بها «عرفة» طالبا فنجال شاى.. امتدت إليه عيناها، وبسرعة ملأت قدحا ومضت به إليه فتسلمه شاكرا ونقدها ثمنه، فذهبت دون انتظار لكلام، وتركته يحسوه قبل أن يبرد ودون أن يحوّل عينيه عنها.. وقال فى نفسه: ما أسعد أن يملك فتاة بهذا

الشـباب، ولكن الأمـر يحتاج إلى قدر من النقود لم يوجد معه بعـد.. وانتبه «عرفة» على همهمة غريبة.. والناس ينظرون إلى أعلى الحارة ويرددون اسـم «السـنطورى» – الفتوة – فنظـر بميل فرأى الفتـوة قادما فى هالة من الأعوان ولما مرّ بالفتاة سـأل أحد رجاله: من الفتـاة؟ قالوا: «عواطف بنت عم ْشـكرون».. لعَّب الفتوة حاجبيه فى ارتياح، ومضى نحو حيّـه، وشـعر «عرفة» بضيق وقلق.. ولـوّح للفتاة بالقدح الفارغ فجاءتـه الفتاة فى خفه.. وسـألها وهو يشـير إلى الناحية التى ذهب إليها «السنطورى» وسـألها عمّا إذا لم يكن قد ضايقها، فقالت ضاحكة وهى تسـتدير لتذهب: سأسـتعين بك عنـد اللزوم، فهل تعين؟ حزت فى نفسه سخريتها الحزينة، فتضاعف ضيقه..!

* * *

تكاثـر زبائن «عرفـة» مع الأيام، وقد كانت فرصة كبيرة عندمـا رأى «عواطف» مقبلة عليه.. نسى مهابة المعلم التى يرتديها أمام زبائنه، ووقف مرحبا بها، ثم أجلسها أمامه، والدنيا لا تسـعه من السـرور، حيَّاها بنظرة شـاملة، ولكنها سرعان ما توقفت على عينها اليسرى التى كادت تختفى وراء ورم ظاهر. وقالت إنها اكتفت بغسلها بالماء الساخن، فقال لها ما كان يجدر أن تنسـى صحتها، وبخاصة إذا تعلق الأمر بعينك الجميلة! ابتسـمت متأثـرة بالثنـاء على حين مدَّ يده إلى رف خلفه ليأتى بلفافة يسـلمها لها قائلا: صرى ما فيهـا فى منديل، وضعيـه فوق بخار ماء يغلى ثم اربطيه على عينك ليلة بعد أخرى حتى تعـود عينك إلى جمـال أختها. تناولت اللفافةَ وحاولت أن تدفع الثمن فأبى وراح يتحدث إليها عن أبيها وعن الفتوّات الذين قالت عنهم إن جميع الفتوات لا قلوب لهم.. فقال لها بوجه متجهمّ. إنه لذلك يخشى عليها – الفتوات يهددّون الرزق والعرض والحب والسلام.. وعندمـا حدثته عن «جدنا» الذى «فى البيت الكبير» قـال بهدوء: نعم. أبوك يحدّث عن «قاسـم»، و«قاسـم» حدَّث عن جدنا، هكذا نسمع، ولكنا لا نرى إلا «قدرى» و«سعد الله» و«عجاج» و«السـنطورى» و«يوسـف» نحن فى حاجة إلى قوة تخلـصنا من العذاب، فماذا تجدى الذكريات..؟؟

توقف عن الحديث قبل أن يمضى قائلا: «إن الحارة فى حاجة إلى قوة، كما أننى فى حاجة إليك».

حدجته بنظرة استنكار، فابتسم فى جرأة، ومضى فى حديثه: «شابة طيبة مجتهدة، جميلة، تنسى فى غمرة العمل عينها حتى تورّمت، ثم تجيئنى على ظن أنها فى حاجة إلىّ، فتنضح لها الحقيقة وهى أننى الذى فى حاجة إليها «قالت وهى تهمّ بالقيام» آن لى أن أنصرف».. وانصرفت بعد أن ألقت عليه تحيتها وتركته يترنم.. ثم مضى من بعد فى نشاط إلى حجرة العمل وهو يردد على مسامع «حنش» إنه لابد من القضاء على الفتوات.. وأضاف إن حب الفتاة حب للحياة.. كان «قاسم» علـى حق.. وراح يردد أنه حقا ما هو بفتـوة، ولا برجل من رجال «الجبلاوى»، ولكنه يملك الأعاجيب فى هذه الحجرة، ومنها قوة لم يحز مثلها السابقون.. وغادر حجرة العمل إلى النافذة مرسلا ناظريه إلى القهوة المتنقلة، ولاحظ أنها تتجنب النظر إلى نافذته فدله ذلك على خطورة ببالها ،. وابتسم «عرفة». كيانه كله ابتسم، وفاض من قلبه الرضا..

* * *

وطرأ على حياة «عمّ شـكرون» اضطراب غامض. كان يتكلم بصوت مرتفع جدا كأنه يخطب فى أحيان كثيرة، وكان يغضب شـديد الغضب لأتفه الأسباب أو بدون أسباب، وكان يصمـت طويلا حين يتطلب الأمـر الكلام، وكان يقول أقوالا تعد فى الحارة كفرا.. وكان الـكل ينظـرون إليه فى إشـفاق ويقولون: الكبر.. الكبر.. اللهـم احفظنا.. ومضى «عرفة» يراقبه وهو يأسى لحاله وهو يقول لنفسه. لقد نعم بأيام العدل والأمان على عهد «قاسـم»، ثم عاش أيام النكسـة من بعده وقد كان من سـوء حظه أن طال به العمر حتى عاش زمن الفتوات..

ولكن «عواطف» جاءت «عرفة» بقدح الشاى، فضحك لها مهنئا إياها بالشفاء، وطرب وهى تقول له إن الفضل لك وله! وتناول قدح الشاى وهو يقول لنفسه: ما أجدر أن يخطو الخطوة الحاسمة. وهو رجل لا تعوزه الجرأة غير أنه يجب أن يعمل حسابا «للسنطورى».

وترامـت من بعيد ضجة وهتاف.. وبغتة ظهر «السـنطورى».. حتـى وصل أمام قهوة «شكرون» وتفحص وجه «عواطف» وهو يطلب «واحد سادة».. قدمت «عواطف» له الفنجال، وهو يبتسـم إلى الفتاة إبتسامة وقحة كشفت عن أسنانه الذهبية.. قال «السنطورى»: تسلم يدك الجميلة – وأعطاها الفتوة قطعة من ذات الخمسة قروش ولم ينتظر، ومضى عنها قبل أن تعطيه الباقى فنهض«عمّ شكرون» على رغم ضعفه وأخذ الفكة ومضى إلى المقهى ثم بعد

قليل عاد إلى مجلسـه، وما لبث أن أغرق فى الضحك.. ثم وقف صائحا: يا «جبلاوى».. يـا «جبـلاوى». والتفتت نحوه الأعين من النوافذ والأبواب والمقاهى.. ثم هاج سـرورا: يا «جبـلاوى» حتى تلازم الصمـت والاختفاء؟ وصاياك مهملة، أموالـك مضيعة، وأنت فى الواقع تُسـرق كما يُسـرق أحفادك يا «جبلاوى».. وهتف الصغـار، ومضى العجوز يكمل قولـه: يا «جبلاوى» ألا تسـمعنى؟ ألا تدرى ما حل بنـا؟ لماذا عاقبت «إدريس» وقد كان خيرا ألف مرة من فتوات حارتنا..! يا «جبلاوى»..!

عند ذلك خرج إليه «السنطورى» غاضبا متوعدا: عليك اللعنة يا وغد الأوغاد..! واتجه نحو العبث وقد أعماه الغضب وضربه على رأسـه بقبضته. ترنح الرجل وكاد يهوى، لولا أن أدركتـه «عواطف».. وعادت به إلى البيت يسـاندهما «عرفة».. والعجوز يردِّد بصوت ضعيف: يا «جبلاوى».! يا «جبلاوى»..!

* * *

وقبيل الفجر شـقَّ صوات مولول السـكون. عرف الناس أن «شكرون» مات. وقالت بطانة «السـنطورى»: «الله يجحمه. عاش قليل الأدب. وقلة الأدب كانت السبب فى موته».. ولما حملَ نعش «شكرون» لم يكن وراءه إلا «عواطف» و«عرفة».. وكان الأعجب أن «السنطورى» انضـم إلى الجنـازة، المهمَ أن حال الجنازة تغيَّر فى غمضة عين إذ تسـارع إليها الكثيرون.. وراح «السـنطورى» يعزِّى «عواطف» بقولـه: (البقية فى حياتك يا «عواطف»!) نظرت إليه فى تحدٍّ وقالت بكل جرأة: تقتل القتيل وتمشى فى جنازته ؟! وتعالت أصوات كثيرة تقول «لعواطف»: «وحدى الله، الآجال بيد الله وحده» صاحت «عواطف» فى وجه «السنطورى»: «قُتل أبى بضربة يدك» قال «السـنطورى» «الله يسـامحك يا «عواطف»» قالت «عواطف»: «ربنا المنتقم». مال «عرفة» على أذن «عواطف» هامسـا: «خلـى الجنازة تفوت بسـلام» وما يدرى «عرفة» إلا ورجل من أعوان «السنطورى» يهوى بكفه على وجهه ويصيح فيه: «يا ابن المهبولـة، مـا أدخلك أنت بينها وبين المعلم ؟» التفت «عرفة» نحوه فى ذهول. فتلقى ضربة أشد من الأولى، وآخر صفعه وثالث بصق على وجهه، وراح يتلقى العديد من الإهانات حتى وجد نفسه مطروحا على الأرض.. وتحامل على نفسه وعاد هو و«حنش» إلى البدروم.. وكان ما طلبه منه «حنش» أن يصرف نظره عن هذه البنت «وإلا فعلينا السلام».

صمـت «عرفـة» مليا، وهو ينظـر إلى الأرض مفكـرًا، ثم رفع وجهـا مكفهرا بالإصرار المخيـف، وهو يقول: «سـترانى متزوجا بها أقرب مما تتصور.. وسـوف يرأس «عجاج» الزفة.. وسأعاود تجربة الزجاجة الليلة فى الخلاء..».

لـزم داره لا يبرحهـا أيامـا، دون أن تنقطع صلتـه «بعواطف» عن طريـق النافذة ذات القضبـان، ثم قابلها خفية عقب انقضاء أيام الحداد، وقال لها فى صراحة «يحسـن بنا أن نتزوج فى الحال» ولم تفاجأ الفتاة بالطلب ولكنها قالت فى حزن: إن موافقتها ستسـبب له من المتاعب ما لا يتحمل. قال بثقة: قبل «عجاج» أن يشرِّف حفلنا». اتخذت الخطوات فى تكتم شديد حتى تم كل شئ وعلمت الحارة – فجأة – أن «عواطف» ابنة «شكرون» تزوجت من «عرفة» السـاحر، وانتقلت إلى داره وأن فتوة «آل رفاعة» – «عجاج» – سيشهد الزواج. ذهل كثيرون، وتساءل آخرون كيف تم ذلك..؟ أما أهل الخبرة فقالوا: يا داهية دقى.

* * *

اجتمع كلا «الفتوتين» مع أعوانه.. وسرى نبأ الاجتماعين فتوتر جو الحارة وسرعان ما خلا الموقع من الباعة.. والمتسـولين.. والأطفال.. وأغلقت الدكاكين والنوافذ.. وما إن خرج أحد الفتوتين برجاله إلى الحارة حتى خرج الآخر لتوِّه. واحتدم الشر، فلم يبق على اندلاع اللهيب إلا لمسة.. وراح الفتوتان يتلاحيان بالكلام الذى ينطلق من الفم كأنه الصياح الذى يهز المكان.. ولما سـئل «السـنطورى» عمَّا فعل غريمه قال إنه حمى رجلا وهو يتحداه – فكان جواب «عجاج» أنه ما فعل الرجل إلا أن تزوج بنتا وحيدة بعد وفاة أبيها.. و«عجاج» شهد زواج كل «رفاعى». وفتح ذلك باب التلاحى والصراخ بين الطرفين وانتقلت إلى اللعن وتبادل الشتائم، وارتفعت النبابيت لولا أن أدركها صوت كالخوار يصيح فى لهجة آمره: «عيـب يا رجال» واتجهت الـرءوس نحو مصدر الصوت فرأوا فتوة الحارة: المعلم «سـعد الله» وهو يشـق طريقه بين الطرفين حتى وقف فى المنطقة بين الحيين وهو يأمرهم بإنزال النبابيت، فكانت الاستجابة الفورية وراح «سعد الله» يوجِّه نظره إلى كل من الإثنين الواحد بعـد الآخر، ولكنـه قاله أمرا حاسما. لا أحب الآن أن أسمع كلام أحد. تفرَّقوا بسـلام.. مذبحة من أجل «مرة» يا خسارة الرجال!.

تفرق الرجال في سكون، ورجع «سعد الله» صوب داره..

وكان «عرفـــة» و«عواطف» داخل البدروم يتابعـــان الأحداث، فلما انفضت على خير، ســألت «عواطف» عما إذا كانت المسألة انتهت عند ذلك نفخ «عرفة» في صراحة وقال إن أي فتــوة لا يؤمــن جانبه. فكان جوابها أنها تعرف ذلــك، وإن بها جرحا لن يلتئم حتى ترى مصرع من أحدثه..

وتطرق بينهما الحديث بعد ذلك إلى الواقف وعجزه عن العمل، وإلى ما يملكه «عرفة» من ألوان الســحر التي تجعله قادرا على كل شــئ. بما في ذلك تمكنه من القضاء على الفتوات أنفســهم، وتشــييد المباني، وتوفير الرزق لأولاد حارتنا كافة.. وعندما قالت له «عواطف» إنه «في زمن قصير حقق «قاســم» العدالة بغير سحرك» أجابها بقوله أنها سرعان ما ولّت. أما السحر فأثره لا يزول. ولكنه لن يؤتى أثره الحق إلا إذا أصبح الجميع سحرة، وذلك لن يتحقق إلا إذا تحققت العدالة، بأن نفذت شروط الواقف، فيستغنى أكثرنا عن الكدّ ويتوفر على الســحر.. ولما تشــككت «عواطف» في حديثه ووعده قال لها متسائلا: ولماذا لا نذهب «للجبلاوى»؟ مضيفا قوله أنه منذ عاد إلى الحارة وهو يفكر وحده في أشياء لا تخطر ببال..

* * *

كانت «عواطف» وهي تراقب «عرفة» وتفكيره تتســاءل: ترى هل جُنَّ الرجل أم أعماه الغرور؟ وهي في الواقع لم يكن يكدِّر صفو أيامها الســعيدة ســوى رغبتها في الانتقام من «الســنطورى» قاتل أبيها. لكن «عرفة» لم يكن يســايرها في ذلك إذ كان يرى أن مثل هذا الانتقام هو جزء يسير من عمل كبير آل على نفسه القيام به.. وتساءلت «عواطف» عما إذا كان «عرفة» يحسب نفسه أحد الرجال الذين تغنّى بهم الرباب؟ لكن «الجبلاوى» لم يعهد إليه بشئ. وهو فضلا عن ذلك لا يبدو كبير الثقة «بالجبلاوى» أو بما تحكى الرباب. وهو يعطى الســحر كل همه وعمله وجهده وفكره ووقته.. كما أنه لا يفكر في المســائل المطروقة بل يجاوز تفكيره شــخصه وأســرته إلى مسائل عامة لا يُعنى بها أحد.. وهو مع ذلك يحلم أحلاما عريضة عن السحر والمستقبل.. وكل هذا يهون إزاء رغبته الجنونية في التسلل إلى البيت الكبير! وعندما تســأله عن دواعيه لذلك يكون جوابه: «لأســأله المشورة فيما ينبغى أن تســير عليه الحارة.. أريد معرفة شــروط الواقف العشــرة.. أريد أن أطلع على الكتاب

الذى طرد بسـببه «أدهم» إن صدقت الحكايات.. فأنا لا أدرى ما الذى يجعلنى أومن أنه كتاب سحر، وأعمال «الجبلاوى» فى الخلاء لا يفسّرها إلا السحر..» ولم توافقه «عواطف» علـى أفكاره.. ولكن ذلك لم يثنه عن عزمـه.. وراح يصارحها بأن حجرته الخلفية علمته ألاّ يؤمن بشـئ إلا إذا رآه بعينيه وجرّبه بيده. فلا محيد له عن الوصول إلى داخل البيت الكبير. ففى ذلك نهاية لما يعيش فيه من حيرة.. ويئست «عواطف» من مقاومته ولم تملك إلا أن ترفع يديها بالدعاء له.. وقد سـار «عرفة» و«حنش» لصق الجدران حتى بلغا السور الخلفى للبيت الكبير فيما يلى الخلاء.. وشرع الأخوان فى حفر الأرض تحت السور ورفع الأتربـة. عملا بجدّ وعزم حتى امتلأ صدراهمـا برائحة ترابية.. وتوقفّ «عرفة» بعد جهد وهو يقول: «حسـبنا هذا الليلة» ثم مضيفا ضرورة سدّ الفتحة باللوح الخشبى قبل تغطيتها بالتراب، وعادوا إلى البيت.. وهو يقول لها إنها لا يجب أن تستهين برأيه، وأنها ستغير رأيها عندما تشهد ما يحدث فى الغد.. فكان جوابها: «لى فى السعادة فرصة وفى الهلاك ألف فرصة».. وراحت تنظر إلى زوجها فى إشفاق..».

* * *

أتما حفر الحفرة، وشدّ «حنش» على يد «عرفة» مودعا الآخر فى أعماق الحفرة ،وانبطح «عرفة» على بطنه وراح يزحف خلال الممر المعبق برائحة الأرض، وما زال فى زحفه حتى برز رأسه من أرض الحديقة داخل البيت الكبير.. تنسّم عطر الحديقة، وشذا عجيبا كأنه خلاصـة الخلاصات من الورد ومن الياسمين، مذابة فى نـدى الفجر.. وراح يزحف على أربـع فى حذر شـديد أن يحدث صوتا – متجها نحو البنـاء الكبير ولاقى فى رحلته من الارتياح ما لم يلاق فى حياته من قبل. ومضى يزحف لصق الجدار حتى مسّـت يده أولى درجات السـلم المفضى إلى السـلاملك. دار زاحفا حول الدرابزين ثم أخذ يرقى الدرج. رفع يده وفتح الباب، ثم زحف داخلا، وجد نفسـه فى ظلمة حالكة.. فأجال يده أمامه حتى مسّ أولى درجات السلم، وانتهى إلى ردهة مضاءة بمصباح فى كوة الجدار. سار على أطراف أصابعه نحو الباب.. ودفع الباب فانفتح... تسلل رادا الباب وراءه.. وعبثا حاول أن يرى شـيئا. وبعد قليل شـمّ رائحة بخور زكية أفعمت قلبه قلقا. لم يعد شك فى أنه فى مخدع «الجبلاوى». متى يألف الظلمة؟ كيف يلمّ نفسـه المبعثرة ؟.. لكن حركة مفاجئة ندّت من

ركن الحجرة البعيد تصلبّت لها شرايينه.. لبد وراء المقعد، سمع وقع أقدام خفيفة وحفيف ثوب.. ولكنه رأى الباب وهو يفتح برفق ونور الردهة الخارجية يتسرب إلى ما وراءه.. وخرج شبح تاركا وراءه الباب مواربا، واتجه يمينه فتبيّنه: امرأة عجوز سوداء نحيلة الوجه.. لعلها خادم.. ونظر من جانب المقعد إلى جانب المكان ليراه على الضوء الباهت المتسلل، فميزّ أشباح المقاعد والكتب، وتراءى له فى الصدر رسم فراش كبير ذى عمد وناموسية.. لن يكون هذا الفراش الفخم إلا «للجبلاوى». إنه الآن نائم هناك.. أشعل شمعة. رأى عينيين تنظران إليه – على رغم ذهوله – أدرك أن العينيين لعجوز أسود يرقد على فراش فى مواجهة الداخل.. وبحركة غير إرادية ولا شعورية انقض على العجوز الأسود فأطبق بيمناه على رقبته، وشد بكل قوة أعصابه.. وسقطت الشمعة من يسراه، فانطفأت. وفى الظلام تحرك العجوز حركة أخيرة ثم خمد.

وتراجع «عرفة» لاهثا حتى التصق ظهره بالباب، ومرت الثوانى وهو فى جحيم من العذاب الصامت، وشعر بقواه تنحدر، وبأن الزمن بات أثقل من الذنوب.. فهل جاء سعيا وراء قوة يناضل بها المجرمين، فانقلب وهو لا يدرى مجرما. اتجه رأسه فى الظلام إلى الركن الذى ظن الكتاب معلقا به، ودفع الباب ثم تسلّل داخلا. وزحف بحذاء الجدار إلى الباب.. أين سيد البيت؟ سوف تحول جريمته بينهما إلى الأبد، وشعر بالخيبة والفشل حتى أعمق أعماقه..

فتح الباب برفق فأغشى النور عينيه.. أغلق الباب، ومضى على أطراف أصابعه، وهبط السلم فى ظلمة حالكة، وعبر السلالم إلى الحديقة، وإذا بالنائم فى السلاملك يستيقظ متسائلا: «من؟» فلبد «عرفة» لصق الجدار، وقد أمدّه الفزع بقوة.. ولما استقر الصمت زحف على أرض الحديقة حتى السور وراح يتحسس موضع الثغرة، ودخلها ليرتطم فى نهايتها بقدم تركله فى رأسه!. ....

* * *

وثب على صاحب القدم فاشتبك معه فى صراع لم يدم طويلا.. فسرعان ما أدرك أنه «حنش» الذى استطالت عليه غيبة «عرفة» فدخل ليتنسم الأخبار.. وعادا سويا إلى البدروم.. ومضى «عرفة» لتوّه ليغتسل ليس فقط من آثار التراب بل من الدم الذى كان يسيل من يده ومن عنقه..!

ولكن ســرعان ما فقد صوابه ليفيق بعد قليل، وبمســاعدة رفيقيه حلّ بينهما وهو يشعر بأن النوم بات أبعد عنه من «الجبلاوى»! لم يعد يحتمل عبء ســره وحده، فقصّ عليهما ما وقع له فى رحلته العجيبة، وانتهى والأعين تحملق فيه بريبة ويأس.. وغشــيتهم فترة صمت قاتمة كالســهاد المرير... قال «حنش» بعدها: يالها من رحلة شــاقة وخاسرة فصدّق «عرفة» على رأيه ثم قال بنبرة جديدة حادة:

لكنها علمتنى أنه لا ينبغى أن نعتمد على شــئ، ســوى السحر الذى بين أيدينا..! ألا تــرى أننــى غامرت برحلة جنونية جريا وراء فكرة ربمــا كانت أبعد ما تكون عن ظنى؟.. إن تجربة الزجاجة ستنجح أقرب ممّا نتصور، وستكون جدّ نافعة إذا احتجنا للدفاع عن النفس فالســحر لا نهاية له. ليس بين يدى منه اليوم إلا بعض الأدوية ومشــروع زجاجة للدفاع أو الهجوم. أما ما يمكن أن يوجد فلا يحيط به خيال..

قالت «عواطف» فى ضجر إنه ما كان ينبغى أن يفكر إطلاقا فى تلك المغامرة. جدُّنا من دنيا ونحن من دنيا أخرى. وما كان «عرفة» يفيد شيئا من محادثته لو وقعت، ولعله نسى الوقف والنظار والفتوات والأحفاد والحارة..

• قال «عرفة» فى حدة:

• أنا عندى ما ليس عند أحد. عندى الســحر، وهو يســتطيع أن يحقق ما عجز عنه الآخرون..

• سألته «عواطف» متى ينام؟ فكان جوابه: عندما تخمد النار المشتعلة فى رأسى.

تنهــد من أعماقه، ثم طرح رأســه على الجــدار فى إعيــاء.. وإذا بصوت يجلجل فى السكون: «جثة الخادم اكتشفت!»..

• وجرى «عرفة» إلى الخارج فتبعاه على الأثر.. وفتحت نوافذ، وأطلت رءوس اتجهت جميعها إلى البيت الكبير.. وجاء رجل مهرولا نحو الجمالية، فلمّا مر بهم ســأله «عرفة» عمّا جرى، فأجابه دون توقف:

• لله الأمر، من بعد العمر الطويل مات «الجبلاوى»..!

* * *

اجتمــع الناس جميعا فــى الحارة حول البيت الكبير، وتســربت الأخبار وشــاعت، وبخاصــة عـقــب زيارة «الناظر» للبيت زورة قصيرة ثم عودتــه إلى بيته، وتناقل الناس أن لصوصا ســطوا على البيت الكبير من خلال نفق حفروه تحت السور الخلفى، فقتلوا خادما أمينــا، ولما علم «الجبلاوى» بالخبر تأثر تأثرا لم تحتمله صحته الواهية فى تلك الذروة من العمر، ففاضت روحه..

هتف «عرفة» لما بلغه النبأ «ها هي ذى الأنباء تصدقنى» لكنه تذكر من توه أنه على أى حال تسبب فى موته فلاذ بصمت الخجل والألم..

وثــارت الخلافــات: أين يدفن «الجبلاوى» – تدخل «الناظــر» ليقرر فضا للخلافات أن يدفن في المسجد الذى أقيم فى مكان حجرة الوقف القديمة بالبيت الكبير، ولاقى هذا الحلّ ارتياحا عاما ملحوظا.. ودفن «الجبلاوى» بعد أن دعى للصلاة عليه «الناظر» ورءوس «جبل» و«رفاعة» و«قاسم». وورى بعد ذلك فى قبره والشمس تميل نحو الغروب. وفى المساء أقيم السرادق الذى احتشد فيه جميع أولاد الحارة.

الناس راحوا يتحدثون عن أمجاد «الجبلاوى»، قاهر الخلاء، وسيد الرجال، ورمز القوة والشجاعة، صاحب الوقف، والحارة والأب الأول للأجيال المتعاقبة.

و«عرفــة» وإن بــدا حزينا بوجهه الميِّــت، إلا أن ما كان يدور بنفســـه، لم يكن يخطر لأحد على بال.. لقد أيقن أنه ارتكب جريمة.. ولابد من التكفير عن هذه الجريمة.. فكيف الســبيل إلى ذلك؟ شــئ واحد هو أن يبلغ الســحر الدرجة التى تمكنه من إعادة الحياة إلى «الجبلاوى».. فلتهبه الأيام القوة حتى يضمِّد الجرح النازف فى قلبه.. وعندما عاد «عرفة» إلى البــدروم آخر الليل... راح يناقش «حنش» و«عواطف» فيما حدث... وكان آخر ما قاله بصوته المحموم:

إن كلمــة من جدنا كانت تدفع الطيبــين من أحفاده إلى العمل حتى الموت. موته أقوى من كلماته.. إنه يوجب على الآمن الطيّب أن يفعل كل شئ. أن يحلّ محله، أن يكونه، أفهمت ؟!

* * *

لم يوافق «عرفة» على أن يذهب «حنش» في رفقته، قائلا له إن الهرب أيسر على واحد منه على اثنين.. ومضى إلى بيت «سعد الله» ودار حوله إلى أن وصل إليه من ناحية الشمال حيث الخلاء، واتجه نحو موضع السور، تحسس الأرض حتى عثر على حجر فأزاحه ثم خاض في الممر الذى دأب على حفره – هو و«حنش» – ليلة بعد أخرى، زحف على بطنه حتى نفذ إلى حديقة بيت الفتوة – كمن وراء السور.. وتريث حتى انصرف الساهرون.. وتقدم يودعهم وأمامه البواب يحمل الفانوس. وما إن أغلق الباب وعاد يتقدمه البواب نحو السلاملك، حتى هم «سعد الله» بارتقاء أول درجة من درجات السلم فانقض عليه «عرفة» وأغمد خنجره في ظهره فوق القلب.. ندّت عن الرجل آهـه – ثم تقوض بناؤه.. وصرخ البواب صرخة مدوية وسرعان ما تدافعت أقدام. ومضى «عرفة» يجرى إلا أنه عثر في جريه بقائم كأنه أصل شجرة مقطوعة، فسقط على وجهه، وهو يحسّ بألم يهرسه، ولكنه تغلب على ألمه وقطع بقية المسافة إلى النفق زحفا، وارتفعت الأصوات واشتد وقع الأقدام، ورمى بنفسه إلى النفق، وزحف بسرعة حتى خرج إلى الخلاء، ونهض وهو يئن ثم اندفع شرقا. وقبل أن يدور مع سور البيت الكبير التفت وراءه فرأى أشباحا تندفع نحوه. وسمع أصوات تدلّ على مكانه.. ثم لمح أضواء كالمشاعل وسمع ضجة، فاندفع في الخلاء، ولكنه شعر أن الألم سيقهره عاجلا أو آجلا وبأن أقدام المطاردين تقترب منه.. عند ذاك أخرج الزجاجة التى كان قد استعد بإحضارها معه الزجاجة التى قضى الشهر في تجربتها. ثم توقف عن الجرى، واستقبل القادمين، حتى تراءت له أشباحهم، ثم قذف الزجاجة تجاههم، وما هى إلا ثانية حتى دوّى انفجار لم تعرفه أذن من قبل، وتتابعت صرخات وتأوهات. وواصل جريه وقد كفّت الأقدام عن مطاردته. وتمكن أخيرا من العودة.. بآلامه وجروحه وسأل عن أثر الانفجار فكان الجواب أنه غطّى على الأثر الذى أحدثه مقتل «سعد الله».. ونظر إلى زوجته المنهكة في تضميد جروحه برقة قائلا: «قتل فتوة الحارة، وغدا يبدأ التناحر بين الفتوات على مكانه.. عهد الفتوات موشك على الزوال، وأولهم قاتل أبيك..!».

لكن «عواطف» لم تجب.. وظلت عينا «حنش» تومضان في قلق. وأسند «عرفة» رأسه إلى يده من شدة الألم..

* * *

«حضرة «الناظر» يطلب «عرفة» إلى مقابلته لاستشارة عاجلة».

كانـت هذه الرسـالة التى حملها «عمّ يونس» فى الصبـاح الباكر، وبادرت «عواطف» تبلغهـا «لعرفة» ومضى «عرفة» لتوّه ملبيـا مرتديا خير ثيابه، ومداريا عرجا ظاهرا نتيجة للجرح الذى أصابه. سـار البواب وهو يتبعه، وكانت الكآبة تغشـى الحارة كلها.. وكان «قدرى» يجلس فى أقصى المكان فمضى إليه، وقف منه على بعد ذراع وهو ينحنى احتراما له حتى تقوس ظهره.. وأشـار «الناظر» إليه أن يجلـس إلى جواره.. فتردد ولكنه ما لبث أن اسـتجاب للأمر.. وراح «قدرى» يرمق «عرفة» فى تفرُّس. وقد أغلق البواب باب البهو عليهمـا.. ولبث «عرفـة» صامتا فى حال خضوع، و«الناظر» يرمقه بهدوء ثم قال «الناظر» فى نبرة هادئة كالمناجاة:

«عرفة»! لم قتلت «سعد الله»؟

تجمد البصر، وسـابت المفاصل، ودار كل شـئ.. وإزاء إصـرار «الناظر» اضطر إلى أن يخفف من إنكاره، ويقر باتهام «الناظر» له بأن السـرقة كانت دافعه فى قتل «الجبلاوى» ثم فى قتل «سعد الله».. وراح يصفه بأنه رجل خطير.. لأن من يحوز سلاحا مثل سلاحه الذى يهزأ بالنبابيت.. هذا الرجل هو الساحر حقا..

ولكن كيف توصّل «الناظر» إلى سرّه؟ صارحه «قدرى» أن أحد خدمه انضم إلى مطارديه، وكان متأخرا عنهم فلم يصبه أذى زجاجة «عرفة».. ثم تبع الخادم وحده «عرفة» فى هدوء دون أن يشـعره بمطاردته الخفية حتى ترك «عرفة» عند الدراسـة.. وسـارع إلى «الناظر» فأخبره..

أخذت الغيوم تتكشـف أمام ناظرى «عرفة» وراح يسـأله عن سر الزجاجة، ويتحادث معه بشـأنها واعدا إياه بأنه لن يهلك ما دام مطيعا «للناظر»، و«عرفة» يعده بأنه سـيكون رهن مشيئته، ولم يخل الحديث من تهديد بأنه يفشى سره ويتركه للناس يرمونه فى بطون الـكلاب، وكان طبيعيـا أن يطلب من «عرفة» أن يسـتعدّ بالكثير من الزجاجات.. لأنهما قد تفاهما على القضاء على الفتوات.. وكان ختام الحديث طلبا من «الناظر» إلى «عرفة»:

لا ترهق نفسـك بالعمل نظير الملاليم. تفرَّغ لسـحرك فى حمايتى. وسـيكون لك كل ما تشتهيه نفسك..!

* * *

جلس ثلاثتهم يتحادثون ويتناقشون، ولم يكن خافيا على أى منهم المصير الذى انتهى إليه ثلاثتهم، فقد أصبحوا فى خدمة «الناظر»، بل أسارى عنده. أصبح من المتعذر عليهم الفكاك من قبضته، بل إن الهرب أصبح أمرا فى شبه المستحيل – وإن كان «حنش» يقول:

• من يدرى؟ فقد يلد المستقبل فرصة للنجاة..

ومضى «عرفة» و«حنش» إلى الحجرة الخلفية.. يواصلان العمل فى همة ونشاط.. وكان مما ابتدعه «عرفة» قوله «لحنش»:

ينبغى أن نتفق على رموز للدلالة على خطوات أعمالنا السحرية، وأن نسجل صورها فى كراسة أمينة سرية حتى لا يتعرض جهدنا للضياع أو يكون موتى نذير النهاية لهذه التجارب، ومن ناحية أخرى أرجو أن يكون لديك الاستعداد لتعلم السحر، فما تدرى شيئا عما يخبئه القدر لنا.

ومضيا يتابعان العمل.. والحديث عن الزجاجة التى ترعب الأفئدة.. ويكرّر «عرفة» مقولته بأن ليس للسحر نهاية.

* * *

من فتوة حارتنا؟

مضى الناس يرددون هذا التساؤل منذ وفاة «سعد الله».. وراح كل فريق يزكىّ رجله، مبتدعا له مزايا يستمدها من تاريخ من سمى الحى باسمه.. وراح كل شاعر يدعو بالرباب إلى فتوة حيه.. وراحت النسوة تتبادل الشتائم من فوق الأسطح..

وبعث «الناظر» إلى «يوسف» خفية برسول من قبله، فلقيه، وحيّاه، وطلب إليه أن يهدّىء الجو فى حيّه، وبخاصة لأن هذا الحى هو الذى يلى بيت «الناظر»، وذلك على أمل أن يلقاه فى المرة التالية وهو فتوة الحارة.. ولم تمض أيام حتى التقى «السنطورى» و«عجاج» واتفقا فيما بينهما على القضاء على «يوسف»، ثم على الاقتراع على الفتونة بعد النصر من ناحية أخرى.. وعند فجر اليوم التالى تجمع الرجال من «آل قاسم» ومن «آل رفاعة» فهاجموا حى «آل جبل»، فدارت معركة شديدة أسفرت عن مقتل «يوسف» وأتباعه، وهرب الكثيرون. وأذعن «آل جبل» للقوة يائسين.. وإذ أجريت القرعة، فقد فاز «السنطورى» بالفتونة، وحياة الجميع، بمن فيهم «عجاج» فتوة الرفاعية.. ومن صفوف

الرفاعية تقدم رجل إلى «السنطورى» مفتوح الذراعين ففتح له «السنطورى» ذراعين ليعانقه، لكن الآخر طعنه بسكين فى قلبه بمنتهى القوة والسرعة. سقط «السنطورى» على وجهه – لتوه – قتيلا. وتلاقى الحيان فى معركة دامية لكن لم يكن فى القاسمية من يستطيع الوقوف أمام «عجاج»، فسرعان ما نفذت إلى قلوبهم الهزيمة.. ولم يأت المساء حتى كانت الفتونة قد تقررت «لعجاج»، وانطلقت الزغاريد من حيّ «رفاعة» وراحوا يرقصون حول فتوتهم. وإذا بصوت يرتفع فوق الزغاريد صائحا «هس.. اسمعوا يا غنم» تطلعوا فى عجب.. فرأوا بواب «الناظر» يسير بين يدىّ «الناظر»، الذى جعل يتقدم فى هالة من خدمه.

• مضى «عجاج» نحو موكب «الناظر» وهو يقول:

• محسوبك «عجاج» فتوة الحارة وخادمكم.

• حدجه «الناظر» بنظرة ازدراء، وقال فى الصمت الرهيب الذى غشى الحارة جميعا:

• يا «عجاج»، لا أريد فى الحارة فتوة ولا فتونة!

• ذهل رجال «آل رفاعة».. وتساءل «عجاج» فى دهشة: ماذا يقصد حضرة «الناظر»؟

• فسدد «الناظر» نحوه نظرة قاسية، ولكن الفتوّة تساءل فى تحد:

• ومن ذا يحميك أنت؟

• وإذا بالقوارير تنهال من أيدى الخدم على «عجاج» وأعوانه، ودوّى الانفجارات يزلزل الجدران.. ويصيب الوجوه والأطراف.. ويفجر الدماء.. وانقض الفزع على النفوس.. وتعالى الصوت فى حى «رفاعة»، وزغاريد الشماتة فى حى «آل جبل» و«قاسم».. وتوسط «يونس» – بواب «الناظر» – داعيا الجميع إلى الإنصات حتى ساد الصمت فصاح «يونس»:

• يا أولاد حارتنا جاءكم السعد والأمان بفضل حضرة «الناظر»، أطال الله بقاءه، فلا فتوة يذلكم أو يغتال أموالكم بعد اليوم.

• وارتفعت أصوات الهتاف إلى السماء..

* * *

انتقل «عرفة» وأسرته إلى بيت الفتوة على يمين البيت الكبير. بذلك أمر «الناظر» ولا رادّ لأمره، وإن كان حرص على أن ينفذ الأمر بليل. وجدوا أنفسهم كمن هم فى حلم.. ارتدوا لأول مرة ملابس فاخرة واستنشقوا هواء نقيا، وتشمّموا روائح زكية. وتغيّر الثلاثة

منظرا ولونا ورائحة. ولم يكد يستقر بهم المقام حتى جاءهم جمع من الرجال ومن النساء: البواب - الطاهى، البستانى - مربى الطيور، والأخريات للدار.. دهش «عرفة» وسألهم: من أذن لكم بالمجئ؟ وجاءه الجواب: حضرة «الناظر»..

وسرعان ما استدعاه «الناظر»، فذهب إليه من فوره.. قال له «قدرى» لدى جلوسه إلى جواره: ستتقابل كثيرا يا «عرفة» فلا يزعجك استدعائى.. وكان جوابه ببشاشة تخفى ما يملأ صدره من قلق: «سيّدى الخير والبركة» وسأله «الناظر» عمّا إذا كانت الدار قد أعجبته - قال «عرفة» فى حياء: «هى فوق الأحلام» وحدّثه «عرفة» عمّن فوجئ بهم فى بيته. قال له «قدرى» إنهم من رجاله أرسلهم إلى «عرفة» ليخدموه ويحموه.. دهش «عرفة» وتساءل عن حاجته إلى الحماية، قال له «قدرى»: أهل الحارة يقولون فيما بينهم إنك صاحب القوارير السحرية، وأهل الفتوات موتورون كما تعلم، والآخرون يموتون حسدا، لذلك كله فأنت فى خطر محيط.

تجهم وجه «عرفة» وأدرك أنه صار سجين الغضب والمقت.. لكن «قدرى» يستدرك قائلا له ألاّ يخاف فإن رجاله حوله.. ولا تنس أن أهل حارتنا يقولون إن «سعد الله» قتل بالسلاح الذى قتل به «عجاج»، وأن الوسيلة التى تسلل منها القاتل إلى بيت «سعد الله» هى نفس الوسيلة التى تسلل منها إلى البيت الكبير من قبل. فقاتل «عجاج» و«سعد الله» و«الجبلاوى» شخص واحد هو «عرفة» الساحر..!

وعندما أبدى «عرفة» فزعه قال له «الناظر» فى هدوء: لا تخف ما دمت فى كنفى ومن حولك خدمى.

اقترح «عرفة» على «الناظر» أن يوزع أنصبة الفتوات على الناس حتى يرضى الناس عن «الناظر» وعن «عرفة»، فضحك «قدرى» هادئا متسائلا: وفيم كان القضاء على الفتوات؟ وعاد «الناظر» يوصيه بعدم نسيان السحر، وبالإكثار من القوارير لأنه من الحكمة أن ندخر منها عددا موفورا..

وراحا يتصارحان: «عرفة» و«قدرى»، حتى كشف كلاهما للآخر عما يخاف من صاحبه.. وقد أنهى «الناظر» الحديث بقوله: لا تخف على حياتك منىّ، فسأحرص عليها حرصى على الحياة نفسها، واعلم أن من يغدر منا بصاحبه، فقد غدر بنفسه.

تجهم وجها «عواطف» و«حنش» و«عرفة» يعيد عليهما ما دار.. وبدا أن ثلاثتهم يفتقرون إلى الطمأنينة الحقة فى ظلّ حياتهم الجديدة.. ومع ذلك مضيا فى حياتهم

كما شـاءت الظروف: مضى «عرفة» و«حنش» يعملان معا فى حجرة وراء البهو أعداها للسـحر. ودأب «عرفة» على تسـجيل الرموز التى اصطلحا عليها فى كراسـة لم يعلم بسرها أحد سواهما.

ويوما امتعض «حنش» من هذا العمل الذى لا جدوى منه، وسأل «عرفة» عما يدعوه إلى العمل بهذا الجد كله؟ فكان جواب «عرفة»: لأنه ليس لى إلا أن أعمل..

وأدركت «عواطف» أنها فى سـجن، وأنها سـتعيش حياة كئيبة.. ومرة تأخر «عرفة» فـى بيـت «الناظر» فخطر لها أن تنتظره فى الحديقة.. وطـال بها الانتظار قبل أن تنتبه إلى صوت الباب يفتح.. وهمَّت بأن تذهب للقائه إلا أن خادمة صعدت من البدروم سبقتها للقيـا «عرفـة».. ثم رأت «عواطف» بعينيها «عرفة» والخادمـة يلتحمان وقد أخفاهما ظل الجدار من ضوء القمر..!

* * *

انفجرت «عواطف».. انقضت على الكائن المتلاحم بقبضتها على رأس «عرفة»، فتراجع ذاهـلا مترنحا حتى اختل توازنه فوقع، ثم أنشـبت أظافرها فى الخادمة وانهالت عليها ضربا.. حتى مزَّق صراخها سكون الليل. قام «عرفة» من سقطته، لكنه لم يجرؤ على الدنوّ مـن المعركـة. جاء «حنش» مهـرولا وفى أعقابه عدد من الخدم، فلمـا عرف الموقف على حقيقته صرف الخدم، وخلـص بين المرأتين حتى استطاع أن يعود «بعواطف» وهى تقذف بسـيل من الشتائم والسـباب.. ومضى «عرفة» مترنحا إلى حيث يطل على الخلاء.. ولحق به «حنش» بعد فترة فاتخذ مجلسه أمامه صامتا..

ملأ الشـك وملأت الريبة صدر «عواطـف».. وامتلأت حياتها بالمخاوف والشـكوك.. وابتدأت تحس أن البيت ليس بيتها، ولا الزوج زوجها. سجن بالنهار وماخور بالليل «ولم يعد هناك «عرفة» الذى أحبته.. إنه اليوم ما هو إلا وغد مثل «قدرى» ومثلما كان «سـعد الله»، والحياة إلى جانبه عذاب مشتعل، وخوف مؤرق».

عاد «عرفة» ذات ليلة من بيت «الناظر» فلم يجد «لعواطف» أثرا، وشـهد البواب أنه رآهـا تغـادر البيت أول الليل، ولم تعد.. فأين ذهبت يا ترى ؟.. وقال لنفسـه: فلأتركها ولأهملها حتى تعود بنفسـها ذليلة! ولكنها لم ترجع، وانقضت عشـرة أيام. فقرر «عرفة»

أن يذهب إلى «أم زنفل».. جارتها القديمة – وتحرّى ألا يشعر بذهابه أحد.. وإن كان قد تبعه خدمان لحراسته وساروا نحو ربع قديم فى حى «أم زنفل». طرق «عرفة» الباب حتى فتح عن «عواطف» نفسها.. فقطبت متراجعة.. وطلب إليها أن ترجع معه، فقالت له: لن أعود إلى سجنك.. وحاول أن يسترضيها بقوله إن لكل رجل زلة.. فكان جوابها إنه هو نفسه زلة ولا كل الزلات.. وأن حياته كلها أخطاء.. وبذل جهدا كبيرا فى محاولة إثنائها عن إصرارها.. فارتدّ عنها يائسا ثم غادر المكان متبوعا بصاحبه والخادمين. وسأله «الناظر» عنها فكان جوابه أنها عنيدة.. وجعل «الناظر» يسأل «عرفة» عمَّا إذا كانت زوجه تعرف شيئا من أسرار عمله، فبادر بقوله إن السحر لا يعرفه إلا الساحر..

* * *

وتوثقت الألفة أكثر بين «قدرى و«عرفة». جعل «قدرى» يدعوه إلى سهراته الخاصة التى تبدأ عادة عند منتصف الليل.. وذكر «عرفة» كلمات «عواطف»، فوجد نفسه يتساءل:

• ألسنا فى سجن يا حضرة «الناظر».

• فقال الآخر بحدة:

• ماذا تريد مادمنا مطوّقين بأناس يمقتوننا؟

• وراحت الأحاديث تمضى إلى مسار أكثر يأسا وإظلاما.. وراح «الناظر» يقول:

• الحياة كما ينبغى وأحسن لا ينقصها شئ، حتى الشباب تعيده الأقراص، ولكن ما جدوى ذلك كله والموت يتبعنا كالظل؟ كيف أنساه وهو يذكِّرنى بنفسه كل ساعة؟

• وراح «الناظر» يتمشى مرددا:

• آه يا «عرفة» لو تنجح! أى شئ تفعله لو نجحت؟

• قال «عرفة» كأنما أفلت منه القول:

• أردّ إلى الحياة «الجبلاوى».

• فلوى الرجل شفتيه بفتور وقال:

• هذا شأن يعنيك بصفتك قاتله!

• فقطب «عرفة» متألما، وغمغم بصوت غير مسموع: «آه لو تنجح يا عرفة!».

* * *

عند الفجر غادر «عرفة» بيت «الناظر» وهو فى عالم مسحور غائم المسموعات والمرئيات، مضى ناحية بيته. وعند منتصف المسافة بين بيته وبيت «الناظر»، وأمام باب البيت الكبير.. اعترضه شبح لم يدر من أين أتى، تقدم منه وهو يقول: صباح الخير يا معلم «عرفة». دهمه خوف لعله من المفاجأة، لكن تابعيه انقضّا على الشبح وأمسكا به، وتفرّس «عرفة» فى الشبح فوضح لعينيه على رغم ذهولهما أنه شبح امرأة سوداء مرتدية جلبابا أسود يلفّها من العنق حتى القدمين. أمر الخادمين بأن يتركاها وسألها عن أمرها قالت له أنها تريد أن تحدثه على انفراد واستحلفته بجدّه الغالى ألا ما سمح لها.. فحدجها وتساءل: أين؟ متى رأى ذلك الوجه؟ وإذا بقلبه يخفق خفقه أعادته إلى كامل وعيه. هذا الوجه الذى رآه على عتبة «الجبلاوى»، وهو مختف وراء المقعد فى الليلة المشئومة! هذه هى خادمة «الجبلاوى» التى كانت تشاركه حجرته! وركبه خوف أفزعه.. وصرف الخادمين وراح يتفرس فى وجهها الأسود الناحل.. وسألها قالت: لا شكوى لى، دائما أردت أن أخلو إليك لأنفّذ وصية. كنت خادمة «الجبلاوى» وقد مات بين يدىّ.. صدّقنى.. فقد اشتد به التأثر عقب اكتشاف جثة خادمه وبغتة احتضر، فسارعت إليه لأسند ظهره المختلج.. وقد جئتك تنفيذا لوصيته. قال لى قبل صعود السّر الإلهى: اذهبى إلى «عرفة» الساحر وأبلغيه عنّى أن جده مات وهو راض عنه واستعادها أكثر من مرة لتعيد على سمعه نص الوصية فأعادتها.. وهى تقول أنها سألت عنه أول ما جاءت، فقالوا إنه عند «الناظر» فلبثت تنتظر. سألها عما إذا كانوا قالوا لها إن «عرفة» قاتل «الجبلاوى» — فقالت بارتياع:

• ما قتل «الجبلاوى» أحد، وما كان فى وسع أحد أن يقتله.. وكل ما عدا ذلك كذب وافتراء..

• لقد مات الرجل بين يدىّ.. وتركته وانصرفت..

• عاد يقص ما حدث على «حنش»، فلم يصدق، بل كذبه، ورد ذلك إلى فقده وعيه، ونصحه بأن ينام، فهو فى حاجة إلى نوم عميق. وحاول «عرفة» أكثر من مرة أن يؤكد «لحنش» صدق روايته فلم يصدّقه.. مؤكدا له أن كل ما هو فى حاجة إليه هو الراحة.. ومازال «حنش» يعرفه حتى أرقده، وأسلم الرأس إلى نوم عميق.

* * *

وعندمـا نهـض من نومه أعلن «عرفة» – فى هدوء وتصميـم – أنه قرر أن يهرب. ومن الطبيعى أن يثير ذلك نقاشـا مسـتفيضا كان «عرفة» فيه على تصميمه وعلى يقينه الذى عبّر عنه بقوله:

«هذا السجن لم يعد يمدّنى إلا بأفكار الموت، وكأن الطرب والشراب والراقصات ليست إلا ألحان الموت. وكأنى أشم رائحة القبور فى أصص الأزهار».

وحذره «حنش» من أن الموت نفسه ينتظره فى الحارة فكان جوابه أنه سيهرب بعيدا عن الحارة، وسـيعود يوما لينتصر.. مضيفا أن جدّه أعلن رضاءه عنه على رغم اقتحام «عرفة» بيته وقتله خادمه.. وإن كانت الدهشة قد عاودت «حنش»، الأمر الذى دعا «عرفة» إلى أن يؤكد أن جده «الجبلاوى» مات وهو عنه راض، لم يغضبه الاقتحام ولا القتل. ولو أنه أطلع على حياة «عرفة» الراهنة لما وسعته الدنيا غضبا.. لذلك نبّه «عرفة» بلطف إلى سابق رضاه. اسـترعى ذلك نظر «حنش» فأبدى تعجبُه وهو يعلّق بقوله: لم يكن من عادتك أن تتحدث عن جدنا باحترام.. فكان جواب «عرفة» إن ذلك كان فى الزمان الأول وأنا كثير الارتياب. أما وقد مات فحق للميت الاحترام.. وهيهات أن ينسـى أنه هو المتسـبب فى موته، لذلك فعلى «عرفة» أن يعيد إليه الحياة إن استطاع، وإن تيسر النجاح «لعرفة» فلن نعرف الموت!

وراح «عرفة» يضع خطة الهرب: سـيتلف كل شـىء إلا الكراسة، فهى كنز للأسرار، وسيجعلها «عرفة» فوق صدره.. وسيرتب مسار الهرب دون عسر.

ومضـى «عرفـة» كعادتـه إلى بيت «الناظر»، وعـاد قبيل الفجر إلى بيتـه، فلبث مع «حنش» ريثما اطمأنا إلى نوم الخدم، وتسـلّلا معا إلى السـلاملك.. ورفع «عرفة» المزلاج، وفتـح الباب على مهل ثم خرج و«حنش» فى أثره.. وسـارا لصـق الجدران نحو ربع «أم زنفل» يخترقان ظلمة صامتة.. وأيقظ «عواطف» واصطحبها فى رحلة الهرب طالبا منها أن تترك الملام لحينه.. فلما كاد يصل بامرأته إذ بصفير «حنش» ينبهه وإذا بضجة تترامى.. فارتد يائسـا.. وأشـار إلى نافذة صغيرة فعلم أنها تطل على المنور فبادر يخرج الكراسة من صدره ويلقيها فى المنور.. وآثر أن يصعد درجات السلم القليلة المؤدية إلى السطح، فترامت إليه ضجة الصاعدين إليه.. وإذا أصوات تطلب إليه أن يسـلم نفسـه – فوقف مستسـلما دون أن ينبـس بكلمـة.. انقضوا عليه فطوّقوه.. وفى الحارة رأى رجلين يسـوقان أمامهما «عواطف» – فرجاهما أن يدعوها فلا شأن لها، فكان الجواب لطمة هوت على صدغه.

* * *

أمام «الناظر» الغاضب وقف «عرفة» و«عواطف» مقيدى اليدين إلى ظهريهما، و«الناظر» ينهال لطما على وجه «عرفة» حتى كلّت يداه.. وقالت «عواطف» مستعطفة إن «عرفة» ما جاء إلا ليصافحها. فكان جوابها البصق واللعن.. وحاول «عرفة» أن يبرئها فإذا «بالناظر» يقول إنها شـريكة «عرفة» فى قتل «الجبلاوى» وفى سائر جرائمه.. ثم راح يتوعد «عرفة» بأنــه إذا كان قــد أراد الهرب.. فسـيتولـى «الناظـر» تهريبه من الدنيـا كلّها..! ونادى رجاله فجاءوا بجوالين. دفعوا «عواطف» فسـقطت على وجهها، فسرعان ما قيدوا قدميها وأدخلوها فى الجوال غير آبهين بصراخها.. فاندفع «عرفة» يقول له: «اقتلنا كما تشـاء، سيقتلك الحاقدون غدا» ضحك «الناظر» فى برود وهو يردد أن عنده من القوارير ما يحميه إلى الأبد فصاح «عرفة»: «حنش» هرب، بكل الأسـرار، وسـوف يعود يوما بقوة لا تقاوم فيخلص الحارة من شرّك..

ثم انقض عليه الرجال، وفعلوا به ما فعلوه فى زوجته.. وحملوا الجوالين إلى الخلاء.. وسمع «يونس» وهو يقول: احفروا بسـرعة حتى نعود قبل الصبح.. ثم إذا «بيونس» يقول موجها كلامه إليهما: سيلقى بكما إلى قعر الحفرة ثم يهال عليكما التراب دون أن يمسكما إنسان بسوء!

فصرخـت «عواطف» على رغـم إعيائها، وهتفت أعماق «عرفـة» بلغة لم يدرها أحد، وحملتهما أيد شديدة، ثم رمت بهما إلى قعر الحفرة، فانهال التراب، وارتفع التراب فى الغسق..!

* * *

انتشر خبر «عرفة» فى الحارة. لم يعرف أحد أسباب مصرعه الحقيقية.. وذاع القول إن «عرفة» قتل بنفس السلاح السحرى الذى قتل به «سعد الله» و«الجبلاوى».. وفرح الجميع لقتله رغم مقتهم «للناظر»، وكثر الشامتون من أهل الفتوات وأنصارهم.. وبدا المستقبل قاتما أشـدّ قتامة مما كان بعد أن تركزت السـلطة فى يد واحدة قاسـية.. وبدا أنهم لم يبق لهم إلا الخضوع.

ويومـا اعترض رجـل «أم زنفل» فى طريقها إلى بعض شـأنها، فحيّاها، واسـتوقفها وحياهـا، فرمقته بنظـرة متفحصة فما عتمت أن قالت بدهشـة «حنـش»، فاقترب منها

وســألها: ألم يترك المرحوم شيئا في مســكنك ليلة القبض عليه؟ قالت إنه لم يترك شيئا! ولكنها رأته يرمي بأوراق إلى المنور، وذكرت أنها تســللت إلى المنور في نهار اليوم التالي، فعثرت بين القاذورات على كراسة لا فايدة منها ولا عايدة فتركتها ورجعت. التمعت عينا «حنش» بنور عجيب وطلب إليها أن تعينه حتى يجد الكراســة، فأجفلت العجوز وطلبت إليه أن يدعها لحالها، فأودع يدها قطعة من النقود حتى سكن فزعها وواعدها آخر الليل بعد أن تنام العيون. وفي الموعد المضروب تســلـّل بإرشــادها إلى أســفل المنور وأشعل شمعة وراح يبحث وصعد إلى «أم زنفل» يائســاً لأنه لم يجد شيئا.. واستمرّ يحادثها إلى أن قالت له بغيظ للتخلص منه بأن يفتش عنها في مســتوقد الصالحية فلابد أن الزبال أخذها ضمن الزبالة التي يذهب بها إلى المستوقد.. فذهب «حنش».. وسأل عن زبال حارة «الجبلاوى»، فسأله عما يبحث عنه.. ما هو.. فلما عرف أن البحث عن كراسة قال «لحنش» وهو يشير إلى ركن في الحجرة الملاصقة للحمام: ابحث.. إنت وحظك، فإما أن تجدها عندك، وإما أن تكون في النار..

ومضــى «حنــش» يفتش في الزبالة بصبر وأمل. لم يبق لــه من أمل في الحياة إلا تلك الكراسـة فهي أمله وأمل الحارة. قتل «عرفة» السيىء الحظ، فهذه الكراسة جديرة بإصلاح أخطائه والقضاء علىأعدائه وبعث الآمال في الحارة المتجهمة.

جاء الزبال يســأله عمًا إذا كان قد عثر على مطلوبه، فاســتمهله بعض الوقت. والزبال يسأل عن أهمية تلك الكراسة، فقال «حنش» إن فيها حسابات المحل وستراها بنفسك.

وواصل بحثه على رغم تزايد مخاوفه علىأثر رؤية «شــنكل» بياع الفول له عندما جاء ليتســلم قدرة الفول الخاصة به.. ارتعدت فرائص «حنش».. لخوفه من أن يكون «شــنكل» قد لمحه.. فهل يهرب على الفور؟ كيف ومازال يبحث.. وعلى كل فقد استمر في بحثه..

عــاد «شــنكل» إلى الحارة ليخبر كل من صادفه عن رؤيتــه «لحنش» رفيق «عرفة» في مستوقد الصالحية مكبا على التفتيش في الزبالة عن كراسة كما أخبره الزبال.. وما إن بلغ الخبر بيت «الناظر» حتى سارعت قوة من الخدم إلى المستوقد، لكن القوة لم تجد «لحنش» أثــرا.. وكان مــا قاله الزبال أنه ذهب لبعض حاجته ثم لم يعد ولا يدرى الزبال ما إذا كان عثر على ضالته أم لا.

ولا يـدرى أحـد كيف أخذ الناس يتهامسـون فيما بينهم بأنها الكراسـة التى أودعها «عرفة» أسرار فنونه وأسلحته، وأنها ضاعت فى أثناء محاولته الهرب، فحملت فى الزبالة إلى مستوقد الصالحية حيث عثر عليها «حنش».. وانتشرت الأخبار بأن «حنش» سيتم ما بدأه «عرفة» ثم يعود إلى الحارة لينتقم من «الناظر» شر انتقام، وأكدت الأقوال والظنون أن «الناظـر» وعـد من يجيئه «بحنش» بمكافأة كبيرة فلم يعد أحد يشـك فى الدور المنتظر أن يلعبه «حنش» فى حياتهم، وارتفعت فى الأنفس موجة استبشار وتفاؤل طفت على القنوط والخنـوع. بل وامتلأت القلوب عطفا على «حنش» فى مهجره المجهول، بل امتد العطف إلى ذكـرى «عرفة» نفسـه، وتمنّى الناس لو يتعاونون مع «حنـش» فى موقفه من «الناظر» لعلّهم يحرزون بانتصاره عليه نصرا لهم، وللحارة، ودعوة لحياة الخير والعدالة والسلام..

وإذ نما ما يتهامس به الناس إلى سمع «الناظر»، فقد أوحى إلى شـعراء المقاهى بأن يتغنّوا بقصـة «الجبلاوى»، وبخاصة مقتلـه بيد «عرفة» وكيف أن «الناظـر» اضطر إلى مهادنته ومصادقته خوفا من سحره حتى تمكّن منه فقتله انتقاما للجد الكبير.

ومن عجب أن الناس تلقوا أكاذيب الرباب بفتور وسـخرية.. وقالوا.. لا شـأن لنا بالماضـى، ولا أمل لنا إلا فى سـحر «عرفـة».. ويوما بعد يوم مضـت حقيقة «عرفة» تتكشـف للناس.. وعرف الناس الرجل وما كان ينشده من وراء سحره للحارة من حياة عجيبة.. ووقعت الحقيقة من أنفسـهم موقع العجـب، فأكبروا ذكراه، بل وأنكروا أن يكون هو قاتل «الجبلاوى»..

وحدث أن أخذ بعض الشـباب من حارتنـا يختفون تباعا.. وقيل فى تعليل ذلك أنهم اهتدوا إلى مكان «حنش»، وأنه يعلّمهم السـحر استعدادا ليوم الخلاص الموعود. واستحوذ الخـوف على «الناظر» ورجاله، فبثوا العيون فى الأركان، وفتشـوا المسـاكن والدكاكين.. حتى باتت الحارة فى جو قاتم من الخوف والحقد والإرهاب.. ولكن الناس تحمّلوا البغى فى جلد، ولاذوا بالصبر، واستمسكوا بالأمل، وكانوا كلّما أضرَّبهم العسف قالوا:

لابـد للظلم من آخـر، ولليل من نهار، ولترين فى حارتنا مصرع الطغيان، ومشـرق النور والعجائب.

* * *

ختـــام:

ذلك ملخص أمين لهذه الرواية المجهدة، وقد حرصنا على أن نضمنه كل الحوادث ذات الأثـــر، وجميع الحوارات التى تتصل بما يريد المؤلف أن يكشـــف عنه من أفكار، ومن هنا طال بعض الشيء. وبخاصة لأننا اضطررنا فى كثير من الأحيان – فى بعض المواضع – أن ننقل النص الأصلى حيث أننا وجدناه أكثر دقة فى التعبير.

وكما أشـــرنا من قبل، فقد أثار ظهور هذه الرواية زوابع ما زالت ثائرة حتى اليوم. وقد جعلنا همّنا أن نحصى هذه الزوابع ونعرضها لأنها تضمنت أحكاما باتة ونهائية بشأن تلك الرواية، ووجدنا أنه مما يحسن بنا أن نعرض للأمر بشيء من التفصيل والدراسة والتحليل فـــى فصول هـــذا المؤلف الذى يتخذ من هـــذا الفصل ركيزة لما ورد قبله ولمـــا يرد بعده من مقولات. على أن لنا كلمة بشأن هذا العمل الفنى يهمنا أن نبديها فيما يلـــى:

* * *

(٦)
ولنـــا.. كلمـــة

هذه الرواية..

• وقد جاوزت صفحاتها الخمسمائة صفحة..

وقد تعددت مراحلها، ولكل مرحلة ملامحها، وشـــخصياتها وأحداثها التى تميزها عن مرحلة أو مراحل سبقتها، وعن مرحلة أو مراحل أخرى تأتى بعدها.

وبقـــدر ما كان هناك تعدد مراحل وأشـــخاص كان هناك أيضا تعـــدد أفكار، ومناهج، وفلسفات، وأهداف.. فضلا عن تعدد الوسائل والأساليب..

والواقـــع أنهـــا وإن كانت رواية متصلة، ومتواصلة يســـلم كل جزء منها إلى ما يليه فى سلاسة وبساطة وعلى نحو طبيعى، إلا أن ذلك لا يحول دون الشعور بأنك تعايش أكثر من عالم، وتعيش أكثر من حياة.

بل إن كل شخصية من شخصياتها المميزة لتشعرك وأنت فى صحبتها بأنك فى مواجهة عالم بأسره يتفرد بملامحه، ويتميز بمعالمه، ويمضى مشعا بأنواره، فتستجيب له الحياة، بل ويستجيب له القدر، إلى أن يقضى صاحب الأمر قضاءه الأخير بشأنه.

عالم، بل عوالم وحياة بل حيوات، تجمع بين مختلف الحوادث والأحداث، وتحكى عن كل ما جرى - وتداول - على ظهر البسيطة من أمور، وما شهدته من أحوال وتقلبات، وكل ما مرّ بدنيانا من تجارب، وبما زوّدت به أبناءها من خبرات، ومعارف، وقدرات..

وهى عوالم غير ثابتة، بل دائمة الحركة، محتدمة الصراع، لا تركن إلى الهدوء، أو تقنع بالسكون، فالأشواق تدفع دائما «أولاد حارتنا» والأحلام تحركهم، والحاجة تستثيرهم، ولهم من أفئدتهم ما يبث فيهم الحياة، وينفث الشجاعة، فيكون اقتحام العقبات أمرا ميسورا، والكثرة تغلب الشجاعة، وبالتدبير يمكن التغلب على القوة، وبلوغ أقصى المرام..

ولكن الأمور ما تلبث أن تعود سيرتها الأولى، فإذا الفقراء يزدادون فقرا، ومذلة، وإذا بالطغاة يسترجعون طغيانهم وجبروتهم ويعودون إلى ما كانوا عليه من بغى وطغيان..

ومع ذلك فلا شىء يدوم، وكل قائم يمضى إلى زوال، وذليل اليوم هو سيد الغد، ليعود من بعد إلى أسوأ مما كان فيه، والحياة تدور وتتقلب.. وشاعر الرباب هو الوحيد الذى يحتفظ بالتاريخ ليرويه حكايات فيها العبرة، وملؤها الموعظة، وهى حكايات لا تتحدث عن ماض انقضى وانتهى أمره، ولكنها تبشر بغد يملأ الأحلام و«يحيى» النفوس..

* * *

وعلى ذلك فالرواية تحكى عن صراع الأجيال، وهو صراع حول تحقيق العدالة بين الجميع، والحصول على الحق فى مساواة لا تفرق بين الناس بعضهم والبعض الآخر، وهو صراع متصل، مستمر على مدى دهور، فهى تروى قصته، وتحكى تفاصيله، وتتحدث عن أبطاله وصراعاتهم وجهودهم وجهادهم لتحقيق الأهداف النبيلة، وأهمها ألا يكون لإنسان فضل على آخر إلا بالجهد والعمل.

ومن هنا كان عجيبا أن يتوقف البعض إزاء بعض الملامح فى السيرة أو فى النشأة، أو فى الجهات التى يمكن أن يلمسها القارىء بين أبطال تلك الرواية، وبين الأنبياء الثلاثة،

وليت التوقف كان ينتهى عند ملاحظة أوجه الشبه مع إدراك أوجه الخلاف أيضا.. إذ ما أسرع ما يثور التساؤل: لم غيرَّ المؤلف من الأحداث؟ كيف لم يلتزم بما هو ثابت بالنسبة لتلك السير المقدسة؟ وكيف يجيز لنفسه أن يحرِّف أو يغيِّر أو يبدِّل؟ وكيف يجرى على ألسنتهم كلاما لم يرد فى كتاب، ولم يسجله تاريخ؟

وجهل هؤلاء البعض - أو تجاهلوا - أنهم بصدد رواية إبداعية، أو عمل فنى روائى، هو أبعد ما يكون عن أن يكون تاريخا، أو يكون قصصا دينيا، وهو عمل إبداعى قائم على الأسس الفنية وحدها، وإن كان مبدعه قد لجأ إلى الرمز، وكان ذلك ليثرى العمل وليس ليقيده.. بل وقد فتح له الرمز مجالا كثيرا ليطوِّر الأحداث، وليدع لها الفرص للتنامى والتشعب، وليضفى على العمل مزيدا من المصداقية، بما يجعله قريبا من القلوب، مرتبطا بما يحس به الناس من متاعب، وما يعانون من مشاق، وما يضعون لأنفسهم من أحلام.. فهؤلاء الأبطال المصلحون إن كانت فى سيرهم بعض المشابة من سير الأنبياء إلا أنها ليست سوى النذر اليسير. وهو الجانب الصالح جانب القدوة، وفيما عداه فهم بشر من البشر يتصرفون كما يتصرف أبناء هذه الحياة، فليكن فى بعض تلك المشابة نوع من اتخاذ القدوة، أو اقتفاء آثار أصحاب الرسالات.. وتلك أمور هى بعض خصائص التدين، وبعض سمات أهل الكتب السماوية، التى قضت بأن تكون حياة الأنبياء قدوة ومثلا لعباد الله الطيبين.. وهى قدوة نهتدى بنورها، ونستمد منها الهداية، والعزم. ولا بأس من أن نقع فى الخطأ، ثم نعدل عنه ونمضى فى طريق مستقيم. وغايتنا إسعاد الآخرين، ودحر الظلم والعسف.. وإقامة العدل والمساواة.. والحرية، والأمان فهذه هى غاية الحياة.. أسمى حياة..

و إننى لأعجب ممن يدع ما يجده فى متابعة هذا العمل الفنى من متعة كبيرة، ومن مضى مع ما يوحى به من مثيل، ومع ما يفتحه من مجالات للفكر، ومجالات للتقدير ليشغل نفسه: من الشخصية التاريخية التى يمثلها هذا البطل؟ ولم لم يلتزم المؤلف بما هو ثابت بشأن سيرة حياة تلك الشخصية..؟ ولم.؟ ولم.؟ إلى آخر ما هنالك من أسئلة مماثلة إن كان هناك لها آخر، أو كان لذلك نهاية..؟؟

بينما أنه بذلك يكلفُ نفسه شططا، ويجهدها أيما إجهاد، ثم لا يجنى من وراء ذلك ثمرة ما.. بل يعود من رحلته متقطع الأنفاس، مكتئب النفس، سوداوى النظرة، ويحمل فوق رأسه هموم الدنيا كلها..

ولو أنه تدبر الأمر فى بساطة، وأخذ الأمور على حقيقتها، ولم يساير أصحاب الأوهام، والأفكار الزائفة، لجنى حلاوة العمل الفنى ولو جد فى صفحاته لذة ومتاعا، ولخرج منه بغذاء روحى يفيض على النفس راحة، وعلى القلب بهجة وسرورا ثم يرتفع بالفكر إلى أرقى مستوى.. فما غاية البشرية منذ الأزل، وما هى أقصى أمانيها؟ أليس تحقيق العدل والحرية والمساواة – وتلك هى سمات الديمقراطية التى نكثر من التغنى بها – وسوف يجد أن تلك الغاية هى ما تهدف إليه الرواية منذ مطلعها حتى كلمات الختام فيها..

* * *

على أن ما ينبغى أن يلفتنا ما قامت عليه الرواية من رموز، وما رمت إليه من أهداف، وما أثارته من إشكالات، عما قام عليه بناؤها الفنى من أسس إبداعية رائعة وما عمرت به صفحاتها من عرض شيّق، وسرد جذاب، وحوارات رقيقة موحية.. كل ذلك قد صيغ فى أسلوب سلس جميل، اختيرت عباراته – بل كل كلمة من كلماته – فى غاية الدقة والإحكام لتعبر عن المعنى المراد بها أصدق تعبير، حتى ليتمثل قارئها ما تعبّر عنه من مشاعر، أو ما تصفه من أحاسيس، أو ما ترويه من حوادث، أو ما تعبِّر عنه من أفكار وآراء كأن هناك من يأخذ بيده، ويعرض عليه، بل ويحدثه حديثا يصل إلى القلب مباشرة بكل ما تقصد الرواية حكايته.. فكأن قارئها لا نقول يعايشها، بل نؤكد أنه يتلبس بها، حتى إنه لينتقل إلى «الحارة» ليصبح واحدا من أبنائها، يشاركهم حياتهم، ومعيشتهم، يفرح لما يفرحون، ويألم لما يألمون.. بل ويغلق صفحات الكتاب ليفكر معهم – فيما يمرون به من مشاكل، وما يلقون من أحداث، وقد أصبح كل همه أن ينتصر لهم، أو ينتصر معهم، وأن يظل فى صحبتهم إلى أن يشرق عليه وعليهم صباح الغد المشرق الجميل..

* * *

والرأى عندى أننا لسنا بصدد رواية تقرأ ثم تطوى، بل نحن بصدد حياة ناطقة ملموسة، فياضة بالحركة، وهاجة بتصارع الأفكار.. حتى يتعذر على قارئها أن يبتعد عن تلك الحياة حتى وإن أنهى القراءة، وأغلق الكتاب، إذ تظل الأحداث أمام عينيه وتظل

الحوارات تتردد على مسامعه، والأفكار والصراعات تغلى وتفور وتتصارع.. وشاعر الرباب يأتى عزفه وغناؤه وإنشــاده عن بعد كخلفية للأحــداث، ولحن للرواية.. «فأولاد حارتنا» ليست رواية كسواها من الروايات، بل هى فى الواقع حياة جديدة متجددة، عشناها نحن القراء معيشــة حقيقية، ذقنا مرُّها ونعمنا بخيراتها.. وتألمنا لوقع «ضربات» النبابيت على ظهورنا.. ولكننا رحنا نهتف هتاف النصر عندما اندحر الطغاة..

فهــى روايــة تقرؤها مرة لتظل ملازما لها ما حييت، وأؤكد لك أنها لن تفارقك ما حييت..

أنا هنا أعبّر عن إحساسى الشخصى الذى ما أحسبه إلا إحساس كل قارىء.. وأنا هنا أدع آراء النقاد، من أصحاب المقامات العالية فى النقد، لأننى هنا فى كلمتى إنما أخاطب من يشاركنى متعة القراءة «الحرة» دون تقيدّ بمذهب، سوى الانطلاق نحو الخير، والحب، والفن، والجمال.. فى حرية مطلقة وإخلاص كبير..

أما أســاتذتنا النقاد فســيأتى دورهم فى هذه الصفحات، فى موضع تال بعد أن أرضى نفسى، وأروى ظمئى، وأعبّر عن رأيى – وعن رأيك – فى سماحة، فبذلك نتهيأ لنتقبل مــا ســوف نقدم من وجهات نظر متباينة، هى فى مقــام الأحكام النهائية – التى لا تقبل بالنسبة لصاحبها نقضا ولا إبراما..

وكأننا بذلك نريد أن نقول إن الحياة تتســع للجميع والســاحة تقبل العديد من الآراء، و«الأحكام» وليس لأحد منا أن يدعى أنه هو وحده الذى اهتدى إلى الحق دون سواه..!

* * *

الفصل الثالث

المحاكمــة الأولــى

تصرفات السلطة وتقرير الأزهر

لــن نبحث عن حقيقــة الصلة بين الأمريــن، وهل كان تلاقى الأمريــن عن اتفاق وترتيب مسبقين أم أنها كانت محض مصادفة، لم يكن فى منشئها ما ينبئ عن تلاقى وجهتى النظر..

علــى كل فإننــا نرجىء ذلك بصفة مؤقتة إلى أن نعرض المســألة بجانبيها بالقدر الذى تســمح به المراجع المتوافرة، والحقائق المعروفة، وأملنا كبير فى أن نوفق فى التزام جانب الحق، وأن نتوصل إلى الكشف عن الحقيقة.

أولا: تصرفات السلطة:

يــروى «نجيب محفوظ» بلســانه قصة نشــر رواية «أولاد حارتنا» فــى الكتاب المعنون «نجيــب محفــوظ»: صفحات من مذكراته وأضواء جديدة علــى أدبه وحياته — من إعداد الكاتب الكبير «رجاء النقاش» على لسان «نجيب محفوظ»: (ص: ١٤ وما بعدها):

البدايــــــة:

«فى عام ١٩٥٧م شــعرت بدبيب غريب يســرى فى أوصالى، ووجدت نفســى منجذبا مــرة أخرى نحو الأدب.. وكانت كل الأفكار المســيطرة علىّ فــى ذلك الوقت تميل ناحية الدين والتصوف والفلســفة، فجاءت فكرة «أولاد حارتنا» لتحيى فى داخلى الأديب الذى ظننتــه قد مات، ولذلك لاحظ النقاد تغييرا فى أســلوبى واتجاهاتــى الأدبية وهم يقارنون بين «أولاد حارتنا» بما ســبقها من أعمال، فهى لم تناقش مشــكلة اجتماعية واضحة كما اعتــدت فى أعمالى قبلهــا، بل هى أقرب إلى النظرة الكونية الإنســانية العامة، ومع ذلك فرواية «أولاد حارتنا» لا تخلو من خلفية اجتماعية واضحة، ولكن المشكلات التى صاحبتها والتفسيرات التى أعطيت لها، جعلت كثيرين لا يلتفتون إلى هذه الخلفيات.»

ثم يمضى «نجيب محفوظ» يكمل الرواية بعد هذه البداية:

• النشر على حلقات مسلسلة وبداية الأزمة:

نشــرت رواية «أولاد حارتنا» فى جريدة الأهرام على حلقات مسلسلة.. ومرت حلقاتها الأولى دون أن تظهر أى ملاحظات عليها، فالجزء الأول من الرواية لا يسـبب أى مشـاكل ولكــن الأزمة بدأت بعد أن نشــرت الصفحة الأدبية بجريــدة الجمهورية خبرا يلفت فيه كاتبه النظر إلى أن الرواية المسلســلة التى تنشــرها جريدة الأهرام فيها تعريض بالأنبياء.. بعد هذا الخبر المثير، بدأ البعض. ومن بينهم أدباء للأسـف فى إرســال عرائض وشكاوى إلى النيابة العامة، ومشـيخة الأزهر، بل إلى رئاســة الجمهورية، يطالبون فيها بوقف نشر الرواية، وتقديمى إلى المحاكمة، وبدأ هؤلاء يحرِّضون الأزهر ضدى على أســاس أن الرواية تتضمن كفرا صريحا، وأن الشــخصيات الموجــودة فى الرواية ترمز إلى الأنبياء. وقد عرفت هذه المعلومات عن طريق صديق لى هو الأســتاذ «مصطفى حبيب» الذى كان يعمل سكرتيرا لشـيخ الأزهر، وكان شــقيقه يعمل وكيل نيابة وهو الذى أخبرنى أن أغلب العرائض التى وصلت إلى النيابة العامة أرسلها أدباء.

وخــدع رجــال الأزهر فــى هذه الأزمة، لأنهم لم يحســنوا قراءة الروايــة وفهمها، بل إن بعضهــم لم يقــرأ رواية أدبية من قبل، ومن هنا فسَّــروا رواية «أولاد حارتنا» تفســيرا دينيا. ورأوْا أن شخصية «أدهم» فى الرواية ترمز إلى «آدم»، وشخصية «إدريس» ترمز إلى «إبليس»، وشخصية «جبل» هى «موسى»، وشخصية «رفاعة» هى شخصية «المسيح»، أما شــخصية «قاسم»، فهى شخصية «محمد عليه الصلاة والسلام».. وهكذا. دافع عن الرواية الأستاذ «محمد حسنين هيكل»، ولولاه لكان توقف نشرها فى الأهرام فورا».

• منع نشر «أولاد حارتنا» فى مصر:

وينتقل «نجيب محفوظ» خطوة بعد ذلك فيروى:

(وبعد انتهاء نشر رواية «أولاد حارتنا» فى الأهرام، قابلنى الدكتور «حسن صبرى الخولى» الممثل الشــخصى للرئيس «عبد الناصر»، وكان رجلا فى غاية اللطف، وقد سبق لنا العمل معا فى الرقابة، هو فى رقابة النشر، وأنا فى الرقابة على المصنفات الفنية. قال لى «الخولى» إنه لا يستطيع أن يسمح بنشر رواية «أولاد حارتنا» فى مصر ككتاب، لأنه فى حال صدوره ســتحدث مشــكلة كبيرة مع الأزهر، ولكن من الممكن أن تنشر الرواية خارج مصر، واقترح علىّ «الخولى» ترتيب لقاء مع عدد من شــيوخ الأزهر لمناقشــة الرواية، ورحبت بالاقتراح،

فاتفــق معـــى على أن أحضر إلى مكتبه فى يوم محدّد، وســوف يدعو بعض شــيوخ الأزهر لإجراء المناقشة معى. وفى الموعد المحدد ذهبت إلى مكتب «الخولى»، فلم أجد أحدا، وقال لى «الخولى» إنه ســوف يتصل بى لإتمام اللقاء المقترح عندما يجتمعون، ومازلت فى انتظار المقابلة من أكثر من خمســة وثلاثين عامــا. وأذكر أنه فى أحد اجتماعات المجلس الأعلى للثقافة جلس إلى جانبى شــيخ الأزهر، ودار بيننا حديث ودّى للغاية، ولكنه كان متحفظا على قضية رواية «أولاد حارتنا»..).

انفجار الأزمة عقب حصوله على نوبل:

• ثم يمضى «نجيب محفوظ» فى حكايته للأحداث المتتالية فيقول:

«نامــت الأزمــة فترة طويلة حتى انفجرت فى اليوم التــالى لحصولى على جائزة نوبل، خاصة بعدما تردّد أننى حصلت عليها بسبب هذه الرواية، على الرغم من أن آخر ما جاء ذكــره فى تقريــر الجائزة هو هذه الرواية. وفى اعتقادى أن ســبب الأزمة هو التركيز على التفســير الدينى للرواية، مع أن هناك تفســيرات أخرى، فالرواية الواحدة يمكن تفسيرها بأكثر من تفسير، رواية (ثرثرة فوق النيل) مثلا كتبتها كتعبير عن عزلة المثقفين، وعلاقتهم المضطربة بالسلطة، ولكن قد يفسرها البعض على أنها رواية فلسفية تعبرٌ عن عزلة الإنسان فى الكون. ورغم أن رواية (ثرثرة فوق النيل) تعبر عن مشكلة محلية إلا أن البعد الإنسانى فيها جعلها تحظى بشعبية كبيرة فى الخارج عند ترجمتها إلى عدة لغات، منها الفرنسية والألمانية. وبهذه المناسبة أذكر أنه بعد حصولى على جائزة نوبل تولـّت الجامعة الأمريكية بالقاهرة تنظيم عملية ترجمة رواياتى للغات الأجنبية بالاتفاق مع دور النشر العالمية. وكلّما ترجمت رواية إلى أى لغة، فإن الجامعة ترسل إلىّ نسخة منها».

وكدليل على صحة وجهة نظرى الخاصة بتعدد التفســيرات بالنسبة للرواية الواحدة، أن ناقدا وأديبا شابا يعمل فى مجلة عالمية أظنها (النيوزويك) بعث لى برسالة طويلة يشرح لى فيهــا أنه كان يمّر بأزمة إبــداع لازمته فترة من الوقت، وأثناء هذه الأزمة قرأ بالمصادفة روايــة «أولاد حارتنا» مترجمة إلى الإنجليزية، فوجد فيها معانى إنســانية جميلة حركت بداخله المياه الراكدة، وكتب نقدا جميلا للرواية أرفقه برســالته. هذا الحماس الذى بعثته الرواية فى داخله دفعه لكتابة عملين قال لى إنهما قيد الطبع، وأنه ســيبعث بنســخ منهما لى بمجرد خروجهما من المطبعة.

لم تكن وحدها:

ويشير الدكتور «جابر عصفور» فى مؤلفه البديع : «نجيب محفوظ»: الرمز والقيمة – ص ٢٩٨ وما بعدها إلى أننا إذا عدنا إلى عام ١٩٥٩م – عام نشر رواية «أولاد حارتنا» – وأعدنا قراءة دلالاتها فى سياق العام الذى نشرت فيه، يلفت النظر على الفور أنها ظهرت فى السنة نفسها التى نشرت فيها مسرحية «توفيق الحكيم» (السلطان الحائر) التى يعالج فيها ما تنطوى عليه قضية الديمقراطية من صراع بين السيف والقانون. وينتصر الحكيم بالطبع للقانون مؤكدا أن حيرة السلطان لن تنتهى إلا إذا قبل القانون وخضع له، مثل أى فرد من رعاياه، وهو المغزى نفسه الذى أشارت إليه مسرحية (حلاق بغداد) التى كتبها ألفريد فرج فى السجون الناصرية قبل الإفراج عنه، مؤكدا أن «منديل الأمان» من حق الناس جميعا.. ويعلق «جابر عصفور» على ذلك بقوله إنه للأسف لم يكن منديل الأمان من حق الكثيرين من اليساريين الذين ألقى بهم «عبد الناصر» فى سجونه، فى الوقت الذى كان فيه قاب قوسين أو أدنى من رفع شعاراتهم عن العدالة والقانون الذى داسته أقدام أمثال (العسكرى الأسود) فى رواية «يوسف» «إدريس» القصيرة التى كانت استمرارا لسنوات الرعب نفسها

وقد ظل «نجيب» على رفضه الإذن بنشر رواية «أولاد حارتنا» – فى مصر:

وعلى ذلك وإذا كانت «السلطة» لم تصدر قرارا بمصادرة الرواية، بل إنها أغمضت العين عن نشرها مسلسلة رغم بدء الثورة عليها، وأخذت بالحلّ الذى طرح بتشكيل لجنة.. إلا أن السلطة أدركت ما قد يصاحب نشر تلك الرواية فى كتاب من ردّ فعل قد يجاوز حدّه المعقول، وقد يخلّ باعتبارات الأمن التى كانت لها الأولوية على غيرها من الاعتبارات، فساقت قرارها إلى «المؤلف» فى صيغة نصيحة، بعدم نشر الرواية – فى مصر – فى كتاب تتاح قراءته وتداوله للجميع، وبخاصة لما هو متوقع من إثارته لمناقشات تلفت الأنظار، وما قد يترتب على ذلك من إخلال بالأمن أو مِن إحداث معارك لا ضرورة لها، ولا جدوى منها وإن كانت الحكومة فى ذلك الوقت قادرة على فرض السيطرة تماما..

ولكن السلطة أبدت رأيها بأنها لا تمانع فى نشر الرواية فى الخارج. وبالفعل فقد نشرتها «دار الآداب» فى بيروت، وأعادت طباعتها عدة مرات، وإلى هذه الطبعة يرجع الفضل فى قراءة المثقفين الذين كانوا متلهفين على قراءتها والاطلاع عليها لمعرفة وجه الرأى فيها.

وعلى ذلك فقد كان اتجاه السلطة إلى عدم نشر الرواية فى كتاب وقد التزم «نجيب محفوظ» بهذا الاتجاه، ولم يأذن لأى دار نشر مصرية بنشرها فى داخل مصر، وكان دائما يقول إنه لن يأذن بنشرها ما لم يحصل على موافقة الأزهر على ذلك، وطالما أن هذه الموافقة لم تصدر فلم يوافق على إعطاء هذا الإذن بل وقد رفض أكثر من عرض قُدم إليه لنشر الرواية على مسئولية دار النشر مع إعفائه من المسئولية، من ذلك ما رواه لى الأستاذ «مصطفى نبيل» رئيس تحرير مجلة الهلال الأسبق من أنه قام بزيارة الأستاذ «نجيب» وعرض عليه أن يقوم بنشر رواية «أولاد حارتنا» فى سلسلة «روايات الهلال» على مسئوليته الشخصية، إلا أنه لم يوافق، وأصرعلى موقفه إصرارا شديدا.

وأذكر أنه على عهد تولى الأستاذ «مجدى الدقاق» رئاسة تحرير الهلال، أقدم على خطوة جريئة هى قيامه بطبع الرواية بالفعل – دون إذن من أحد – وما إن علم «نجيب محفوظ» حتى انزعج، وأجرى اتصالاته.. حتى تمكّن من وقف إتمام عملية نشر الرواية وظهورها فى السوق.. وكان فى ذلك كله يكرر أنه ما لم يوافق الأزهر، فلن يأذن بطبع الرواية فى مصر، وقد استمر على موقفه حتى وافاه الأجل المحتوم.

* * *

التفسير السياسى للرواية:

وقد قيل أيضا أن الرواية أخذت من وجهة نظر سياسية، وبالتالى كان لها مفهوم سياسى يتفق مع تفسير رموزها على نحو آخر يبعد بها عن التفسير الدينى، وعن هذا التفسير يتحدث «رجاء النقاش» (كتابه: «أولاد حارتنا» بين الفن والدين، الصفحات من ٤٩ وما بعدها) فيقول:

«كان الاعتراض الأول على الرواية من جانب رجال الدين، وكان هذا الاعتراض قائما على أساس تفسير الرواية تفسيرا دينيا فيه إساءة إلى (الذات الإلهية) وإلى أنبياء الله عليهم السلام، ولكننا نجد من ناحية ثانية فى حديث «لنجيب محفوظ» أنه كان هناك تفسير سياسى للرواية ينظر إليها على اعتبارها عملا أدبيا يطعن فى النظام القائم وهو نظام «عبد الناصر»، حيث تريد الرواية حسب هذا التفسير السياسى أن تنتقد السلطة القائمة وتصفها بالاستبداد، وشخصية «الجبلاوى» فى الرواية ترمز إلى «عبد الناصر». ويبدو أن

هذا التفسـير السياسى الغريب كان مصدره بعض الأجهزة الأمنية الأساسية، وعلى رأسها (جهاز المخابرات) الخطير الذى كان يرأسـه فى ذلك الوقت: «صلاح نصر». وبسبب هذا الاعتراض السياسى يروى «نجيب محفوظ» هذه الواقعة، فيقول فى حديث معى «أنه أثناء نشر رواية «أولاد حارتنا» مسلسلة فى الأهرام كنت منتظما فى ندوتنا التى نعقدها كل يوم جمعة فى كازينو (أوبرا) وفى هذه الندوة الأسبوعية لاحظت وجود فتاة جديدة عرفت أنها ابنة أخت الدكتور «حسـن صبرى الخولى» - (الممثل الشـخصى للرئيس «عبد الناصر»)، وكانـت فتـاة ظريفة جدا ولا أذكر اسمها الآن. وبعد إحدى جلسـات الندوة اقتربت منى الفتاة وهمسـت فى أذنى بأن سـيارة محملة بمجموعة من العسكر ومعهم ضابط كبير برتبة كبـيرة ذهبـت إلى بيتى لاعتقالى، وقبل أن تصل إلى منزلى جاءها الأمر بالعودة وعدم إكمال المهمـة. ولم تذكر الفتـاة أى تفاصيل أخرى. ولا أعرف مدى صدق هـذه الواقعة، كما لم أحاول التأكد من صحتها. ولكنى فى أثناء نشر «أولاد حارتنا» كانت زوجتى تشكو لى من وجود مراقبة مستمرة لها، وأن أشخاصا لا تعرفهم يتتبعون حركتها كلما نزلت إلى الشارع وحتى فى أثناء تجوّلها فى السـوق لشـراء احتياجات البيت، وربما لو كنت أنتبه خلال سيرى فى الطريق لاكتشفت أن هناك من يراقبنى. ولكن الأفكار التى كانت تدور فى ذهنى وأنا أمشى كانت تشغلنى عن مثل هذه الأمور».

ويخلص الأستاذ «رجاء النقاش» من ذلك إلى قوله: إذا فقد كان هناك تفسير سياسـى لرواية «أولاد حارتنا» إلى جانب التفسير الدينى، هذا التفسير السياسى كان مثل التفسير الدينـى - ضد الرواية أيضا، كما جاء فى حديث «لنجيب محفوظ» أن بعض الأصدقاء قالوا لى إن المخابرات كان لديها اعتقاد أن «أولاد حارتنا» هى رواية موجَّهة ضد النظام وأنهم اشتمُّوا فيها رائحة مؤامرة، وذهب أصدقاء آخرون إلى أن الأزمة التى آثارها الأزهر ضد الرواية كانت بتدبير المخابرات نفسـها، فقد أرادت أن تستفز مؤسسة دينية كبرى بهدف النيل من «نجيب محفوظ»، وقد استبعد «نجيب محفوظ» نفسه هذا الاحتمال.. ولكـن يمكننـا أن نقول إن غضب السـلطة على الرواية كان حقيقـة مؤكدة وإن كان قد توقـف عند الأقوال دون دليل يثبتـه ويقطع بصحته هكذا أنهى «رجاء النقاش» حديثه عن هذه الناحية.

ثانيا: تقارير الأزهر:

ســنقف في حديثنا عند التقارير التي لها صفة رسمية، دون الآراء الفردية التي أبداها جانب من رجال الدين وخطباء المنابر، فتلك آراء فردية لا تنسب إلا لقائليها دون أن يكون «الأزهر» أو سواه من الجهات الرسمية له دور فيها أو مسئولية عنها..

وإلى وقت قريب لم يكن معروفا إلا أمر اللجنة التي شُكلت عندما ثار لغط حول الرواية عند نشرها مسلسلة.. غير أنه ظهر فيما بعد أن هناك تقريرين أعدّهما الواحد بعد الآخر: في مجمع البحوث الإسلامية.. ونعرض لهذه التقارير فما يلي بشيء من التفصيل.

١ - تقرير اللجنة الأولى:

عندما لفتت الصفحة الأدبية في جريدة الجمهورية - في أثناء نشر رواية «أولاد حارتنا» مسلسلة في الأهرام إلى أنها تتعرض للعقيدة الإسلامية.. ثار نفر من رجال الأزهر وطالبوا رسميا بأن يوقف الأهرام نشــر الرواية على الفور. وكان على رأس الأهرام في ذلك الوقت الأســتاذ «محمد حسنين هيكل» الذى رفض الانصياع إلى وقف النشر.. ويحكي «رجاء النقاش» القصة في كتابه الشيق («أولاد حارتنا» بين الفن والدين) حيث يذكر (ص٤٤ - ٤٥) ما يأتي:

في حوار أجراه الكاتب الصحفي المعروف «عادل حمودة» مع الأستاذ «محمد حسنين هيكل» رئيس تحرير الأهرام، في الفترة التي نشرت فيها الأهرام «أولاد حارتنا».. في هذا الحوار بين «عادل حمودة» و«هيكل» قال «هيكل»: بعد أسبوع واحد من النشر بدأنا نتلقى رسائل في صورة نقد موجه مباشرة إلينا، وفي خطابات حملها البريد، وبعد شهر بدأت الأصوات ترتفع، وبعد شــهر ونصف الشــهر، وجدت «جمال عبد الناصــر» يكلمني في التليفون، وقال إن الأزهر، أو وزارة الأوقاف - لا أذكر - كلموني عن الرواية. ســألته: هل قرأتها قال قراءة الأعمال الأدبية مسلســلة لا تريحني - ســأقرؤها بعد نشرها في كتاب. ثم يقول «هيكل» في حواره مع «عادل حمودة»: أردت أن أكســب وقتا لاســتكمال نشر ما بقي من الرواية، فقلت «لعبد الناصر»: خليهم يعملوا لجنة من رجال الأزهر ويفحصوا الرواية. وقد جاء قرار اللجنة بمنع النشر، وكان ذلك قبل عشرة أيام من انتهاء النشر. لكن النشر استمر حتى نهاية الرواية. وقد حرصت على أن أختم الحلقة الأخيرة بعبارة: «انتهت الرواية»

• هــذه هي رواية «هيــكل» في حديثه مع «عادل حمودة» منقــولا عما ورد في كتاب «رجاء النقاش».

هذا ويروى الدكتور «جابر عصفور» نفس الواقعة على النحو التالى:

ثــار رجــال الأزهر الذين لم يقــرأ أغلبهم رواية من قبل، ولم يتعــوّدوا على المجازات الأدبيــة، حتــى تلك الموجودة فى تراثهم الأدبى، وطالبوا رسميا بإيقاف نشــر الرواية فى الأهرام فورا، ورفض «هيكل» - القوى - ذلك، ولكنه ناور حتى يكســب وقتا، وينتهى نشر الباقى من حلقات الرواية، فطالب بتشكيل لجنة من كبار العلماء للحكم على الرواية، واعيــا بالتقاليــد البيروقراطية التى تؤكد أن من يريد قتــل موضوع أو عرقلته أن يحيله إلى لجنة أو يطلب تشــكيل لجنة لدراســته، ونجحت الحيلــة، وتكونت لجنة ثلاثية ضمت «الشــيخ محمد الغزالى والشيخ أحمد الشرباصى» (وثالثا لم يذكر اسمه) وانتهت اللجنة إلى ضرورة منع الرواية من النشر، لكن كانت مناورة «هيكل» قد حققت غرضها، واكتمل نشر حلقات الرواية فى الأهرام.

ولا ندرى شــيئا عن أســانيد اللجنة فيما انتهت إليه، إذ لم تحرر تقريرا برأيها أو ربما كانــت قد حررت تقريرا، ولكنها حرصت على عدم نشــره أو إذاعته. على كل حال فكل ما هو معلوم عن اللجنة أنها انتهت إلى قرار برفض النشر، وذلك لأسباب غير معلنة، وإن كانت معروفة حدسا، وهى أن الرواية تتناول رموزا مقدسة وتنزلها منزلة البشر العاديين، وتجيز لهم أن يخطئوا ويصيبوا، وأن يتصرّفوا كما يتصرف أحاد الناس..!!

٢ - التقرير الأول لمجمع البحوث الإسلامية:

لم يكــن هــذا التقرير معروفا حتى وقــت قريب إلى أن تمكن الأســتاذ البحاث: الدكتور/ «محمد حسام محمود لطفى» (أستاذ القانون المدنى بفرع بنى سويف التابع لجامعة القاهرة) من الحصول على صورة منه ونشره فى كتاب أصدره فى عام ١٩٩٣م تحــت عنوان: «ملف قضايــا حرية الرأى والتعبير فى مصر» وقــد طبعه على نفقته وقام بتوزيعه بنفسه، ومن ثم لم يكن معروفا إلاّ لدى القلة.. وقد أشار إلى هذا التقرير الدكتور «جابر عصفور» فى كتابه عن «نجيب محفوظ» الذى ســلفت الإشــارة إليه.. وقد بادرت إلى الاتصال بصديقى العزيز الدكتور «حسام»، فيسّر لى سبيل الاطلاع على نسخة منه إذ كانت كل النسخ التى لديه قد نفدت تماما.

* * *

ويعلل الدكتور «جابر عصفور» إعداد هذا التقرير (ص ٢٩٥ من مؤلفه سالف الذكر) بأنه «يبدو أن نشـر الرواية فى بيروت آثار فكرة إمكان السماح بدخولها إلى مصر، وعندئذ كان لابد من عرض الرواية على مجمع البحوث الإسلامية الذى له تاريخ متصل من تقارير المنع الذى يسارع إليه عند أية شبهة (قد تخالف الدكتور «جابر» فى هذا الرأى بالنسبة للمجمع فله وقفات طيبة) — ولم يكن أمر رواية «أولاد حارتنا» واقعا فى حيِّز الشـبهة التى تدفع إلى التأنـى أو الـتروى أو الاختلاف، بل فى حيز العداء المسـبق القديم من الذين لم يقرأوا الرواية وكفَّروها على السماع.. (هذا رأى الدكتور «جابر عصفور»)

والتقريـر أعده من وقَّعه تحت وصف (الباحث) بتاريخ ١٩٦٨/٥/١٢م ونورد فيما يلى نصه حرفيا: (منقولا عن كتاب الدكتور «محمد حسام محمود لطفى» — ص١٣، ١٢)

نص التقرير الأول:

القصة تقع فى خمسـمائة واثنتين وخمسين صفحة من القطع الكبير، وهى من القصص الرمزية التى تتناول تاريخ البشـرية من «آدم» وما وقع له ولابنيه وبعث الرسـل: «موسى» و«عيسى» و«محمد» إلى وقتنا هذا وما يظهر كل يوم من جديد فى التقدم العلمى.

وقـد رمز الكاتـب إلى كل حادثة مشـهورة، وشـخصية معروفة، وأضفـى عليها من التصويـر مـا يحدِّد معالمها ويدّل عليها، وإن لم تكن فـى الإطار التاريخى لها. فرمز للإله «بالجبلاوى». والجنة بحديقة القصر، و«لآدم» «أدهم»، و«إبليس» «إدريس»، و«موسـى» «جبل»، و«عيسـى» «رفاعة»، و«محمد» «قاسم» إلى آخر الرموز التى استخدمها فى تصوير الأحداث.

وقد أخطأ التوفيق الكاتب فى تناوله للإله والرسل...

أ- فبالنسبه للإله:

جسد الإله ونعته بصفات مقذعة سواء على لسان «إبليس» أو «قدرى» الابن العاصى من ولدى «آدم» أو الفتوات. وفى بعض الأحيان على لسان الرسل، والبعض الآخر عند تصويره هو لبعض المواقف وصفه على لسان «إبليس» بأنه قاطع طريق فى القديم، وعربيد أثيم فى المستقبل، ووصف تقاليد أسرته بالسخف والجبن المهين، وأنه يغيِّر ويبدِّل فى كتابه كيف شاء له الغضب والفشل، ووصفه على لسان «قدرى» ابن «آدم» بأنه لعنة من لعنات الدهر،

وأنه البلطجي الأكبر، ووصفه على لسان أحد الفتوّات بأنه ميّت أو فى حكم الميت، ووصفه على لســـان ناظر الوقف بأنه قعيد حجرتـــه ولا يفتح بابه إلا عند ما تحمل إليه حوائجه. ووصفه على لســـان أحد تلاميذ «عيســـى» بأنه عاجز، وأنه لو كان فى قوته الأولى لسارت الأمور كما يشاء ووصفه على لسان «عرفة» رمز العلم، بأنه قائم غير دار بجريمته.

• ثم يختم قصة الرسالات بموت «الجبلاوى»: تراجع صفحات..

* * *

ب - بالنسبة للرسل:

صورهم جميعا فى صور من يرتاد «الغرز» ويتعاطى المخدرات، وهذا أخف ما وصفوا به فيما كتب.

«عيســـى» وصفه على لســـان أحد الفتوات بأنه خنثى، يقول «بطيخة» أحد الفتوات، فتوات الحارة تجتمع من أجل مخلوق لا هو ذكر ولا هو أنثى.. ويصوّره على لســـان نفســـه وتلاميذه بأنه ســـكير حشـــاش.. ففى ص.. يقول «رفاعة» «عيسى» الخمر توقظ العفاريت، ولكنها تنعش من تخلّص من عفريته. وفى ص.. وتساءل «كريم» – وهو أحد أعوان «رفاعة» – هل أعد المجمرة؟ فقال «رفاعة» بحزم: نحن فى حاجة إلى وعينا..

ينسب إلى «رفاعة» الزواج من عاهر وإن لم يقربها مع أن «عيسى» لم يتزوج بنص القرآن، وقد ناقض الكاتب نفسه حين جعل بعض أتباعه يتجنبون الزواج حبا فى محاكاته، وجعل ولادة «عيسى» عن زواج وذلك خلاف مانص عليه القرآن، ويتنافى ختام حديثه عن «عيسى» مع ما جاء به القرآن من أنه لم يقتل، ولكنه جعل نهايته القتل كما جاء فى الصفحات...

جـ - بالنسبة «لمحمد» المرموز له «بقاسم»:

١ – وصفه بارتياد القهاوى وتعاطى الجوز والشـــراب، وأنه مولع بالنســـاء، يترصدهن بالخلاء عند المغيب كما جاء فى الصفحات.. ففى ص.. عند الحديث عن زواجه من «قمر» «خديجة» اقترب منها بجلبابه الحريرى وجسده ينفث حرارة ممزوجة بسطول حتى وقف أمامها ينظر من عل.. الخ

٢ – ومن الألفاظ المقذعة الخارجة التى جاء بها الكاتب على لســـان أحد البلطجية فى النيل من «قاسم»: «عرف ابن الزانئة كيف يفسد بيننا».

٣ – بل مِن أفحش الفحش ما سوّده من تعليل لزواج «قاسم» المتعدد إذ يقول: لم يتغيّر شــأنه فى شىء اللهمَ إلا أنه توسع فى حياته الزوجية كأنما جرى فيها مجراه فى تجديد الوقف وتثمينه.. ثم يقول معللا تعدد أزواجه.. إنه يبحث عن شىء افتقده منذ فقد زوجته الأولى «قمر» أو «أنه يريد أن يوثق أسبابه بأحياء الحارة جميعا أو إذا كانت الحارة أعجبت به لأخلاقه مرة فقد أعجبت به لحيويته مرات «وأن حب النســوان فى حارتنا مقدرة يتيه بهــا الرجال ويزدهون، ومنزلة تعــدل فى درجاتها الفتونة في زمانهــا أو تزيد، وينتهى الكاتــب مــن قصته إلى أن التقدم العلمى وتطوره بهذه الصورة إرهاص بانقراض الرســالات وانقضاء أثرها. وأن ذلك من آثار شيخوخة الإله ثم موته. هذه جوانب المؤاخذه فى القصة، ولا يخفِّــف من وقعهــا الانتقال من الأحــداث الطبيعية، وشــخصياتها إلى أحداث دالـة وشخصيات رامزة، فإن ذلك كلّه لا يخفى الوجه الحقيقى لكل حادثة ولكل شخصية.

كمــا لايخفِّــف من وقع هذه المؤاخذات أن ما قدمــه الكاتب من حيث هو – بعيدا عن المعتقدات والمقدسات – عمل فنى ممتاز، وقد كان فى مقدور الكاتب أن يخرج عمله الفنى بعيدا عن هذا السقوط.

• لهذا أوصى بعدم نشر القصة مطبوعة أو مسموعة أو مرئية.

واللـــه الموفـــق

١٢/ ١٩٦٨م الباحث

* * *

٣ - التقرير الثانى لمجمع البحوث الإسلامية:

• وعن هذا التقرير يذكر الدكتور «جابر عصفور» أنه:

«يبدو أن هذا الرأى هو ما ثبت عليه مجمع البحوث حتى بعد أن حصل «نجيب محفوظ» على جائزة نوبل التى أعلنت فى الثالث عشر من أكتوبر سنة ١٩٨٨م، وأعقب الإعلان احتفال الدولة بالمؤلف وتكريم الرئيس له بمنحه قلادة النيل – أرفع الأوسمة فى الدولة. واستغل المثقفون المناسبة – وكنت أحدهم – وطلبوا من الرئيس مبارك الإفراج عن الرواية والسماح بنشرها، الأمر الذى أدّى – فيما يبدو – إلى إعادة عرضها على مجمع البحوث الإسلامية الذى ازداد تشدّدا مع تصاعد ضغط جماعات الإسلام السياسى، ونورد فيما يلى التقرير الثانى منقولاً عن كتاب الدكتور «محمد حسام محمود لطفى» – ص١٤ ، ١٥.

نص التقرير الثانى:

بعد فحص رواية «أولاد حارتنا» للأستاذ «نجيب محفوظ» نجدها قصة رمزية واضحة الرمز تشير إلى قصة الحياة والبشر، إلا أنها مع وضوح رموزها تحتوى على خلط شديد ولا تنتظم على سياق تاريخى أو خط رمزى مستقيم.

وقد رمز فيها لفترات متعدِّدة، فترة بدء الخلق حتى بعثة «موسى عليه السلام»، وفترة بعثة «موسى» إلى بعثة «عيسى عليه السلام» ثم بعثة «محمد ﷺ» ثم فترة التخلف والصراع على العالم الإسلامى وهكذا.

وقد جسَّد فى رمزه باسم «الجبلاوى» صورة الإله ونعته بصفات مقذعة سواء على لسان «إبليس» «إدريس» أو «قدرى» «قابيل» الابن العاصى من ولدى «آدم» أو الفتوات: وفى بعض الأحيان على لسان الرسل أنفسهم أو فى تصوير بعض المواقف.

وقد وصفه مثلا على لسان «إبليس» بأنه قاطع طريق فى القديم وعربيد أثيم فى المستقبل، ووصفه على لسان «عرفة» (العلم الحديث) بأنه نائم غير دار بجريمة ثم تنتهى القصة بموت «الجبلاوى» «الله» على يد «عرفة» (العلم الحديث)..

وأنه بالنسبة للرسل صوَّرهم فى صورة من يرتاد «الغرز» ويتعاطى المخدرات ووصف «جبل» «موسى» على لسان أحد الفتوات بأسلوب التحقير، وعلى لسان نفسه، ولسان تلاميذه بأنه سكير حشاش، كما نسب إلى «رفاعة» «عيسى» الزواج من عاهر وإن لم يقربها، ثم ذكر بعد ذلك أن بعض أتباعه تجنبوا الزواج حبا فى محاكاته!!

وجعل ولادة «عيسى» ناشئة عن زواج، وأنهى حياة «عيسى» بالقتل أما بالنسبة «لقاسم» «محمد» فقد وصفه بأنه يرتاد القهاوى ويتعاطى الجوزة والشراب وبأنه مولع بالنساء يترصدهن بالخلاء عند الغيب واستعمل فى النيل منه ألفاظا مثل ما ذكره على لسان أحد البلطجية: «عرف ابن الزانية كيف يفسد بيننا».

ويقول فى تعليل تعدّد زوجاته لم يتغير من شأنه شىء اللهم إلا أنه توسع فى حياته الزوجية، كأنما جرى فيها مجراه فى تجديد الوقف وتنميته ثم يقول: إنه يبحث عن شىء افتقده منذ وفاة زوجته الأولى «قمر» (خديجة) وأنه إذا كانت الحارة قد أعجبت به لأخلاقه مرة، فقد أعجبت به لحيويته مرات وأن حبّ النسوان فى حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون.

ولا يخفف من هذه المؤاخذات أنها سيقت مساق الرمز، لأن الرمز مصحوب بما يحدّد المقصود منه بغير لبس ولا شبهه، ولا ما يذكر أحيانا على لسان بعض المغرضين: ومن استغرقتهم واستهدتهم هذه الأقانين من أن الكاتب يكتب لنا ولا يقصد به القصص الدينى. فنحن فى هذه القصة نعالج القصة ورموزها الواضحة بدون لجوء إلى قصد الكاتب ونيته التى سوف يحاسبه الله تعالى عليها، وأما تقرير العمل من حيث هو فن (رفيع) فنتركه لهؤلاء النقاد الذين استساغت أذواقهم (الرفيعة) مثل هذا الفن.

وقد قرر مجمع البحوث الإسلامية حظر تداول «الرواية» أو نشرها مقروءة أو مسموعة أو مرئية وكذلك حظر دخولها بناء على هذا التقرير وعلى تقارير الأجهزة الرقابية الأخرى.

وبالله التوفيق

١٩٨٨/١٢/١م

الأمين العام

لمجمع البحوث الإسلامية

* * *

ثالثا: تعقيب فى سؤالين:

- وفى إطار ما قدمناه فإننا نثير سؤالين:
- هل كان هناك مبرر لمنع نشر الرواية؟
- وما مدى سلامة التفسير الدينى للرواية؟

وسوف نحاول الإجابة على السؤالين ملتزمين الموضوعية التامة.

عن السؤال الأول:

- هل كان هناك مبرر لمنع نشر الرواية فى ذلك الوقت؟

لقد قدمنا مختلف الروايات لقصة منع نشر الرواية.. ومن الثابت من هذه الروايات أن «الأزهر» هو أول من أشار بمنع نشرها، فقد استجابت السلطة لأصوات ذكرت أن الرواية تتناول «الذات الإلهية» بما لاينبغى تناولها به، فآثرت السلامة، ورأت أن تتجنب المزيد من المشاكل، وأخذت بنصيحة تشكيل لجنة دون أن تكلفها بمهمة محددة، ودون أن تعطيها الوقت الكافى، بل ودون أن تكلّفها بكتابة تقرير.. وأغلب الظن أن تلك اللجنة لم يتسن لها قراءة الرواية كاملة، إذ لم تكن قد طبعت فى كتاب بعد، ومن الطبيعى أن تكون محاولة قراءتها من واقع العشرات من أعداد صحيفة الأهرام أمرا فى غاية الصعوبة، ومن ثم فالغالب أن أعضاء اللجنة اطلعوا على ما تيسر من بعض الأعداد، ثم رأوا مشايعة الأراء التى ترى فى الرواية ما ينبغى ستره، فأبدت فتواها الشفوية، ومن ثم صدر قرار شفوى كذلك بمنع نشر رواية «أولاد حارتنا» فى كتاب داخل مصر، وإن أبدت السلطة أنه ليس هناك ما يمنع من نشرها فى الخارج..!!

وليس من شك فى أن هذا الوضع غير مبرر، إذ لو أن فى الرواية عدوانا على الأديان أو تعديا على العقائد لما جازت الموافقة على نشرها بصورة من الصور.. ثم ما جدوى منع نشرها فى الداخل والإذن بنشرها فى الخارج – طالما كان مفهوم الخارج هنا هو الدول العربية المجاورة، بل وبيروت بالذات؟ وقد كان من المتوقع أن تتسرب نسخها إلى الداخل، وأن تصبح قراءتها أمرا ميسورا فى مصر لكل من يرغب فى قراءتها..

والأمر الغريب هو أن يصبح هذا القرار الذى لم نعرف بالضبط من الذى أصدره، وأصّر عليه.. أن يصبح بمثابة الحكم النهائى الباتّ، الذى لا يقبل مراجعة ولا نقضا، كأنه القضاء والقدر.

والأكثر مثارا للدهشة أنه كان قرارا يقوم على مجرد مقولات شائعة غير محدَّدة، بل ولم يكن – عند صدوره – يستند إلى أية حيثيات أو أسباب معروفة، أو منشورة أو يعرفها أحد..

والأمر الذى ليس له تفسير على الإطلاق هو أن مؤلف الرواية نفسه لم يُسأل عن روايته ولم يطلب إليه أحد أن يتحدث عنها، أو يدلى بأية تفصيلات بشأنها، بل كان من حقّ الجميع أن يتحدثوا عنها، إلا المؤلف هو وحده الذى لم تتح له فرصة واحدة للدفاع عن عمله الفنى، وعن إنجازه الأدبى.. وكان كل ما قيل له أن عليه أن يلزم الصمت، ولا يسأل عن مبرر المنع، أو يحاط علما بما أحدثه أو يمكن أن يحدثه نشر الرواية من مساوىء أو أضرار، بل إن أحدا لم يناقش هذه الناحية، وأخذ منع النشر قضية مسلما بها، وإن كان البعض يعبر بين الحين والآخر عن تأذِّيه من أن يمنع نشر مثل هذا العمل.

والذى قيل ومازال يقال إن الرواية انطوت على أخطاء بل وآثام عديدة، ومن هنا وجب منع نشرها وتداولها.. وبخاصة بعد ما كشف تقريرا مجمع البحوث الإسلامية عمَّا تحويه تلك الرواية من سقطات... فهل لنا أن نتساءل عن مدى انطواء هذا القول على حق مؤكد؟ ذلك ما نتساءل عنه، وما نتناوله عند تحليلنا ونحن نجيب على السؤال الثانى.

* * *

عن السؤال الثانى:

وهو يدور حول مدى سلامة التفسير الدينى.. وهو تفسير قال به كل من الباحث محرر التقرير الأول، والأمين العام محرر التقرير الثانى، إذ التزم التقريران تفسيرا واحدا محددا دون أن يبين أى منهما سنده المؤكد الذى أوحى إليه هذا التفسير.

ونعنى به التفسير الذى يعتبر أن كل الأشخاص التى وردت فى الرواية بأسماء رمزية لها ما يقابلها من الواقع التاريخى. فأسماء الرواية هى مجرد رموز لشخصيات تاريخية عرفتها البشرية على تعاقب أجيالها.. وقد كان هناك شبه إجماع بين هؤلاء المفسرين على تحديد أسماء الشخصيات التاريخية التى تقابل الأسماء الرمزية لشخصيات الرواية..

والداهية الكبرى كانت النتائج التى رتبها أصحاب هذا التفسير على تفسيرهم. فكل ما قاله أو قيل عنه، أو أتاه صاحب الاسم الرمزى من تصرف إنما ينصرف إلى صاحب الاسم المقابل أى إلى الشخصية التاريخية المعروفة، ثم تجرى المقارنة والتساؤل: هل يصحّ أن ينسب إلى صاحب هذه الشخصية التى لها جلالها وعظمتها وتاريخها مثل هذا القول المتدنى، أو

هذا التصرف المشــبوه، أو هذا الفعل المشــين؟ إن مثل هذا القول فيه إساءة بل وينطوى على كفر، ويكاد المفسر أن يقول بأنه سيودى بالمؤلف إلى نار جهنم والعياذ بالله..!

وكل ذلك إنما جاء لأن الســادة المفسرين لم يساورهم أدنى شك – فى صحة تفسيراتهم وفى تحديدهم للشخصيات المقابلة ثم مضْوا بعد ذلك يسائلون المؤلف كيف يورد ذلك على لســان هذا أو ذاك من الأشــخاص الذين لهم وقارهم على مدار تاريخ البشــرية ؟؟ وكيف يســتبيح أن يجرى على ألسنتهم ما أجراه من عبارات، وأن يروى عنهم ما نسبه إليهم من تصرفات؟ وعلم الله أن المؤلف برىء من ذلك كله، فهو:

أولا: لم يقل ولم يشــر إلى أنه يوافق الســادة المفســرين على تفسيراتهم تلك أو أنه كان يقصد بأصحاب الأسماء التى وردت فى روايته الشــخصيات التى حددها أصحاب التقارير التى سلف ذكرها.

وثانيا: أن المؤلف – فى واقع الأمر – لم يذكر شيئا ممًّا أخذه أولئك عليه أو مما نسبوه إليه، بل هو تحدث عن شــخصيات بشــرية، تتصرف فى أرض البشــر على النحو الذى يتصرف به سائر البشر..

وثالثا: أن أولئك المفســرين هــم الذين قلبوا الآية، وقرّروا ما قرّروه من مقولات ســيئة نسبوها – ظلما – إلى الشخصيات التاريخية ذات المكانة الرفيعة، والمقام السامى ثم نسبوا إلى «نجيب محفوظ» ظلما أنه كان يقصد ذلك أو أنه لابد وأن يقصد ذلك..!

ورابعا: فإن ذلك يؤكد أن كل ما قيل من أوصاف سيئة تكاد تصل إلى حد الرمى بالكفر إنمــا يقوم على محض تفســير بأن الكاتب كان يقصد كــذا... ومثل هذا القول لا يمكن أن يؤاخذ به أحد، أو يُبنى عليه اتهام، أو يُســتدل به على إهانة للدين، أو تشــويه للعقيدة، أو مساس بالمقدسات!

وعلى ذلك فلنا ألا نأخذ بهذا التفسير الضيق، وألا نساير القائلين به على أنه هو التفسير الصحيــح، بل لنا أن نقرر أنه أبعد مايكون عن الصحة، وســوف نورد فى الفصول التالية مزيدا من الحقائق فى محاولة صادقة منا لرد الأمور إلى نصابها.

* * *

الفصل الرابع

المحاكمـة الثانيـة

مـــن فـــــوق المنــابــر

وهى المحاكمة التى تولاها نفر من خطباء المساجد، ومن يشايعونهم ممَّن تخصصوا فى إلقاء المواعظ الدينية، أو الفتاوى الفقهية أو غيرها من الكتابات الدينية بصفة عامة.

مقدمة:

والحقيقة أننا سـوف نجد أنفسـنا أمام طوائف مختلفة ممَّن يمكــن أن ندعوهم برجال الدين، مع إبداء ملاحظة هامشية فحواها أنه لا يوجد فى الإسلام من يمكن أن تطلق عليه «رجل دين» لبساطة الإسلام وسماحته، ولأن كل مسلم مطالب بأن يُلمَّ بأصول دينه، ولمن شاء أن يتوسع فيها فالمراجع متاحة أمامه وميسورة، بل وإنه ليكفى المسلم أن يجعل ملاذه ومرجعه القرآن الكريم، كما هو الشـأن بالنسـبة للغالبية العظمى من المسلمين ليمدَّه بأوفى زاد يتصل بحقيقة الإسـلام، وبأسســه ومبادئه بل وبما تضمنه القرآن من أحكام للعبادات والمعاملات.

ومن ناحية أخرى، فإنه ليس لمن يعمل بفقه الإسلام زى موحد، فله أن يلبس ما يشاء، وإن كانت نسـبة كبيرة تحرص على ارتداء الزىّ التقليدى للمشـايخ، فإن هذا لا يمنع من أمرين: لا يمنع من أن نسبة لا يستهان بها من العلماء المتخصصين فى الدراسات الإسلامية حتى بلغوا مرتبة الأستاذية يؤثرون «الزى» الشائع ولا يرتدون العمامة. كما أن ذلك لا يمنع أيضا من وجود أعداد غفيرة من بين من يرتدون العمامة ليسـوا متخصصين فى الدراســات الدينية أو أن صلتهم بها لا تجعل منهم أهل علم بها.

ونخــرج من هــذه الملاحظات الأولية إلى أننا سـوف نحاول أن نعـدِّد الطوائف التى تناولت الرواية تناولا دينيا، وسمح البعض منهم لنفســه أن يتحدث عنها من فوق منابر الخطبة التى خصصت للوعظ والإرشـاد وتفقيه المسـلمين بأمـور دينهم، كما أن بعضهم

الآخـــر اختار منبرا مختلفـــا هو منبر الصحافة التى توصف بأنها دينية، وكلا المنبرين له صلـــة وثيقة بالآخر.. وثمة نفـــر ثالث أصدر كتبا قائمة بذاتها تنـــاول فيها ذات الرواية بالتفسير الذى يستند إلى الدين..

والملاحظ أن هؤلاء قد مالت الأغلبية من بينهم إلى التفسير الذى يأخذ بغلبة السوء على الروايـــة، بل إن البعض منهم ليصم مؤلفها بالكفر والإلحـــاد، ويطالبه بالتوبة وإلاّ فليوقّع عليه حـــدّ الردة..

ومـــع ذلك فقـــد كان هناك نفر من هؤلاء، مالوا إلى الاعتـــدال، بل إن بعضهم قد وصل بالرواية إلى حد الثناء عليها والإشادة بها دون أن يخرج ذلك البعض عن حدود الدين، أو يستهينوا باحتمال قيام تفسير دينى..

وقد جمعـــت منابر الخطابة ومنابر الصحافة ومنابر الكتابـــة والتأليف كل هؤلاء.. وها نحن نستعرض معظم ما قالوا فى حدود ما استطعنا استقصاءه، وهو وإن كان استقصاء غير كامـــل إلا أنه أوفى ما أمكننا وهو على كل حال يلقى نظرة شـــاملة على الموضوع ومختلف اتجاهات تناوله الدينية:

فتوى «عمر عبد الرحمن»:

مما يذكر أنه فى أبريل ســـنة ١٩٨٩م كان أحد زعماء الجماعة الإســـلامية البارزين وهو الشيخ «عمر عبد الرحمن» – المسجون حاليا فى أمريكا مدى الحياة لاتهامه بتدبير جرائم إرهابيـــة داخـــل الولايات المتحدة – كان هذا الشـــيخ المتطرف قد أصـــدر فتوى بإهدار دم «نجيب محفوظ»، وقد نشـــرت جريدة الأنباء الكويتية هذه الفتوى فى حديث مع الشـــيخ «عمر عبد الرحمن» حيث قال الشيخ بالنص:

(إنه من ناحية الحكم الإسلامى، فإن «سلمان رشدى» ومثله «نجيب محفوظ» مرتدّان، وكل من يتكلم عن الإســـلام بســـوء فهو مرتد، والحكم الشـــرعى أن يستتاب، فإن لم يتب وجـــب قتله، ولو نفذ هذا الحكم فـــى «نجيب محفوظ» عندما كتب «أولاد حارتنا» لتأدب «سلمان رشدى»).

وقد ظلت هذه الفتوى التى أصدرها الشيخ «عمر عبد الرحمن» تعمل عملها حتى انتهت بمحاولة اغتيال «نجيب محفوظ» ســـنة ١٩٩٤م (يراجع «رجاء النقاش» – «أولاد حارتنا» بين الفن والدين – ص ٧٠ ، ٧١).

من فوق منبر جريدة النور:

«فى يوم الأربعاء ٢٢ فبراير ١٩٨٩م، صدرت صحيفة «النور» الإسـلامية، وقد شـغلت هـذه القضية أكثر من نصف العدد المكوَّن من عشـر صفحات مـن القطع الكبير للصحف. وقد يبدو هذا أمرا طبيعيا ومفهوما بالنسـبة لجريدة تصف نفسـها بأنها جريدة إسلامية، ولكـن الغريـب حقا هو أن هذه الجريدة ربطت بين «سـلمان رشـدى» و«نجيب محفوظ» وعدَّتهما وجهين لعملة واحدة، بل عدَّت الجريدة أن «سلمان رشدى» هو من تلاميذ رواية «نجيب محفوظ» «أولاد حارتنا» الذين باعوا أنفسـهم للشـيطان على حدّ تعبير الجريدة، ونشـرت الجريدة مقالا طويلا استغرق الصفحة الأخيرة بأكملها مع بقية للمقال فى صفحة داخلية، وكان هذا المقال بتوقيع كاتب اسمه «مصطفى عدنان» وهو الاسـم الذى تبين أنه اسم مستعار للكاتب الصحافى «رائد العطار»، وهذا ليس مجرد اجتهاد قابل للخطأ بل هو حقيقة ثابتة.. على أن «رائد العطار» نفسـه لم يكن ينفى أنه صاحب تلك المقالات، وكان الكاتب يفخر بنفسه وبحملته على «نجيب محفوظ».

فى مقال «مصطفى عدنان» أو «رائد العطار» يقول الكاتب سـاخرا ومحرضا: (إننى لن أغضـب بعد أن نزل «نجيب محفـوظ» منذ أيام ليناضل مع توأم أولاد حارته مؤلف آيات شيطانية، فقد عذرته فى دفاعه عن «سلمان رشدى» لأن هذا أى «سلمان رشدى» إنما يطرح دم «نجيب محفوظ» للإهدار. ومعنى هذا الكلام أن «نجيب محفوظ» يدافع عن نفسـه فى دفاعه عن «سلمان رشدى») (يراجع «رجاء النقاش» ص ٨٧، ٨٨).

ويعلـق «رجاء النقاش» على ذلك بقوله: (وهكذا عـدَّ الكاتب أن مناداة «نجيب محفوظ» بمواجهة الفكر بالفكر هى دفاع عن «سلمان رشدى») ويدافع «رجاء» عن «نجيب» بقوله: «وهذا تزييـف صريـح ومتعمد لرأى «نجيب محفوظ»، لأن رأى «نجيب محفوظ» ليس فيه أى تأييد «لسلمان رشدى»، بل هو دعوة إلى الحوار بين الأفكار، والابتعاد عن العنف واستخدام السلاح، فلن تتغيرٌ الأفكار بالمسدسـات والقنابل، وإنما تتغيرٌ الأفكار بمعارضتها عن طريق أفكار أفضل منها، والكشف عن عيوب الأفكار الخاطئة بالحجة والبرهان» (ذات المرجع – ص ٨٨).

خطب «الشيخ كشك»:

وقد تلقف زعماء التطرف الإشارة، وكانوا – كما يذكر «رجاء النقاش» – فى تلك الأيام سـنة ١٩٨٨م، ١٩٨٩م فى عز قوتهم، وبدأت منابر المسـاجد التى كانوا يسيطرون عليها

تبث سمومها، وكان من أكثر المهاجمين «لنجيب محفوظ» فى خطبة الجمعة من كل أسبوع الشيخ «عبد الحميد كشك» الخطيب الشعبى المشهور فى أحد مساجد القاهرة.

وكانت خطبه يؤمها نفر كبير وجمهور عريض من المصلين، وكانت الشوارع حول المسجد تضيق بالمصلّين، فضلا عن أن تلك الخطب كان يجرى تسجيلها وطبعها وتوزيعها أولا فأول، فى شرائط وكانت تلك الخطب التى خصصها لمهاجمة «نجيب محفوظ» خطبا عديدة وصفه فيها بالكفر والزندقة، والإلحاد، وكان يصف فيها «نجيب» بكل نقيصة، ونسب إليه مساوئ الأرض كلها.

* * *

وفى الواقع أن «الشيخ كشك» كانت له مواهب فى إلقاء خطبه تجذب الكثيرين إليه، وتجعلهم مفتونين بسماع خطبه، ومنهاجه فى صياغتها، وطريقته فى إلقائها، وأسلوبها، وعباراتها.. فهو يختار من الموضوعات أشدُّها حساسية ، وقربًا من عقول الجماهير، سواء كانت موضوعات دينية أو غير دينية. كان له صوت جهورى جذاب، ألفاظ واضحة، سلامة نطق، وقع مؤثر فى الأذان، وأداء متميز يعلو ويهبط، يشتدّ ويرقّ، يغلظ ثم يلين.. ولكنه متدفّق فى جميع الأحيان.. أما عباراته وتعبيراته فمنمقة، موزونة، بليغة وإن عمد إلى استعمال التعبيرات الجارية فى بعض الأحيان.. وهو كثير الاستشهاد بالشعر، واستعمال المترادفات، والتوقف بين الحين والآخر ليصلّى ويسلم على رسول الله مرددا مدائحه، وصفاته ثم يعود إلى موضوعه.. وقد يقطعه بعبارات يناجى بها الرب الكريم ويستثير بها مشاعر الجمهور، ثم إنه يحسن التصوير، ويختار العبارات المؤثرة ولديه مقدرة فائقة على أن يأسر جمهوره طوال خطابه الذى لا يمل أحد من سامعيه منه.. وبهذا كله كان يمكنه أن يسيطر على جمهوره، ويشغله حتى عن نفسه.

ولم يقف الشيخ بخطبه عند حد تسجيل خطبه وإذاعتها فى شرائط، بل إنه جمعها بين دفتى كتاب مازال متداولا حتى الآن عنونه بعنوان لافت هو: كلمتنا فى الرد على «أولاد حارتنا». وسوف نفرد له موضعا بين هذه المنابر المختلفة، مع سواه من عروض الرواية بين دفتى أكثر من كتاب.

والواقع أن الشـيخ «عبد الحميد كشـك» لم يكن وحده فارس حلبة منابر المساجد، فقد كان له أقران آخرون في مسـاجد مختلفة سـايروا «الشـيخ كشـك» في تخصيص خطبهم المنبرية للهجوم على الرواية على نحو يصل بهم إلى حد تكفير الكاتب.. وكانوا يجدون من يستمع إليهم منجذبا ببراعة الإلقاء، وسلاسة الحديث، والمقدرة على التأثير..

والشيخ «عمر عبد الرحمن»:

وقد أشرنا من قبل إلى فتواه، فقد كان يواصل هو الآخر توجيه قذائفه وهجماته من فوق أحد منابرمسـاجد الفيوم حيث كان «الشـيخ عمر» يقيم هناك في ذلك الوقت، وقد أصدر الفتوى التي سـبق لنا أن أشـرنا إليها في مطلع هذا الفصل - ونشرتها جريدة الأنباء التي تصدر في الكويت بأن «نجيب محفوظ» مرتد عن الإسـلام.. ثم إنه واصل هجومه من فوق المنبر الذي انفرد به في الفيوم، وراح يردِّد من فوقه ذات المقولات التي سـجلتها نقلا عنه جريدة الأنباء الكويتية.. والتي تدعو إلى قتله إن لم يتب ويكفِّر عن ذنبه.

وأمثال هؤلاء كثيرون:

والواقع أن أمثال هؤلاء كانوا كثيرين سـواء فـي العلن أو في الخفاء.. ففي العلن تمثل هؤلاء في العديد من خطباء المسـاجد، وأهل الفتوى الذين يتطوعون بها وينتهون فيها إلى تكفير الرواية ومؤلف الرواية، وكل من لا يشايعهم في أقوالهم. وكانت تلك الفتاوى تتردد في الخطب والأحاديث الدينية في يسر وبساطة، وفي أقوال مرسلة.. حتى لقد صار القول بأن رواية «أولاد حارتنا» رواية كافرة لمؤلف كافر قولا شـبه مسـلم به لكثرة ما تردد على ألسنة من يصفون أنفسهم بأنهم رجال الدين، وأهل الفقه، وعلماء الشريعة..!!

أما في الخفاء فقد تسـربت تلك الفتوى إلى التنظيمات السـرية التي تتشكل وتعمل في الخفـاء، والتي تضع الخطط، وتدرب أعدادا غفيرة للقيـام بها وتنفيذها على النحو الذي تحقق بالفعل، وظهرت آثاره بارزة ومفزعة في محاولة اغتيال «نجيب محفوظ» على النحو الذي سـوف نفصله في الفصل التالي.. وقد ثبت أن أولئك المدربين كانوا مسـلوبي الإرادة، واقعين تحت تأثير قادتهم بحيث لا يستسيغون أن يخالفوا لهم أمرا بأي حال.

غير أن الجامع بين الفريقين هو التسـرع في إبداء الرأي، وأخذ الأمور بظواهرها وصَم الآذان بصفة نهائية دون السـماع لوجهات النظر الأخرى، حتى ليكاد من يناقشـهم يصل إلى يقين بأنهم لا ينظرون إلا إلى داخلهم ويحجبون النظر والفكر عن سواهم..!

وتبقى لنا كلمة:

ومـع هذا السـيل من الفتاوى المصبوغـة بالصبغة الدينية، والتـى ألقيت على عجل، وقيلت فى تسرع، دون أن تقوم على مناقشة الرأى والرأى الآخر أصبح الحكم بالتكفير أمرا مسلما به بالنسبة للراوى وللرواية..

ولكننا نسمح لأنفسنا بأن نشذ عن هذا التيار الذى أصدر حكمه النهائى، وقضى قضاءه البـات دون مشـاورة أو مداولة أو تمحيص.. ونأتى نحن لنرفـع صوتنا الضعيف بين تلك الأصوات الزاعقة التى تكاد من قوتها وشدتها تصمّ الآذان فلا تتركها قادرة على أن تسمع قولا، أو تفقه رأيا.

ولعلنا نجد فيما كتبه «رجاء النقاش» خير بداية.. فقد كتب (ص ٩٦ من المرجع سالف الذكر) يقول:

«لقد كتب «نجيب» روايته، وقال فى تفسـيرها إنه لم يقصد بها أبدا أن يسئ إلى الدين أو إلى الذات الإلهية أو إلى أنبياء الله وطلب «نجيب» من الأزهر أن يحكم له أو عليه، ولكن الأزهر اتخذ موقف الصمت، وهو موقف أقل من مقامه، خاصة أن الرواية تحوّلت إلى «فتنة» كادت دمـاء «نجيب محفوظ» تسـيل فيها، وهى دماء لهـا حرمتها مثل أى دماء أخرى، ومنع الفتنة واجب على كل قادر على ذلك، والأزهر ورجال الأزهر هم فى مقدمة القادرين».

نعـم.. هناك تقريران أعد أولهما واحد من الباحثين بمجمع البحوث الإسـلامية وأعد الثانى من وقّعه على أنه أمين عام المجمع.. ولكن أيا ما كان الوضع فإن تلك آراء فردية، كانت نتيجة اجتهادات شـخصية، شأنها شـأن من أصدر الفتاوى بالتكفير، ومن تعرض للرواية من فوق منبر مسـجد أو أكثر.. ولكن ذلك كله لم يكن نتيجة دراسـة واعية متأنية يشـارك فيها أكثر من صاحب رأى وبخاصة وأنـه كان هناك من علماء الدين من رأى فى الرواية آراء مغايرة بل ومعارضة لوجهات النظر السالفة، ممن سنعرض لهم فى موضع تال.

ثم إن تلك الفتاوى والآراء والخطب أصابها الخطأ ونالها الانحراف من ناحيتين:

الناحية الأولى: أن أيا من المفتين لم يسع إلى أن يعرف رأى المؤلف نفسه، أو أن يسأله عـن حقيقـة مقاصده.. أو علـى الأقل يعرض للآراء التى قيلت مخالفـة لرأى من أفتى أو يستمع إلى وجهات نظرهم.. لم يفعل شيئا من ذلك، ولم يستمع إلا إلى صوت نفسه، التى كثيرا ما تكون فى بعض الأحيان أمّارة بالسوء وبخاصة إذا ما ازدهاها موقف الخطيب ذى الجمهور العريض المفتون بخطابته.. والمعبِّر عن ذلك بمختلف صور التعبير.

والناحيـــة الثانيـــة: أن أصحاب هذه الآراء والفتاوى أخذوا بتفســير وحيد، بناه كل منهم على ما استخلصه من شواهد ودلالات، وهو تفسير يميل إلى التضييق، بل وإلى الجزم بأنه الحق الذى لا يأتيه باطل. فى حين أنه قول بشر ممن يجوز عليه الصواب كما يجوز الخطـأ.. وهو اجتهـاد قد يُوفـق صاحبه إلى الحق كما قد ينحـرف عن الحق ويبتعد عنه درجات ودرجات.

وعلــى ذلــك فإنه يحق لنا أن نقــدِّر أن كل تلك الفتاوى والمقولات لهــا اعتبارها ولها أهميتها، ولكنها ليست الرأى الوحيد، أو القول الفصل فى الموضوع، فهناك – من بعد – آراء أخرى، وتفسيرات مختلفة لها سندها ولها وجاهتها..

ومن هنا حق لنا أن نقول: تريثوا أهلَ الفكر، ولا تســارعوا إلى القول بأن لديكم القول الفصــل، ولا تبنــوا علــى ذلك ما بنيتــم من نتائج ســيئة، كان منها التكفــير، والوصف بالإلحاد، واســتحقاق كاتب الرواية للقتل.. فإن مثل تلك الأقوال المتســرعة – ولن أسارع بوصفها بالخاطئة والمنحرفة – هى التى أدت إلى حادث محاولة اغتيال «نجيب محفوظ»، وهى المحاولة التى كانت تنفيذا لقضاء ســرى أصدر حكمه بليل، وبعث بمن يقوم بتنفيذه من شــياطين الإنس بعد أن زَوّدهم بالعتاد من الأفكار بل واليقين بأنه ينبغى على المجاهد الطاعة العمياء دون نقاش أو إبداء أية آراء..! ومن هنا حق لنا أن نقرر أن من حكم عليهم بالإعدام ســتظل دماؤهم معلـقة فى رقاب من بثوا فى نفوســهم تلك العقائد الفاسدة، ومَن دفعوهم دفعا إلى الإقدام على تلك الأفعال وما هو من قبيلها.

* * *

الفصل الخامس

المحاكمـــة الثالثـــة

المحاكمـــــة السريـــــة

وهـــى المحاكمة التى تمّت بليل، وفى غيبة صاحب الرواية الذى اعتبروه «مرتدا» دون أن يمنحـــوه الفرصة للاســـتتابة، وقضى قضاة تلك المحكمـــة بإهدار دم «نجيب محفوظ»، ثم بعثوا بمن ينفّذ الحكم، ويجعل منه أمرا واقعا.. ويا ســـبحان الله فقد أقدم الجانى على فعلته فى جرأة وثقة؛ وبأعصاب باردة، وقلب فقد الإحساس تماما.. وقد ملأت نفسه أفكار أعمته عن الحقيقة، فانجرف معها حتى آخر المدى..!!

* * *

١ - الواقعة السوداء:

كان الرجل فى طريقه إلى ندوته الأسبوعية التى يعقدها مساء الجمعة من كل أسبوع فى كازينو قصر النيل. وكان اليوم هو ١٤ أكتوبر عام ١٩٩٤م، وقد خرج «نجيب» من منزله – بشـــارع النيل – حيث يقف صديقه الدكتور «فتحى هاشم» ينتظره ليقلـه بعربته إلى الندوة فى مكانها وموعدها المعتادين.. وبمجرد أن جلس فى المقعد المجاور لمقعد الســـائق واطمأن على جلوســـه صاحب العربة اســـتدار ليركب هو الآخر ويجلس فى مقعد السائق. فى هذه اللحظة تقدّم أحد الأشـــخاص من «نجيب محفوظ»، فى البداية ظن هذا الأخير أنه واحد من القراء جاء ليحييه ويصافحه كما يفعل الكثيرون منذ فوزه بجائزة نوبل.. ولكن الشخص المقتحم لم يكن قصده السلام ولا المصافحة وإنما كان قصدا آخر لم يخطر «لنجيب محفوظ» ولا لصاحبه – بحال من الأحوال.

لقد استل ذلك الشخص مطواة وطعن بها «نجيب محفوظ» فى رقبته طعنة شديدة قاسية، فأحدثت «بنجيب» جرحا غائرا، وراح ينزف دما، ولاذ ذلك الشخص بالفرار.

وأحدثت الصدمة ارتباكا شديدا وكان الاهتمام الأكبر هو إنقاذ المصاب مما أتاح لذلك الشخص – في هذا الجو الذى سادته الفوضى والارتباك، أن يهرب – وتمكن من الفرار على قدميه ليلتقى بباقى المجموعة الإرهابية فى مكان قريب.. دون أن يتمكن أحد من اللحاق به أو بأحد من أفراد مجموعته، وقد بادر الدكتور «فتحى هاشم» إلى اصطحاب «نجيب محفوظ» ودماؤه تنزف ليمضى به إلى مستشفى الشرطة القريبة من مكان الحادث.

وكان من الطبيعى أن تبادر المستشفى إلى اتخاذ كل ما هو لازم من إسعافات، حيث أدخل «نجيب» على الفور إلى غرفة العمليات وهو ينزف واتخذت الإسعافات الأولية فى مثل هذه الحالات وتم استدعاء عدد كبير من الأطباء.. وكان لابدَّ من عملية نقل دم واستدعى أحد أصدقاء «نجيب» ممن يحمل نفس فصيلة دمه (B) وذلك لتعويض النزيف الحاد، بعد أن أثبت الكشف الدقيق أن إصابة «نجيب محفوظ» إصابة شديدة فى شرايين الرقبة من الناحية اليمنى.

وننقل عن كتاب «نجيب محفوظ – صفحات من مذكراته..» ماذا أحدثته الطعنة من أثر فقد وصف الدكتور «سامح همّام» أستاذ جراحة الأوعية الدموية بطب القاهرة الذى أجرى عملية لإيقاف النزيف، فى حديث صحفى منشور فى مجلة المصور حالة «نجيب محفوظ» بقوله:

«أحدثت الطعنة تهتُّكا فى عضلات الرقبة فى الجهة اليمنى وتهتُّكا بالوريد الونجى الخارجى والداخلى الأيمن هذا التهتك رغم خطورته لم يكن هو الذى يهِّدد كاتبنا الكبير بصفة أساسية، بل التهديد الأخطر كان من النزيف الشريانى المندفع من عمق الجرح، والذى ثبت أنه قادم من الشريان الفقرى الأيمن المخترق للنتوءات المستعرضة للفقرات العنيفة. هذا الشريان بالذات له وضعه التشريحى الخاص. فهو يمثل مشكلة كبيرة لصعوبة الوصول إليه والتحكم فيه، إذ إنه عميق جدًا داخل العنق، ومحاط بنتوءات عظمية، وإصابته من الحالات النادرة التى تقابل أى طبيب جراح. وقد قرَّرنا استئصال أجزاء من النتوءات العظمية من الفقرات العنقية الثالثة والرابعة والخامسة الموجودة أمام الشريان. وبهذا تمكنًا من تعرية الجزء المصاب من الشريان بطول يصل إلى ٨ سم، وتمت عملية علاجه، واستغرقت العملية ساعتين، تم خلالهما نقل ٨ لترات دمٍّ إلى جسم «نجيب محفوظ» لتعويضه عما فقد أثناء النزف».

تكون الفريق الجراحي المساعد للدكتور «سامح همّام» من كل من الدكتور «أحمد البشرى» الأستاذ المساعد بقسم الجراحة فى طب القاهرة، والدكتور «محمد حسنى» مدرس الجراحة بالكلية نفسها، بالإضافة إلى طبيب من مستشفى الشرطة.

وقد هرع إلى المستشفى نفر من كبار المسئولين كما أوفد رئيس الجمهورية أمين رئاسة الجمهورية إلى المستشفى للاطمئنان وإبلاغه تحيات الرئيس، كما انتقل إلى المستشفى كثيرون من الأدباء والفنانين.

وقد أكدّ الأطباء الذين أجروا العملية الجراحية العاجلة «لنجيب محفوظ» أن حالته الصحية تحتاج إلى مراقبة دقيقة لمدة ٧٢ ساعة حتى تستقر تماما وكان أول ما طلبه «نجيب محفوظ» بعد أن أفاق من البنج نظارته الطبية وسماعة الأذن.

* * *

٢ - القبض على الجناة:

نجحت مباحث أمن الدولة فى القبض على اثنين من الإرهابيين المشتبه فى ارتكابهم لجريمة الاعتداء على «نجيب محفوظ»، بينما لقى اثنان آخران مصرعيهما فى اشتباك مع الشرطة داخل وكر للإرهابيين بمنطقة عين شمس شرق القاهرة، وتبين أن الجناة ينتمون للجناح العسكرى فى تنظيم «الجماعة الإسلامية» — المحظور بمصر — وأصدرت وزارة الداخلية البيان التالى: (منشور فى كتاب «نجيب محفوظ»: صفحات من مذكراته — ص٣٥١).

«خلال فترة زمنية وجيزة لم تتجاوز ٢٤ ساعة تمكنت أجهزة مباحث أمن الدولة من خلال قاعدة معلوماتها عن العناصر الإرهابية وخرائط بؤرها وجهود البحث المكثفة والتحريات الموسعة: من ضبط العناصر التى ارتكبت الحادث الإجرامى الأثيم بالاعتداء الوحشى على الكاتب الكبير «نجيب محفوظ»، وجاء اختيار الجناة لتوقيت ارتكاب الحادث فى نفس يوم حصول الكاتب على جائزة نوبل منذ ٦ سنوات، والتى طوقت أعناق المصريين بالفخر والتقدير، ليؤكد مدى الحقد الأسود الذى سيطر على نفوس العناصر الإرهابية المتطرفة تجاه مصر ورموزها ومواطنيها. وأهدافهم الدنيئة فى تقويض كل الإنجازات الوطنية فى مختلف المجالات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، وتجردّهم من كل معانى الإنسانية

والوطنيـة وارتكـزت خطة مباحث أمن الدولة للبحث عن أعضـاء التحرك الإرهابى الذى اضطلعت عناصره بتنفيذ الجريمة البشعة ضد الكاتب «نجيب محفوظ» بطعنة بمدية برقبته أثناء تواجده بالسيارة رقم ٣٢٨٧٩٦ ملاكى القاهرة أمام منزله بالعقار رقم ١٧٢ شارع النيل بالعجوزة مسـاء يوم ١٤ الجارى، على سـرعة التحرك وتمشيط منطقة الحادث، وإحكام السيطرة على منافذها، والوقوف على خطوط ومسارات الهروب المحتملة للجناة، ومناقشة الشـهود الذين أدلوا بأوصافهم وأسلوب تحركهم على مسرح الجريمة واستخدام الأساليب العلمية الحديثة فى تحديدهم ورصد حركتهم واتصالاتهم من خلال شبكة مراقبات واسعة، والسـيطرة عليها باسـتخدام مجموعة من الأكمنة السرية المدعوة لاسلكيا. وتتابعت النتائج الإيجابية للخطـة محققة لأهدافها بتوفيق من الله تعالى، حيث نجحت مجموعات العمل المكلفـة بمهام البحث فى تحديد المجموعة القيادية للتحرك الإرهابى وأوكارهم الرئيسـية ومواقـع اتصالاتهـم وأماكن اختفائهم. وتبيّن قيام الإرهابى «باسـم محمد خليل شـاهين» بمسـئولية هذا التحرك عقب دفعه للبـلاد بتكليف من القيادات الهاربة لتنظيم الجماعة الإسـلامية بالخارج لتخطيط وتنفيذ العديد من عمليات العنف والإرهاب التى تسـتهدف بعض الشـخصيات، فضلا عـن القيام ببعض عمليات التفجـير، ودلت التحريات على أن المتطرف «باسـم» محكوم عليه بالسـجن ٣ سـنوات فى القضية رقم ٩٢/٢٣٠ حصر أمـن دولة عليـا (اغتيال د.فرج فودة) كما أكدت المعلومات قيام قيادات التنظيم بالخارج بربط الإرهابى «باسـم» بإحدى المجموعات العنقوديـة بالداخل، التى تحددت قيادتها التنظيمية فى كل من:

- «محمـد خضر أبو الفرج المحلاوى» متهم هارب فى العديد من قضايا العنف وقضايا تفجيرات البنوك
- عبد الحميد محمد أبو زيد.
- الكنّى محمد (ويحمل بطاقة مزوّره باسم: محمد ناجى محمد مصطفى).
- أحمد حسنى حسن طلبه.
- محمد عبد القاهر السيد.
- حسين على بكر الشرنوبى.
- وجميعهم من العناصر المعروفة بانتهاج أعمال العنف والإرهاب.

وبعـــرض المعلومات التي تم الوقوف عليها تفصيلا على المستشـــار المحامى العام لنيابة أمـــن الدولـــة العليا – أصدر إذنا بضبط جميـــع العناصر المرتبطة بهـــذا التحرك، وتفتيش أوكارهم ومواقع اختفائهم.. وأسفرت عن الآتى: (ننقل هذه المعلومات عن ذات المرجع ص ٣٥٢ وما بعدها).

المبـــادرة بضبط كل من المتهمين «عبد الحميد محمـــد أبو زيد» و«محمد خضيرأبو الفرج المحلاوى» بمنطقة المصرية.

مداهمة المقهى الكائن بتقاطع شارع عين شمس مع شارع «إبراهيم عبد الرازق» والذى اتخذه المتهمون: «باســـم محمد خليل شـــاهين»، و«عمر» و«محمد محمد إبراهيم»، و«حسين على بكر الشـــرنوبى»، و«المكُنّى محمد» – وكرا لهم – وقـــد بادروا بإطلاق النيران تجاه قوة الضبط فور وصولها، واضطرت للتعامل معهم بالقدر الملائم للسيطرة على الموقف، مما نتج عنه إصابة الأول ووفاته متأثرا بجراحه، وإصابة الرابع، وأحد المواطنين الذين تواجدوا بالمقهى.

تم ضبط كل من المتهمين «أحمد حســـنى حســـن طلبة»، و«محمد عبد القادر»، بأوكار اختفائهما بمحافظة القاهرة والجيزة.

وقد أدلى المتهمون باعترافات تفصيلية حددت مســـئوليتهم عن تنفيذ الحادث الإجرامى ضد الكاتب الكبير «نجيب محفوظ» وذلك على النحو التالى:

قيـــام أعضاء المجموعة القيادية برصـــد منزل «نجيب محفوظ» عدة مرات للوقوف على مواعيد مغادرته ووصوله لمنزله، ووجود حراسة مرافقة له من عدمه.

الاتفاق على تنفيذ جريمتهم باســـتخدام الســـلاح الأبيض بعد الإيحاء للمارة بأنهم من المعجبين بالكاتب الكبير مستغلّين كبر سنه وضعف حركته..

قيام الإرهابى «باســـم محمد خليل شاهين» وبصحبته الإرهابى «المكنّى محمد» فى اليوم الســـابق علـــى الحادث بارتـــداء زى أبناء الدول الخليجية، وحملهمـــا لباقة من الزهور – وتوجههمـــا لمنزل «نجيـــب محفوظ» لتنفيذ جريمة الاعتداء عليه هناك، إلا أن أهدافهما لم تتحقق نتيجة لعدم تواجده بالمنزل..

فـــى يـــوم الحادث توجه كل مـــن «المكنّى محمـــد» والذى يحمل بطاقة مزورة باســـم: «محمد ناجـــى محمـــد» والمتهم: «عمرو محمـــد إبراهيم» إلى مكان إقامـــة «نجيب محفوظ» حاملَيْن أسلحة بيضاء، وحال مشاهدتها له داخل سيارة أحد أصدقائه عاجله الأول بطعنة فى رقبته باستخدام مطواه ثم فرّا هاربين للالتقاء بباقى المجموعة أعلى كوبرى ٦ أكتوبر».

٣ - صدى الحادث:

وما لبث مستشفى الشرطة أن أعلن أن الكاتب الكبير يجتاز مرحلة الخطر، ويسترد وعيه كاملا.

وكذلك فقد بعث السكرتير العام للأمم المتحدة برقية إلى «نجيب محفوظ» تمنى له السلامة.

- وأصدر اتحاد الكتاب المصرى بيانا أدان فيه الحادث.
- كما أصدر الاتحاد العام للفنانين العرب بيانا أدان فيه الحادث.
- كما أصدرت جماعة الإخوان المسلمين المحظورة فى مصر البيان التالى:

«إن الإخوان المسلمين وقد هالهم ما وقع من اعتداء على الأديب الأستاذ «نجيب محفوظ» يؤكدون إدانتهم واستنكارهم لأى عدوان من أى مصدر أو جهة على الدماء والأرواح الآمنة، أو على أمن واستقرار مصر وأبنائها، وهم إذ يسألون الله عز وجل أن يحفظ مصر وشعبها وأن يلهم جميع المواطنين حكاما ومحكومين، الرشد والرشاد، وصون ورعاية الحقوق والأمانات والحرمات، يؤكدون على أسلوب الحوار بالمنطق والحجة، وصولا إلى الحق من خلال الإقناع، تجنبا لسبل الانزلاق إلى الفتن والمخاطر التى تهدم وتخرب، وتقطع الطريق أمام الإصلاح الصحيح، ومن ثم تحول دون صحوة الأمة وغايتها فى بناء مجتمع الحب والأخوة والعدل والآمن والحرية».

وتوالت بيانات الإدانة والاستنكار من مجلس الشعب ونقابة الصحفيين والمنظمة المصرية لحقوق الإنسان.

وقد أصدر المستشار «رجاء العربى» النائب العام قرارا بإحالة ملف التحقيق فى القضية إلى نيابة أمن الدولة العليا وبدأت النيابة تحقيقاتها بإشراف المستشار «هشام سرايا» المحامى العام وقررت حبس المتهمين ١٥ يوما على ذمة التحقيقات بعد أن وجهت إليهم عدة اتهامات من بينها:

- الاشتراك فى اتفاق جنائى الغرض منه ارتكاب أعمال إرهابية.
- الشروع العمد مع سبق الإصرار والترصد فى قتل الكاتب «نجيب محفوظ».
- إحراز أسلحة نارية وبيضاء بدون ترخيص.
- حيازة منشورات مناهضة ثم ضبطها فى أوكارهم.

وتعدد زوار «نجيب محفوظ» فقد زاره رئيس مجلس الشعب وعدد كبير من الوزراء ومن رجال الحزب ومن المحافظين.. وكبار رجال الدين.. وكبار المسئولين بالدولة.

٤- زيارة الشيخ الغزالى:

وننقـل أيضا عن كتاب: «نجيب محفوظ»: صفحات من مذكراته – ص ٣٥٨ – خبر هذا اللقاء:

(لقاء تاريخى بين «نجيب محفوظ» والشيخ «محمد الغزالى» بمستشفى الشرطة بالعجوزة حيث كان «نجيب محفوظ» مازال يقيم بها منذ وقعت محاولة الاغتيال – تم اللقاء بتاريخ ٢٩ نوفمبر ١٩٩٤م – فى غرفته رقم ٩٢٠ بالدور التاسع، وحضره الكاتب: «أحمد بهجت» و«يوسـف القعيد»، و«محمد عبد القدوس»، و«جمال الغيطانى»، و«يحيى مختار»، وذلك بالإضافـة إلى زوجـة «نجيب محفوظ» وابنتيه ونجل الشـيخ «الغزالى»، ومما قاله الشـيخ «الغزالى» فى هذا اللقاء:

لقـد أدنـت محاولة الاغتيـال فى اليوم التـالى لوقوعها، أنا ضدها علـى طول الخط، والمحاولة لا يقرّها شـرع ولا دين، والإسـلام دين السماحة والعقل والتفكير الذى يفتى فى الناس لابد أن يكون من العلماء الذين يعلمون أصول الدين و«الشـيخ كشـك» رجل جاهل، وقد كتبت عنه، ووقف ضدى أما الشيخ «عمر عبد الرحمن» فهو إنسان مريض).

وقد علق الأسـتاذ «رجاء النقاش» على إشـارة الأستاذ «الغزالى» فى هامش ص ٣٥٩ من ذات المرجع بالآتى:

«هـو المرحوم الشـيخ «عبد الحميد كشـك»، وكان خطيبا لمسـجد كوبـرى القبة، وقد تعـوّد فـى خطبه التى يلقيهـا يوم الجمعة من كل أسـبوع أن يهاجـم «نجيب محفوظ» بعنف ويتهمه بالارتداد عن الإسـلام، وقد أصدر الشـيخ كتابا بعنوان «كلمتنا فى الرد على أولاد حارتنـا» يردد فيه اتهامه «لنجيب محفوظ» بالارتداد عن الإسـلام وقد منعت الدولة الشـيخ «عبد الحميد كشـك» من الخطابة فى المسجد فى سنواته الأخيرة لما دأب عليه من التحريض على القتل والإرهاب».

٥- أول حديث مع «نجيب محفوظ»:

وبتاريـخ ١٠/١٧/ ١٩٩٤م نشـرت جريدة الأهرام «لنجيب محفـوظ» أول حديث له بعد تحسـن حالته وكان عنوانه: الحواجز الأمنية لن تمنعنى من لقاء الناس.. لقاء خاص بقلم «محمد سلماوى» حيث كتب ما يأتى:

فى أول حديث للكاتب الكبير «نجيب محفوظ» بعد تحســن حالته الصحية – تحدث الأديب الكبير.. من فوق فراش المرض بغرفة الرعاية المركزة بمستشــفى الشرطة عن حادث الاعتداء الذى تعرض له يوم الجمعة الماضى وكيف أنه لم يشـعر بالحادث إلا بعد أن رأى الخنجر ملوثا بالدماء فى يد الإرهابى..

كتب «محمد ســلماوى»: لم أكن أريد الدخول إلى غرفته بالمستشفى لكنه هو الذى أراد فقد كنت أجلس وســط قاعة الانتظار الكبيرة بمستشــفى الشرطة مع السيدة: «عطية الله» زوجتــه وكريمتيــه «أم كلثوم وفاطمــة»، وكانتا تقصّان علىّ كيف أنهمــا أخذتا أجازة من عملهما ليَظلاَّ إلى جانب والدهما بالمستشــفى رغم أنه لا يســمح لهما برؤيته إلا لمدة دقائق فقط فى اليوم. وفجأة أقبل اللواء «وجيه عيسى» نائب مدير الإدارة العامة للخدمات الطبية فاتجهت إليه أســأله عن آخر أخبار الأســتاذ «نجيب»، ففاجأنى بقوله لى: فلتعرف منه الأخبار بنفســك لأنه يطلبــك الآن، فانطلقت صوب غرفة العناية المركزة لكنه اســتوقفنى قائلا: انتظر إننا لا نسمح بالزيارة لكن حين أخبرنا الأستاذ «نجيب» أنك فى الخارج طلب أن يراك لذلك نتمنى ألا تزيد الزيارة عن ٣ دقائق بالعدد وإلاَّ سأضطر إلى التدخل. ودخلت لأجد الأستاذ الكبير يقول: أهلا وسهلا. وقبض بشدة على يدى وقبلنى، فاغرورقت عيناى بالدموع، ورأيت على وجهه إبتســامته البشــوش التى ألفناها، فقلت له إننى لا أصدق ما يقال يا أســتاذ «نجيب»، فها أنت ســليم معافى كما عرفتك دائما فقال لى فى اقتضاب: الحمــد لله، وكررهــا ثانية: الحمد لله – ثم روى أديب مصــر الكبير لأول مرة تفاصيل ما حدث له وقت الحادث، فقال:

إننــى لم أر الشــاب الذى اعتدى علــىّ، لم أر وجهه. الذى حدث هــو أننى وأنا أهم بركوب الســيارة لأذهب لموعدى مع أصدقائى فى الندوة الأســبوعية وجدت شــخصا يقفز بعيدا، وكنت قد شعرت قبلها بثوان معدودة وكأن وحشا قد أنشب أظافره فى عنقى، وقد دهشــت ولم أدرك بالضبط ما حدث. وأضاف الأستاذ «نجيب»: لكننى حين شاهدت هذا الشــخص يرمــى خنجرا كان فى يده فهمت على الفور مــا حدث وعرفت أن هذا الخنجر هــو الذى كان فى عنقى وبدأت أشــعر بالدماء تنزف مــن عنقى فوضعت يدى على رقبتى لأوقف النزيف بينما انطلق صديقى الدكتور «هاشــم فتحى» بالســيارة إلى مستشفى الشرطة

الملاصق لبيتى. وأسأل الأستاذ «نجيب»: وماذا كان آخر شئ تتذكره؟ فقال: عند وصولى إلى المستشفى نزلت من السيارة وأردت أن أصعد السلم الذى توقفت السيارة عنده لكن بعض الناس الذين لا أعرف من هم أصرّوا على حملى وأصررت أنا على السير، ولا أكاد أذكر ما حدث بعد ذلك. وابتعدت بالحديث عن التفاصيل الدامية للحادث لأسأل الأستاذ «نجيب» عن مشاعره تجاه ما حدث، فيقول على الفور إن شعورى مزدوج: فمن ناحية أشعر بالأسف لتكرار جرائم الرأى، الشيخ الذهبى، والأستاذ «مكرم محمد أحمد» والأستاذ «فرج فودة»، وأقول إن هذا ليس بالطريق للتعامل مع الرأى. إنه لشئ مؤسف جدا، ومسئ جدا لسمعة الإنسان فى العالم أن يؤخذ أصحاب الرأى، أصحاب القلم، هكذا ظلما وبهتانا، ومن ناحية أخرى فإننى أشعر بالأسف أيضا من أن شابا من شبابنا يكرس حياته للمطاردات والقلق فيطارد ويقتل، وذلك بدلا من أن يكون فى خدمة الدين والعلم والوطن.
ثم يسرح الكاتب الكبير ببصره بعيدا مسترجعا مرة أخرى تفاصيل ما حدث ويقول: إن الشاب الذى رأيته يجرى كان شابا يافعا فى ريعان العمر. كان من الممكن أن يكون بطلا رياضيا أو عالما أو واعظا دينيا، فلماذا اختار هذا السبيل؟ لست أفهم. وسكت الكاتب الكبير قليلا فلم ألاحقه بالسؤال، ولكنه عاد يقول: لقد كنت متجها إلى لقاء أصدقائى فى الندوة ثم صمت فقلت له: سؤالى الأخير: هل ستغير أسلوب حياتك بعد هذا الحادث يا أستاذ «نجيب»؟ هل تستطيع أن تذهب إلى ندوتك كل أسبوع وأن تسير وحدك فى الطريق بلا حراسة؟ فنظر إلى فى وداعة وهدوء، وقال وكأنه يعبرّ عن أمنية غالية: أرجو ألا أرغم على تغيير أى شئ فى أسلوب حياتى واختلاطى بالناس، وتمشيتى بينهم فى الشارع ثم أضاف: سيعز على كثيرا أن أرغم على الابتعاد عن الناس، وأن تكون بينى وبينهم حواجز أمنية إن حياتى كانت دائما وسط الناس، ولم أر منهم إلا كل الحب، فقد كانوا دائما يقبلون علىّ وأنا أسير فى الطريق ويصافحوننى ويطمئنون علىّ. لماذا تريدنى أن أحرم من كل ذلك؟ لماذا أحرم من دفء المشاعر الإنسانية التى أحاطنى بها الناس.. ؟؟ وتظهر على الفور فى عينى الأديب الكبير نظرة تصميم واضحة وهو يقول: لا. لن أغير أسلوب حياتى.. والله الذى حفظ إذا أراد أن يحفظ حفظ. ثم يضيف ضاحكا أما إذا كان يريد الأخرى فنحن أيضا نحب أن نلقاه.

٦ - أقوال نجيب محفوظ أمام النيابة:

ننقلها عن صحيفة «الأخبار» القاهرية الصادرة بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٧م — حيث قدمت الصحيفة فى نشرها لتلك الأقوال بالآتى:

«تفاصيل مثيرة عن محاولة اغتيال «نجيب محفوظ» كشفت عنها أقوال الكاتب الكبير أمام نيابة أمن الدولة العليا. شرح «محفوظ» كيف علم لأول مرة بنبأ إهدار «عمر عبد الرحمن» لدمائه. أوضح أسباب رفضه الحراسة الشخصية. تحدث عن روايتة «أولاد حارتنا» منذ الادعاءات التى أثيرت حول الرواية، وتناول الرؤية التى كانت وراء تأليفه «أولاد حارتنا» وأوضح ما قصده من شخصياتها الرمزية».

من سريره بمستشفى الشرطة بالعجوزة.. أدلى «نجيب محفوظ» بأقواله إلى «شريف الحلوانى» رئيس نيابة أمن الدولة العليا. وقع أديب مصر العالمى على أقواله ببصمة الإبهام، ذلك أن إصابته تمنعه من الإمساك بالقلم.. قال:

اسمى «نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم» — السن ٨٣ كاتب بجريدة الأهرام وحاصل على جائزة الدولة التقديرية المصرية، وجائزة نوبل العالمية.

سؤال: ما تفصيلات حدوث إصابتك؟

أنا عادة باخرج يوم الجمعة من البيت الساعة ٤,٥٠ ينتظرنى صديقى «فتحى هاشم» بسيارته، ونركب سويا ونروح كازينو قصر النيل لحضور الندوة الأسبوعية الأدبية والتى نعقدها فى الساعة الخامسة حتى الساعة السابعة. وفى البداية أنا كنت أروح هذه الندوة فى تاكسى أو سيرا على الأقدام أحيانا وبعد ذلك صديقى الدكتور «فتحى هاشم» تطوعا منه يأخذنى معه فى العربة الخاصة به..والندوة كل يوم جمعة من الأسبوع. ويوم الجمعة الماضى الموافق ١٤ أكتوبر ١٩٩٤م خرجت بالفعل حوالى الساعة ٤,٥٠ م تقريبا ووجدت صديقى «فتحى هاشم» واقفا بجوار باب العربة علشان أركب على الكرسى المجاور لكرسى القيادة، وعادة الدكتور «فتحى» أنه ينتظر لما يطمئن أننى ركبت العربة وبعد ذلك يلف هو ويركب علشان يسوق ونروح المشوار بتاعنا. بس المرة دى مش فاكر أنا ركبت الأول أم هو لف علشان يركب الأول، ومن ساعة ما نزلت لحد باب العمارة ولحد ما ركبت جوه العربة لم تستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين تقريبا — وبمجرد ما قعدت جوه العربة فوجئت

بخاطر غريب كأنه وحش أو كلب وولف مثلا هجم علىّ وماسك بضوافره فيه وبقيت أسأل نفسى إيه اللى بيحصل ده وإيه اللى يجيب وحش جوه الأتومبيل وبعدها حسيت إن فيه جسـم زائق عليه فبصيت لقيت واحد زى ما يكون بينط من الأتومبيل وبيرمى من إيده خنجر بيد ومدبب وفيه حته بارزة وأول ما شفت الشخص والمطوة دى بتترمى من إيده علـى جسـمى عرفت إن الموضوع موضوع إرهابيين ضربونـى والموضوع اللى باسمعه من سـت سنوات حصل لأن من ست سـنوات أيام ما حصلت على جائزة نوبل وأنا قاعد فى قهوة شـهرزاد ومندوب من النبأ الكويتية كان ساعات يقعد معايا فى القهوة، وقال لى الشـيخ «عمر عبد الرحمن» أهدر دمك وأنا كنت فى ذلك الوقت أول مرة أسمع باسم الشـيخ «عمـر عبد الرحمن» وده اللى أذكره وسـألته: ليه بيهدر دمـى: فقال لى مندوب الأنباء الكويتية إن الشـيخ «عمر عبد الرحمن» يقول لو أننا قتلنا «نجيب محفوظ» من ٣٠ سـنة مكانش طلع «سليمان رشـدى». وبعد الواقعة دى بأيام اتصل بى أحد رجال الأمن المصرى، وقال لى أنا أنصحك تتخذ حارس يكون مرافق لك فى تنقلاتك. فأنا قلت له إن ده كلام. «عمر عبد الرحمن» لم يقل فتوى بالقتل ولكنها جملة شرطية بيقول لو إننا قتلنا «نجيب محفوظ» من ٣٠ سـنة مكانش طلع «سليمان رشـدى». فقال لى: أنا عارف لكن «عمـر عبـد الرحمن» له أتباع مهاويس وإنه من الممكن واحد منهم يفهم من الكلام ده على إنه إشارة أو فتوى بالقتل، فأنا وضحت له أن ظروفى وأسلوب حياتى اليومية يتعذر معه أن يكون معايا حارس خاص لأننى أتمشـى بالسـاعة يوميا تقريبا ولى ندوات واجتماعات وفـى ذلـك تعذيب للحارس المرافق لى. وقلت له هـذا الحارس يمكن يزهق منى ويمكن هو الـذى يقتلنى. فكتب محضرا بما دار بيننا وأقنعنى بتعيين حارس على باب البيت ودايما كان يأتى لكن يوم الحادث مكانش موجود، وعدم وجوده ده يوم الحادث أمر مش غريب لأنه فى أحيان كثيرة كنت لا أجده قدام البيت. ومشيت الأمور وكنت مطمئنا تماما لأننى لم أكن أصدّق أن رواية ألفت سنة ١٩٥٩م ونشرت وممنوع صدورها فى مصر، ولمجرد أننى أحصل على جائزة نوبل العالمية تطلع المصايب دى كلها.

ونرجـع تانى ليوم الحادث فبعد ما حصلت الضربة ولقيت «فتحى» بيصرخ وبيشـاور على واحد بيجرى أنا شفته من ظهره وبيقول امسكوا القاتل وبعدين ربنا ألهمه رجع جرى وغطانى بالجاكتة بتاعته وطلع بى جرى بالعربية على مستشـفى الشـرطة بسرعة علشان

ى وكنت مت وكان واضح أن
اب المستشفى فتحوا لنا على
دايما ولقيت رعاية كبيرة فى
مذهول ومش حاسـس حتى
، لى إنت صرخت قلت له أنا
ين يعملوا لنا عملية، فقالت
فى عنايـة تامة لحد دلوقتى
أن أوضح شئ مهم بخصوص
على اسـتباحة دمى أو على
روايات كثيرة وكانت بتطبع
ت تنشر مسلسلة فى جريدة
و اجتراء على الذات الإلهية

ـة ودمنة» تخلق عالما متطورا
ولكن تعرف ويعرف القارئ
ـين الأفراد وحكمة الحكماء
فلازم يكون أبطالنا حيوانات
رموز له بالحيوان وعلى نفس
ارة وأسـلوب حياتهم الظلم
ليدافعوا عن الحارة وعلشان
صراع بين الأشرار التى فيها
الحق رمزا لانتصار دين من
البشرية والدفاع عن أبنائها
ة معجبانى» بنفسـه وادعى
ى كما إن «الجبلاوى» مات
يسخره فى خدمة «الناظر»

ينقـذ حياتـى لأن فى تصورى لو تأخر شـوية كان ا
ربنا سهل لنا كل شئ فى الطريق حتى إن اللى واقفي
طول دون احتجازنا أو سـؤالنا عن الإجراءات اللى ب
المستشـفى ودخلونى على أوضة العمليات وأنا فى حا
بـأى ألم حتـى «فتحى» بعد ما أجريت العمليات وق
مش فاكر، وأنا بعد ما فقت سـألت المـدام وقلت له
لى إن العمليـة اتعملـت خلاص وفضلت قاعد فى الم
وده كل اللى فاكره ومسـتعد لأى سـؤال أجاوب علي
«أولاد حارتنـا» اللى بيتخذها الإرهابيون كسـند أو د
أننـى مرتـد على حد قولهم وهو أن هذه الرواية ألف
كتب ورواية «أولاد حارتنا» كانت بداية اتصالى بالصح
الأهـرام. وبداية مش معقول يكون رواية فيها مجازف
واختارها لكى تنشر على عناوين الصحف.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى «أولاد حارتنا» ا
لتوحى بعالم وراءه، فنحن بين الحيوانات عايشـين
العـادى أن إحنا نقصد نقد البشـرية ونظم الحكم وا
وسفاهة السفهاء ولكن ما دام التزمنا إن إحنا نكون ف
ولا نحاسب ونحن بنعاملهم معاملة الحيوانات لأننا ب
النمط مشـيت فى «أولاد حارتنا» بأعرض فيها المصر
بكل ما فيه ثم يجئ ناس اللى أنا رمزت لهم برمز الر
وصية «الجبلاوى» تنفذ علشان يحسن هذا الرمز فى ا
اللـى بينهبـوا الوقف ويظلموا العباد حتى فى النها
الأديان وبالعكس الرواية بتصور إن الدين لعب دورا
باسـم المبادئ الإلهية وفى ذات القصة يجئ واحد ا
أن هـو اللى يقدر يصلح الحارة مش «الجبلاوى» ولا
وراح لحاله وإذا به يقع تحت سيطرة «ناظر» الوقف

وليس فى خدمة الحارة، ولذلك هو بنفسه قال يجب إحياء «الجبلاوى» وموت «الجبلاوى» وإحياؤه رمز للكفر والعودة للإيمان بإحياء «الجبلاوى». وأنا عايز أقول إن الرواية دى من وجهة نظرى أنا ككاتب أول تبشير لضرورة التحام العلم بالإيمان والرواية تقول بصريح العبارة إن الدين أنقذ البشرية من المظالم وأن العلم قادر أيضا على أن يرتقى بها ويحسن حالتها، ولكن بشرط ألا يحيد عن مبادئ الدين وهناك دليل آخر على أن هذه الرواية لا تتضمن ارتدادا أو كفرا أو طعنا على الأنبياء والرسل إن هذه الرواية كتبت منذ عام ١٩٥٩م وتم نشرها وحجبت عن النشر إلا أن العقاب عليها يأتى بعد فوات هذه المدة الطويلة وبعد حصولى على جائزة نوبل ممّا يدل على أن القصد من الاعتداء علىّ ليس هو أخذى بما ورد بهذه الرواية وإنما اتخذوها وسيلة أو مبررا لقتلى بدون سبب.

• س – وما قولك فيما جاء بأقوال المتهمين «محمد المحلاوى» و«محمد ناجى» بالتحقيقات من أن رواية «أولاد حارتنا» التى قمت بتأليفها تدور باختصار فى مضمونها حول قصة الكون والخلق وأنك قمت بتصوير الذات الإلهية فى هذه الرواية فى شخص «الجبلاوى» وانتهيت فى هذه الرواية إلى أن إخراج «الجبلاوى» من التكية يعمل على إصلاحها بل هو الحل الوحيد لإصلاحها بما يعنى أن الناس يجب أن تعيش من غير إله ولا دين.!!

• جـ – أولا إن هؤلاء الذى يدعون ذلك لا يقرءون القصص الأدبية بعين أدبية أو إنسانية تريد أن تعرف الحقيقة وصراع الخير والشر إنما المهم العمل فى نظرهم يكون خاضعا حرفيا لتعليمات الدين وحتى فى ذلك هم يغالون لأن الدين نفسه عرض قصة الخير والشر وقصة عصيان «إبليس» على الذات الإلهية ورواياتى كلها بتدور حول مفاهيم واضحة لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون القصد منها التعرض لأى دين من أديان السماء أو الازدراء به والقول بأننى كافر أو مرتد افتراء بل إنه فى اعتقادى قول صادر عن أشخاص لا يعرفون أمور دينهم الصحيح لأنهم لو يعرفون ذلك لا يحكمون على رجل مثلى من رواية واحدة فإن لى الكثير من الروايات والمؤلفات ولم يقل أحد عنها أنها تنكر الذات الإلهية أو تتعرض بالتهوين من شأن الدين وحتى على فرض أننى فى رواية «أولاد حارتنا» تعرضت للذات الإلهية أو كفرت كما يقولون فما الذى أدراهم أننى قد أكون قد عدت لصوابى، وأنى فى هذا العمر الطويل منذ كتابتى لهذه الرواية لم أغير موقفى هذا على فرض صحة ما يدعون وهو فرض جدلى، ولماذا لو أن عندهم القدرة على الحوار والفهم والوصول إلى المعانى

والمضامـين لم يأتوا إلى ليناقشـونى فيما كتبت حتى يكون حكمهـم علىّ بالقتل بعد سماع أقوالى على الأقل بدلا من أنهم يأخذونى غدرا وغيلة وفى النهاية أحمد الله وحسـبى الله ونعم الوكيل.

• س. هل لديك أقوال أخرى

• جـ. لا.

وكنـا نـودّ أن نعلّق على هذه الأقوال بما هى جديرة به، إذ أنها تكشـف عن الكثير، وتزيل عن الرواية ما حاول سادة التفسير وأئمة الفقة وأصحاب الفتاوى أن يلصقوه بها من صفات لا يمكن أن تصح بالنسبة لها بحال من الأحوال.

ولكنا نؤثر أن نرجئ ذلك إلى ختام هذا الفصل، ونرجئه بصفة خاصة إلى بعد أن نستمع سـويا إلى ما قاله المتهم الأول (المعتدى).. على أن ذلك لا يحول دون تسـجيل أن ما تقدم يكشف عن الإيمان الصحيح، والقصد السليم لمؤلف الرواية فى حديثه الصريح.

* * *

٧ - حديث مع المتهم الأول:

• بتاريـخ ١٩٩٤/٤/٢٦م نشـرت الأهرام / القاهرة فى الصفحة السـابعة حوارا أجراه الصحفى اللامع الأستاذ «أحمد موسى» مع المتهم الأول، كانت عناوينه كالآتى:

• المتهم بطعن الكاتب الكبير فى حوار خاص مع الأهرام.

• نفذنا الخطة باغتيال «محفوظ». ولم نقرأ رواية «أولاد حارتنا».

• كانت الخطة ذبح «نجيب محفوظ» أمام أسرته.

• طعنته بكل قوتى فى رقبته.. وشاهدت دماءه تنزف بشدة ثم هربت إلى عين شمس.

• «عمـر عبد الرحمـن» وقادة الجماعة فى السـجون والهاربون فى الخارج يرسـلون تكليفات بالاغتيال.

وتحت هذه العناوين جرى هذا الحوار الذى ننشر فيما يلى نصه كاملا:

فى أول لقاء تجريه الصحف ووسائل الإعلام كشف المتهم «محمد ناجى محمد مصطفى» عـن التفاصيل الكاملة حول محاولة اغتيال الكاتـب الكبير «نجيب محفوظ» وروى كيف

طعنه بالمطواه فى رقبته وشرح – فى الاعترافات المذهلة التى حصل عليها الأهرام – الهدف من العملية الآثمة والفتاوى التى صدرت لإهدار دماء الكاتب الكبير ومسئولية الجماعة المسماة بالإسلامية عن العديد من الجرائم الإرهابية التي وقعت بالقاهرة والمحافظات وعلاقة خلاياهم بالدكتور «عمر عبد الرحمن» الموجود الآن فى أمريكا واتصالاتهم بقادة الجماعة الذين يقضون عقوبات السجن حاليا وعلى رأسهم «عبود الزمر» و«ناجح إبراهيم» و«عاصم عبد المجيد» و«عصام دربالة»، (وقد أفرج عن معظم هؤلاء فى الآونة الأخيرة بعد قضائهم لما تجاوز المدد المحكوم بها).

وقد كشف هذا الحديث عن الكثير من المؤامرات التى خططت لها جماعات الإرهاب فى مصر بهدف هزّ وزعزعة الاستقرار ذكرها لى المتهم فى اعترافاته الكاملة التى حصلت عليها فى لقاء استمر قرابة ستين دقيقة فى المكان المخصص لعلاجه من الإصابة التى لحقت به عند ضبطه بعين شمس لم يقرأوا رواية «أولاد حارتنا» التى ادعى وأعوانه أنها السبب فى محاولة اغتيال «نجيب محفوظ» ويذكر أن فتاوى صدرت بإهدار دم «محفوظ» سواء من الشيخ «عمر عبد الرحمن» أو من قادة الجماعة المسجونين بحجة مهاجمته للدين الإسلامى فى محاولة لتقويض دعائم النظام والإفراج عن قادتهم المعتقلين والمسجونين واعترف باستمرار عملياتهم المسلحة ضد الأبرياء ورجال الشرطة والمسئولين – ويوضح حقيقة العلاقة الغامضة بين جماعتهم وبين «الإخوان المسلمين» المحظور نشاطها – (وقت نشر الحديث) – واتهم الإخوان بالعمل تحت الأرض لخدمة أهدافهم وأنهم يتسترون خلف شعارات يطلقونها بالتنديد عند وقوع جرائم إرهابية وغيرها، ولا يخفى المتهم كافة مواقف الأجنحة العسكرية والعمليات التى تنفذها وعلاقتهم «بالجهاد» وقال: نحن والجهاد نعمل فى خندق واحد. وأشار إلى أن فشل القوافل الدينية والخطب بداخل المساجد جعلته يعمل لحساب هذه الجماعات التى تلقفته، ولقنته دروسا مختلفة حوّلته من إنسان بسيط إلى مجرم محترف، نفذ جريمته النكراء دون اهتزاز شعرة واحدة، بل كان سعيدا لفوزه بهذا العمل الإجرامى وقت أن أوكل إليه تنفيذه.

داخل عنبره كان فوق سريره عندما دخلنا عليه: شاب فى العشرينيات من العمر، نحيف الجسد، ملامحه تبدو للوهلة الأولى أنه بسيط، لكن مع الحوار والنقاش الساخن معه يتضح حجم غسيل المخ الذى تعرض له طوال السنوات الأربع الماضية، تشبّع بأفكار

الإرهاب، أصبح ناقما على كل شــئ، وخرجت منه بانطباع: لو قدر لهذا المجرم الخروج لارتكب جريمة أشـّد عنفا مــن تلك التى حمى الله فيها «نجيــب محفوظ»، وكانت معه تفاصيل اللقاء المثير:

• س ـ اسمك وانضمامك إلى الجماعة وأفكارها فى اغتيال الشخصيات.

• جـ ـ رد؟ «محمــد ناجــى محمد مصطفى». فنى إصلاح أجهــزة إلكترونية – حاصل علــى دبلــوم صنايع من مدينة الســلام – مقيم بعــين شمس التى وفــدت إليها من ملوى بالمنيــا بــدأت ألتزم دينيا منذ أربع ســنوات عــن طريق صديق لى وترددت على مســاجد الجماعة فى عين شمس ومنها مســجد (الصفا) وقرأت الكثير من الكتب الخاصة بالجماعة وكتاباتها التى تخص «عمر عبد الرحمن عبد الآخر حماد» (هارب بالخارج) و«عبود الزمر»، و«ناجح إبراهيــم» وغيرهــم، وهدفنا الذى تعلمته هو تحكيم كتــاب الله ولنا أهداف كثيرة ننفذها وكان بينها اغتيال الكتاب والشخصيات وضباط الشرطة.

• س ـ كيف تريدون تطبيق شرع الله بالسلاح، وهل الإسلام يقر القتل؟

• جـ ـ هذه وســيلة نلجأ إليها لإرهاب كل من يحاول منعنا من أداء رســالة الجماعة التى ننشــدها الآن والغاية تبرر الوسيلة، وســوف نحاسب يوم القيامة على النية – هكذا يدعى – ولا يهم سقوط ضحايا أبرياء عند تنفيذ أهدافنا.

• س ـ اغتيــال «نجيب محفوظ» لصلحة من؟ وكيــف وضعت الخطة وتفاصيلها التى عايشتها بدقة.؟

• جـ ـ أجــاب المتهم «محمد ناجى»: أولا كان هناك تكليف باغتيال «نجيب محفوظ» بحجــة مهاجمته للدين الإســلامى فى رواية «أولاد حارتنــا» ولم نناقش مثل هذه الأمور، فكلٌ ما علينا إطاعة الأوامر وتنفيذها فقط والذى نقلها لنا «باسم محمود خليل» – والفتاوى حســب علمى صدرت من «عمر عبد الرحمن» وقادة الجماعة داخل السجون فهؤلاء أباحوا دمــه مثلما حدث منهم تجاه الدكتور «فرج فودة» – تلك العمليات تهدف لخدمة الجماعة فــى تنفيذ مخططها الــذى تضعه أمام خلاياها المختلفة. هذا و«باســم» قد قتل فى معركة مع قوات الشــرطة بعين شمس. مهمة الحصول على عنوان منزل الكاتب «محفوظ» وقمت بالرصد معه وحدّدنا موعد التنفيذ للعملية يوم الخميس السابق على الحادث.

• س ـ كيف كانت خطتكم؟

• جـ ـ يشــرح: تتم العملية باســتخدام ســلاح أبيــض (مطواة) نظــرا لطبيعة المنطقة والانتشــار الأمنى الذى رصدناه فيها. وتوجهت ومعى «باســم» لمنزله مساء الخميس لذبح «نجيب محفوظ» فى منزله وكنت أحمل مطواه ومسدسـا أخفيهما وســط ملابســى (قميص وبنطلــون) وكان «باســم» يرتدى ملابس خليجية، هدفنا القتــل – يكررها لى – حملنا باقة زهور وشــيكولاتة بحجة تقديمها هدية للكاتب، وصعدنا إلى شقته. طرقناها ففتحت لنا سيدة «زوجتة» أفهمناها برغبتنا فى مقابلة الأســتاذ فاعتذرت لنــا بعدم وجوده، وأبلغتنا بإمكانية مقابلته فى كازينو قصر النيل غدا الجمعة. الخامســة مســاء. وقال: ربنا لم ييسر الأمر أى إن العملية لم تتم. ونزلنا.

• س ـ ذبح الكاتب أمام أسرته!!

• جـ ـ يردد: هدفنا كان ذبحه داخل منزله، وحملت المسدس معى لإرهاب أفراد أسرته ولمقاومة محاولة طلب النجدة، وكانت تلك خطتنا.

ثــم أضاف: فى يــوم الجمعة صباحا التقى أفــراد المجموعة الخمســة واتفقنا جميعا علــى أننــا «إن شــاء الله نقتله» عصر الجمعــة – ذهبت – على لســان المجرم – ومعى «عمرو محمد إبراهيم» إلى منزله، وكان ســيلحق بنا الثلاثة الآخرون بســيارة لتنفيذ العملية ســواء أمام المنزل أو فى الكازينو. بأى شــكل لن نعود إلا ومعنا رأس «نجيب محفوظ» – الخامسة إلا ربعا تقريبا نزل الكاتب ومعه شخص آخر ووقف بجوارى لحظات مَرت علىّ كالدهــر، يدى داخل ملابســى تتحســس المطواة أحاول طعنه. انتظــرت حتى جلس فوق مقعــده. هممــت بطعنه فى رقبته بكل ما أوتيت من قوة وفى مــكان لإنهاء حياته وتركت المطواة وهربت واستعملت سيارة أجرة إلى ميدان التحرير ثم عين شمس لمقابلة باقى أعضاء المجموعة السابق تحديدنا موعدا للقاء لبحث الموقف عقب تنفيذ العملية وأول المقابلة أخذ كل منا الآخر بالأحضان وكانت كلمة (مبروك) هى شعار هذا اليوم.

• س ـ موقف الإسلام معروف من قتل كبار السن وغيرهم.. أى دين يقر عملكم هذا؟

• جـ ـ يتوقف لحظات عن الإجابة، ولا يجد مبررا واحدا سوى القول: هكذا كانت الفتوى بالقتل، ونحن نفذنا ما طلب منا. ويدعى «شــرف» لأى شخص يقتل «محفوظ».. وقد نفذت هذا الشــرف. الشــاب المجرم يعترف بجريمته بكل جراة. نعم كنت أريد قتله، ولو قُدِّر لى

الخروج من هذا السجن حيا ما تردّدت لحظة في قتله مرة أخرى. نعم الأعمار بيد الله لكننى طعنته وغرزت المطواة فى رقبته وتحديت زملائى أن تكتب له النجاة، لكن الله سبحانه كتب لـه عمرا طويلا. كنـت ثابتا وأنا أنفذ جريمتى لم تتحرك مشـاعرى وأنا أرى المطواة والدماء تنزف منه سمعت تأوّه الرجل من شدة الطعنة – الهدف ليذهب مثل «فرج فودة».

• س ـ «أولاد حارتنا» وكتابات وروايات وكتب كاتبنا الكبير.. هل قرأتها؟

• جـ ـ لم اقرأ «أولاد حارتنا» لكنى قرأت ٤ كتب – نسيت – هكذا يدعى – عناوينها. ويضيف: لا أعرف بالضبط ما تذكره الرواية، لكن حسـب ما أفتى به «عمر عبد الرحمن» وغيره من الفتاوى التى قرأتها أن محفوظ تعرض فى روايته للدين الإسلامى.

• س ـ مقاطعا: لم يحدث هذا.

• جـ ـ فقال: ليس لى دراية بالرواية. إننى أنفذ ما نتفق عليه.

• س ـ توقعات المجموعة الإرهابية بعد الحادث ولحظات سقوطها.؟

• جـ ـ فى ذهول: للأسف لم نتوقع القبض علينا خاصة بعد هروبنا من منطقة الحادث بالعجـوزة واليـوم التالى كنا متفقين على المقابلة بمقهى عين شمس، وفجأة وجدنا سـيارة تقـف على مقربة منـا، ونزل منها مجموعة وعلى الفور تحركنا من فوق مقاعدنا وهمسـنا إنهم شـرطة ولحظات أطلقنا الرصاص وهم بادلونا نفس الشـئ فأصبت ومعى «باسم» الذى توفى بالمستشـفى – و«عمرو إبراهيم» مازال مصابا. ووصول الأمن إلينا بهذه السـرعة يؤكد أن جهـاز أمن الدولة قوى جدا. والشـىء الخطير الذى يـدور فى أذهان الجماعات حجم الاخـتراق من جانب الجهاز للجماعات والدليل سـقوط العديد من قادتنا وهذا لم يأت إلا بالاختراق لنا ولصفوفنا. وأحدثت هذه العمليات ارتباكا شديدا فى صفوف الجماعة خاصة أجنحتها العسكرية وجاءت حادثة مقتل القيادى «طلعت همّام» لتؤكد من جديد قدرة الأمن علـى الوصـول إلى قادة الجماعة. ويكفى أننى وعددا آخر من مجموعتنا لم نسـجل أمنيا، ورغم هذا وصل الأمن إلينا، وهذه شهادة أذكرها رغم اختلافنا مع الأمن وحربنا ضدهم..

• س ـ علاقتكم ب«عمر عبد الرحمن»، والعناصر الهاربة فى الخارج والداخل؟

• جـ ـ يصف المتهم «محمد ناجى» فى اعترافاته «عمر عبد الرحمن» بأنه (عالم الجماعة وفقيههـا الكبير، وصاحب مكانة بين صفوفها وله الكثير من الكتب والكتابات التى تثرى العمل الجهادى) والرجل الثانى هو الشـيخ «عبـد الآخر حماد» هارب بالخارج فى المركز

الثانى باعتباره أفضل شاب متعلم ومثقف في الجماعة الآن، وهذا الرجل له كتاب (جواز تغيير المنكر وحد الرعية) يوضح فيه الخطر الذى يواجهنا والطرق التى تستند إليها فى أعمالنا ضد النظام، وهناك مجموعات أخرى منها «عبود الزمر» و«عصام دربالة» و«ناجح إبراهيم» و«عاصم عبد المجيد» – جميعهم مسجونون حاليا على ذمة أحداث ١٩٨١م – لهم كتابات تتحدث فى مختلف الأمور المتعلقة بعمل الجماعات وموقفها لنا – هذه الكتابات بمختلف الطرق، وتشمل فتاوى وأحكاما وغيرها وتفيدنا فى عملنا.

• جـ ـ أكيد.. وربما كان ذلك فى فترة سابقة، لكنهم كتبوها وهم يقضون عقوبات السجن ويضيف: تلك الكتابات تكشف حقيقة العمل داخل صفوف الجماعة على غرار كتاب ميثاق العمل الإسلامي الذى يحدد الأهداف التى ننشدها.

• س ـ علاقتكم بتنظيم الجهاد!

• جـ ـ نحن وهم فى خندق واحد – وإن كان الجهاد يهتم بسريته فى عملهم – يختلف عن الجماعة الإسلامية. وهذا وجه الخلاف لأنهم دائما يريدون العمل فى الخفاء، ونحن نعمل فى العلن. وإن كانت الأجنحة العسكرية بالجماعة الآن اتخذت الجانب السرى فى عملها من الجهاد، ومنها حلق اللحية وارتداء الملابس العادية: جينز وغيره..

• س ـ والإخوان.. ماذا تراهم؟

• جـ ـ هذه الجماعة الواضح من خطابها العلنى اختلافها الكبير مع الحقيقة المخبأة تحت الأرض فهم يعملون فى الخفاء من أجل هدف معيّن يضعونه أمامهم وهو السيطرة على الحكم والمؤكد وليس هذا سرا أن الإخوان يفرحون عند وقوع عمليات تحدث دويا كبيرا فى مصر، وهم يتمنون اشتعال النيران فى كل مكان دون إلصاق الاتهامات بهم

• س ـ المساجد.. كيف تراها بوصفك عنصرا نفذت جريمة إرهابية كبيرة؟

• جـ ـ قال «ناجى»: للأسف المساجد لا يوجد بها خطباء يمكنهم جذب المصلين إليهم وهى تحتاج إلى دعاية كاملة وتدريب كوادر تؤدى رسالتها بعكس الجماعات التى جذبتنى إليها، واستطاعت فى فترة وجيزة إقناعى بأفكارها لأرتكب أول جريمة فى حياتى.

• س ـ كنت تعلم أنت وشركاؤك بالصدى الذى سيحدث من محاولة اغتيال الكاتب «نجيب محفوظ»؟

• جـ ـ بالطبع كنا نخطط لذلك، وهذا أحد الأهداف الرئيسية التى تسعى إليها الجماعة فى عملياتها.

قبل نهاية اللقاء طلب المتهم عدم توجيه أسـئلة إليه لإحساسـه بالتعب الشديد، وتأوه أمامنـا، ووضـع يده فوق الجـرح، فغادرنا ونحن نضرب أخماسـا فى أسـداس عن هذه الجماعـات التى لا تريد لمصر إلا الخـراب وهذا الهدف الذى يضعونه أمام عيونهم ومعهم المتربصون لأمن واستقرار بلدنا (كان هذا هو تعليق المحرر فى وقت إجراء الحديث).

* * *

٨ - تعليق منا على هذا الحديث:

يسـتحق الأستاذ «أحمد موسى» الشكر والتقدير على هذا الحوار الذى أجراه مع المتهم الأول والذى نفذ الحادث وكان هو المعتدى الأول والأوحد – وإن كان له شـركاء – وكان قاصـدا قتـل المطعون ومتعمدا ذلك، وعاقدا العزم عن عمد وسـبق إصـرار على إزهاق روح ضحيته وإن كان لم يتمكن من تنفيذ جريمته كما خطط لها، ورسمها وشـرع فى تنفيذها، فما كان ذلك إلا لأسـباب خارجة عن إرادته.. لكن كيفما يكون التكييف الصحيح للواقعة على أنها جريمة شـروع فى قتل عمد مع سبق الإصرار والترصد، لم يحقق نتيجته الكاملة ولم يؤدِّ إلى إزهاق روح المجنى عليه لأسباب خارجة عن إرادة الجانى، إذ تدخلت العناية الإلهية، فأنقذت المجنى عليه من براثن المعتدى.

والذى يستوقف النظر هو أمر الجانى إذ تمكن قادة تلك الجماعة – أيا ما كان مسماها – من تجريد هذا الشـاب من كل أفكاره، وأحاسيسه، ومشاعره، وصبه فى قالبهم على نحو يجد فيما يقولون القول الفصل الذى يلتزم حياله بالسمع والطاعة لأنه هو الحق الخالص، والخير الكامل، فهو يؤمن تمام الإيمان بما يوحون به إليه، ولايفكر للحظة فى الانحراف عنه.. أو المناقشـة فيه، بل ووصل إلى حالة الاستهانة بما يكلفونه به من ارتكاب جرائم، إذ يرى فى تنفيذها أمرا يستحب التسابق إليه والحرص على الفوز به..

لقد انتزعوا منه مشـاعره الإنسانية الخالصة، واستبدلوا بها مشاعر كلها غلظة وتمكنوا من شـل أداة التفكير عنده ليوجهوها بما يخدم أغراضهم دون سـواها، وأوهموه أن هذا هو الدين الحق، والإيمان الصادق..

لم يتركـو له فرصـة ليفكر فى حقيقة ما يصدرونه من فتاوى.. ما قيمتها؟ ما سـندها؟ مـا وجـه الالتزام بها؟ ما تنطوى عليه من ارتكاب لجرائم يحرمها الدين، ويؤثمها القانون ويستنكرها المجتمع، وينفر منها الطبع السليم، والخلق الكريم.

ومن ثم فإن الأمر ينبغى ألا يقف عند جهود أجهزة الأمن فى تأمين المجتمع من شرور تلك الجماعات إنما ينبغى أن يتجاوز ذلك إلى التعرف علىأساليب تلك الجماعات فى جذب الشباب إليها، وصبُّ الشباب فى قوالبها، وإقناع هؤلاء الشبان بأفكارهم.. وإذا عرفت تلك الوسائل علىحقيقتها أمكن مناهضتها والتغلّب عليها وتخليص المجتمع من شرورها..

إن الشاب «محمد ناجى» كان يمكن أن يكون شابا منتجا، يؤدى عمله بما يخدم المجتمع، ويكفل أسرته.. فكيف أمكن لهؤلاء المتطرفين أن يجتذبوه إلى ساحتهم ويدخلوه فى عصبتهم وينحرفوا به عن مساره الطبيعى؟

هنا تجب الدراسة العميقة المحيطة التى لا تغنى عنها أجهزة الأمن بحال من الأحوال، فهذه الأجهزة وإن كانت هامة وضرورية وتؤدى دورا كبيرا وملحوظا فى كفالة الأمن والأمان. إلا أن الجماعات التى تقاومها فى حاجة إلى أكثر من أجهزة الأمن ومن كل الأجهزة فى الدولة إلى دراسات متعمقة تجٌردهم من كهنوتهم، وتكشف زيفهم، وتعرِّيهم أمام الجميع..

وهذه مسألة فى غاية الأهمية والخطورة.. وكفانا ما أحدثته تلك الجماعات من أحداث وحوارات ومآس.. وأصبح من الضرورى محاربتها بذات السلاح الذى تستغله فى جذب الشباب وتجنيد الأفراد.

* * *

٩ - الحكم على الجناة:

وكما ذكرنا من قبل - فقد أحيل الجناة إلى المحكمة العسكرية العليا التى حاكمتهم وحكمت عليهم، وأصدرت بشأنهم أحكامها - وننقل عن الأهرام ما نشره بتاريخ ١٩٩٥/١/١١م عن هذا الموضوع:

أصدرت أمس المحكمة العسكرية العليا حكمها فى قضية محاولة اغتيال الأديب الكبير «نجيب محفوظ» - قضت المحكمة بمعاقبة كل من المتهم الأول: «محمد ناجى مصطفى» والمتهم الثالث «محمد خضير أبو الفرج المحلاوى» بالإعدام شنقا، كما قضت بالأشغال الشاقة المؤبدة على كل من المتهم الثانى: «عمرو محمد إبراهيم» والمتهم الرابع «حسين على بكر عوض» وبالأشغال الشاقة لمدة ١٥ سنة لمتهم واحد وبالسجن سبع سنوات لمتهم آخر، وبالسجن ٥ سنوات لاثنين وبالسجن ٣ سنوات لخمسة، كما قضت ببراءة ٣ متهمين.

قالـت المحكمة إن تلك الجماعـات أرادت أن تجرح بأيدى عناصرها أمن وسـلامة بلدهـم فـكان الجرح أولى بهم وإن ما حوته أوراق الدعـوى لتنبيء عن أن فلول الإرهاب تسـعى دائما إلى التجمع وإعادة تكوين مجموعات تبغى اغتيال الرموز الفكرية، فما كان «نجيب محفوظ» إلا رمزا للفئة المفكرة، فتأججت بين ضلوعهم أن يكون مقتله كمن قتل من المفكرين جميعا.

وأكدت المحكمة أن واقعة «نجيب محفوظ» لم تكن إلا بداية سلسـلة من الجرائم، وأن قـادة تلك الجماعة الإرهابية اهتموا بتدريب المتهم «محمد خضير المحلاوى» على كيفيـة تصنيـع العبوات المفرقعة من خامات سـعى إلى إحضارها بأحـد أوكارهم كما اسـتعمل أعضاء الجماعة بطاقات مزورة كما هو الحال فى معظم مخططاتهم وانتحلوا أسماء وهمية لإخفاء شـخصياتهم والتعامل مع الآخرين وضبط بحوزتهم أسـلحة نارية ومطبوعات تـدل علىأفكارهم المغلوطـة ومفرقعات كانوا يزعمون اسـتخدامها لخدمة الإرهاب الأسود.

* * *

وبذلك أسـدل السـتار على هذا الحادث، وإن ترك آثاره لدى «نجيب محفوظ»، فقد أعجزه عن الإمساك بالقلم تماما، وبذلك أعجزه عن إكمال رسالته وممارسة إبداعاته، لأنه كان قد تعوّد أن يكتب بنفسه، وألا يملى على سواه، ومن ثم فإذا كانت قد نشرت مقالات، أو إبداعـات، بعـد الحادث مملاة منه، فقد تميزت بالقصر والتركيز، وغاب عنها ما تميّز به من دقة الوصف، ورواية التفاصيل، ورسم الصور الناطقة، والتعبير عن أحداث رواياته تعبيرا فنيا غير مسبوق.. أين منه تلك اللقطات القصيرة والومضات الخاطفة التى لا يخفى عمقها وبراعتها إلا أنها تذكرنا بما حُرمنا منه من إبداعات مطولة، وأعمال تميزت بالعمق والفكر والشمول..!

* * *

وكذلك فقد حرمته تلك الإصابة متعة المشى، فقد كان من كبار «المشائين» وكانت الأفكار تنثال والخواطر تتوالى وهو يقطع المسـافات على قدميه فى خفة ورشـاقة ونشاط وهو يسير

منتصـــب القامة، مرفـــوع الهامة.. وذهنه يموج بالصور فتتولد لديه القصص والروايات بكل تفاصيلها وأحداثها.. فقد فقد تلك المتعة، وأصبح محدود الحركة مقيّد النشاط.

كمـــا حرمته كذلك متعة ارتياد المقاهي ولقاء الأصدقاء، والحرافيش دون أن تكون هناك قيود، فقد أصبح لا يتحرك إلا ومعه حارس أو أكثر ولا يجلس إلا في أماكن مغلقة.. وهو الذى لم يكن ليعرف سوى الانطلاق والحرية الكاملتين..

ومـــع ذلـــك فلم ينل منه يأس، وظل في حركة ونشـــاط، ليتواصل مع الحياة، دون أن يركن إلى خمود أو خمول.. رحمه الله برحمته الواسعة.

* * *

الفصل السادس

المحاكمــة الرابعـــة

محاكمة.. قضاتها.. كتـاب

تمهيد:

والقضــاة هنــا أصحاب أقلام، ينشــئون الكتب، كما يكتبون الفصــول، والمفروض في كتاباتهــم أن تكــون كتابات نقديــة، وأن يســتوى ميزانها فلا تهبط إحــدى كفتيه دون الأخــرى، ولكن للأســف لم يكونــوا جميعهم من الكتــاب الذين يميلــون إلى الاعتدال، ويحرصــون على التزام الحق، فهؤلاء الكتاب الذيــن تناولوا رواية «أولاد حارتنا» بالعرض والدرس والنقد والتحليل، اختلفت موازينهم باختلاف أهوائهم ومشاربهم.. والواقع أن تلك الكتب والفصول تداخل في تأليفها نفر ليســوا من أهل الفن أو النقد والأدب، وهم يصفون أنفسهم – أو يصفهم الآخرون – بأنهم رجال الدين، ومن ثم فهؤلاء لم يناقشوا الرواية – وهي عمل أدبي إبداعي – وليست كتابا في الدين أو مؤلفا في التاريخ – بما تستحقه من مناقشة، تبرز ما فيها من نواح إبداعية، وفن روائي، وتنام في الأحداث، وما وراء ظاهرها المباشــر من فلســفة خفية، ونظرة للكون شاملة، ومرام عديدة ليبرزوا بذلك مدى ما صادف الكاتب من توفيق، أو ما انحدر إليه من تهافت واضطراب.. لم يعرض الكتّاب من رجال الدين للرواية على هذا النحو المألوف في النقد الأدبي، والدراســة الفنية للأعمال الإبداعية – وإنما تناولوها بالقول الجارح،.والتفيبــيرات غــير الصحيحة، والتأويلات المنحرفة، بل ولم يقف بعضهم عند هذا الحد، بل تخطاه إلى لعن العمل، وتكفير المؤلف، بل والربط بينه وبين قدامى المســتعمرين للشــرق العربي رغم ما شهدته الدول العربية – منذ فترة طويلة – من تحرر واستقلال.

أما الكتاب من أهل النقد والفن والأدب، فقد عرضوا للرواية وفق أصول النقد المعروفة، وجــاءت تقييمات الكثيرين منهم منصفة للروايــة، معترفة بتوفيق المؤلف، وإن كانت لهم بعض ملاحظات وذلك أمر مقبول بالنسبة لكل عمل بشري، يبدعه إنسان.

ومن هنا فقد جاءت أحكام الفريقين متناقضة:

جاءت أحكام الذين نظروا إلى الرواية على أنها كتاب دينى تاريخى وأوُّلوا رموزها حسبما تراءى لهم.. جاءت الأحكام لا نقول قاسية، ولا نقول ظالمة، بل نقول أحكاما بُنيت على أساس من الفهم الخاطئ، والتفسير المنحرف، ومثل هذا الفهم وذاك التفسير لا يمكن أن يثمرا سوى البذىء من القول، والسيىء من الأحكام، والخبيث من النتائج.

ومع ذلك فقد كان هناك نفر ممن شغلوا أنفسهم بالدراسات الدينية، وتعمَّقوا فيها، ونشروا الكثير منها مما نال تقدير الجميع.. هؤلاء كان تعرضهم للرواية نافيا لأقوال السوء عنها، بل وقد عنون فاضل منهم مقالا له نشره منذ فترة بقوله: أفرجوا عنها - فضلا عن رأى فى تلك الرواية أنها قيمة إسلامية روحية - ومن الطبيعى أن يكون لهؤلاء جميعا كما سيكون للأوائل ممن وصفوا أنفسهم بأنهم علماء الدين - عرض لما قدموا من كتب وفصول تناولت بالدراسة رواية «أولاد حارتنا».. أما الفريق الآخر من المتخصصين أو الدارسين للنقد الأدبى، ولهم إسهامات فيه، فقد تناولوا الرواية بالعرض والمناقشة والدراسة، فجاءت أحكامهم منصفة إلى حد كبير..

ونحن فى عرضنا لهذا الحشد الكبير للكتب والفصول التى تناولت رواية «أولاد حارتنا» بالدراسة والتحليل والنقد المجحف أو المنصف سوف نحرص على الأمانة فى العرض، والموضوعية فى التحليل مع ضبط النفس عند حديثنا عن بعض الكتاب من الشيوخ.

ونظرا لأن كل صاحب قلم من أولئك الكتاب قد انفرد بإصدار حكمه - وقضائه - فيما ألف من كتاب، أو قدَّم من فصل من كتاب - تناول فيه رواية «أولاد حارتنا» بالدراسة وانتهى إلى رأيه الخاص به - فإنه قد أقامه على ما تراءى له من أسباب، وما تكشفت رؤياه من مواضع يعدّها بمثابة الحيثيات لحكمه أو لقضائه، وهو فى ذلك يختلف عمَّن سواه ممن سبقوه أو لحقوا به - فلذلك فإننا نجد أنفسنا مضطرين إلى تناول كل منهم على حدة فى مبحث مستقل.

على أن هناك ملاحظة أخيرة هى أن هذه المباحث لن تضم كل ما كتب عن هذه الرواية، فتلك مهمة تعجز عنها طاقاتنا.. ومن ثم فإننا سوف نختار أهم تلك الكتابات - والتى أمكن لنا الحصول عليها - وقد كانت لها أصداء هنا وهناك.. وإننا لنرجو أن نكون قد وفقنا فى الاختيار، كما نأمل أن نكون قد وفقنا فى التزام الحيدة والموضوعية والإنصاف والله ولى التوفيق.

* * *

المبحث الأول

عن

«كلمتنا فى الرد على أولاد حارتنا»

للشيخ عبد الحميد كشك

عرض، ومناقشة، وتحليل، وردّ

الشـــيخ «عبد الحميد كشــك» من خريجى أصول الدين، ومنذ تخرجه وهو يعمل بوزارة الأوقــاف إمامــا وخطيبا لأحد المســاجد فى كوبرى القبة بالقاهــرة – وقد تحدثنا عنه من قبل – فى الفصل الرابع – فنحيل إلى ما سبق لنا إيراده..

وكتابــه هذا لا يحمل أى تاريخ لإصداره، لكن المكتوب على غلافه أن رقم الإيداع بدار الكتب هو ٩٤/١٠٢٤٤ مما نقرر أنه ظهر فى عام ١٩٩٤م..

وللكتــاب غــلاف مصور، وقد اســتخدم مصمم الغــلاف اللون الأحمر فــى كتابة عنوان الكتاب، وصوّر فى يمين الغلاف صورة للشــيخ المؤلف حاملا ريشــته وكأنها ســلاح وأمامه يقــف «نجيب محفوظ» على نحو متخاذل بينما الشــيخ منتصب القامــة ضخم القوام ويبدو وكأنه يهدد «نجيب» بما لاندرى! وعلى كل حال فالصورة غير مريحة، ولا تتفق مع جلال المناسبة..

والكتاب يضم مقدمة وعددا من الفصول تبلغ ستة عشر فصلا

وقد عرف الشيخ بالكتاب فى المقدمة، واتبع التعريف بعدد محدود من السطور جمع فيه كل ما يريده قوله فى كتابه الذى تبلغ صفحاته ثلاثمائة وخمسين صفحة من القطع الكبير..

١ - ففى المقدمة يقول الشيخ:

• بين أيدينا كتاب «أولاد حارتنا» للكاتب «نجيب محفوظ».

وهــذا الكتــاب قصة رمزية لا تخفــى فيها الرمــوز إلا خلف غلالة رقيقــة من الواقع الاجتماعى..

وخطورة هذا الكتاب التى تدمر وتضل عن سـواء السبيل تكمن فى أنها تتعرض لقضايا مقدسة كما أن كاتب هذه الرواية تعرض لأشخاص الأنبياء عليهم صلوات الله وتسليماته من «آدم» إلى خاتم الأنبياء ﷺ بل لقد جعل فى هذه الرواية شـخصا يمثل الله عز وجل ولله المثل الأعلى فى السـماوات والأرض وهو العزيز الحكيم تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. كما أن صاحـب هـذا الكتاب قد بلغ من جرأته أنه صوَّر الله جل جلاله وأنبياءه عليهم الصلاة والسـلام كما صوَّر الحقيقة الإيمانية على غير ما آمن على ذلك المؤمنون، وسـوف نتعرض لهذا الكتاب بالردّ الإسلامى الصحيح حتى لا تزلّ أقدام، ولاتتعثر أقلام، وحتى لا ينفلت خيال الكاتبين، وسنعرض لهذا الكتاب بأسلوب موضوعى علمى – وهذا شرطى على نفسى وما توفيقى إلا بالله.

٢ - ويلخص الشيخ الرواية – من وجهة نظره – على النحو التالى:

(والآن نأتى إلى أهم وقائع تلك الرواية «أولاد حارتنا» وما اشتملت عليه من صور متنوعة اصطدمـت بعقيدة الألوهية والرسـالات السـماوية التى أنزلها الله علـى أنبيائه المصطفين الأخيـار. فمن هؤلاء الأولاد، وما هى تلـك الحارة؟ لقد ظهرت تحوّلات «نجيب محفوظ» الفكرية وتجدده العقلى على أعماله فى كل مرحلة، ومن هذه المراحل المرحلة الفلسفية التى عنى فيها بمناقشـة قضايا كونية شاملة مثل قضية الوجود أو المصير الإنسانى والبحث عن اليقين المفقود.. ومرت هذه المرحلة برواية شديدة الضخامة نشرت بجريدة الأهرام مسلسلة فى نهاية عام ١٩٥٩م، ولم يشأ لها القدر أن تصدر فى مصر بعد ذلك، وكانت بعنوان «أولاد حارتنا» وقد أراد الكاتب إعادة تشـييد العـالم ببناء يوتوبيا خاصة على أرض الحارة التى ابتكرهـا وهى حارة مصرية تعيش على حافة المدينة – القاهرة – تحفّها الصحراء. حارة عمَّها الظلم والعسـف نتيجة ممارسـات الفتوات على أبناء الحارة من الكادحين والغلابة. يتتبع الكاتب تاريخ الحارة وكأنه يتتبع تاريخ البشـرية منذ خلقها الله. «فالجبلاوى» هو سيد الحارة وصاحبها، وسكانها هم ذريته التى تسلسلت منذ أنشأ قصره الكبير فى نهاية الحارة. و«الجبلاوى» قابع فى القصر يتابع ما يجرى من ظلم وعذاب لأبنائه دون أن يفعل شيئا حتى يخرج من ذريته من يحاول إقامة العدل والإصلاح أمثال «جبل» ثم يليه «رفاعة» ثم يليه «قاسـم» وهم الذين يمثلون الرسـالات الثلاث الكبرى، ويسـتمر ما أقاموه من قيم العدل لفترة معينة بعدها سـرعان ما يعود الظلم، و«أولاد حارتنا» تبشـر فى جزئها الأخير

بعنــوان «عرفة» بالعلم حيث إن عصر العلم والاختراعات الجديدة يمكن أن تحل مشــكلة أولاد «الجبــلاوى»، وكان «عرفــة» الذى يرمز للمعرفة هــو المخلـص للحارة من كل ما لم تنجح المبادئ السابقة فى تحقيقه، فالعلم لابد أن يشمل كل شئ، وهو ما دعا إليه «نجيب محفوظ» عندما حاول بناء الكون على أرض الحارة أو حاكى بناء الكون، وتتبع تطوره منذ عصــر الأســطورة حتى عصر العلم. وقد أحلّ المؤلف فــى «أولاد حارتنا» رؤيته العلمية فى الجزء المسمى «عرفة» الذى استقدمه الكاتب ليكون خليفة للأنبياء العظام).

٣ - ولنا ملاحظات على هذا التلخيص نوجزها فيما يلى:

وأول ما نلاحظه: هو أن الشــيخ أهمل الإشــارة إلى كيف كانت تمشى الحياة.؟ وكيف ظهــر أصحاب الأسماء التى أشــار إليهم؟ وكيف جذب هــؤلاء الناس إليهم؟ وكيف كانت حياة غمار الناس عند ظهور هؤلاء الثلاثة؟ وكيف كان الظلم الســائد، والتعســف الشديد، والحياة البائسة التى كان يحياها الناس؟ وكيف فعل هؤلاء الثلاثه لإصلاح الحال؟ وكيف حققوا النجاح؟

والملاحظة الثانية: هى إهمال الشيخ تصوير حالة الحارة قبل ظهور كل من هؤلاء، وإلام صــارت الأوضــاع بعد ظهــور كل منهم، وما بذلوه من جهــود، وما قاموا به من جهاد حتى – تمكنوا – كل منهم بطريقته – من دفع الظلم، ومحو الإســاءات التى كانت تلحق بهم.

والملاحظة الثالثة: ولاندرى كيف فاتت الشيخ... فقد حرص المؤلف – «نجيب محفوظ» – بالنسبة لكل من «جبل ورفاعة» على أن يؤكد أنه لم يكن ليهتم إلا بالحىّ الذى ينتمى إليه دون ســائر الأحياء.. أما «قاســم».. فقد كان اهتمامه بالحارة كلها – بكل أحيائها – فلم يشر الشيخ إلى هذه الناحية.

والملاحظــة الرابعة: بشــأن تلخيص الكاتب لأمر «عرفــة».. فالواقع أن الفصل الذى خصصه «نجيب محفوظ» «لعرفة».. لم يحســن الشــيخ تلخيصه، لأنه لم يحســن فهمه.. فقد ذكر الشــيخ أن «عرفة» حقق ما لم يحققه ســابقوه.. وهذا ما لم يحدث، وما لم يذكره «نجيب محفوظ». فقد كان حديثه أن أمر «عرفة» قد انتهى إلى الفشل الذريع، لأنه اعتمد

على ما توصل إليه من «مخترعات» تعلن القوة، وتحقق النصر.. وكان فشــله فى أول الأمر إذ وجد نفســه تحت رحمة «الناظر» الطاغية الأكبر الذى اســتغله لتحقيق مآربه والقضاء على «الفتوات جميعا»، ثم وجد نفســه فى نهاية الأمر هو وزوجه فى حفرة ويهال عليهما التراب.. ويشــير المؤلف من طرف خفى إلى إهمال «عرفة» للجانب الروحى – الدينى – وأنه لا نجاح للعلم بدون الدين.. فهما توأمان للتقدم.. ورغم أن تلك كانت إشــارة واضحة إلا أن «شيخنا» لم يتنبه إلى شئ من ذلك، واقتصر على عرض ما قام به «عرفة» دون عرض لما انتهى إليه «عرفة».. وأسباب تلك النهاية..

والملاحظة الخامسة: أن التلخيص بهذه الصورة يهدد أهم ما فى الرواية وما تقوم عليه من أن كل صاحب فكر أو رســالة إنما عليه أن يهتم بالبشــرية ويعمل على إســعادها بما يبثــه فى النفوس من قوة إيمان بالعدل والمســاواة، وبما يحققه على أرض الواقع من جعل تلك المعانى حقائق ملموســة.. وهى أمور يكشــف عنها تسلسل الأحداث ولكنه لم يلق ثمة اهتمام من الشيخ.

والملاحظة السادســة: هى أن كل ما أورده الشــيخ فى مطلع الفصل الثانى الذى عنونه بعنوان: عرض ومقارنة من حديث عن «ســلامة موســى» هو قول خارج عن موضوع العمل الروائى «أولاد حارتنا» وكذلك فإن كل ما أورده وفصّله من حديث قيِّم عن الذات الإلهية ومن أبحاث ممتعة عن قدراتها وصفاتها.. إلى آخر ما هنالك هو حديث طيب، ولكنه منبتّ الصلة بالحديث عن «أولاد حارتنا» فهى عمل روائى مســتقل بذاته، ولا صلة له بمســألة الذات الإلهية، التى تجلّ عن كل وصف، وتسمو عن كل حديث.. أو على الأقل. لم يكن الشــيخ قد ربط بعد بين الرواية وبين ما ســوف يدّعيه وينسبه إليها – بغير حق وعلى غير سند – من حديث عن تلك الذات الخالدة.

٤ - دلالات الرموز عند الشيخ:

وإذ يقــرر الشــيخ فى الفصل الرابع، أنــه فيما يلى الرموز التى اســتعملها المؤلف فى الرواية، وما تشــير إليه من شــخوص وأحداث، فقد حرص – بعد ذلك – على أن يورد قائمة من خمسين اسما مما تضمنته الرواية، ويورد مقابل كل منها ما تراءى له أن المؤلف إنمــا يقصد بهذا الرمز ذلك الشــخص – أو ذلك المعنى – بالذات.. وقد ســار على هدى

مــن تلك القائمة، وتعامــل فى كل ما أورده من مقولات علــى أن المؤلف إنما يعنى فى الحقيقة والواقع – ودون أدنى شــك أو ريبة، بتلك الرموز ذات الأشــخاص والأحداث التى حددها الشيخ.

وإذا انتهى الشيخ إلى ذلك، فقد اتخذ من هذه القائمة دليلا مؤكدا، وبيانا موثوقا منه، لا يأتيه الباطل من أى نواحيه.. ولســنا ندرى من أين جاءه هذا اليقين! والحقيقة أنه لم يفسِّــر، ولم يوضح، بل لم يشــر إلى ســنده فى ذلك، مكتفيا بإيراد الدليل تحت عنوان: «دلالات الرمــوز فى القصة» – دون أن يبيِّن لنا ســنده فــى ذلك، أو كيف انتهى إلى هذا التحديد، بل كيف يقطع بذلك على نحو لا يقبل المراجعة أو الجدال.؟!

والذى نعرفه – بل ومما يكرره الشــيخ نفســه – أنه فيما عدا النص الصريح أى الدلالة الواضحــة، فإن أى تفســير يقوم على التأويل لابد وأن يقــدِّم دليله وبرهانه على ما انتهى إليه. والدليل عند شــيوخنا الأفاضل – وبحقٍّ – إما أن يكون دليلا عقليا أو دليلا نقليا.. وعلى المفسِّــر أن يوضِّح فى الحالتين دليله، ويشــير إلى مصادره ولكن شــيخنا فى إعداده لهــذه القائمة التى تضم قائمة من خمســين رمزا، يعطى لكل رمــز منها ما يقابله من عالم الواقع، وأحداث التاريخ.. وردت مجردة من أى دليل، مفتقده لما يساندها من دليل عقلى أو دليل نقلى..

ويطلب الشيخ إلينا أن نأخذ بتفسيره، وأن نسلِّم بدليله، بما يحمله من دلالات لتحديد الرموز فى القصة، إيمانا منّا بصدق فراسته، وتسليما بقوة حدسه، ونفاذ بصيرته...

غير أننا، وللأســف الشــديد لا نرى مبررا واحدا لتصديق الشــيخ فيما ذهب إليه، ولــو أنه فعل كما فعل ســواه من حرصه على تقديم الأدلة مــن وقائع القصة لبادرنا إلى مناقشته، ولكنه لم يفعل، وأثر أن يقدم لنا فصل الدلالات لنأخذه قضية مسلما بها، لا تقبل مناقشة أو مراجعة.

ومــن هنــا حق لنا أن نقــرر أنه ليس لأحد أن يقطع بمثل هــذا القول، طالما أن المؤلف لم يذكــره، ولم يذكر ما يشــير إليه، بل إنه فى أحاديث كثيرة معه رفض التســليم بمثل هذه التفســيرات والتأويلات التى تأخذ الأمور بظواهرهــا ولا تتعمق ما قد تعنيه الحوادث والأحداث من معان خفية قد يختلف فهمها من قارئ إلى آخر، دون أن يكون هناك قطع بأن لكل منها دلالة واحدة ووحيدة.

٥ - عرض الأحداث.. والقول الحق.. وعقيدة الرسل:

يعود الشيخ فيخصص الفصل الخامس لعرض أحداث الرواية مقررا أن هذا العرض «مما يصادم عقيدة الألوهية والنبوات» وذلك على أساس ما أبداه في الفصل الرابع من «دلالات الرموز في القصة» وعلى ذلك وهو إذ يورد الأحداث منسوبة إلى أصحابها الذين ورد ذكرهم في الرواية، فكأنه يقول لا تأخذوا بهذه الأسماء وإنما عودوا إلى فصل الدلالات، وانسبوا ما ورد في التلخيص من أقوال وأحداث إلى أشخاصها الحقيقيين المذكورين في فصل الدلالات، فتعرفون بمجرد القراءة كم كان الكاتب متجاوزا فيما نسبه للأشخاص الحقيقيين – في تقدير الشيخ – من قول أو فعل.. فذلك أمر لا يصح ذكره.. ورواية لا يحق لمؤلف مؤمن أن يرويها سواء كتب الرواية على نحو مباشر أو نحو رمزي.

على أن عرض الشيخ للأحداث في الفصل الخامس وإن تضمّن مزيدا من التفاصيل، إلا أن الشيخ في إيراده للأحداث لم يخرج عن منهجه الذى اتبعه في الملخص الذى أوردنا نصه في صدر هذا المبحث، ولم يزد عرضه التفصيلي – بعض الشئ – للأحداث عن الاكتفاء بأخذه الأحداث بظاهرها، دون أن يتعمق دلالاتها، بحيث إن الملاحظات الست التى أبديناها في البند الثالث – لم ينل منها العرض التفصيلي في شئ، ومرجع ذلك في تقديرنا هو أن الشيخ أصدر حكمه المسبق، ومن ثم فهو مشغول بالردّ على المؤلف الذى سمح لنفسه – في تقدير الشيخ للرواية – أن يجرى على ألسنة تلك الشخصيات ما أجرى من أحاديث وأن ينسب إليها ما روى عنها من أفعال وأحداث، بينما أنها – في تفسير الشيخ الذى لا يحيد عنه – شخصيات لها قداستها إذ أن المعنيّ بكل منها – عند الشيخ – هو الشخصية المقابلة في جدول الدلالات – وعلى هذا الأساس فهو يحاسب المؤلف ويسائله عن تجاوزه الحدود، وتخطّيه للحدّ المباح.. ومن ثم فالمؤلف حقيق بالمؤاخذة.. وكيف لا، وقد تحدث عن الذات الإلهية بما لا يصح، وأجرى على ألسنة الرسل من الأقوال ما لايجوز. أى أنه انحرف عن الجادة وأخطأ المنهج السليم..!!

ولا نجد بدا من أن نكرر القول بأننا مع الشيخ في ضرورة – بل فرضية – تقديس الذات الإلهية، وعدم الحديث عنها إلا بكل خشوع وتقديس، فهو سبحانه الخالق الباسط الرازق وكل الخلق قبضته، ولا يجوز لأى إنسان أن يتحدث عنه إلا بما هو أهل له من إجلال وتقديس..

وكذلك فإننا نكرر الإشـارة إلى الدور الكبير الذى أدّاه رسل الله وأنبياؤه إلى البشرية من هداية للحقّ وتبصير البشـر بسواء السبيل ومن ثم فالحديث عنهم هو حديث عن أشخاص موحى إليهم من ربِّهم، وهم إنما يبلّغون رسالته فلا ينبغى لبشر أن يتحدث عنهم إلا بما يتفق مع مالهم من جلال وإكبار.

ونحـن إذ نؤمن بذلـك عن صدق وإيمان، فليس ثمة ما يمنعنا من القول بأن ما ورد فى الروايـة من أقوال وحـوارات وأحداث، لم يخرج عن ذلك من قريب أو من بعيد، فالمؤلف لم يتحدث فى روايته إلا عن بشـر من البشـر، ولم يرو إلا أحداثا قد وقعت – أو تخيل وقوعها – فى دنيا البشر.. وليس للشيخ أن يفرض علينا – أو على المؤلف – حتمية الأخذ بجدول دلالاته التى أوردها عن خمسـين شـخصية وحدث مما وردت فى الرواية وأعطاها اسما مقابلا يحاول أن يفرضه علينا.. وهو فى هذه المحاولة فاقد السـند، منعدم الحجة، ونكتفـى بهذا القدر فى المرحلة الراهنة حيث نرجىء تفسـيرا لأحداث والتعريف بحقيقة الرواية إلى المباحث التالية.. وإلى الفصل الأخير الذى نورد فيه فصل الختام.

* * *

٦- الردّ التفصيلى على الرواية:

وفى الفصول التالية يتحدث الشـيخ طويلا – عن الذات الإلهية – ويتسـاءل: كيف يجيز هذا المؤلف أن يتحدث عنها بهذه البساطة.. ثم يورد ذكرا تفصيليا لأنبياء الله ورسله ومـا لاقـى كل منهم من عنت قومـه، وما أفلح فى أدائه من رسـالة.. متعجبا كيف ينكر «نجيب محفوظ» «القدرة الإلهية» وكيف يتحدث عن الذات الإلهية حديثه المسـموم منكرا لما لتلك الذات من قداسـة، لأنها هى ذات الكون ومصدر الوجود.. وقد بعث الإله القادر برسـله لتهـدى الناس إلى الخير، فكيـف يتجرّأ مثل هذا الكاتب فيلقـى بحديثه متناولا الذات الإلهية بالنقد مجريا عليها ما يجريه على البشـر من أحكام؟ وكيف يتجرأ فيهبط بمقام الرسـل والأنبياء إلى الدرك الذى يجعلهم يتصرفون بما نسبه إليهم من تصرفات، بل ويرتكبون العديد من الانحرافات.؟ ألم يقرأ القرآن؟ ألم يقرأ سـورة النحل بالذات ويلمّ بما تدل عليه من معجزات وما تحويه من أدلة وبراهين على وجود الله وقدرته؟

ويسترسل الشيخ فى بيان قدرة المولى عز وجل، ويطيل فى الحديث عن الرسل ومعجزاتهم ورسلهم. ثم يعجب ويتعجب من مؤلف يأتى آخر الزمان ليسخر من العقيدة، ويتناول المقدسات بما لا يرضى مؤمنا صادق الإيمان؟

• فلا حول ولا قوة الا بالله..

بل ويربط بين هذا المؤلف وبين من يحيكون المؤمرات ضد الإسلام ومن يتنكرون لصحيح القرآن، ثم يقول قولا غير صحيح وهو أن منح «نجيب محفوظ» تلك الجائزة العالمية لم يكن إلا لمشاركته فى تلك المؤامرة ولأنه بروايته قد نال من الإسلام.. بل إن كتابته لتلك الرواية كانت هى المبرر الوحيد لمنحه تلك الجائزة.. هذا وقد نشرت الصحف – ونقلنا عنها – نص بيان لجنة الجائزة، وقد أشارت إلى تلك الرواية كما أشارت إلى غيرها من إبداعات الرجل، بما يقطع بأن الأمر يخرج عن نطاق المؤامرة والتآمر.. وحاشا «للنجيب محفوظ» أن يشارك فى مؤامرة تنال من عقيدته الصحيحة!

وما أحسب أننا فى حاجة إلى أن نؤكد أمرين:

أولهما: أن كل ما ذكره الشيخ عن قداسة الذات الإلهية وعن ارتفاع منزلة رسل الله وأنبيائه هو قول حق لا ننكره ولاينكره إنسان صادق العقيدة، سوىّ التفكير، بل إن ما قاله الشيخ مما ينتهى إليه الفكر السليم، والنظرة الصادقة.. وهى أمور يسلم بها المؤلف تمام التسليم.

ثانيهما: أن الرواية لم تمس شيئا من ذلك كله، ولم تتعرض للذات الإلهية أو للأنبياء بما يسىء أو بما ينال مما يلزم لهم من تقديس وإجلال.. وأنه لا سبيل إلى مثل هذا القول الفاسد الذى قال به الشيخ إلا بالتسليم بسلامة «جدول الدلالات».. وهو قول غير سليم لأنه يقوم على تفسير غير صحيح وتأويل غيرصادق. وكلا التفسير والتأويل لا سند له من واقع أو منطق.. اللهم إلا إذا أخذنا بما أخذ به الشيخ من أحادية النظرة، وأن ما يقوله الشيخ هو الحقّ الذى لايقبل نقاشا أو جدلا، لأنه صادر عمن لا يخطىء التقدير، لأنه الملهم الصادق الأمين.!! وما نعتقد أن فضيلة الشيخ – رحمه الله – كان بهذه الأوصاف التى لم تتوافر إلا للأنبياء والرسل.. ونسأل الله له الغفران بما أساء إلى «نجيب محفوظ»، كما نسأل له المثوبة على ما عرض من حديث ممتع وشامل عن الذات الإلهية وعن رسل الله وأنبيائة.. والله ولى التوفيق.

٧ - وبعد:

- فهل أوفينا القول حقه؟
- وهل أصبنا فيما أبدينا من أحكام وما انتهينا إليه من آراء؟

فى الواقع هناك صفحات مضيئة كتبها الدكتور «جابر عصفور» فى تحليل هذا الكتاب ضمن عرضه للحديث عن رواية «أولاد حارتنا» وما نحب أن نترك هذه الصفحات دون عرض واف..

ولكننا نؤثر أن نرجىء ذلك إلى المبحث الذى نتناول فيه مؤلف ذلك الناقد المبدع فيما سوف نورد من مباحث هذا الفصل.. وسوف نشير فيه إلى ما أورده بشأن شيخنا الكريم..!

* * *

المبحث الثانى

عن
جوانيات الرموز المستعارة
لكبار «أولاد حارتنا»
أو نقض التاريخ الدينى النبوى

للدكتور/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعنى

تمهيد:

والكتاب نشرته مكتبة وهبه – الطبعة الأولى عام ١٩٩٦م – وعلى ما يبدو من الدرجة العلمية التى تسبق اسم الكاتب، ومن أسلوبه فى البحث، وطريقته فى الدراسة أنه أحد أساتذة جامعة الأزهر – وليس من شك فى أنه بذل فى كتابه جهدا كبيرا، وقد أبدى رأيه وقدّم دراسته على نحو جيِّد. فقد التزم الموضوع الذى يتناوله، ولم يتركه إلى سواه وكان عف اللسان، مستقيم العبارة، لا ينساق مع العبارات والتعبيرات إلى غير مدى، بل يلتزم الحدود المعقولة.

ومع ذلك فنحن لا نتفق معه فيما انتهى إليه، بل ونخالفه على طول الخط، ونرى أن نقطة البداية عنده هى التى جعلت مساره ينحرف عن جادّة الصواب، فهو لم يقرأ كتاب «نجيب محفوظ» على أنه رواية أدبية تقوم بصفة أساسية على الخيال الخصب الذى يبتدع الشخصيات، ويجرى على ألسنتها ما يتراءى لإبداعه من أقوال وحوارات، وينسب إليها من الأفعال والتصرفات ما يتفق من منهاجه فى سير الأحداث وتطور الأمور وصولا إلى نتائج محددة.. فهو المبدع لروايته، المؤلف لأحداثها، الكاتب لحواراتها، وهى عمل من وحى فكره، وثمرة خياله. صحيح أنه قد يتأثر فيما يرسم بأحداث من الواقع، أو بوقائع من التاريخ، ولكن الأمر لا يعدو مجرد التأثر، وليس النقل الحرفى إلى عالم الواقع لما جرى فى عالم الحقيقة أو لما يجرى أو جرى من أحداث التاريخ.

وأخرى يهمنا أن نشـــير إليها، وهى أن ما يريد المؤلف أن يعبِّر عنه من أفكار لا يمكن أن يؤخذ على نحو مباشـــر من ســـير الأحداث فى الرواية إذ لابد من محاولة من القارىء لاســـتبطان الأحداث، ومحاولة النفاذ ليدرك ما يريد المؤلف أن يعبر عنه أو يوحى به إلى قرائـــه ومريديـــه.. ولا يتصور أن يتفق القراء عند معنى واحد أو مفهوم محدد – فبقدر ثراء العمـــل، وارتفـــاع منزلة المؤلف الفنيـــة والإبداعية تختلف المفاهيم وتتنـــوع النتائج وتتعدد التفســـيرات.. ولكل اتجاه ســـنده مما تضمنتـــه الرواية من أحداث، ومما ورد علىألســـنة أشخاصها من أقوال وحوارات.

ولا نود أن نسبق الأمور، فما ذكرناه هو مبادىء عامة، ومفاهيم أولية بالنسبة لقراءة الأعمال الإبداعية وبخاصة القصص والروايات والإبداعات الشعرية سواء كانت قصائد أو مسرحيات.

والآن فلنمض إلى هذا السفر، نطالع ما فيه، ونمضى مع كاتبه فى صفحاته التى بلغت مائتـــين وســـتا وثلاثين صفحة.. من القطع الكبير.. تدور كلهـــا حول رواية «أولاد حارتنا» ولا يفوتنا أن نشـــير إلى ما يعلو صفحة الغلاف من أن هذا الكتاب هو التاســـع من سلســـلة «لابد.. من دين الله.. لدنيا الناس».

* * *

ســـوف نعـــبِّر عن صاحـــب الكتاب – الدكتـــور «المطعنى» – بالكاتـــب. ونعبر عن المؤلف – «نجيب محفوظ» – بالمؤلف. وعن «أولاد حارتنا» بالرواية.. وذلك تحاشـــيا للاختلاط، وللتكرار.

* * *

١ ـ انطلاق الكاتب من أفكار مسبقة:

يذكـــر الكاتب أنه قرأ الرواية للمرة الأولى علـــى عجل، ثم أعاد قراءتها مرتين أخريين ويضيف قوله: «تكوَّنت لدىَّ فكرة واضحة من خلال قراءة الرواية من المرة الأولى.. وتأكدت تلك الفكرة فى صورة أوضح وأثبت من القراءات التالية.. وازددت يقينا بصدق الفكرة التى تكونت لدى من أول مرة، وظفرت بالأدلة القاطعة على صدقها من خلال ما جاء فى الرواية من كلام المؤلف نفسه..

ويورد بعد ذلك قوله:

كتب المؤلف الرواية عن موضوع احتفظ به في طوايا نفسـه، ثم اختار الأسلوب الرمزى وسيلة للتعبير عنه، فلا تكاد ترى له لفظا استعمل في معناه الوضعى أو معناه المجازى، بل انتقى ألفاظه بذكاء خارق في شكل رموز يصعب على القارىء العام إدراك ما وراءها من معان ومقاصد، فكل معنى من معانيه التي لا يريد الإفصاح عنها تجده مغلفا في غلاف رمزى شفيف أو كثيف! ثم هو كثيرا ما يلجأ إلى الهروب أو الإحجام كلما أحسّ بأن المعنى الذى يواريه خلف الرموز يكاد أن يظهر؛ فإذا أحس بذلك سرعان ما ينقضّ إلى الوراء للتمويه والإفلات.. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه: الفرّ بعد الكرّ، أو الإحجام بعد الإقدام. ولذلك فإن فهم المعانى الخبيئة في الرواية، وكذلك المقصود العام منها يتوقف – أى الفهم – على العناصر الثلاثة الآتية:

أولا: العلم بمادة الموضوع الذى صاغ روايتة حوله.

ثانيا: فكّ الرموز التى شاعت فى الرواية ومعرفة دلالاتها خارج الرواية.

ثالثا: التمكن من مواضع الكرّ والفرّ، أو الإحجام بعد الإقدام للتمويه على القارىء وإثارة موجات من الضباب المعتم أمام ناظريه.

- ولذلك فإن فهم «أولاد حارتنا» يصعب على القارئ العادى.
- ويخطو الكاتب بعد ذلك خطوات في سبيل عرض فكرته فيذكر:
- فهمنا أمرين بينهما تناسق الأسباب والمسببات..

الأمر الأول: «فهمنا «جوانيات» الأستاذ «نجيب محفوظ» حين خط بمشاعره ووجدانياته في هذه الرواية قبل أن يخطـّها سطورا على الورق بقلمه».

الأمـر الثانى: «فهمنا رأى أو مذهب.. «نجيب».. فـى الموضوع الذى تحدث عنه من وراء ستار فى الروايـة، ثم مذهبه فى البديل عنه – عن الموضـوع – ومصير كل منهما، وهذان الأمران بينهما تناسـق الأسباب والمسببات. فالأمر الأول – الجوانيات – كان سببا فى الأمر الثانى لا محالة».

ولا يتركنا الكاتب لتساؤلاتنا عمّا يقصد بالجوانيات.. بل يزيد الأمر بما يورده من قول تحت ذات العنوان «الجوانيات» إذ يذكر:

كان الأستاذ «نجيب» حين كتب روايته ينتابه قلق فكرى فلسفي حول نظرية المعرفة. وهي إحدى القضايا الحيوية التى طرقها الفكر الفلسفى منذ أقدم العصور، ومؤلف الرواية واحد من رجال الفلسفة، ومن المعروف أن نظرية المعرفة هذه تتعلق بما وراء الطبيعة أو «الميتافيزيقيا» وبعبارة أوضح: الأمور الغيبية، كحقائق الإيمان بالله، ونشأة الكون والإنسان، وهل للكون خالق مُدبِّر أم خالق غير مُدبِّر، أم ليس له خالق على الإطلاق؟ وقد نتج عن هذا الاختلاف حول مصدر المعرفة ثلاثة مذاهب:

الأول: أن مصدر المعرفة هو الدين، وطريقه الوحي وكلام الرسل.

الثاني: أن مصدر المعرفة هو العقل، وطريقه التأمل المجرد.

الثالث: أن مصدر المعرفة هو الحواس الخمس، ومجالها المادة المحسوسة، وطريقها التجارب والملاحظة والاستنتاج. أو بعبارة أوجز: مصدر المعرفة هو العلم الحديث

ويمضي الكاتب قائلا:

«ومع إزهار حركة العلوم الحديثة، وما نتج عنها من اكتشافات ومبتكرات مذهلة، أحدثت في الفكر انقلابا، وفي الحياة تطورا، مع هذا الجديد كله أكبر الناس العلم الحديث، وفتنوا به. وبخاصة شرائح معينة من المثقفين، ومنهم الأستاذ «محفوظ»، وعلقوا عليه آمالا لا نهاية لها، وبدا خط الدين عند هؤلاء في العد التنازلي، فزهدوا فيه ونزعوا الثقة منه، وأداروا له ظهورهم عن سوء فهم. واختلافهم حول مصدر المعرفة ترتب عليه أمر آخر شديد الخطورة وهو ربط الالتزام والتوجيه في الحياة بما هو مصدر للمعرفة.. فمن ذهب إلى أن الدين هو مصدر المعرفة جعل له السيادة على شئون الحياة كبيرها وصغيرها.. ومن ذهب إلى أن العقل هو مصدر المعرفة رفعه إلى درجة الألوهية.. ومن ذهب إلى أن العلم الحسّي الوصفي هو مصدر المعرفة، أسلم إليه الريادة والقيادة في شئون الحياة.. هذه الأمور يعرفها «نجيب محفوظ» حق المعرفة قبل أن يكتب روايته، وحين كتبها، وبعد أن فرغ من كتابتها. وكل كلمة في الرواية تدل على أن كاتبنا الكبير كان حين كتب روايته يؤمن إيمانا قويا بالاتجاه إلى المذهب الثالث. وهو الولاء الكامل للعلم الحديث، والثقة المفرطة فيه، مضافا إليه شعبة البحث العلمي التجريبي زاهدا كل الزهد فيما سواه، وبخاصة المعارف الدينية والتوجيه المنبثق عنها. هذه هي «جوانيات» الأستاذ «نجيب محفوظ» حين كتب روايته منذ أكثر من ثلاثين عاما...».

٢ـ من أين للكاتب أن يصدر تلك الأحكام القاطعة:

• هذه هى الأحكام القاطعة التى أصدرها الكاتب:

فمن أين له أن يجزم بما جزم به من أن الأستاذ «نجيب محفوظ» مفتون بالعلم الحديث وأنه يعلّق عليه آمالا لا نهاية لها، وأن حظ الدين عنده بدأ فى العدّ التنازلى..؟

ومن أين له أنه يؤمن بأن مصدر المعرفة هو الحواس الخمس، وأنه قد أسلم للعلم الحسّى الوصفى الريادة والقيادة.. وأنه لم يسلم أى قيادة للدين؟

ومن أين للكاتب أن يؤمن بأن المؤلف عندما ألفّ روايته إنما كان يؤمن إيمانا قويا بالاتجاه – أو المذهب الثالث – أى الولاء الكامل للعلم الحديث والثقة المفرطة فيه؟

من أين له ذلك كله؟

لقد قرأ الكاتب الرواية وهو مؤمن بهذه الأحكام القاطعة التى أصدرها سلفا لا نقول بمجرد أن قرأ الرواية القراءة المتعجلة، بل نقول أنه مؤمن بها حتى قبل أن يقرأ تلك الرواية.. ودليلنا على ذلك هى قول الكاتب نفسه (ص ٣ من كتابه):

وكاتب هذه الدراسة، كان ممن كتب عنها (عن الرواية) ناقدا لا معجبا، حين نشرت له جريدة النور الإسلامية مقالا ضافيا على صفحة كاملة، وكنت حين كتبت ذلك المقال لم أقرأها قراءة مباشرة، وكتبت ما كتبت اعتمادا على قراءات عنها لا فيها، وكان من قرأت لهم عنها من أثق فيهم وفى نزاهتهم وموضوعيتهم، وصدقهم وإخلاصهم لها

فانظر.. الكاتب يكتب مقالا عن الرواية.. وهو مقال ضاف على صفحة كاملة من الجريدة، ثم يقرر أنه لم يكن قد قرأ الرواية لا كاملة ولا ناقصة، وإنما قرأ عنها ومع ذلك يجيز لنفسه أن يكتب عنها مقالا بهذا الحجم مقررا أنه كتبه ناقدا لا معجبا..!

وما أعتقد أننا قد جاوزنا الحق أو الصواب حين ذكرنا أن الكاتب انطلق من أحكام مسبقة تكونت لديه، فراح يكتب وينتقد ويحلّل ونقطة البداية عنده أن المؤلف لا يعتقد أن مصدر المعرفة هو الدين، لأنه كان لديه فى العدّ التنازلى.. وإنما مصدر المعرفة لديه هو العلم الحديث وحده دون سواه.. من أين للكاتب أن يؤكد ذلك؟ لا ندرى.. ولا هو نفسه يدرى، إنما هى مقولات ينساق وراءها، ويرددها فى تسليم غير مبرر، ولا أساس له..

ثـم هـذه المقدمة الطويلـة التى قدم بها لحديثـه والتى خصّصها للغـة الرواية التى لا يسـتطيع القـارىء العادى أن يفهمها لأن ألفاظها مختارة بدقـة وعناية، ولأنه كتبها عن موضوع احتفظ به لنفسه. وأن القارىء لا يكاد يقرأ لفظا استعمل فى معناه الوضعى أو معناه المجازى.. بل إنه انتقى ألفاظه فى شكل رموز يصعب على القارىء إدراك ما وراءها.

يـالله! فقـد احترنا مـع الكاتب.. إذ كيـف يختار المؤلـف ألفاظه بدقـة وعناية – وهذا صحيح – ثم تأتى بعد ذلك عسـيرة الفهم على القارىء العادى.. إذ أنها فى شـكل رموز يصعب على ذلك القارىء إدراك ما وراءها؟ أودّ أن أؤكد للكاتب أن الرواية وإن صيغت بألفاظ تم اختيارها بدقة وعناية إلا أن فهمها ميسور، وإدراك معناها المباشر أمر يسهل وفى بساطة على القارىء العادى، وإلا ما طالعها آلاف من القراء دون أن يحتاج أى منهم لا إلى قاموس أو معجم، فاللفظ الدقيق أيسر فى بيان المقصود منه ومن معناه المباشر..

أما ما يقرره الكاتب من أن المؤلف كتب روايته «عن موضوع احتفظ به فى طوايا نفسه» فذلك قول لا معنى له، وليس هو بالأمر الذى انفرد به مؤلف تلك الرواية، لأن كل مؤلف يكتـب عن «موضوع يحتفظ به فى طوايا نفسـه» ثم يختار للتعبـير عنه وتوصيله للقراء ما ينتقـى مـن عبارات وتعبيرات، ويصوغه فيما يواتيه إبداعـه من حوادث وحوارات، وبما تسعفه قريحته من حوارات، ثم إن المؤلف لا يأخذ بيد القارىء ليشرح له مراده، أو ليبين له مقاصده وأهدافه بل يترك له الحرية كاملة فى أن يفهم من العمل ما يشـاء وأن يفسـر الأحـداث على النحو الذى تكشـف عنه بديهته.. ومن الأمور المسـلم بها أن ذلك الفهم تختلف مشاربه، ونادرا ما تتفق عند معنى محدد لا تعدوه..

ونمضـى – من بعـد – مع الكاتب فيما يوضحه – أو يعرضـه – من بيان لما يقدره للرواية من أهداف..

....

* * *

٣ـ الهدف من وضع أولاد حارتنا فى رأى وتقدير الكاتب:

وإذا كانـت الأيديولوجية التى افترض الكاتب قيامها وتوافرها لدى المؤلف هى المنكرة للديـن، وكان ذلـك القول من الكاتب هو محض افتراض مسـبق تكوّن لديه دون أن يكون هناك مايؤيده بالنسـبة للمؤلف من سلوك أو كتابات أو حوارات.. بل إن الرواية نفسها لا

تدل على شيء من ذلك بالمرة حتى لوسلمنا بما ذهب إليه الكاتب من تفسير للرموز، فحتى مــع الأخذ بهذا التفســير نجد للدين دورا كبيرا، وريــادة عظمى فيما لو قرئت الرواية بنّية صافية، وفهم سليم، برىء من الأحكام المسبقة التى لا سند لها، ولا دليل عليها.

وفــى ضوء ما قدمــه الكاتب من تحديد لأيديولجية المؤلــف.. كان منطقيا ألاّ يرى فى الرواية إلا أسوأ الأهداف، وأحطّ الغايات، على النحو الذى فصله الكاتب فى أقواله التى أوردها على النحو التالى.

«عرفنا مما سبق الأيديولوجية التى كانت تسيطر على المؤلف حين وضع الرواية الذائعة الصيــت.. ومعرفة تلك الأيديولوجية مهمة جدا فــى معرفة الهدف الذى وضع روايته من أجلــه.. هــذا الهدف – باختصار شــديد – هو تفشــيل دور الدين بوجــه عام فى حلول مشــكلات الحياة، وتحقيق الســعادة للناس فيها. وبعد وقوع ذلك التفشيل، من خلال ما ورد فى الرواية، يأذن المؤلف للعلم الحديث أن يطلّ برأسه إلى الوجود، ثم ينمو شيئا فشيئا حتــى يصبح عملاقا لا يقاوم وقادرا لا يعجز، ثــم يتمكن من القضاء على الدين متمثلا فى قتل أو موت «الجبلاوى»، ويهز مشاعر أولاد الحارة، بمخترعاته، المذهلة، فينحاز الناس إلى «عرفــة» و«حنش»، اللذين يمثلان العلم الحديث، ويفضلونه على الدين عيانا جهارا، وينخلعون عن الإطار الدينى النبوى فى وضح النهار..».

• ويخلص الكاتب من ذلك إلى قوله:

إن الأيديولوجية التى كانت تسيطر على المؤلف حين كتب الرواية، ثم هدفه من وضع الرواية، هو تفشيل الدين وإحلال العلم الحديث محله..

٤ـ وهذا الهدف الذى حدده الكاتب غير صحيح وغير قائم على الإطلاق:

ذلك أن الرواية:- وإن كان فصلها الأخير عن «العلم»، فليس فى ذلك دلالة على فشــل ما سبق الفصل الأخير من فصول قامت على الإيمان بقوى روحية، وركائز معنوية، نجحت جميعها فى الارتقاء بمجتمع الحارة، وتحقيق الرخاء لأهلها، بل شهد عهد «قاسم» مساواة بين جميع أحياء الحارة، نجاحا لم يسبقه نجاح مثله. فلو سلـّمنا مع القائلين بأن «قاسم» ومن ســبقه هم رموز للرســالات الكبرى، فإن عهود أصحاب تلك الرســالات كانت عهود خــير.. وإذا كان «عرفة» قد جاء ليمثـل العلم، فليس مؤدّى ذلك تفشــيل الدين فالعلم هو أحد ركائز الدين، ولم يدع للعلم ولم يحض عليه دين كالإســلام الذى رفع من شأن العلم،

لأنه دين علم، وليس هناك صراع بين العلم والدين على مدار فصول الرواية وحتى فى فصل «عرفة» الذى انتصر للعلم، لم يذكر الدين بسوء، وإن كان «عرفة» قد انفرد بالميدان ونال الحظوة، فإنه قد انتهى إلى أسوأ نهاية، ولم يتحقق له الانتصار الكامل، بل لقد جوزى أسوأ جزاء، ولقى أسوأ مصير..

ولا يمكن أن يقول أحد إنه على عهد «عرفة» قد مات «الجبلاوى»، وهو أمر لا يتفق مع الأديان، ويعللون ذلك بقولهم إن الإله خالد باق لا يرد عليه موت أو فناء.. والعاقل من يكون جوابه.. وهل كان «الجبلاوى» – فى الرواية – إلا بشرا من البشر، إن كل ما قام به وما يشهد به تاريخه – فى الرواية – لا يخرج عن أعمال البشر.. ومن هنا يأتى القول بأن الرواية عملت على تفشيل الدين قولا غير صحيح وغير مطابق لأحداث الرواية نفسها اللهم إلا إذا كان تفسير الشيخين: «كشك والمطعنى» هو القول الصحيح الملزم للجميع – وهو الأمر الذى لا نسلم به! وحاشى لله أن يكون ذلك..!

إن مقولة الشيخ «المطعنى» التى تحدد هدف الرواية، فى تفشيل الدين هى مقولة لا تجد لها سندا لا من منطق الرواية، ولا من فهم أحداثها فهما صحيحا، ولا دليل يساند هذه المقولة إلا من المقولة نفسها التى لا تقوم على منطق، وإنما تقوم على أحكام مسبقة أطلقها صاحبها حتى قبل أن يقرأ الرواية ويتعرف على أحداثها، فكان من المستحيل عليه – وبمنطقه – أن يعدل عن رأيه الذى سبق له إبداؤه ونشره على صفحة كاملة.. دون أن يكون قد قرأ الرواية مباشرة..!

..والذى نخلص منه أنه سواء بالنسبة للمقدمات التى قدّم بها الكاتب لمقالته أو للنتيجة التى رتبّها عليها وأكد صحتها، فإنها جميعها لا تتفق مع الحقيقة ولا تستقيم مع الواقع، وليس من دليل يساندها، ولكنها – كلها – مقولات تقوم على الادعاء، وتستند إلى الأوهام والضلالات، ونستغفر الله من أن ننسب إلى شخص مبدع ومخلص هذه الادعاءات، فإن ذلك ظلم لا يرضاه المولى أحكم الحاكمين..!!

* * *

٥ - جهد الكاتب فى حل الرموز:

وقد أجهد الكاتب نفسـه فيما سماه «معانى» الرمـوز.. حيث ذكر فى صدر حديثه أن المؤلف صدّر روايته بمقدمة أسماها «افتتاحية» وصاغها فى عبارات شـديدة الاختزال وفى الجدول التالى رصد لأهم ماورد فيها من رموز مع الإشـارة إلى معانيها حسـب دلالات المقام عليها.. ثم راح بعد ذلك يورد ما سماه «التدليل» على معانى تلك الرموز..

وسـوف نتابعه فى إيراد أهم تلك الرموز، وما أورده من أدلة للتدليل على المعانى التى اختارهـا لتلك الرموز... والعجيب أن الكاتب هنا خالف السـنة التى جرى عليها جميع علماء الدين الذين تخصصوا فى الشرح والتفسير إذ جرت العادة على أن يختموا أحاديثهم بقولهم «والله أعلم» إلا أن كاتبنا خالف هذه السنة، وأورد تدليله ودلالاته على أنها القول الفصـل، الـذى لا يأتيه باطل من أية ناحية من نواحيه، مع أن الواقع أن ما قاله لا يعدو أن يكون رأيا شخصيا، أو اجتهادا ذاتيا، أو حكما أصدره وكان ذلك – وباعترافه – قبل أن يقرأ «ملف القضية».

وسوف نورد فيما يلى ما ذكره الكاتب من:

- حل لأهم الرموز..
- ما أورده من أدلة بالنسبة لأهم ثلاثة رموز منها.
- وسوف نورد ما أورده بالنسبة لكل رمز على حدة.
- ثم نعقب على ذلك بالقول الذى نراه مناسبا.

٦ - ما أورده الكاتب من حديث عن «افتتاحية الرواية»:

- يورد الكاتب ما رآه من رموز تضمنتها «الافتتاحية» وما توصّل إليه – بعلمه وجهده – من بيان لما يقابلها من معان.. فقال – لافض فوه –:
- الحارة: هى رمز للحياة الدنيا طولا وعرضا، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، عمقا وارتفاعا.
- وأولاد الحارة: هم الناس جميعا، منذ خُلق «آدم» وحواء، مضافا إليهم الملائكة والجن.
- و«الجبلاوى»: هو رمز الألوهية أو «الله» سبحانه عما يقولون، واعتزال «الجبلاوى» رمز به المؤلف إلى توقف الرسالات السماوية بعد الإسلام (هذا ما أورده الكاتب أوردناه بنصه مستغفرين الله).

أمــا البيــت الكبير: فإن ســياق الكلام – هنــا – يدل على أن المؤلــف أراد به «عرش الرحمن» وما فيه من أسرار قدسية، وغيبيات لا يعلمها إلا الله. وفي مواضع أخرى رمز به المؤلف إلى «الجنة» أو «رحمة الله».

والوقف: هو منهج الله في الوجود، المتمثل في الدين الذى ارتضاه بما فيه من عقائد، وعبارات، ومعاملات وأخلاق، وأوامر ونواه تحكم حركة الحياة.

والشــروط العشرة هى الوصايا العشر الجامعة لأســس الفضائل الواردة فى سورة الأنعام الآيات: ١٥١ – ١٥٣.

وإدارة الوقف هى الاســتخلاف في الأرض، لإدارة شــئون الحياة – بعد الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، على هدى الله وما شرعه لعبارة من شرائع.

أما «أدهم وجبل ورفاعة وقاســم»، فهم «آدم» و«موســى» و«عيســى» و«محمد» عليهم صلوات الله وسلامه.

• والحكايات هى التاريخ أو القصص الدينى النبوى.

• والمقاهي: هى أماكن تجمعات الناس، أو مراكز العلم والتعليم والإعلام.

• وشــعراء المقاهي: هم رواة التاريخ الدينى النبوى، والقصاصون والدعاة إلى الدين، أو هم حملة المعرفة الدينية بالذات، الذين ينقلونها من جيل إلى جيل، ويدخل فى ذلك كل وسائل التثقيف الدينى.

• والفتوات: هم المتسلطون، سواء كانوا حكاما أو سدنة دين.

• والنبابيت: هى آلات القمع، وسياط الاضطهاد والتعذيب.

* * *

وهكذا خلص إلى أن كل علم – أو رمز – إنما يقصد به المؤلف معنى مخالفا، وهو يرمز إلى دلالــة أخــرى، دون ما هو ظاهر وبيِّن من مطالعة النــص.. ولكن لم؟ وكيف؟ ومن أين خلص الكاتب إلى ذلك كله بالنســبة لكبار الروايــة.؟ وهو – فى الافتتاحية – يكتفى من الرمــوز التى أوردها بثلاثة هى: الحــارة – أولاد الحارة – «الجبلاوى». حيث يذكر أنه يكتفى هنا بالتدليل على ثلاثة فيقدم كلا منها متبعا إياه بالأدلة التى خلص إليها واستدل

منها على صحة تفسـيره. لكنه لم يقل لنا: لماذا أجهد نفسـه فى افتراض وجود رموز وفى محاولة فك تلك الرموز؟ وهل كان ذلك كله ليثبت القضية التى افترضها سلفا – حتى قبل أن يقرأ الرواية – وهى أن غاية الكاتب من روايته هى إثبات «فشل الدين».. نحن نستغفر الله للكاتب من ذلك القول، كما نستغفره لأنفسنا من كل هفوة لسان؛ أو زلة قلم، لإيماننا بقوله ﷺ: (كل ابن «آدم» خطاء، وخير الخطائين التوابون).

والآن نستعرض سويا ما أقام عليه الكاتب براهينه بالنسبة للرموز الثلاثة التى اختارها من بين سائر ما تضمنته الافتتاحية من أعلام وأسماء سماها الكاتب «رموزا».

٧ - الحارة.. هى الدنيا:

وذلك فى تفسير كاتبنا «المطعنى» وهو يستدل بالتدليل على ذلك بأدلة ثلاثة نعرض لها، كما ذكرها:

الدليل الأول الامتداد الزمانى:

وذلك – وحسبما ذكر الكاتب – أننا قد «عرفنا عند فك الرموز أن «أدهم وجبل ورفاعة قاسما» هم على الترتيب: «آدم وموسى وعيسى ومحمدا» – صلوات الله عليهم – وستأتى الأدلـة القاطعة على صحة هذا الفهم، وبين «آدم» وخاتم الرسـل دهور طويلة لا يحصيها عـددا إلا الله عـلام الغيوب، وهؤلاء لم يعيشـوا فى حارة آدم، ولا متى هبط من الجنة إلى الأرض، فالحارة فى الرواية هى الدنيا بأسرها...».

وقد نسـى الكاتب أننا بصدد عمل إبداعى، رواية فنيـة، إبداع روائى، مصدره خيال المؤلف، والذى لا يحاسب على مدى مطابقة ما يرويه لحقائق التاريخ، وإنما يكون تقييمه على أسـاس حبكة الرواية، وسموّ معناها، وروعة ما تصوره من أحداث، وإن صادف أنها يمكـن أن يفهـم منها أنها تتحدّث عن التاريخ المعروف، فذلك محض تشـابه أو هو ليس الهدف المقصود والأساسى لدى المؤلف.

الدليل الثانى الامتداد المكانى:

ويذكر الكاتب أن «الرسل الأربعة الذين رمز إليهم مؤلف الرواية بـ: «أدهم»، و«جبل»، و«رفاعة»، و«قاسـم» – عاشـوا فى أماكن مختلفة من الأرض – منهم من عاش فى مصر،

وغيرها «كموســـى» و«عيسى»، ومنهم من لم تطأ قدماه أرض مصر، وهما «آدم» أبو البشر، و«محمد» خاتم الرســـل، وهذا - بدوره - ينزع عن الحارة معناها الشـــديد الضيق ويضفى عليها معنى واسع المدى، مترامى الأطراف، ممتد الآفاق.

وهو دليل يلحق بسابقه إذ يقوم على افتراض أن المؤلف إنما يعنى ما حدَّده له الكاتب من أسماء أو من معان لما استعمل من أسماء، وخلص من ذلك إلى أن المؤلف وقد عنى فى الحقيقة والواقـــع الأسمـــاء التـــى حددها له الكاتب فنتيجة ذلـــك أنه يعنى بالحارة الدنيا بأســـرها.. وتجاهـــل الكاتب أو تناســـى أنه هـــو الذى قدَّم هذا التحديد لما سمـــاه «رموزا» ثم أنه افترض صحته، ورتب على ذلك ما رتب من نتائج تقوم على أساس واه من أوهام الكاتب.

الدليل الثالث الامتداد الموضوعى:

وفى هذا يذكر الكاتب: أن المؤلف قد «أشـــار.. فى افتتاحيته إلى طبيعة الموضوع الذى تفاعلـــت وتضاربـــت أصداؤه فى الحارة، والصراع المرير بـــين أولادها، وقيام البيت الكبير شامخا فيها، وإحاطة الخلاء به، وترامى الصحراء حوله، والحكايات التى تُحكى فيها، واختلاف الرواة فى عرضها، إما حســـب الأهواء، وإما حســـب الانتماء الطائفى، وتعاقب الأجيـــال بين ربوعهـــا، والحركات الصاخبة التى تموج فيهـــا، إنه موضوع ضخم ومعقد، لاتتســـع له إلا الدنيا بأسرها، لاحارة تشرق وتختنق بعشرات من الناس يسيرون فيها، أو عربتا كارو تقفان على جانبها».

إن نقطة البداية لدى الكاتب هى التى توجه تفسيراته وتأويلاته.. وتلك النقطة هى أن المؤلف إنما يروى قصة الخلق والخالق وسير الأنبياء من مفهوم معيِّن ولهدف محدد هما أن يثبت فشـــل الأديان، وهو تفســـير لم يقم إلا فى ذهن الكاتب، وقد اســـتوحاه من خياله أو أوهامه وراح يقيم على هذا التفســـير ما هو غير مقبول من براهين.. ولســـنا ندرى لم افترض فى الرواية هذه الحيل؟ ولم وصفها بهذا التحايل، مع أنها رواية فى غاية البساطة تروى قصة الإنسان أينما كان، تحركه غرائزه إلى الشر، فيجد - عند البعض - مشاعر من الخير تبغض إلى صاحبها نوازع السوء.. هكذا كان الإنسان وهكذا سوف يكون على مدى الزمان! فلم نضيِّق الدائرة؟ ونسدّ النوافذ؟ بينما الأمور منذ بدايتها سهلة وميسورة!

* * *

٨ - وأولاد الحارة.. هم الناس جميعا:

الدليل الأول «آدم» أبو البشر:

بـــدأت الرحلة – كما يقــول الكاتب – فى الرواية من قبل أن يهبط «آدم» من الجنة، ثم واصلت ســيرها عبر التاريخ القديم وانتظمت أربعة رســل من ولد «آدم» بعثوا إلى الناس فى أزمنة وأمكنة جد مختلفة. وحين انقطع الوحى بمبعث «محمد ﷺ» بالرسالة الخاتمة، فلما بلغها وقضى نحبه، لم تعد البشــرية فى حاجة إلى رســول جديد لاكتمال الدين كله بالإسلام.. ثم مرت حتى تأليف «الرواية» أكثر من ثلاثة عشر قرنا شهدت الدنيا فى أواخر هــذه القرون مولد العلم الحديث وازدهاره وأنباء غزو الفضــاء والتطوّر التكنولوجى فى كل مكان، أتكون هذه الأحداث الضخمة قد ولدت فى حارة إذ أوقف إنسان عند أحد طرفيها، رآه يقف على الطرف الآخر ؟

أو يكون أولاد هذه الحارة أولهم «آدم» أبو البشــر، ومنهم هابيل وقابيل ثم الرسل، ثم رواد النهضة الحديثة.. ثم..

هذا كلام له خبىء، معناه أننا ليست لنا عقول..

أولاد الحارة إذن فى «أولاد حارتنا» هم الناس جميعا فى أى مكان وأى زمان وجدوا، وليســوا هم أولاد حارة «الجبلاوى»، ولا مصــر ولا قارة أفريقيا أكبر تجمع عمرانى تنتمى إليه مصر، أم حارة «الجبلاوى»؟ أو حارة «نجيب محفوظ»؟

تلك هى الأسئلة التى يختم بها الكاتب دليله الأول، وهو دليل قائم على ضرورة تماثل أحداث الرواية مع أحداث التاريخ، وإلا كان كلام الرواية له خبىء معناه ليست لنا عقول!

ونقول للكاتب أيا ما كان تفسيرك وأيا ما كان رأيك، فعليك ألا تنسى وألا تتناسى أنك بصدد عمل أدبى.. إبداعى.. رواية مبتكرة.. ولست بصدد كتاب تاريخى، أو مؤلف علمى.. إنه عمل يقوم أســاســا على شطحات الخيال، وبالتالى فأى تفسير لا يأخذ – فى اعتباره – تلك الحقيقة يكون تفسيرا فاسدا، ويكون لهذا التفسير خبىء!!

الدليل الثانى مصر أم الدنيا:

يذكر الكاتب أنه قد ورد فى افتتاحية المؤلف عبارة تقول عن «الجبلاوى» أنه هو أصل حارتنــا، وحارتنا أصل مصــر أم الدنيا.. ويعلـق عليها بقوله إن «هــذه العبارة تومىء من

ويصف الكاتب الذين يزعمون بأن «الجبلاوى».. ليس المقصود منه الله، بأنهم واحد من ثلاثه: إما شخص لم يقرأ الرواية.. أو أنه قرأها ولم يفهمها.. أو أنه قرأها وفهمها ثم عاند وكابر وراح يشهد زورا.. وأن الكاتب لذلك، وأمام هذه المكابرة فسوف «يستخرج من كلام المؤلف عشرات الأدلة التى تكشف الزيف».

ويستدل الكاتب على ما يذهب إليه بأدلة عشرة نستعرضها فيما يلى دليلا بعد دليل:

الدليل الأول: لغز من الألغاز

• يشير الكاتب إلى فقرة وردت فى الافتتاحيه يقول فيها المؤلف:

«وجدّنا هذا لغز من الألغاز، عمَّر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور، حتى ضُرب المثل بطول عمره، واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد، فلم يره منذ اعتزاله أحد.. على أى حال يدعى «الجبلاوى»، وباسمه سميت حارتنا، وهو صاحب أوقافها، وكل قائم فوق أرضها، والأحكار المحيطة بها فى الخلاء»

يقول الكاتب فى هذه الفقرة رمزان:

أحدهما: ما أثبتناه في العنوان «لغز من الألغاز» والثاني ما دعاه المؤلف باعتزال الجد الذى هو «الجبلاوى». أما الرمز الأول: «لغز» فهذا دليل على أن «الجبلاوى» فى الرواية رمز الألوهية «الله».

ذلك أن الله «ليس كمثله شئ» ولا تحيط به الفكرة، هو فوق الظنون والأوهام، هو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، وهو الظاهر، وهو الباطن، وهو الغنى القائم بنفسه فوق الزمان وفوق المكان، لأنه كان قبل أن يخلق الزمان والمكان.

وهذه المعانى... وغيرها كثير – هى المرموز لها بأنها «لغز» لأن طبيعة اللغزَ تقتضى التفكير العميق والحيرة والارتباك..!!

وثانيهما: الاعتزال – هذا – كما يذكر الكاتب – رمز ثانٍ وَصَفَ به الكاتب إنه اعتزال منذ عهد بعيد، والذى فهمناه من هذا الرمز أن المؤلف يقصد به انقطاع الوحى: وتوقف الرسالات السماوية، بعد أن جاء الإسلام حاملا الكلمة الأخيرة لله فى توجيه الإنسانية جمعاء إلى ما فيه سعادتها فى الدنيا والآخرة..

واستدل على ما ذهب إليه مما ورد فى الرواية بعد ذلك من قول «فلم يره أحد منذ اعتزاله» فقد رمز بذلك لعدم سماع كلام جديد له بعد توقف الرسالات، مشبّها السماع بالرؤية فى سياق نفى كل منهما..

والواقــع أن ما ورد فى حديث المؤلــف من أن «الجبلاوى» لغز من الألغاز، وأنه اعتزل منذ فترة طويلة لايمكن أن يفهم منه بذاته أن المؤلف إنما يعنى بذلك الذات الإلهية..

والذى نقوله أنه ليس فى هذين الوصفين ما يوحى بأن المؤلف يريد بهذين الوصفين ما أراده له الكاتب.. ذلك أننا إذا وصفنا شــخصا ما بأنه لغز، فليس معنى هذا بأننا وصفناه بالألوهيــة، وإلا لأصبح من المحرم اســتعمال لفظة لغز. ثم من قــال بأن «الاعتزال» إنما يعنى انقطاع الوحى وهو ما حدث منذ تمام إبلاغ «محمد عليه الصلاة والســلام» رســالته – خاتم الرســالات – فالاعتزال كما نعرفه أمر دنيــوى ملموس، وواقع فيما بيننا، ولا يدّل – إن حدث – على ألوهية أو ما يشبهها.

ويعلم الله أن الكاتب إنما افتعل هذا الدليل افتعالا، بينما أن الواقع أن ما ذكره الكاتب لا يمكن أن يؤدى – بحال من الأحوال – إلى شــئ، مما يدّعيه، أو يفتعله، أو يتخذ منه دليلا «بالإكراه».

الدليل الثانى: مالك الملك

يذكر الكاتب نقلا عن المؤلف أن هذا الأخير يصف «الجبلاوى» بأنه «صاحب أوقافها»، وكل قائم فوق أرضها، والأحكار المحيطة بها فى الخلاء. «وكان معنى ذلك أن «الجبلاوى» هو مالك الملك، ولن يكون صاحب هذا الوصف إلا الله».

وهــذا دليل يناقس الدليل الســابق وهنا وضعفا.. فليملــك هذا «الجبلاوى» ما يملك من أوقــاف وأحــكار.. فإن ذلك لا يجعل منه إلها ولا يقرّبه من الألوهية قيد أنمله، وإلا كان سادة العهود الوسطى الذين كانوا يملكون كل شئ حتى الإنسان، آلهة يعبدون..!

الدليل الثالث كان الله ولم يكن معه غيره:

يشــير الكاتــب إلى مــا وصف المؤلف به «الجبــلاوى» من أنه عاش فــى الحارة وحده وهــى خلاء.. وأضاف الكاتــب أن عبارته هذه تعنى أن الحارة هــى الكون، ولما كان رمز «الجبــلاوى» يعنى عنــد المؤلف: «الله» كان معنى عبارته أن «الله» كان والكون خلاء ليس فيه سواه ثم يصف المؤلف «الجبلاوى» بأنه كان بالضعفاء رحيما.. ويعلق بأنه هكذا تتضح حقيقة «الجبلاوى» فى الرواية طورا بعد طور.

• يالله أى طور هذا الذى زاد المسألة وضوحا..؟

طرف خفيّ بأن الكاتب أراد بها أن يقول إنه لا يكتب عن حارة بل عن الدنيا زمانا ومكانا وسـكانا..» ثـم يضيف قوله: ألا ترى المؤلف – هنـا – أراد أن يخرج حارتنا من المفهوم الضيق المتبادر إلى الذهن، إلى المفهوم الرمزى الممتد الشامل لكل معمور من الأرض ؟

فإذا كانت حارتنا تعادل الدنيا، فإن أولادها هم أولاد الدنيا جميعا.

ونقول للكاتب: أجهدت نفسـك فى الإمسـاك بالأدلة.. رغم أن القراءة اليسيرة للرواية تؤدى إلى الإلمام بكل ما بها، والإحاطة بكل أحداثها، ولن يجد قارىء للرواية نفسـه فى حاجة إلى تفسـيرات وأدلة على صحتها: فكل قارىء سـوف يفهم من الرواية ما تلهمه به قريحتـه، ومن الطبيعى أن يختلف مدى فهم الرواية من قارىء إلى قارىء آخر، بما تثيره الرواية فى نفسـه وفى وجدانه من مشاعر وأحاسـيس وأفكار.. ولن يحاسب المؤلف قراءه ويسـائل كلا منهم عمًا يكون قد أدرك من قراءته للرواية فهى عمل إبداعى يسـعى إليه، ويسـعد به، كل من له بالأعمال الروائية هوًى وغرام دون حاجة إلى ما أجهد كاتبنا نفسـه فيه من تفسيرات وأدلة ودلالات!

الدليل الثالث ولادة النزاع مع ولادة الحارة:

• لفتت نظر الكاتب العبارة التالية التى وردت فى الافتتاحية:

• ولد النزاع فى حارتنا منذ ولدت، ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم».

• ويعلق عليها بتساؤله عن ذلك النزاع الذى ولد مع الحارة منذ ولدت؟

• ويجيب:

• إنه النزاع الذى حدث من «إبليس» حين أبى السجود «لآدم» عاصيا أمر ربه.

• ثـم النزاع الذى نشـب بين ولدى «آدم وقابيل وهابيل» وانتهـى بقتل «هابيل» بيد أخيه «قابيل».

• ويقـول الكاتب: ولهذا نقول بكل اطمئنـان أن الحارة فى «أولاد حارتنا» هى الكون كله، وأن أولادها هم البشر جميعا، ثم الملائكة والشياطين.

• ونقول للكاتب: إن المسـأله أبسـط من ذلك، فلا يخلو مكان فى الأرض من نزاع، ولم يخل عصر من العصور من نزاع.. فالبشر – منذ بدء الخليقة – فى نزاع متصل. وفن القصص ما هو إلا رواية لما يدور من صراعات ونزاعات على مر الزمان وفى مختلف الأماكن..

ولكن.. لم سمى المؤلف الدنيا حارة؟

يقول الكاتب إن تسمية «المؤلف» للدنيا بالحارة لأنها تتسق مع (الجو النفسى) للكاتب، فإن بين الحارة والحيرة رحما ماسة، وكلتاهما تدلان على الارتباك والتشتت والاضطراب.. والتسمية من ثم وليدة نظرة تشاؤمية إلى الحياة. وذلك أننا قد أشرنا من قبل إلى أن المؤلف كان واقعا تحت سيطرة فكر قلق حين كتب هذه الرواية، وأن أمورا كثيرة من قضايا الوجود كانت تضطرم فى مخيلته.

وهكذا يضع الكاتب المقدمة من «عندياته»، ثم يرتب عليها ما يريده من نتائج. فالمؤلف كان قلقا ومضطربا نفسيا وكان مشغولا بأمور الكون ومن ثم جاءت روايته قلقه مرتبكة ذات نظرة تشاؤمية..

وعلى ذلك فإذا كانت المقدمة غير صحيحة، ولا دليل عليها.. جاءت النتائج – بالطبيعة – مختلفة عمَّا انتهى إليه الكاتب.

ومن ناحية أخرى، فليس فى الرواية تشاؤم ولا ارتباك، إنما هى رواية شأنها شأن روايات «نجيب محفوظ» تقوم على الصراع المتصل، الذى قد ينتهى بالانتصار أو بالهزيمة وعلى كل فنهاية كل صراع منهزم ومنتصر.. أى بائس مغلول، وناجح مسرور.. والأمر لا يحتاج إلى محلل نفسى، يحلل آثار القلق وانعكاساتها على إبداعات الروائى المبدع!!

٩- «الجبلاوى».. من يكون «الجبلاوى»؟

يصف الكاتب بأن «أخطر رمز فى الرواية هو «الجبلاوى»، ثم استمر وروده بلا توقف حتى آخر صفحة من صفحات الرواية البالغ عددها ٥٥٢ صفحة.» ويضيف الكاتب قوله شديد الغرابة مصاغا فى العبارة الآتية: «وسوء سمعة هذه الرواية فى الأوساط الدينية وفى الرأى العلم العربى والإسلامى – فضلا عن المصرى – يرجع بالدرجة الأولى إلى رمز «الجبلاوى» حيث رمز به المؤلف – سامحه الله – إلى معانى الألوهية أى «الله» تحس بهذا من اطلاعك على المقدمة – افتتاحية – وكلما مضيت فى القراءة زاد إحساسك بمعنى هذا الرمز الشيطانى الخطير، وبخاصة فى الفصل الأول الذى أسماه «أدهم».. والعجب – كل العجب – أن أقلاما انبرت للدفاع عن المؤلف، وتَّدعى – زورا وبهتانا – أن «الجبلاوى» فى الرواية ليس هو الله، ويستندون فى دفاعهم هذا «الخائب» إلى أسباب أو هى من بيت العنكبوت لو كانوا يعلمون..».

إن الثابت مما قاله الكاتب أنه هو القائل بأن الحارة هى الدنيا وأن «الجبلاوى» هو الله، ومن ثم فإذا كان المؤلف قد ذكر أن «الجبلاوى» وجد الحارة خلاء، فليس مؤدى ذلك بحال من الأحوال أن المؤلف كان يقصد بذلك الله – سبحانه – فهو الأول بلا بداية القديم الذى لم يسبق وجوده عدم.. هذا المعنى لم يرد فى قول المؤلف أن «الجبلاوى» وجد الحارة خلاء كما أن هذا المعنى لا يمكن أن يستنتج من هذه المقولة طالما أن المؤلف لم يسبق له أن سلّم بما سلم به الكاتب وبخاصة لأن هناك فارقا زمنيا بين تاريخ صدور الرواية وبين تاريخ صدور كتاب الكاتب... فترة زمنية تبلغ سبعة وثلاثين عاما..!!

الدليل الرابع ضلال بعض الطوائف فى الاعتقاد:

ويستمد الكاتب هذا الدليل من عبارة قالها المؤلف عندما ذكر: «ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته، وهكذا حال الدنيا» وهى عبارة عادية لا توحى بشئ.. غير أن الكاتب أوَّلها على أن المؤلف إنما يعنى بها الإشارة إلى العقائد الوضعية البدائية حول نشأة العقيدة فى الله أو أن يكون مراده الإشارة إلى الطوائف التى حرّفت حقيقة الرسالات التى جاءتهم بها رسلهم وأيا كان مراده – هكذا يقول الكاتب – فإن هذه العبارة – على قصرها – دليل رابع على أن المراد «بالجبلاوى» الرمز إلى الألوهية..

ولنا أن نستغفر الله من كلام الكاتب، ذلك أن المؤلف لم يقصد «بالجبلاوى» سوى بشر من نسج خياله، ولم يعن به بحال من الأحوال الذات الإلهية، وعلى ذلك فإذا حدث عنه بأنه قد جاء من ذكره بشئ فإنه بذلك لم يخرج عما يحدث فى دنيا البشر، وبصفة خاصة إذا كان موضع ما ذكر هو صفحات روايته وليس أى متون مؤلف فى العقيدة أو بحث فى التاريخ.

هكذا أوردنا ما ذهب إليه الكاتب، وتحليلنا لقوله فى بند واحد – فقد كان ما ذكره الكاتب محض ادعاء ظاهر السذاجة، ومجرد مقولة تحمل من الافتراء أكثر مما تحمل من قولة حق.

الدليل الخامس «وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو»:

يذكر الكاتب بأن الله وصف نفسه بأنه «عالم الغيب، فلا يظهر على غيبه أحدا» وبأوصاف مماثلة وردت فى آيات عديدة تكون عقيدة المؤمنين فى الذات الإلهية.. ليقول الكاتب بعد ذلك: «قارن هذا الوصف بما جاء فى قول المؤلف يصف «الجبلاوى»: أليس من الغريب أن يختفى هو فى هذا البيت الكبير المغلق، وأن نعيش نحن فى التراب ويذكر الكاتب أنك إذا أحسنت المقارنة تبين لك فى الحال أن عبارة المؤلف تشير إلى استئثار الله بعلم الغيب.. أليس هذا دليلا على أن المراد «بالجبلاوى» عند المؤلف هو «الله» سبحانه.

ونقـول للكاتـب.. أن عبارة المؤلف تتفق مع أحداث روايته التى تقوم على أسـاس أن «الجبلاوى» بشـر من البشـر، من ثم وهو المتسلط فإن المتوقع منه أن يبيح لنفسه ما لايبيح لسـواه.. ينعم هو فى بيته، يحتفظ بأسـراره، ثم يترك الآخرين لعذاباتهم، يقتل بعضُهم بعضا، ويحارب بعضهم بعضا. فهو بشر وليس إلها، ومن ثم فهو ليس بالمعصوم من الخطأ، المبرّأ من الزلل.. ولكن الكاتب يبتدع من الأدلة ما يشـاء ويسـتنطق الكلمات بما يريد. وإن خالف فى ذلك الواقع، وحاد عن الصواب، وجافى طبائع الأشياء.!!

الدليل السادس الرسل أعلم الناس بالله:

ينقـل الكاتـب عن المؤلف – فى الافتتاحية قوله: «وإذا تسـاءلت عما صار به – يعنـى «الجبـلاوى» – وبنا إلى هذه الحال، سمعت من فـورك القصص – أى الدينى النبـوى – وتـرددت على أذنيك أسماء: «أدهم وجبل ورفاعة وقاسـم». ولن تظفر بما يبلّ الصدر، أو يريح العقل..» (وقد أضاف الكاتب أن المؤلف ربما كان يقصد الصدى، أو ما يبلّ الصدى ونحن نرى أن المؤلف يقصد الصدر – لا الصدى – أى أنه لن يظفر بما يريح أو يشرح الصدر.

ويعلـق الكاتب بأن هذه الفقرة تفيد عدة حقائق:

فأولا: أن المراد من «الجبلاوى» عند المؤلف هو الله.

وثانيا: أن القصص الذى يُسمع عند التساؤل هو القصص الدينى النبوى.

وثالثا: أن المعنّى «بأدهم وجبل ورفاعة وقاسـم» هو: «آدم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ» ويعلّق الكاتب على ذلك بقوله أنه مما يؤسف له أن وحى الله الحكيم إلى رسله – بالنسبة للمؤلف – لا يشـفى النفس، ولا يقنع العقل، فإلى أى شـئ يفزع الناس بعد الله؟. ويقرر الكاتـب أن هـذا القول لا يصدر إلا عن رجل لديه ريب فى «حقيقة» ما أنزل الله وما قضى به إلى رسـله.. ويضيف قوله الآتى: أن ظننا أن المؤلف ليس رقيق العقيدة إلى هذا الحد، ومع هذا «الظن» فإن قوله هذا يوقع فى الحيرة، ويدعو إلى سوء الظن!

ونحن نطمئن الكاتب إلى أنه ليس هناك ما يدعو إلى «سـوء الظن» لأن المؤلف لم يكتب مـا يخرجه عن حـدّ الإيمان إذا قرئ ما كتب على النحو الـذى كتبه عليه دون تأويل أو ترميز أو إعطاء الألفاظ مدلولات ليست لها، وتقديم فروض أن المؤلف إنما يقصد كذا، وأنه

إنما يعنى بالحكايات القصص الدينى ورسالات الرسل، رغم أن ما ورد فى الرواية لايعدو أن تلك الحكايات كانت تروى على ألسنة الشعراء الشعبيين الذين لا يراعون سوى أهل القوة، ولا ينافقون إلا ذوى السلطان فلا يمكن أن يكون المعنىّ بحكاياتهم رسالات الرسل.. ثم مِن أين للكاتب أن يجزم بأن قصد المؤلف إنما اتجه إلى الحديث عن أنبياء الله؟ والفهم الصحيح لما رواه المؤلف عن «أدهم وجبل ورفاعة وعيسى» ينفى عن المؤلف أنه كان يروى قصص الأنبياء الأربعة.. فذلك أمر لم يقم إلا فى ذهن الكاتب ومن يشايعونه من أصحاب التفسيرات والتأويلات المضللة.

الدليل السابع اللجوء إلى الله فى الشدائد:

يذكر الكاتب أن المؤلف يدرك أن مفزع الناس فى الكوارث والمحن إنما هو الله.. يستشف ذلك من أقوال المؤلف: «هذا بيت جدّنا، جميعنا من صلبه» – لا عزاء لنا إلا أن نتطلع إلى البيت الكبير – هنا يقيم «الجبلاوى»، صاحب الأوقاف، هو الجد، ونحن الأحفاد ويعلّق الكاتب على ذلك بقوله: أليس فى كلام المؤلف هنا أوصاف لا يوصف بها إلا الله، قيوم السموات والأرض، وليس «الجبلاوى» الذى لا وجود له إلا فى خيال المؤلف؟

والذى نقوله إن الكاتب إنما يجتزئ العبارات من مواضعها، ويلبسها الثوب الذى يريده، ويفهمنا أن «الجبلاوى» عند المؤلف هو الله وأن أهل الحارة يلجئون إليه كلما اشتد بهم الكرب، مع أن أحداث الرواية لا تؤدى إلى ذلك، إذ البادئ من أحداثها أن «الجبلاوى» شخص جبّار – ليس هو الإله بحال من الأحوال – فهو شخص يسكن بيتا وله أولاد من صلبه، وله وقف يتملكه، وله سطوة وسلطان.. وقد جاء وقت اعتزل فيه وترك أولاده وأحفاده لحياتهم، وبقى هو بالنسبة لهم أملا يراودهم، ومثلا أعلى ينظرون إليه.. ولا ندرى كيف أحال الكاتب ذلك الوضع وتلك الصورة إلى أن المعنّى هو الذات الإلهية.. ونستغفر الله لنا جميعا من هذا القول الذى لم يكن من الجائز قوله أو ترديده.

الدليل الثامن خالق الكون:

ودليل الكاتب هو ما قرره المؤلف من أن «الجبلاوى» «هو أصل حارتنا» – فقد استشف منها أن المؤلف يعنى بذلك أنه أصل الكون وخالقه، وأنه بذلك يقصد به الذات الإلهية..!

ونقول للكاتب.. أن التعبير ب «أصل الحارة» و«أصل البلد» عن الأسر العريقة تعبير شائع ومعروف، وكل أسرة ذات نسب تدّعى أنها أصل المكان الذى نشأت فيه، ومن ثم

لهـا السـيادة والمرجع. ومن ثم فلا يحقّ للكاتـب أن يرتب على هذه العباره من النتائج ما خرج بها عن حدودها السوية، ومعناها الواضح.

الدليل التاسع عجز الفكر عن الإدراك:

يذكر الكاتب أن منهج القرآن فى لفت الأنظار إلى الخالق البارئ العظيم، وملء القلوب إيمانـا به، ويقينا بقدرته، ويكفى أن نطالع آثـار قدرته لنقر بوحدانيته وألوهيته ويضيف الكاتب إلى ذلك قوله:

«بيد أن الأسـتاذ «نجيـب» أدار ظهره للآثار والآلاء والآيـات الكونية: واكتفى بالنظر العقلـى المجرد ليصل إلى كنه الذات الإلهية: فعجز ولم يلو على شـىء، وتلك هى عاقبة ومصير كل عقل لا يهتدى بالوحى، ويظن أنه قادر – وحده – على إدراك حقيقة الذات الإلهيـة العليـة والإحاطة بها من كل الوجدان..«ثم يذكـر» أن المؤلف لمّا اعتمد على عقله المجرد، كل بصره، وحار عقله، ووجب قلبه، ثم عاد إليه البصر وهو حسير».

لكن من أين للكاتب ذلك كله؟

إنـه يطلب إلينا أن نقرأ أوصاف المؤلف عن «الجبلاوى».. وبصفة خاصه قول المؤلف: «وما زلت أجد الحديث عنه شائقا لا يملّ، وكم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلّى أفوز بنظره، ولكن دون جدوى».

والكاتـب يرى فى ذلـك أن المؤلف قد أعرض عن الطريق المفتوح الممّهد، وقصد الطريق المسـدود الموصد.. وما أكثر الفلاسـفة الذين نهجوا من قبله نهجه فتفرقت بهم السـبل! ويختم بحثه بقوله: «وأيا ما كانت تجربة المؤلف فى هذا المجال، فإن اعترافه بعجز العقل عن تمام المعرفة فى «الجبلاوى» لدليل ذو خطر على أن المؤلف، ما رمز «بالجبلاوى» لشىء إلا لقيوم السماوات والأرض».

يالله.. كل هذه المقولات والأسـئلة، والتشـكيك فى إيمان المؤلف والخروج به إلى زمرة المتشككين – قائم على أساس ظنىّ بحت – ليس له ما يسانده – هو أن «الجبلاوى» عند المؤلـف يعنى به الذات الإلهية.. وأنه إذ يطـوف بالبيت الكبير مؤملا أن يفوز منه بنظرة فـإن ذلـك معناه أن يصل إلى اليقـين بوجوده عن طريق العقل. ولسـنا ندرى فى الحقيقة والواقع أين يجب أن يكون موقع العربة بالنسـبة للحصان – فى منطق الكاتب –؟.. هل

أمام الحصان أم خلفة؟ مسـألة أصبحت يشوبها الغموض، فالكاتب يفترض أولا أن المؤلف يعني «بالجبلاوى» الذات الإلهية.. ثم يروح يفسـر كلماته وما يرويه من أحداث على أنه إذا مـا ذكر «الجبلاوى» أو البيت الكبـير فإنما الحديث يدور عن الذات الألهية.. وإذا ما قال المؤلف أنه يودّ أن يفوز بنظره فمؤدى ذلك أنه غير مؤمن بالوحي ويريد أن يدرك حقيقة الألوهية بالعقل.. أسـئلة وتخريجات أقيمت جميعها وشُيِّد بناؤها على مجرد افتراضات ألقاها الكاتب، وتفسيرات قدمها، وقطع بصحتها ثم راح يقيم عليها النتائج المغلوطة.

الدليل العاشر غيب ما وراء الطبيعة:

وهـو لايعدو أن يكون تكرارا لما ورد في الدليل التاسـع. أن الكاتب يستشـهد بالفقرة التي أشار إليها وبنى عليها ما بنى من نتائج ثم يعود فيقتبس فقرة أخرى مماثلة هي قول المؤلف: «وكم وقفت أمام بابه الضخم أرنو إلى التمساح المحنـَّط المركب أعلاه! وكم جلست في صحراء المقطم غير بعيد من سـوره الكبير، فلا أرى إلا رءوس أشـجار التوت والجميز والنخيل تكتنف البيت، ونوافذ مغلقة لا تنم عن أثر الحياة!».

يعلـّـق الكاتـب على ذلك بقوله «إن المؤلف هنا لا يصـف إلا لغيبيات أو حقائق ماوراء الطبيعـة، وقـد رمز إلى الجهل بهـا بالنوافذ المغلقة التي لا تنّم عن أثر لحياة، أي شـيء خارج نطاق الحس: لا شيء يُرى، ولا يُسمع، ولا يُلمس، ولا يذاق، ولا تُشم له رائحة!

وهـذه هـي التخريجات التي انتهـى إليها الكاتب، إذ أخرج المؤلف مـن دائرة المؤمنين بالوحي وبالقدرة الإلهية عمًا وصل إلينا من الرسالات ومن الأنبياء ومن الكتب المقدسة إلى دائرة من لايثقون إلا في الحواس الخمس ويريدون أن يتثبتوا بواسـطتها من حقيقة تلك المعتقدات.

وهو جهد ضخم، وعمل يدّل على براعة في التدليل، ومقدرة في الوصول إلى النتائج المطلوبة أو المقررة سـلفا.. ولكننا لا يمكن أن نسلم بالأسـاس الذي أقام عليه الكاتب بناءه. فقد أقامه على محض افتراض أن المؤلف إنما يعني «بالجبلاوى» «الذات الإلهية» وهو افتراض سـابق على إقامة الأدلة عليه بل إن معظم الأدلة العشرة تقوم على ذات الفرض المسبق، أي أنها أدلة تختلط فيها المسائل ولا يمكن تحديد المقدمات الصحيحة الثابتة وتقريرها والتسليم بها، حتى إذا ما رتبنا عليها النتائج المنطقية كان ترتيبا منطقيا مقنعا.. لكن الواقع أن «الفرض النظرى» و«الحكم المسبق» و«اليقين المتمكن دون دليل» كل تلك هي مقومات هذه الافتراضات وما تولـَّد عنها من نتائج، هي أبعد ما تكون عن الحكم الصحيح، أو الحق الصريح..

* * *

١٠ - الحديث عن الرسل الأربعة:

يؤكد الكاتب أن حديث المؤلف عن «أدهم وجبل ورفاعة وقاسم» إنما هو حديث مباشر عن الأنبياء والرسل: «آدم وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام».

ثـم هـو يقيم الأدلـة على صحة ما ذهب إليـه، من واقع مـا روى المؤلف من أحداث وحوادث تتشابه – إلى حد قريب – مع ما ورد فى قصصهم فيما ترويه الكتب المقدسة.

وكل هذا لا يغيِّر مما ذهبنا إليه من أنه:

أ – وإن كانت بين القصص التى رواها المؤلف عن «أدهم وجبل ورفاعة وقاسم» – فى بعض النواحى – أوجه شبه كبيرة – تصل فى أحيان كثيرة – إلى حد التقارب بين ما رواه المؤلف عن هؤلاء الأشـخاص الذين سماهم بما أطلقه عليهم من أسماء – وبين ما هو ثابت ومروى من السير الحقيقية لأولئك الرسل الكرام – إلا أنه ليس هناك ما يقطع بأن المؤلف كان يقصد إلى أن يحكى قصصهم – وهى فى الواقع تاريخ لابدّ وأن يُروى بدقة وأمانة دون أدنى تغيير أو تحريف – فالمؤلف لم يكن فى حديثه ذاك براو لتاريخ الأنبياء، ولا هو من هدفه أن يعيد صياغة سيرتهم صياغة قصصية – ذلك لم يكن قصده من قريب أو من بعيد.

ب – بـل إن الواضـح والمؤكد أن المؤلف إنمَّا كان بصدد إنتـاج عمل فنى، إبداع لإحـدى رواياته التـى يلتزم فيها بأصول الفـن الروائى، ويلجأ بشـأنها إلى مقدرته – وموهبتـه الإبداعية – ، فيقـدم ويؤخر فى الأحداث، ويطيـل أو يوجز فى رواية الوقائع، ويعمد إلى إجراء حوارات علىألسنة شخصياته، أو ينوب هو فى روايته لما يريد عنهـم أو عـن أفكارهم أو فيما يدعوهم إلى هذا التصـرف أو ذاك، فنحن بإزاء عالم خاص والمؤلف وحده هو المتصرف فيه – المحرك لأحداثه ووقائعه، المجرى لحواراته وما يجرى على ألسنة أشخاصه، هو الذى يملك تصريف أمور هذه الشخصيات، وسير الأحداث على مدار الرواية..

جـ – أن المؤلـف من حقه أن يقتبس ما يشـاء من أحداث الواقـع أو أحداث التاريخ، ليؤلف منها جميعا عمله الفنِّى، الذى لا يمكن أن يكون موضع المساءلة عنه هو مدى مطابقة العمل للتاريخ، بل مدى تلاحم الأحداث، وتنامى العمل الفنى، وتقديم صورة كاملة، تعبِّر عن معان متعددة، وتثير فى أنفس القراء مشاعر مختلفة.

د - إنــه مــن ثم لا يمكن أن يكون للعمل الفنى تفســير واحد محدّد، بل تتنوع وتتعدد التفســيرات لـمـا أراد المؤلف التعبير عنه بتعدّد أذواق القــراء واختلاف مناحى تفكيرهم - الواحد عن الآخر - بل إن المؤلف نفسه قد يصاب بدهشة عظيمة عندما يطّلع على ما قد يذهب إليه البعض من استخلاص لأفكار أو مقاصد يؤكدون أن المؤلف قد قصدها المؤلف ثم يدللون علىذلك مما تضمنته الرواية ذاتها.

و - وعلىذلك، فإننا نؤكد أن هذه الرواية لم تقصد إلى رواية تاريخ البشرية ولم تهدف إلى إيراد تاريخ الرسل، ولم تعمد إلى رفعة شأن العلم الحديث، والى أنه هو البديل عن الأديان، فتلك أمور تتجافى مع طبيعة العمل الفنى الأصيل، وتتنافى مع العملية الإبداعية التى تجرى على أيدى المبدعين الأصلاء أصحاب الأقدام الراسخة فى فنونهم الإبداعية.

هـ - ومن هنا فإننا لا نوافق الكاتب على ما أنهى به كتابه من ملاحظات أبداها بشأن تناول المؤلف لأحداث روايته.

١١ - ملاحظات الكاتب حول أحداث الرواية المتعلقة بالشخصيات الأربع:

وقد أبدى الكاتب العديد من الملاحظات حول المنهج «الفنى».

للمؤلف فى تناوله لأحداث روايته - وسوف نتناول فيما يلى أهم تلك الملاحظات.

الملاحظة الأولى تحريف الوقائع:

يذكر الكاتب أن المؤلف «عرض وقائع التاريخ الدينى فى الفصول الأربعة الأولى - عرضا محّرفا مزوّرا.»ثم يتعرض الكاتب بعد ذلك لما خالف فيه الراوى ما هو ثابت فى سيرة رسل الله الأربعة.. ويفصِّل أوجه الاختلاف عرضا مفصلا.

والذى نراه - وتؤيدنا فى ذلك طبيعة العمل محل الدراســة - أن المؤلف ليس مؤرخا دينيــا، ولم يكــن فى روايته راويا لوقائــع تاريخ الأنبياء، إنما هو مؤلــف روائى، وكتابه الذى يقدّمه هو رواية فنية، وهو وإن كان قد أفاد مما قام به الرســل من جهاد، وما قدّموا للبشــرية من جهود، فاقتبس بعضا مما روى عنهم، وضمّن روايته وقائع شبيهة بما حدث لهــم - فإنــه إن يكن قد خالف فى بعض الوقائــع الحقائق التاريخية - فمرجع ذلك أنه لم يكــن يؤرخ لأنبياء الله ورســله، ولا هو كان راويا لتاريخهــم - إنما كان بصدد تأليف رواية فنية لها متطلباتها، وهو لم يذكر بالنســبة لمن رســم صورهم من شخصيات أنه يقصد الأنبياء.. وإنما هو يروى عن شخصيات من البشر يعيشون فى دنيا البشر، ويتصرفون كما يتصرف سائر البشر.

وعلى ذلـك فليس لنا أن نلومه على عدم الالتزام بالوقائع التاريخية طالما أنه لم يدع أنه مؤرخ أو مؤلف لقصص الأنبياء.. إنما نحاسبه بمقدار توفيقه الفنى، ونجاحه الإبداعى.

الملاحظة الثانية إساءة إلى الذات العلية:

يذكر الكاتب أن المؤلف فى روايته وجّه كما هائلا إلى «الجبلاوى» – رمز الألوهية – من الإســاءات المختلفة على ألسنة أشــخاص الرواية. «هذا بالإضافة إلى الأوصاف البشرية التى وصف بها «الجبلاوى» فى الرواية كلـّها من التزوج والإنجاب والاحتياج إلى «غيره» والأكل والشــرب والراحة والنوم، والشــيخوخة، والاعتزال، ثم القتل والموت.. وكل هذه – عند الكاتب – افتراءات تكاد السماوات يتفطرن منها وتنشق الأرض، وتخر الجبال هدا»..

هذا ما أورده الكاتب. وهو أمر فى غاية العجب. ذلك أن المؤلف لم يدع ولم يذكر – بل لم يشر – إلى أنه يعنى بشخصية «الجبلاوى» الذات الإلهية، بل هو بشر من البشر، أنشأ الحــارة وتملكها، وتزوج وأنجب، وحاز الأموال وتصرف تصرف البشــر.. حتى وإن طغى وتجبّر، فما أكثر أشخاص الجبابرة الطغاة من البشر..

إنما الذى قال بألوهية «الجبلاوى» هو الكاتب نفسه، وراح يقيم على ذلك الأدلة المنقوضة التى عرضنا لها من قبل.. ثم هو يأتى بعد ذلك فيلوم المؤلف لأنه قال عن «الجبلاوى» أنه من البشر، وجعله يتصرف تصرفات لا يأتيها إلا البشر.

ونقول للكاتب.. أنت وما تشاء. لكن الذى نرى ضرورة تأكيده أن الشخصيات جميعها التى تضمنتها الرواية – وعلى رأسها «الجبلاوى» – هى شخصيات بشرية تعيش فى دنيا البشر، وتتصرف تصرفات البشر، وإن كان البعض منها يحاول أن يسمو بتطلعاته إلى ما يرفعه درجات فى دنيا البشر – وتلك حقيقة قائمة.. وعلى كل منا أن يسلم بها، ويتعامل على أساسها.

سائــر الملاحظــات:

- وهى عديدة أوردها الكاتب على النحو التالى:
- الإساءة إلى رسول الإسلام عليه ﷺ.
- الحط من قدر العرب والمسلمين.
- مناصرة غير الإسلام على الإسلام.
- تجريد التاريخ النبوى من محتواه.
- التعاطف مع الشيطان.

• ربط منابع النور بمواضع الخطيئة.
• الاختيار والترك.
• نباهة «عرفة» وصاحبيه.

ولا نجد داعيا لتناول كل ملاحظة على حدة، لأنها جميعا تقوم على أساس أننا بصدد كتاب فى تاريخ الأديان، ومن ثم فهو يحاسبه - على هذا الأساس - ومن منطلق إسلامى على أساس أن الإسلام هو الدين الخالص.

والواقع - كما ذكرنا من قبل - أننا لسنا بصدد عمل تاريخى، ولا مؤلف دينى وإنما نحن بصدد رواية فنية، وعمل إبداعى، صيغت أحداثها على نحو متنام، ومترابط، وهو عمل له وقعه لدى كل من قارئيه، حيث يحقّ لكل منهم أن يفهم منه ما يريد، وأن يخلص منه إلى ما يشاء، وأن يزن حبكته وترابطه، وأن يقدِّر قيمته ومكانته على النحو الذى يخطر له، وإن كان البعض من القراء يهتم بقراءة ما كتبه النقاد: فذلك لزيادة متعته بما قرأ، وتقديره لكتّابه الذين يفضلهم، ويرى فيهم درجة عليا من الفنية والإبداع.

١٢ - حديث الكاتب عن «عرفة»:

أ - سوف نورد فيما يلى ما انتهى إليه الكاتب بشأن «عرفة»، وهى نتيجة فى غاية الخطورة - ولا نغالى إذا قلنا إنها نتيجة تقوم على الظلم وسوء الفهم معا - ولن نزيد عن أن نورد كلام الكاتب بنصه:

١ - عن النية:

«أما القسم الثانى - «عرفة» - فهو معقود أساسا لعمليتى هدم وبناء أو إعدام وإحياء وكانت «نية أولاد حارتنا» مبيتة على هذا من قبل أن يخط حرفا واحدا فيها، فالنيّة عادة وواقعا تسبق العمل دائما وتكون «هى» الباعث على العمل، والداعية إليه: الهدم أو الإعدام لـ «الدين» الذى جاء به الرسل وحيا يوحى من عند ربهم، والإحياء لـ «العلم الحديث» ممثلا فيما يُدرك بالحواس الخمس، وتجرى عليه التجارب والملاحظات والمشاهدات ثم تستخرج قوانينه الكلية، وقواعده الجزئية المستوحاة من المادة المدروسة، وكان كل شىء فى الرواية يخدم هذا الاتجاه، ويمهِّد له من وراء ستار».

والذى ندهش له، ولا نجد له تفسيرا مقنعا كيف توصل الكاتب إلى معرفة «نية» المؤلف التى سبقت تأليفه لروايته؟

هل عرفها حدسا وتخمينا أم عرفها حقيقة ويقينا؟

أمـا أن يكـون عرفها حقيقة ويقينا – فذلك أمر محال. فالكاتب ليس من «الحرافيش» ولا هو من أصدقاء «نجيب محفوظ»، وربما لم يلتق به قط في حياته – لقاء خاصا.. ومن هنا لنا أن نستبعد أن يكون عرف بهذه النية من صاحب النية وصاحب الرواية على وجه مؤكد وعلى نحو يقيني.

يبقى أن يكون عرفها حدسـا وتخمينا.. مسـتدلا من شواهد سـابقة، وأمارات وأفكار متواترة، وأدلة ملموسة ظاهرة.. وتؤكد أن شيئا من ذلك لم يكن له وجود.

وإزاء مـا تقدم فلا يتبقى إلا افتراض واحـد لا ثانى له، وهو أنه افترض فرضا لا يقبل الجـدل، أن نية «نجيب محفوظ» لا يمكـن أن تكون إلا كذلك، وتضخم الفرض فى ذهنه وذاكرتـه وقلبه حتى انقلب إلى حقيقـة مؤكدة، وانقلبت الحقيقة لديه إلى واقع يبنى عليه الأحكام ويؤسس عليه القضايا..

هذا هو التفسير الوحيد الذى لا تفسير سواه..

وعلى ذلك فإن ما انتهى إليه الكاتب من أن اتجاه «نجيب محفوظ» كان إلى هدم الدين وإلى تفكيك بنائه المترابط والقائم على الإيمان بالرسـل، والتصديق بالوحى. وهو الذى قال به الكاتب لا أسـاس له من الواقع، ولا سـند حقيقيا له، وإنما هو محض مقولات مرسلة، وأقوال تنطلق عفو الخاطر، وحسـبما يجرى بها اللسان، حتى وإن كان «منفلتا» فى بعض الأحيان.

والـذى نقـرره أن القسـم الأول من الرواية قام على أسـاس أن هناك أناسـا مصلحين يستلهمون قلوبهم ويستنهضون عزائمهم، لينطلقوا إلى عمل الخير، وتحرير البشرية، وأنهم يتحملـون في سـبيل تحقيق أغراضهم ما يلقون من أذى ومتاعـب.. وأنه قد أعقب هؤلاء عصر– وجد فيه من آمن بالعلم، واتخذ منه سبيله.. وهذه حقائق غير منكورة.. فماذا قال الكاتب عن هذا العصر أو عن تناول الرواية له.؟؟

٢ - عن عصر العلم:

تسـاءل الكاتب.. كيف تمـت عمليتا الهدم والبناء، أو الإعدام والإحياء؟ هذا تسـاؤل مهم.. أما الإجابة عليه فيصورها الكاتب على النحو التالى:

جـــى ء بـ «عرفة» رمز العلم الحديث – ونائبــه «حنش» – ثم وضع بإرادتهما التاريخ الدينى النبوى ممثلا فى «الجبلاوى وأدهم ورفاعة وقاسم»، وبدأت العمليتان معا:

ضربــة بالمعول فــى صرح التاريخ الدينـــى النبوى، ثم لبنه فى صـــرح العلم الحديث، وتعدّدت ضربات المعول فى الهدم، وتعددت كذلك عملية البناء بوضع لبنة جديدة محكمة، وسار الفصل الخامس «عرفة» على هذا النظام.

كل انخفاض فى جانب التاريخ الدينى النبوى يقابله ارتفاع فى جانب العلم الحديث.

وكل نقص فى الأول يقابله زيادة فى الثانى، إلى أن وصل الأمر إلى تنفيذ حكم الإعدام التـــام فـــى الدين، وعلى التـو قام العلم الحديث.. وجلس على عرش الرحمن، وحلّ محله ومكانه هذا فى الرواية وليس فى الواقع.

والـــذى قام بتنفيذ حكم الإعدام فى الدين، هو العلم الحديث نفســـه ممثلا فى «عرفة» قاتل «الجبلاوى» فى الرواية.. الخ.

والذى نود أن نقرره عدة أمور مستمدة من الرواية نفسها:

١ – الأمر الأول: أن اعتبار «الجبلاوى» ممثلا للذات الإلهية، ليس هو بيقين التفســـير الصحيـــح لرمـــز «الجبلاوى» وإن كان الكاتب يرى غير ذلك فهو ورأيه، ولا يمكن أن يقول بقول الكاتب إلا من يسايره دون تأمل أو تفحص، ودون أن يكون لديه يقين بضرورة التفرقة فى الفهم وترتيب النتائج بين الكتب التى تكتب فى الدين والتاريخ وســـير الأنبياء، وبين الأعمال الإبداعية: القصائد الشعرية، الروايات القصصية، المسرحيات الفنية.. الخ.

٢ – والأمر الثانى: هو أن «عرفة» وإن كان قد قدم مخترعات مذهلة إلا أنه لم يقم بأى خطوة يحارب بها الدين، فهو شخص يعرض بضاعته، ويطرح تصوراته، وليس من شأنه أن يهاجم من سبقوه أو يسىء إليهم.

٣ – والأمر الثالث: أن الواضح والثابت من تسلسل أحداث الرواية هو أن «عرفة» حينما ارتكـــب جريمة القتل ما كان بقصد، بل وما كان يظن، أن القتيل هو «الجبلاوى» بل كان اعتقـــاده هو أنه أحد التابعين، وأن قتلـــه كان ضرورة اقتضتها مهمته التى كان متجها إلى تحقيقها، وهى الكشف عن الحقائق.. وأنه عندما علم فيما بعد بأن المقتول كان «الجبلاوى»

حزن حزنا كبيرا، بل وراح يفكر جديا فى تطوير وسـائله علّـه يصل إلى وسيلة يتمكن بها من إحياء «الجبلاوى» ويرده بها ثانية إلى الحياة.

٤ – أنه أيضا ضمن أحداث الرواية تلك السـيدة العجوز التى التقت «بعرفة» وأخبرته بأن «الجبلاوى» كلّفها بأن تبلغه رضاه عنه.. وقد سعد «عرفة» بتلك السعادة سعادة كبيرة سجلتها سطور عديدة من الرواية.

٥ – والأمر الأخير أنه رغم ذلك كله فلم يتحقق الانتصار «لعرفة»، بل قتل شـر قتله، ولقى هو وزوجه أسوأ مصير.

٦ – ونخلص من ذلك كله إلى أنه لم يكن هناك هدم وبناء، وأنه لم يتحقق النصر للعلم، بل قد توحى الرواية؛ بأن العلم وإن كان ضروريا إلا أنه لم يفلح وحده فى إصلاح الكون، مـا لم يصاحبه الإيمان الدينى الخالص.. اللهم إلا إذا أخذنا بالتفسـيرات التى تقوم على شق القلوب للتعرف على حقائق النوايا؛ وما تخبئه الصدور!

* * *

١٣ - والخلاصة التى يصل إليها الكاتب.. خلاصة مرفوضة فهى غير صحيحة:

• حيث يخلص الكاتب من عرضه السابق إلى النتيجة الآتية:

«إن هذه الرواية تترجم فى وضوح: أن كاتبها ساعة كتبها كان زاهدا فى الدين كل الزهد، معرضا عنه كل الإعراض، ضائقا به صدره، أعجميا به لسانه فراح يشفى نفسه الثائرة، ويعبِّر عـن آرائه فى وحى الله الأمين. بهذه الأسـاليب الرمزية الماكرة، والحيل التعبيرية القادرة، رافعا من شـأن العلم الحديث إلى مكان الثريا، واثقا فيه كل الثقة، حتى أجلسـه فى روايته على «عرش الديانة» مناصرا العلمانية الجاهلة، على دين الله القيم ورسالته السامية».

فالرواية – وهذا واقعها – رواية آثمة «مجرمة» بكل المقاييس وطنيا وقوميا ودينيا.

• والتماس البراءة لها: مستحيل، مستحيل، مستحيل..

اللهـم إلا إذا طمسـنا قلوبنا، وأعمينا بصائرنا، وسـددنا سمعنا.. ثـم هتفنا مع أولاد الحارة، وقلنا كما قالوا: لا شأن لنا بالماضى، ولا أمل لنا الا فى سحر «عرفة».. ولو خُيرِّنا بين «الجبلاوى» والسحر لاخترنا السحر...

وهكذا أصدر الكاتب حكمه بالإدانة، لأن التماس البراءة مستحيل مستحيل...

ولكننا نقول للكاتب إن الإدانة لابد وأن تقوم على أسبابها وأسانيدها، وأنتم يا سيادة الكاتب لم تقدموا ثمة سند أو دليل يمكن لكم أن تبنوا عليه حكمكم فهو من ثم حكم جائر، ويقوم على أساس «إدانة» مسبقة حتى قبل أن تقرأوا الرواية، ويقوم على أساس تحديد «نيـّة» الكاتب حتى قبل أن يكتب حرفا من روايته، وبذلك خلصتم إلى إدانة الكاتب وإدانة الكتاب ظلما وعدوانا لفرض افترضتموه ظلما، ونية سابقة بيتموها بالنسبة للكاتب منذ زمن، ثم زرتم الأراضي المقدسة، فلم تجدكم فتيلا فى ضرورة التماس العدالة والتريث فى الإدانة، وعدم التعجل فى إصدار الأحكام..

* * *

وقد أنهى الكاتب مؤلفه باقتراح أبداه للمؤلف، ولا نود أن نحرم القارئ من هذا الاقتراح.

١٤ - الاقتراح المرفوع من الكاتب إلى المؤلف:

أ – فى ختام كتابه يذكر الكاتب كلاما غير طيب وإن حاول أن يحسّنه.. فقد قال:

«بعد التجربة المرّه التى عشناها مع الأستاذ «نجيب محفوظ» وأولاد حارته يطيب لنا أن نتقدم بكل إخلاص إلى أديب مصر والعروبة الأستاذ «نجيب محفوظ»، بهذا الاقتراح الذى لنا فيه مطلبان».

ولا ندرى ما الذى جعل التجربة مرة؛ فما كان هناك داع للمرارة، وبخاصة وقد كنا بصدد عمل إبداعى متميز، أحدث صداه وتأثيره، وتُرجم إلى أكثر من لغة ونال تقدير العالم، ولم يبخسه حقه إلا بعض بنى وطنه ممن أساءوا الظن، وبنوا أحكامهم على المغالطات والأوهام، وكانت أحكامهم جميعها أحكاما صدرت منهم «قبل المداولة» والمداولة تعنى التدارس بين أعضاء «لجنة الحكم» قبل الاتفاق على منطوق ومضمون «الحكم».

ب – ما هما الطلبان اللذان للكاتب عند المؤلف:

الأول: «مطلب احتياطى» حاصله أن لا يأذن الأستاذ «نجيب محفوظ» بإعادة طبع أو نشر أو إذاعة «أولاد حارتنا» بأية لغة من اللغات وبخاصة اللغة العربية، لا حجرا على حرية الفكر، ولكن حسما لذرائع «الكفر» لأن فى إعادة نشرها إثما كبيرا نحسبه هينا، وهو عند الله عظيم..

ونطمئــن الكاتــب أنه إلى يوم وفاة المؤلف إلى رحمة مولاه، فلم يعط إذنا بطبع أو نشــر الرواية في الداخل، وإن كان لم يستطع أن يمنع نشرها في الخارج أو ترجمتها لأكثر من لغة، ومن ثم فقد برئ من إثم الإذن بنشــرها وهو إثم عند الله عظيم – فيما يرى ســيادة الكاتب!!

ولكننــا نقرر ونحن نبدى مزيد الأســف أن الرواية قد طبعــت بعد وفاة المؤلف، وحتى ديســمبر ٢٠٠٩م ثماني طبعات متتالية داخل مصر ومنها جرى توزيعها إلى ســائر الديار العربية.!!

وما نعتقد أن هناك وزرا – أو إثما – في ذلك يتحمله المؤلف – رحمه الله – وإن كان لابد وأن نقول بوجود الإثم، فسوف يتحمل وزره الكاتبان المستنيران اللذان كتبا عن الرواية مــا برّأهــا وما جعلها عملا مباحا، غير محرّم تداوله... ومع ذلك فنحن ندعو لهما بالمغفرة والخير جزاء ما خطت يميناهما.. والله ولى التوفيق.

الأمر الثاني: «مطلب أصلى حاصله أن يستجمع الأستاذ «نجيب محفوظ» كل مقومات الشــجاعة الأدبية والإيمانية ويعلن للعالم كله «تبرّأه» من هذه الرواية الآثمة المحرّمة بكل المقاييس، لأن في بقائها منسوبة إليه تبعة تنوء بحملها الجبال.».

ونقــول للكاتــب إن المؤلف – حــال حياته – لم يأخذ برأى الكاتــب، ولم ينزل عند نصيحته، ومات والرواية منســوبة إليه ويعاد نشــرها المرة بعد المرة تحمل اسمه دون إنكار أو اســتنكار أو اســتغفار.. ولعل «نجيب محفوظ» وهو المؤمن الصادق الإيمان – كما أعرفه – كان يــدرك أنــه لم يغضب ربه، في قليل أو كثير، وأنــه إنما كتب روايته لعمل فنى لم يرد به خروجا على الدين، ولا مساسا بالعقائد. والواقع أنه بعد قراءة كتاب «الجوانيات» وكتاب الشيخ «عبد الحميد كشك»، تبدو الحقيقة جلية، وهى أننا بصدد عمل فنى إبداعى نتذوقه بمشاعرنا، ونتفهمه بإحساساتنا، ونتوه في أحداثه مطلقين لخيالاتنا العنان.. دون أن يكون ثمة مســاس أو إساءة إلى ذات مقدسة، فللفن الملتزم مجالاته. وللدراسات الدينية والتاريخية أوضاعها ومســاراتها.. فلا نخلط الأوراق. ولنحفظ للدين قداســته، ولنرتفع به بألا ندخل في مجاله ما هو بعيد عنه، غير متصل به..

وســوف تتضح الأمور أكثر مع تقدم الدراســة، حيث نعرض فيما بعد العديد من الكتب والفصول التى تناول كل منها «أولاد حارتنا» من زاوية أو من زوايا مختلفة.

* * *

المبحث الثالث

عن

«حكاية أولاد حارتنا»

للدكتور – عبد الجليل شلبى

تمهيد:

هذا كتاب أمره هينٌ، حتى وإن أخطأ التفسير ومال إلى الأخذ بالتفسير الدينى لرموز الرواية، إلا أنه لم ير فيها كفرا أو ما يشبه الكفر، ولم يرفيها مساسا بالدين من أية ناحية، وقد عمد فى «المقدمة» وفى التعقيب إلى تناول الرواية بشئ من التحليل والنقد، إلا أنه فيما بين المقدمة والتعقيب تناول عرض الرواية تحت عنوان: «رمزيات أولاد حارتنا» وقد حاول أن يجمع بين ما ورد فى الرواية من ناحية وبين ما ورد فى العهد القديم ثم فى القرآن الكريم من أحداث مقابلة من ناحية أخرى.. فهو يأخذ الأمور بظاهرها، وفى بساطة، ويرى أن إرجاع ما تضمنته الرواية إلى ما تضمنه القرآن – ومن قبله العهد القديم – ومع إجراء مقارنة ليبرز ما هنالك من فوارق.. رغم إن الفهم الصحيح يوجب عدم الخلط بين الرواية باعتبارها عملا فنيا إبداعيا – وبين نصوص وردت فى القرآن الكريم وتضمن العهد القديم – من قبل – ما يقابلها.. لوجود اختلافات ضخمة ليس فقط فى مضمون وتسلسل الأحداث وإنما لوجود تلك الاختلافات الكبرى.فيما يعنيه المؤلف من وراء ما اختار من أحداث، ولم صاغها على هذا النحو بالذات؟ ولم زاد أو أنقص أو غيَّر أو بدَّل أو ابتكر من أحداث تبعد بالرواية إلى درجة كبيرة عما يقابلها من نصوص ذات طابع دينى. لأن الفهم الصحيح «لأولاد حارتنا» هو أنها «عمل روائى» إبداعى وليست نصا دينيا، أو كتابا تاريخيا. ولا ندرى لم يروق للبعض أن يهمل هذه الفوارق، ويجهد نفسه فيما يعتبره «فكا للرموز» وإرجاع كل حدث ورد فى الرواية إلى ما يقابله من الأحداث أو الأشخاص الدينية..

• ونتناول فيما يلى الكتاب بأقسامه الثلاثة على النحو الذى سبق أن أثبتناه:

أ- المقدمة:

يذكر في مقدمة كتابه الصادر عن سلسلة «كتاب اليوم» بأنه يقدم خواطره عن الرواية أى أنه ينفى أن يكون كتابه بحثا أو نقدا أو دراسة، فهو مجرد خواطر – وهو – فى ذلك يقول:

١ – هذه خواطرى:

«عن رواية «أولاد حارتنا» التى أخرجها الكاتب الكبير الأستاذ «نجيب محفوظ» من نحو ثلاثين عاما (يعنى ذلك أنه يؤلف كتابه فى أواخر الثمانينيات) كنت أقرؤها فى جريدة الأهرام، أو على الأقل كنت أقرأ الكثير من فصولها. وأحضرت فى ذهنى إذ ذاك خواطر كثيرة عنها، وعما يريد منها كاتبها».

ثم يضيف إلى ذلك قوله عن خواطره التى طفرت فى ذهنه وقت نشر الرواية فى أواخر عام ١٩٥٩م – فيقول:

«بدا لى أنها تصف ظلم الإنسان للإنسان، وبغى الأقوياء على المستضعفين، وهذه نزعة الإنسان منذ هبط «آدم» إلى الأرض، وكان يريد لأولاده أن يعيشوا فى سلام ومحبة، ولكن عكر هذا السلام، ونغص تلك المحبة ابنه قابيل بقتله أخاه، وكانت هذه أول جريمة وقعت فى الأرض، ثم تتابعت الجرائم، وكان المصلحون يظهرون بين حين وحين يحاولون نشر العدالة وإنصاف المظلومين، وبثّ التعاليم والوصايا التى تبعث الطمأنينة فى القلوب، ومع ذلك كان الظلم ينتصر حتى على الأنبياء، فيذهبون، وتذهب أيضا تعاليمهم ووصاياهم... ولما ظهر العلم الحديث لم ينتصر على الظالمين، بل اتخذ الظالمون منه سلاحا لهم حتى على العلماء. الظلم إذن طوفان غامر يجرى فى عروق الآدميين، وليس دعاة الإصلاح إلا مرقدا موقوتا، يفرح الناس به إلى حين».

وهى إشارة لها مغزاها – فالرواية فعلا تحكى الكثير عن الظلم الواقع على الإنسان، والذى وقع من الإنسان على الأديان، وأنه يجرى من أغلب الناس مجرى الدم فى العروق، لكن ذلك لم يمنع من ظهور المصلحين ودعاة الخير بين الحين والآخر – وقد تنبه الكاتب إلى ما أساء الآخرون فهمه، فلم يعف سلاح العلم الحديث من استخدامه فى تأييد الظلم.. فكان قوله: ولما ظهر العلم الحديث لم ينتصر على الظالمين، بل اتخذ الظالمون منه سلاحا لهم حتى ضد العلماء.

٢ – ويضيف الكاتب قوله:

«وخاطـر آخر انقدح فى ذهنى بعد أن قابلت الأسـتاذ «نجيـب»، وحدثنى عن روايته: (ثرثـرة فـوق النيل) فقد قال إنه أراد بها تصوير العزلـة التى فرضت على المثقفين فى العهد الناصـرى، فلـم يبق لهم عمل وهـم معزولون عن حياة الناس إلا ضيـاع الوقت فى العربدة، والشـراب، خيِّل إلىّ – ولم أفاتحه فى ذلك – أنه يشـير إلى ما كان يعانيه الناس فى ذلك الوقـت من كبت وإرهاق وانتزاع أملاكهم منهـم فى موجة التأميم التى أوذى الناس منها ولم يستطعيوا حتى أن يجأروا بالشكوى، فالرواية تقول لهم لقد أوذى الأنبياء من قبل ولاقوا فى سبيل دعواتهم ما لاقوا، فليكن لكم باتبَّاعهم أسوة، وعسى أن ينتهى الليل ويأتى نور النهار».

وهـذا دليل علـى أن قراءة الرواية قد تولـد الكثير من الخواطـر، وتوحى بالعديد من المعانـى، لأنها عمل إبداعى، تتولد عنه العشـرات من الإيحـاءات وتثير ما لايحصى من المشاعر والأحاسيس..

٣ – ويختتم مقدمته بخاطره الثالث:

حيـث يذكـر: «كان الخاطر الـذى يضايقنى هو إغراق الرواية فى الشـرب والسـكر والمخـدرات، حتى الأنبياء المصلحون الذين اختارهم لم يبتعدوا عن الغرز، ولم يتنزهوا عن الشـراب والتحشـيش، ولكن هذه خصيصة «نجيب»، فمعظم رواياته تحوى هذه المظاهر، ويبدو أنه لانغماسه فى الحياة الشعبية لاحظ هذه الظاهرة، وهى لا تزال سائدة فى حياتنا المصرية، رغم التشديد ورغم قسوة العقوبات».

والواقع أن «نجيب محفوظ» لم يرد بأى من تحدث عنهم وصُورهم فى روايته شـخصا له قداسة، أو يُوحى إليه من السماء، إنما روايته – كما أرادها – رواية شعبية لأشخاص من البشر، لكل منهم حسناته وسيئاته، ولكنهم جميعا بشر من البشر، حتى «الجبلاوى» ليس إلا بشرا طال به العمر والمقام حتى حان أجله، ومن هنا وإذا كنا بصدد رواية تجرى فـى حارة شـعبية، وكان مـا ورد من صفات يتفق مع هذا الوضـع، فإنه ليس لنا أن نلوم المؤلف، اللهم إلا إذا كان اللوم على أنه لم يكن من الضرورى مجاراة «الواقعية» التامة فى التصوير.. فقد كان يحسـن التخفيف منها بعض الشـىء، ولكننا ونحن القراء ليس لنا أن نقترح على الكاتب كيف يكتب، بل علينا أن نتلقى ما كتب، ثم نبدى من بعد ما يتراءى لنا من ملاحظات، أو ما تثيره كتاباته بداخلنا من مشاعر وأحاسيس.

* * *

ب- رمزيات «أولاد حارتنا»:

لم يقتصـــر الكاتب عمله على فك الرموز، أو إبداء رأيه بالنســبة لحقيقة الأحداث كما يراها، وكما قدّرها.. بل مضى فى ســبيله مفترضــا أن ما توصل إليه هو الحق وأن المؤلف إنما يرمز بأسماء شخصياته إلى ما يقابلها من الشخصيات الدينية وإن كان لم يفته ما أدخله المؤلف من نســيج شــعبى يغلـف الأحداث والأشخاص وسوف نتوقف أمام بعض ما توصل إليه الكاتب من «مفاهيم» محددة فنعمد إلى مناقشتها والتعليق عليها..

١ – هيكل الرواية:

يــرى الكاتــب أن المؤلف عرض فى روايتــه للكون منذ بدء الخليقــة، منذ أن أمر الله – سبحانه – الملائكة أن تسجد «لآدم» فأبى «إبليس»، وعصى ربه، فطرده المولى من الجنة ثم إغراء الشيطان «لآدم» و«حواء» بأن يأكلا من الشجرة المحرمة مما كان سببا فى طردهما من الجنة، وقد تكاثر نسل «آدم» وبعث الله الرسل مبشّرين ومنذرين، فكان لكل نبّى مع قومه قصة وجهاد.. هذا هو هيكل الرواية – كما يراه الكاتب الذى ختم هذه الفقرة بقوله: «ونحن نمر بفصولها لا للشــرح والتفصيل، ولكن لبيان الرمزيات التى تحتويها وظاهر من استعراض الرواية أن المؤلف لم يقف عند الروايات الشعبية، بل رجع إلى الكتب المقدسة، لأنه ذكر تفاصيل ودقائق لا يعرفها الشعبيون السذج، وسنشير إليها عند عرضها..».

والذى نراه أن الكاتب الفاضل انطلق من اليقين بأن الرواية إنما تقوم على الرمز، وأنها وقد عرضت لما ارتأى الكاتب أنه بصدد رواية تضمنت أحداثا توحى بأنها تعنى ما يقابلها مــن أحــداث تاريخ الأديان من أول «آدم» حتى «محمــد».. فقد راح فى مقارنات عديدة، بين ما روته الرواية، وبين ما هو وارد فى القرآن، بل وعرج على ما تضمنه العهد القديم، وراح يردّ الأمور إلى مصادرها، ويستكمل ما يجده من نقص، ويصحّح ما قد يكون هناك من خلاف.. ومضى كذلك فصلا بعد فصل حتى استكمل قراءته للرواية بأكملها.

ونحن من جانبنا لن نتابعه فى ذلك لسببين:

أولهمــا: أننــا قمنا بتلخيص الرواية من واقع ما تضمنتــه الرواية بين دفتيها، وأعفينا القارىء من هذه الدراسات المقارنة التى لا جدوى منها.

ثانيهمـــا: أننا لا نشـــايع الكاتب الرأى الذى يقول إن المؤلــف إنما يريد أن يقدم قصة الكون، وحكاية الخليقة منذ بدايتها.. فمن قال بهذا الرأى كان لابدّ له أن يعود بشخصيات الرواية إلى ما يقابلها من أشـــخاص تاريخ الأديان بما يحتويه من قصص عن الرســـل، ومن أحـــداث فى التاريخ، ومن أماكن وقعت فيها تلــك الأحداث.. وكلها بالطبع وقعت بعيدا عن الحارة، بل وإن معظمها وقع بعيدا عن مصر بجميع أقاليمها.

وعلى ذلك فلا نجد داعيا لمناقشـــة ما قدمه الكاتب فى هذا الصدد وإنما نكتفى بالاشارة إليه، مع الإشارة إلى تقديرنا لما بذله من جهد.

٢ – تقدير جهد الكاتب:

لقد تعرض الكاتب لفصول الرواية، فصلا بعد الأخر: «أدهم» – «جبل» – «رفاعة» – «قاسم» – ثم «عرفة»..

وقـــد حرص كما ذكرنا من قبل على أن يوضـــح الرموز، وأن يبِّين أصل الرواية فى كل جزئيـــة، ليبـــين أوجه النقص أو الخلاف. بل وحرص علـــى أن يقارن بين ما ورد فى كل جزئية فى العهد القديم، وبما ورد فى القرآن الكريم.

ولا شك أن الكاتب بذل فى ذلك جهدا كبيرا، وهو موضع تقدير وبخاصة لأنه:

جرى على نحو فى غاية الدقة والأمانة

لم يحتقر ولم يحقّر ما كتبه المؤلف فى أى مقطع أو جزء، بل حرص على إبراز ما تميزٌ به من تفاصيل تضفى على ما كتبه الروح الشعبية.

وليس من شك فى أن هناك تقاربا كبيرا بين الأشخاص والأحداث التى وردت فى الرواية، وبين ما يقابلها من الأحداث التاريخية ولكن علينا أن نأخذ فى الاعتبار الحقائق الآتية:

الحقيقة الأولى: أن هذا التقارب وإن كان كبيرا إلا أنه ليس تشابها بالمرة.

الحقيقة الثانية: أن الوســـائل والأســـاليب فى الرواية تختلف تمام الاختلاف عن مثيلاتها فى التاريخ.

الحقيقة الثالثة: أن مصدر الرواية هو خيال المؤلف وفكره، وبالتالى فكل الأحداث تنطبع بطابعـــه، وتتميـــز بما يتميز به أدبه.. وتفترق أحداث الرواية من هذه الناحية افتراقا كبيرا عما يقابلها من أحداث التاريخ..

الحقيقة الرابعة: أن أحداث الرواية ذات طابع بشرى، تماثل ما يجرى فى دنيا الناس، وتحاول أن تحاكيها، بينما أن أحداث التاريخ مصدرها سماوى، وطابعها يختلف عما يجرى فى دنيا البشر أىّ اختلاف!

الحقيقة الخامسة: أن أحداث الرواية بكل فصولها تكوِّن بناء متكاملا على نمط شعبى: ويتسق مع كونها أحداثا تجرى فى حارة شعبية.. بينما أحداث التاريخ جرت فى أماكن متعددة، دين شعوب متباينة، وتتوزع العبر فيها خلال آلاف السنوات وتتنوع باختلاف الأماكن، وليس لها تماسك فيما بين بعضها البعض كما هو الشأن فى أحداث الرواية.

وعلى ذلك فنحن مع تقديرنا لجهد الكاتب، وتحيتنا لموفور علمه، وسعة اطلاعه لا يسعنا إلا أن نخالفه فى أن الرواية لها مفهومها الخاص بها، وبناؤها الذى تفردت به، وهى وإن كانت لها صلة قربى بأحداث التاريخ، إلا أنها ليست بالصلة الوثيقة – فلكل منهما استقلاله، وذاتيته المتفردة.. وذلك أن أحداث التاريخ لها دلالاتها الروحية التى تمس الشعور الدينى، وترتبط بالعقيدة.. أما أحداث الرواية فهى لا تعدو أن تكون عملا فنيا وذاتيا.. وأيا ما كان حظه من الإبداع، ونصيبه من الإجادة – فهو لا يزال من عمل البشر وفى حدود طاقات البشر وإمكانياته، ومن ثم فلن يبلغ مبلغ الأحداث التاريخية بحال من الأحوال، ويظلاّن ولكل منهما مجاله.. وعالمه.. وتفرده الخاص به.

* * *

جـ- تعقيبات:

• نختار أهم ما أورده الكاتب من تعقيبات لنعلق عليها – ففى مواضع مختلفة كتب ما يأتى:

١ – كتابتى عن هذه الرواية هى حل لرموزها، ومقابلة بين ما جاء فيها، وما جاء عن أحداثها فى كتب التاريخ والأديان، ومما سبق نجد أن موضوع الرواية كلها يتركز على رسالات الأنبياء الكبار، وهى فى عرض حوادثها تحتذى سيرهم وجهادهم ومواقفهم بين الناس، وأمام الحكام، وقد خفت صوت هذه الرسالات، ونسى الناس أو أعرضوا عن هذه الدعوات أمام التقدم العلمى الحديث.. وقد فسّرت بعض الرموز فى الرواية كما بدت لى، ويوم أن قابلت الأستاذ «نجيب» وحادثته فى شأن هذه الرواية لم أكن على تذكر جيد لأحداثها.. ولكن بدا لى منه أنه يريد تأكيد الصورة المصرية بإدخال هذه الأحداث، وهى أخلاق شعبية مصرية.

٢ – قال الأستاذ «نجيب»: إنه لا يتحدث عن الله – تعالى – ولا عن الكون، وإنما يصف حارة شعبية، بها رجل مقتدر له في الحارة وقف وله نظار، وقد جاء في أول الرواية: إن الرجل كبر ويريد أحد أبنائه أن يتولى النظارة!

هذا كلامه..

ولكن أى رجل يعمّر كل هذه السنين! توالى على الحارة نظار وفتوات ومصلحون، وهو حى لم يمت إلا بعد مئات السنين..

٣ – ويختتم الكاتب حديثه بقوله: «هذه انطباعاتنا عن هذه الرواية الكبيرة الضخمة وهى مليئة بالصور والمناظر الشعبية، ولا مغزى لها إلا أنها تصور شعبا فقيرا يمتهن المهن الحقيرة، وجبابرة أقوياء يستهينون به ويسخرونه لما يريدون وينهبون أملاكه وأمواله، والشعب يصبو لإصلاحات المصلحين ولكنها لا تدوم ولا تلبث إلا قليلا، وتحت ضغط المعادين للمصلحين وجبروتهم يضطر الناس إلى شتم المصلحين الذين جاءوا لإنقاذهم.. هذه الصورة ليست مجرد صورة شعبية، ولكنها تمثل حال مصر فى مختلف العصور، بل وحال الناس فى أمكنة وظروف شتى مختلفة»

ولنا أن نقرر أن الكاتب هنا وإن أيقن أن الأحداث التى تضمنتها الرواية إنما هى ترديد لأحداث تاريخية إلا أنه مع تقدمه فى الحديث توصّل إلى أن المؤلف إنما أراد بها أن يعبر عما عانى أهل مصر من ظلم وقهر وسوء معاملة على مر العصور، وأنه لذلك روى الأحداث – حتى ماله أصل فى التاريخ – فى إطار شعبى، مغلبا الطابع المصرى.. وكأنه يريد أن يقول إننا بإزاء عمل روائى يتحدث عن مصر والمصريين ولكنه استعان بالتراث الدينى والشعبى عن الأنبياء والمرسلين.. ولنا أن نؤكد أن «نجيب محفوظ» لم يقصد بحال من الأحوال أن يعبّر عن الذات الإلهية بـ «الجبلاوى» وإذ كنت تتساءل وهل لبشر أن يعيش مئات السنين وأن يطول عمره كما طال عمر «الجبلاوى»؟ فإننا نقول إننا بصدد عمل روائى وليس العمل الروائى بمطلوب منه أن يتوافق دائما مع المنطق وأن يستقيم مع الواقع والكاتب يعلم الكثير ولا شك عن «أدب اللامعقول» وإن العمل الروائى يقبل بالطبع ما لا يقبله واقع الحياة.. فهو عمل يقوم فيه الخيال – بل والأحلام – بالدور الأول.

وعلى ذلك فسوف نظل نكبرك، ونقدرك يادكتور «عبد الجليل شلبى» حتى وإن اختلفنا معك فى تفسير الرموز.. ولك منا ألف سلام.

* * *

المبحث الرابع

عن

«أولاد حارتنا فيها قولان»

للكاتب محمد جلال كشك

هذا كتاب وإن كان وجيزا، بل في غاية الإيجاز، لكنه ينطوى على الكثير مما يدحض أقــوال من أفتوا بكفر الكاتب، وتكفير الرواية، وأجازوا قتله.. حتى قبل محاكمته وثبوت رفضه أن يتوب إلى ربه..!!.

١ - شعار الكتاب:

• كان الشعار الذى زينّ به الكاتب الصفحة الأولى من كتابه هى هذه الأسطر:

«إن المســلم الذى يتعرف على الله سبحانـــه وتعالى من ملامح شخصية «الجبلاوى»، هو الذى يســتحق الاســتتابة، ويجـب عليـــه أن يعيــد تثقيف نفســه فى علـم التوحيــد هــو» مســلم ظن بــالله الظنون، ولــم يقــدُر الله حق قــدره... والســمــاوات مطويــات بيمينه.. سبحانــــه وتعالــــى عمــا يشركـــون».

٢ - كلمة عن الكاتب والكتاب وعن الجائزة:

والكاتــب هو الأســتاذ «محمد جلال كشــك».. الكاتب المعروف، ولــه مؤلفات عديدة ومعروفة، يتسم بالشجاعة والجرأة، وقول الحق..

والكتاب صادر عن دار الزهراء للإعلام العربى – فى عام ١٩٨٩م – وهو صغير الحجم فى ستين صفحة من الحجم المتوسط.

«أدلى الكاتــب فــى هذا الكتــاب بدلوه، أو قدّم شــهادته فى وقت مبكــر، عقب فوز المؤلــف بجائزة نوبل، ولذلك تناول فى قســمه الأول الحديث عن الجائزة، وما أثارته من خصومات، وما جددته من عداوات».. وكان مما قاله:

من العسف تقييم الجائزة الآن بمواقف اللجنة من عشرين عاما..وفى النهاية فإن فوزنا بالجائـزة، يُعد تقديـرا مضاعفا، لأن لجنتها إذا انحازت فهى تنحاز ضدنا، وليس معنا، فهى مثل غيرها من المؤسسـات العالمية لا ترجونا ولا تخشـانا، وهذا ما عنيته فى برقية التهنئـة التى بعثت بهـا إلى أديبنا الكبير فور إعلان فوزه بالجائزة إذ قلت: «إن كان ثمة عنصر سياسى فى الجائزة، فهو الذى أخّر حصولك عليها لعشرين عاما»

٣ - رأى الكاتب فى الرواية:

• قال الكاتب:

«إن شـئت أن أجمل رأيى عنها فأنا أقول: إن المسـلم الذى يتعرف على الله سـبحانه وتعالى من ملامح شـخصية «الجبلاوى»، هو الذى يسـتحق الاسـتتابة، ويجب عليه أن يعيد تثقيف نفسه فى علم التوحيد، وهو مسلم ظنّ بالله الظنون، ولم يقدِّر الله حق قدره.. والسـماوات مطويات بيمينه – سـبحانه وتعالى عما يشـركون.. ولكـن لأن الإطالة لازمة والإسـهاب ضرورى فى حوار المتخلّفين فأقول: «الجبـلاوى» الذى قدّمه أديبنا هو رجل يسـعى على قدميه، ويلبس جلبابا. ويبنى لنفسـه بيتا (يحتمى فيه من الخوف والوحشة وقطاع الطرق).. وهو (جبار فى البيت كما هو جبار فى الخلاء).. (فتوة، له وجه إذا غضب (القهر حتى حاكى لون النيل فى احتدام فيضانه)، وهو إذا جلس.. الخ»

وينقل الكاتب عن المؤلف ما أضفاه على «الجبلاوى» من صفات بشرية، وما نسبه إليه من تصرفات لايأتيها إلا بشر.. كل ذلك ينقله من صفحات الرواية.. ثم يتساءل الكاتب:

• ما وجه الشبه والاشتباه؟

ما مبرر توقيف «نجيب محفوظ» بتهمة العيب فى الذات الإلهية؟

• للإجابة عن هذا التساؤل يذكر الكاتب ما يأتى: (ص ٤٧ – ٥٣ – المرجع المذكور)

أ – نعم الرواية لها علاقة بالأديان وقصة الخلق، ولكن كيف؟ ولماذا رأينا أنها لاتسىء إلى الدين؟ الأمر أعمق مما يذهب إليه المفسرون إنها قضية قديمة شديدة التعقيد، خطيرة النتائج.

ب – فقـد وردت قصة الخلق فى التـوراة، مزيجا من ومضات الوحى الإلهى، ولكنها أقل من النذر اليسـير، مخلوطة بركام هائل من خرافات الشعوب الوثنية، وتخيلات كتبة التـوراة على مر القـرون.. وقد كان تأثير هـذا الكتاب محدودا عزله اليهـود عن العالم، وحصرهم فكرهم فيما بينهم.

جـ – فلما جاءت المسـيحية وصدقت على التوراة المتداولة وسمتها العهد القديم أعطت قدسـية للكتـاب ورواجا هائلا لرواياته، وتأثيرا كبيرا لهـذه الروايات وبخاصة فيما يتصل بتصور الذات الإلهية.

د – فلما جاء الإسلام بدعوة الحق سبحانه وتعالى، على لسان من لاينطق عن الهوى، كان موقفـه واضحـا لا تناقض فيـه ولاحرج، فقد أعلن أن هذا الكتاب الذى يحمل اسـم التوراة هو من صنع البشر، وهو غير التوراة التى نزلت على «موسى» والتى يقر بها الرسول والمسلمون، وهو الموقف الطبيعى من دين جاء بأنقى صيغة للتوحيد..

هـ – وكان ذلك كفيلا بتحرير المسـلمين من التصورات التوراتية والترهات بل والفضائح التى وردت بها.. فالإسـلام فى صيغته القرآنية.. وأحاديث الرسـول عليه الصلاة والسلام وبنفيه صحة التوراة، أنقذ المسلمين من هذه الترهات..

و – وللأسـف عندما ظهر المفسـرون والإخباريون والمحدِّثون استسـهلوا الاعتماد على الرواية الإسرائيلية فى التوراة، تلك الرواية الغزيرة التفاصيل إلى حد الثرثرة واستعانوا بها فى تفسـير وتفصيل الإشارات التى وردت فى القرآن لبعض الأحداث أو الشخصيات التى جاءت فى التوراة، ثم اغترفوا من هذه التفاصيل.. وهكذا تسـربت تلك الإسـرائيليات إلى الثقافة الإسلامية..

ز – وأخـيرا وكمحصلـة لما ذكرنا ولما فاتنا حصره فقد تسـرب إلى الفكر الإسـلامى – للأسف – ملامح إله التوراة، رغم ما اتصف به الله من تنزيه عن صفات «يهوه» أو «آيل» الذى يعمل ويتعب ستة أيام فى الأسبوع، ثم يستريح فى اليوم السابع من التعب..

ويخلص من ذلك كله إلى قوله هذا هو الإله الذى شبه لهم فى شخص «الجبلاوى».

ثم يضيف الكاتب قوله:

«أديبنـا الكبير عمد إلى رواية التوراة هذه التى اسـتقرت فـى الفلكلور الدينى العالمى، فأعـاد صياغتهـا.. وهو ما فعله عشـرات الفنانين من قبله، إلا أن خلفيته الإسـلامية لم توقعه فيما يمس تصورنا لله سـبحانه وتعالى، بل لعله غالى فى الاحتياط لهذه الشـبهة أو المظنة، ومن هنا كان حرصه على إضافة تفاصيل شـديدة الآدمية لرمزه، ولو كان يهدف إلى الإيحاء بأنه يتحدث عن الله. إله المسـلمين والإسـلام لما احتاج لهذه التفاصيل التى تضلل القارىء وتعقد الرمز».

ثم يناقش مدعى ألوهية «الجبلاوى» فيتساءل.

إن كان «الجبلاوى» هو «الله» فى رمز «نجيب محفوظ»، فلماذا جعله والدا لخمسة أبناء؟ ولماذا يتزوج «رفاعة» ويقتل إن كان هو مسيح القرآن الذى «ماصلبوه وما قتلوه»؟

«نجيب محفوظ» لم يفعل أكثر من مبيّض حارتنا الذى رسم صورة «للجبلاوى» على حائط المقهى على: «مثال ما يرد من أوصافه فى الحكايات».. الحكايات الإسرائيلية بالطبع، فليس فى الإسلام حكايات ولا أوصاف لله يمكن أن ترسم بالفرشاة.

وقد يكون هذا تفسيرا مقبولا، للردّ على ادعاءات المدعين، فليس من شك فى أن المؤلف قد قرأ كثيرا حتى الإسرائيليات لابد وأن يكون قد قرأها فضلا – بطبيعة الحال عن قراءته للقرآن الكريم، فى تفاسيره المختلفة التى رأيت بنفسى بعضها فى غرفته التى يستقبل فيها ضيوفه – قرأ ذلك كله ليس كمراجع لأنه لم يكن يؤلف كتابا دينيا ولا كتابا تاريخيا. وإنما قرأها كمصادر لثقافته التى كان حريصا على تنميتها وتوسعتها فى مختلف المجالات. لكن مما لاشك فيه أنه عند قيامه بكتابة «الرواية» إنما استمدها مما أوحى به خياله، ورسم أحداثها واختار أشخاصها وأجرى ما أجرى من حوارات. كل ذلك استمده من ذات نفسه، ولم يرجع بشأنه إلى مرجع فهو كان بصدد عمل فنّى إبداعى، وليس عملا تاريخيا أو عملا دينيا، فلم يستوح إلا فيض إحساسه، ولم يرجع إلا إلى ما تنطوى عليه هواجسه وخيالاته، ومضى فى عمله مستلهما ذلك كله، وهادفا إلى تحقيق غاية أوغايات من عمله لم يكشف عنها، وإنما ترك ذلك كله لقرائه يرون فى عمله الإبداعى ما يرون.. أو مايرى كل منهم مستوحيا هو الآخر ذاته، قارئا انعكاسات ما قرأه على تلك الذات.. على أن يكون من المسلّمات أنه لا يمكن القول بأن كل الناس يحبون قراءة الروايات والقصص، وأنهم فى ذات الوقت يحسنون جميعهم – فهمها وتحديد مرماها.. فذلك أمر غير صحيح، لأن من يحبُّ هذا الفن ويؤثره على ما سواه من الفنون إنما هم قلّة بين الناس فضلا عن أن من يحسنون من بين أفراد هذه القله فهم الأمور على حقيقتها، والغوص مع المؤلف إلى حيث تمضى به شراعه هم أقل من القليل. ومن ثم فلا يجوز التعميم، أو إصدار الأحكام المطلقة..!

٤- وخلاصة رأى الكاتب:

إن درء الحدود بالشبهات قاعدة إسلامية يجب الالتزام بها.. ومن ثم يحق التساؤل: كيف غفل الذين أدانوا عن كل الشبهات التى تحيط بشخصية «الجبلاوى»، الرجل الذى يأكل وينام ويتزوج ويطلّق وينجب الأولاد ويشيخ ويموت؟

ثم نراه يقرر أنه عندما يرمز الفنان، فلا يجوز لنا أن نفتش عن قلبه أو نتهمه بما لم يقل أو يصرح، ولنتذكر دائما أن الفن الرمزى، هو كما يقال عن ماء زمزم: «هو لما شرب له».. أى على‌حسب نية الشارب.. هكذا الفن الرمزى يوحى لك بما تريد أن تفهم.لذا يقال: إنه على عدة مستويات، وأن القارىء يشترك مع الكاتب فى تأليفه.

كما يضيف قوله: أنه لا يجوز أن يستمر الخلط بين حكايات التوراة، ومحكم التنزيل حتى ولو تشابهت الأسماء..

ويحدث الكاتب عن موقف المؤلف من رسول الله بالذات فيقول: ومرة أخرى فإن الالتزام بالحقيقة يحتم القول بأن «نجيب محفوظ» رأى ضرورة إضافة رمز دعوة الإسلام، ليستكمل الحقيقة من ناحية، ولكى لا يسقط فى النفى اليهودى للإسلام، ومن ناحية أخرى ليعطى لنفسه الفرصة فيعبِّر عن تفضيله لرسالة نبِّى الإسلام، وقناعته بتفوقها على كل الرسالات، وأن الإسلام هو خاتم الأديان؛ ولاشك أن «قاسم» يرمز إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام – ولعل أديبنا قد استخدم هذا الاسم عن عمد لكى لا يترك مجالا للتخمين، ولأنه فى حالة الإسلام، لا يملك حرية التعامل مع التاريخ، لأن تاريخ الإسلام ثابت ومحقَّق و«محفوظ». وباستثناء ضرورات الرمز التى لا تسىء إلى المرموز إليه.. فإن القارىء يخرج فى النهاية بأن دعوة الإسلام كانت خاتمة وخير الدعوات، وأن حضارة الإسلام كانت أفضل ما مر بحارتنا.. وإذا كان «نجيب محفوظ» قد أوصل القارىء إلى هذه النتيجة عبر الرمز، فالعبرة بالنتائج.

وإذا كان المؤلف قد اختار اسم «قاسم» ليرمز به إلى «محمد عليه الصلاة والسلام» فليس معنى ذلك أنه كان يروى حياته عليه الصلاة والسلام، أو أنه كان يؤرخ لرسالته أو رسالات من سبقه من أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام، وإنما هى رموز لمصلحين، تأثروا، واقتدوا وجاهدوا، ونذروا أنفسهم لخير البشرية فما هو براو لتاريخ، أو باحث فى الأديان، وإنما عارض لأصحاب المثل العليا محدث عنهم حديثا قصصيا روائيا شعبيا، وليس من شك فى أن كلا من قرائه له من رسوله الذى يتبع ديانته هاد ومرشد.. بل هو قدوته ومثله الأعلى وكذلك فإن إحساسه حيال الأديان الأخرى – طالما أنه صادق الإيمان – هو الاحترام والتقدير. فلكل رسول رسالته، ولكل مصلح غايته.. ومهمة المبدع أن يصور للناس ما يستثيره من أحداث، وأن يحدثهم عمن يثير فى نفسه الرغبة فى الحديث من الأشخاص،

دون أن يحاسب المؤلف في هذه الحالة كما يحاسب المؤرخ أو الراوى لأخبار الدين: لم قلت؟ ولم تركت؟ ولم أضفت؟ ولم خالفت الأصل؟ ولم زدت هنا وأنقصت هناك، ولم لم ترو كل الوقائع؟ ولم تنسب إليه ما لم يحدث ولم تستنطقه وتجرى على لسانه مالم يقل؟.. فالجواب حاضر وهو أن المبدع هنا يخضع لعوامل فنه ودواعي إبداعه وما تمضى به الأحداث التى يرويها من نتائج.. ومن هنا نقول:

يجب أن تفهم الرواية على أنها عمل فنى إبداعى.

إذا احتوت الرواية على تشابه أو تقارب مع أحداث معروفة، فليس من الضرورى أن يمضى التشابه حتى غايته.. فالحدث التاريخى أمر خارج عن مجال الرواية، ومسار الأحداث، وغاية المؤلف..

• وأنه بذلك يعتدل الميزان..

ونقول للأستاذ «محمد جلال كشك»: عليك من الله سلام، ولك من كل منصف صادق الدعوات بالخير والغفران.

* * *

المبحث الخامس

«أولاد حارتنا بين الفن والدين»
للكاتب الكبير رجاء النقاش

١- كلمة عن الكاتب:

رحمـك الله يا «رجاء» بقدر ما قدمت للأدب بصفة عامة، وللنقد الأدبى بصفة خاصة، ولأدب «نجيب محفوظ» بصفة أخص من جهود كبيرة تتميز بالعمق والدقة والشمول فضلا عـن تميزها بالوفـاء والإخلاص والأمانة، وإكبار الوطن وأهله، وإعلاء شـأن اللغة العربية بالـذات، فى سلاسـة ورقة وبما تميزت به كتاباتك من جمـال العرض، وجمال التعبير، بحيـث كانـت تقع من القارئ موقـع الرضا والتقديـر وتصل إلى قلبه مباشـرة، مخاطبة الوجدان، مثيرة لديه أعماق الشعور...

كتاب «رجاء» الذى نعرض له سـبقته عدة كتب عـن «نجيب محفوظ» كان من أهمها كتابان:

كتابـه: «نجيب محفوظ»: صفحات مـن مذكراته وأضواء جديدة على أدبه وحياته – وقد صدرت طبعته الأولى عن مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٩٨م.

كتابـه: فى حـب «نجيب محفوظ» – وقد صدرت طبعتـه الأولى فى عام ٢٠٠٤م كما صدرت طبعته الثانية فى عام ٢٠٠٦م عن دار الشروق.

أمـا الكتاب الذى نحـن بصدده فقد صدر فى عام ٢٠٠٨م عن دار الهلال فى سلسـلة كتاب الهلال.

وإذا كان كتابـه الـذى بين أيدينا يدور كله حول روايتـه «أولاد حارتنا» – فقد تعرض فى الكتابين الآخرين لذات الرواية – تعرض لها فى الكتاب الأول، وكان كل ما ورد إنما نسب إلى «نجيب محفوظ» أى أنه قيل على لسانه، ورواية عنه.

أمـا الكتـاب الثانى فقد تضمن فصلا كاملا عن الروايـة كان عنوانه «ارفعوا أيديكم عن أولاد حارتنا». وقد تحدث فيه حديثا شيقا عن الموضوع.

وإذا كنا نستعرض بصفة أساسية في حديثنا – ومرجعنا الأساسي ما تضمنه كتاب الهلال الذى نحن بصدده – فإننا سوف نعرج – بين الحين والآخر – على الكتابين الآخرين.

وقبل أن نمضى فى العرض نود أن نؤكد أن كتابات «رجاء النقاش» لا تعرف المجاملة أو المحاباة، وهى تتميز بالموضوعية الحقيقية والنظرة الصادقة والأمانة المطلقة.

وأود أن أؤكد أن هذا الذى ذكرته عن «رجاء النقاش» كان ثمرة لأمرين:

أولهما: قراءتى لكل – أو لمعظم – ما نشره من مقالات ومؤلفات قراءة معجب محب.

ثانيهما: تعاملى معه وعلاقتى الشخصية به التى أوقفتنى على رقة حاشيته، ومدى سماحة نفسه، وحبه للناس أجمعين.

• مرة أخرى نطلب له الرحمة وخير الجزاء.

٢ - النواحى التى تناولها «رجاء»:

كتاب «رجاء» عن رواية «أولاد حارتنا» عنونه كاتبه بأنه «بين الفن والدين» ولكن الواقع أن ما حدث للرواية بسبب الآراء المتطرفة التى قيلت حولها هو الذى استحوذ على الجانب الأكبر من دراسة «رجاء» إذ لم تحظ دراسته لها من الناحية الفنية بأكثر من عبارات تأتى ضمنا عند تناوله تحليل الرواية لتبرئتها مما نسبه إليها من يأخذون الأمور بظواهرها، دون أدنى دراسة، وحتى لو قاموا بالدراسة فإنها تأتى دراسة متحيزة ومتعجلة فى نفس الوقت، لا يهمّها قولة الحق بقدر ما يهمها نشر الاسم، ومشايعة جمهور المهاجمين ..!!

وعلى ذلك فقد اتجه «رجاء» فى مطلع دراسته إلى بيان أهمية الرواية، وما صحب ظهورها من اتهامات وبيان نتائج ذلك.

ويعرض «رجاء» بعد ذلك لمناقشة آراء بعض المعارضين مناقشة تفصيلية مع إشارة إلى آراء العلماء الذين أيدوا الرواية ونفوا عنها ما هو منسوب إليها.

ويتعرض – الكاتب – بعد ذلك لعقيدة المؤلف، وكيف أنها عقيدة صحيحة فيوضّح ذلك ويفصّله.. ويعرض لموقفه من «سلمان رشدى» مفسّرا ومؤصلا.

• ثم يزيد القول فيما يعنيه المؤلف بروايته وما ترمز إليه، وهل لها شبيه فى الأدب العربى.

ونظرا لأهمية هذه النواحى، ولأن هذه الدراسة هى الدراسة الشاملة الصادقة والمخلصة والتى تقوم على استهداف الحقِّ وبيان الحقيقة، ولا تعرف التحيز أو المجاملة، بل تحرص على مراعاة العدالة والإنصاف سواء فيما تقوم عليه من آراء شخصية أو ما تضمنته من مناقشة لأراء ومواقف الآخرين.. فلذلك كله فقد سمحنا لأنفسنا بأن نطيل فى العرض: وأن نتعرض لأهم ما تضمنته الدراسة من أراء ومناقشات.. مع إبداء تعليقنا، أو تعليقاتنا على مانعرض من صائب القول.

وإذا كنا بصدد دراسة ما تعرضت له الرواية من محاكمات توالت علىأقلام الكتاب بمختلف اتجاهاتهم.. بما ساهمت كل دراسة فى إرساء «أسباب» الحكم النهائى.. فإننا نقرر – ومنذ الآن – أن دراسة «رجاء النقاش» سوف تساهم بقدر كبير فى الحكم الذى سوف نخلص إليه فى فصل الخطاب بما قدمت من أسباب قوية، وتحليلات دقيقة، وأراء منصفة – مرة أخرى نكرر الدعاء «لرجاء النقاش» بالمغفرة، وواسع الرحمة من لدن العزيز الكريم الغفار.

٣ - الرواية. وما اقترن به ظهورها من ظروف:

أ – يذكر الكاتب أن الرواية كانت هامة جدا فى أدب «نجيب محفوظ»، ويعود ذلك إلى أسباب يعدِّدها الكاتب على النحو التالى، «ص٦٨ وما بعدها من المرجع المذكور»:

السبب الأول: «أن «نجيب محفوظ» قد كتبها بعد فترة انقطاع عن الكتابة الأدبية دامت خمس سنوات امتدت من سنة ١٩٥٢م إلى سنة ١٩٥٧م».

السبب الثانى: «لأهمية الرواية – فهى تمثل نوعا من التحول الكامل فى أدب «نجيب محفوظ»، فبعد أن كان النبع الأساسى لأدبه هو النبع الواقعى الاجتماعى الذى يعتمد على الوصف التحليلى للأحداث والشخصيات – انتقل «نجيب» إلى عالم روحانى ملىء بالشفافية والشاعرية والرمز والإيحاء، كل ذلك دون أن يغفل عقله وقلبه عن مشاكل المجتمع والمتاعب الواقعية التى تحاصر الإنسان فى حاضره ومستقبله، ولكن الواقع الاجتماعى تحوَّل بين يديه – بلغة العلوم الرياضية – من «كتلة» إلى «طاقة» ومن «مادة ثابتة» و«جامدة» إلى «انفجار» يشبه «الانفجار الذرِّى» وهو هنا انفجار أدبى ومعنوى، يهتم فيه «نجيب» بالاضطرابات النفسية والروحية الناشئة عن ظروف اجتماعية أو فكرية صعبة لا يملك الإنسان أمامها قدرة على التصرف، مما يقوده إلى

ذلك العالم الذى نطلق عليه أحيانا اسم «عالم اللامعقول»، وقد كان فى الاتجاه الجديد «لنجيب محفوظ» ابتداء من رواية «أولاد حارتنا» خير كثير إذ أنه أطلق موهبة «نجيب» إلى آفاق إنسانية واسعة وروحية».

والسبب الثالث: أو الأهمية الثانية لظهور الرواية وهى أهمية كبيرة فى الأدب العربى المعاصر، وفى حياة «نجيب محفوظ» أيضا، فهذه الرواية كانت السبب فى تعرض «نجيب» لمحاولة كادت تنجح لاغتياله فى مساء يوم الجمعة ١٤ أكتوبر ١٩٩٤م، فقد صدرت فتاوى تأثر بها بعض الشباب فكانت المحاولة التى كتب لها الفشل على النحو الذى سبق لنا تفصيله (فى المبحث الثانى من هذا الفصل).

ويخلص الكاتب إلى قوله:

• وننتهى من ذلك كله بالنتائج العامة الآتية (ص٧٦ – وما بعدها).

أولا: كانت رواية «أولاد حارتنا» رواية رائعة من الناحية الفنية، ولم يكن فيها لفظ واحد يمكن أن يتيح للذين أساءوا تفسيرها أن يجدوا دليلا قاطعا على صحة تفسيرهم السيىء.

ثانيا: كان الاتهام ضد الرواية قائما على تفسير نوايا الكاتب الخفية، ولم يكن قائما على النص الصريح الظاهر للرواية، لأن النص نفسه لا يتيح لأحد أن يأخذ التفسير السيىء إلى النوايا الخفية للكاتب وتأويل رموزه مما يضعف جبهة الاتهام.

ثالثا: إن الرواية بسبب قوتها وجمالها ودقة هندستها الفنية كانت تحتمل تفسيرات كثيرة متعددة لها حججها وبراهينها القوية ممّا يجعل هناك تعدّدا فى التفسير لهذه الرواية. والتعدّد القائم على أسباب قوية يجعل اتهام الرواية ضعيفا لأن القاعدة القانونية الحكيمة تقول: (ادرءوا الحدود بالشبهات) – وادرأوا معناها امنعوا، والحدود هى العقوبات فإذا كانت هنالك شبهات تجعل الاتهام غير قاطع وغير نهائى، فإن التشريع الحكيم يمنع العقوبة والإدانة..

رابعا: كان موقف الحكومة فى عهد «عبد الناصر» فى منتهى الحكمة والحزم، فهى لم تمنع نشر الرواية فى جريدة الأهرام، ولم توقف النشر عندما ظهرت الاعتراضات على الرواية، لأن هذه الاعتراضات لم يكن فيها من نص الرواية نفسها ما يدين الرواية بصورة قاطعة ونهائية. ولذلك لم تستجب الدولة لرأى من هذا النوع لا يملك حجة ثابتة.

خامســا: تصرفت الدولة بمنتهــى الحكمة عندما نصحت «نجيب» بنشــر الرواية فى كتاب خارج مصر، ورأت عدم نشــر الكتاب فى مصر، لمنع إثارة عاصفة لابد من الســيطرة عليهــا قبــل أن تهب، وقد أخذ «نجيب» بهــذه النصيحة وتقبَّـلها، دون إحســاس بأى ضغــط عليه، ولم تصدر الدولة أى قــرار بمصادرة الرواية، واعتبرت أن الاتفاق بينها وبين «نجيب» على نشــر الرواية خارج مصر هو بديل محترم لإصدار قرار بالمصادرة. وقد قامت (دار الآداب) فى بيروت بإصدار الرواية.. فى طبعاتها المتتالية.. ولم يصدر من الدولة قرار بمنع دخول الرواية المطبوعة فى بيروت إلى مصر.

* * *

وكما أوضح الكاتب فإن هذه الرواية التى يرى أنها كانت قوية وجميلة ودقيقة الهندسة، ومن ثم فإنها تقبل العديد من التفسيرات، ولكنه أضاف قولة حق، أن من نسبوا إلى الرواية ما نســبوا مــن اتهامات تتيح لهم الاعتراض على الرواية فــإن اعتراضاتهم لم يكن لها من الرواية نفســها نص أو لفظ يســاندها.. بل إن هؤلاء المعترضين عمدوا إلى التفتيش والبحث عن «نية» المؤلف أو عن قصده «الخفّى ليقيموا عليه دليلهم – وقد قدمنا مما ذكره الشــيخ «عبــد الحميد كشــك» والدكتور «المطعنى» أدلة على ذلــك – فالرواية كما يقول كل منصف وكل قــارئ يقرأ بعقله وقلبه وعينيه ليس فيها ســوى بنــاء فنى جميل، يحتمل أكثر من دلالــة، ويوحى بالعديد من الأفكار، ولكن ليس بين ســطورها ما ينطوى على عدوان على الدين، أو مســاس بالذات الإلهية.. بل إن الرواية كانت بمثابة انفجار أدبى، إذ كان لها المعجبــون بها، والمتأثرون بها، لأنها فتحــت آفاقا جديدة وأضاءت فى عالم الأدب والفن إضاءات عديدة، وكانت بداية «لنجيب محفوظ» نفســه فى ســبيل التطور الطبيعى له فى منهاجه، ومساره، وتفكيره.

* * *

٤- دراسة «رجاء» لرأى المرحوم الشيخ «محمد الغزالى»:

وكان حــرص «رجــاء» على الحياد والموضوعية فى دراســته حرصا كبيرا، ومن ثم فإذا انتهــى إلى رأى فيمكنننــا أن نقرر أنه لم ينته إليه إلا بعد دراســة متأنية ليس للنص وحده

وإنمـــا لكل ما قيل حوله مــن آراء معارضة وتذهب فى معارضتها إلى أقصى المدى ومن آراء مؤيدة لا ترى فى العمل إلا ثمرة فن مبدع.

ومن مظاهر اهتمامه بمختلف الآراء دراســته لما تردد عن أراء للمرحوم الشــيخ الجليل «محمد الغزالى».. فماذا نقل عنه؟ وبم عقب على رأيه؟ وما هى كلمتنا بشأن ما قاله الشيخ وما رد به «نجيب» عليه..؟

ما ذكره «رجاء» عن الشيخ «الغزالى» ورد فى موضعين، ويبدو أن كلا منهما كتب ونشر فى وقت مختلف عن الآخر:

أما عن الرأى الذى ورد أولا.. فقد أشار إليه – ص ٩٨ وما بعدها – بقوله:

الشــيخ «محمد الغزالى» قال فى حوار مع الأديب الروائى الكبير «يوسف القعيد»: «نعم أنا ضد «أولاد حارتنا» لأنى أرى أنها رواية تؤرخ للبشرية وللأنبياء الذين أرسلوا إلى البشر كافــة».. هذا هو رأى الشــيخ «الغزالى» فى الرواية، ولكن هــذا الرأى لم يرتبط بالتكفير أو إهــدار الدم أو الدعوة إلى قتــل «نجيب محفوظ»، إنه رأى يمكن مناقشــته، والردّ عليه، لأنــه لا يخرج عن حدود الموضــوع إلى حدود المحاكمات، وإصدار الأحكام على الناس فى غيابهم ودون الاســتماع إلى دفاعهم، ثم العمل علــى تنفيذ هذه الأحكام الدموية بيد الذين أصدروها من دون أن يكون لهم حق لا فى إصدار الأحكام ولا فى تنفيذها.. ما قاله الشيخ «الغزالى» هو رأى لم ينحرف صاحبه إلى التجريح والتكفير. وقد قال هذا العالم الدينى الكبير أنه ضد الرواية ومن حقّه أن يقول ذلك، وعندما قيل للشــيخ «الغزالى» أن «الشــيخ كشك» والشيخ «عمر عبد الرحمن» أهدروا دم «نجيب محفوظ» قال: إن «الشيخ كشك» جاهل أما «عمر عبد الرحمن» فإنســان مريض. وهذا معناه أن الشيخ «الغزالى» كان يرفض تماما تكفير «نجيب محفوظ» ويرفض الاعتداء عليه.

أمــا عــن الرأى الذى ورد فــى الموضع الثانى: فقــد ورد (ص ١٤٥ وما بعدها) على النحو التالى:

توقفت طويلا أمام شــهادة قدمها الأديب المعروف الأستاذ «سليمان فياض» ونشرها فى جريدة الأهالى المصرية بتاريخ ٢٣ نوفمبر ســنة ١٩٩٤م – وهذه الشــهادة بالغة الأهمية، ولا يوجد ما يدعونا إلى الشك فى صدقها، وإن كانت فى النهاية لا تخرج عن كونها شهادة أديب، وأنها من المذكرات الشــخصية، وهى خالية من تقديم وثيقة تدل على ما جاء فى

هذه الشـــهادة، ولو أن هذه الوثيقة لم تفلت من يد الأديب «ســـليمان فياض»، لكانت هى الدليـــل على أن المؤسســـات الدينية فى مصر عارضت الروايـــة واعترضت عليها. على أن المؤسســـة الدينية فى شـــهادة «ســـليمان فياض» لم تكن هى مؤسسة الأزهر، بل كانت هذه المرة: وزارة الأوقاف..

يقـــول «ســـليمان فياض» فى شـــهادته التى أراهـــا مهمة جدا: (قـــدِّر لى - فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات أن أعمل لفترة من الوقت فى وزارة الأوقاف وكنت سكرتيرا للجنة الدفاع عن الإســـلام مع الشـــيخ «السيد سابق».. والشـــيخ «محمد الغزالى» - ويقول «ســـليمان فياض»: «لقد تبدَّى لى الوجه القاســـى للشـــيخين الجليلـــين... وراء وجهيهما البشوشـــين الناعمـــين. هذا الوجه القاســـى الذى ظهـــر لى واضحا من خـــلال موقفهما من «نجيب محفوظ» وروايته «أولاد حارتنا» وكان الشـــيخان مســـئولان معا عن إدارة المساجد والدعـــوة والدعاة، وقد ابتكرا لجنة الدفاع عن الإســـلام، والمفروض أن هذا الدفاع كان ضد افتراءات بعض المستشرقين والرّد عليها، ولكن هذا الدفاع امتد أيضا، ولأول مرة على أيدى الشـــيخين.. ضد مسلم يشهد الشهادتين - وتهمته عندهما أنه كتب رواية يحار النقاد فى تفسيرها فنيا، وهى ليست عملا مباشرا يثير شبهات الفقهاء. حدث ذلك فى غرفة أنيقة، حـــول منضدة حديثة، ومقاعد مريحة حيث اجتمعت لجنة الدفاع عن الإســـلام وتصدرّها الشيخ «السيد سابق» كرئيس وأمين لهذه اللجنة، وكان الشيخ «الغزالى» عضوا فى اللجنة، ودارت مناقشـــة حول أ«ولاد حارتنا» وكانت هذه المناقشة أشبه عندى بكابوس ثقيل وكان الشـــيخ «الغزالى» فى هذه المناقشـــة يؤكد، ويقســـم، وكان الشيخ «ســـابق» يؤيد ويحرّض، وأخيرا أخذ منى الشـــيخ «الغزالى» الأوراق البيضاء، ولم يدوّن بدلا منى محضرا للجلســـة، لكنه قدّم فى النهاية ورقتين يســـتعرض فيهما «أولاد حارتنا» من زاوية الاتهام وحدها ولا يتيح للرواية أى دفاع عنها، وأكثر الحاضرين من أعضاء لجنة الدفاع عن الإسلام لم يقرأو الرواية وإن قرأوها فإنهم لم يتوقفوا عندما قرأوها - ثم يقول «ســـليمان فياض» بعد ذلك: فى الورقتين اللتين كتبهما الشـــيخ «الغـــزالى» كانت الإدانة لرواية «أولاد حارتنا» فى غيبة عن الدفاع والمتهم - ولم يكن من حقّى، ولا من عملى كسكرتير للجنة الدفاع عن الإسلام، أن أمثّل دور الدفاع عن «نجيب محفوظ» و«أولاد حارتنا». ولســـت بالأحمق الذى يســـعى إلى تهييج الأســـد فى عرينه، وهو الخصم والحكم. وأخذ الشـــيخ «الســـيد سابق» الورقتين

اللتين كتبهما الشيخ «الغزالى» ودفع بهما بعد انفضاض الجلسة التاريخية إلى سكرتيرته فكتبتهما على الآلة الكاتبة، ونجحت أنا فى إقناعها بزيادة نسختين للاحتفاظ بهما فى ملف اللجنة إلى وقت الحاجة إليهما، وقد احتفظت بهاتين النسختين لنفسى، وقد حدث ذلك فى يوم خميس وكنت أيامها من رواد مقهى ريسن لحضور ندوة «نجيب محفوظ» الأسبوعية، وذهبت مبكرا فى الندوة لأنفرد بضع دقائق «بنجيب محفوظ»، وأعطيت «نجيب» الورقتين، وكانت كافية لإقناعه بصحة هاتين الورقتين وإحجامه عن السؤال، ولعل صدمة المفاجأة قد أخذته، وأذكر وجهه يومها وقد أصبح شديد الشحوب فى الضوء الساطع على رصيف المقهى وهكذا حسب رواية «سليمان فياض» ذهبت النسخة الأولى من مذكرة الشيخ «الغزالى» إلى «نجيب محفوظ» نفسه، فأين ذهبت النسخة الثانية؟

ويعقب رجاء على هذه الرواية بقوله: تلك هى الشهادة التى أدلى بها «سليمان فياض» عندما كان سكرتيرا للجنة الدفاع عن الإسلام – وحسبما جاء فى شهادته فإنه قد ترك العمل فى لجنة «وزارة الأوقاف» بعد الجلسة التى أدين فيها «نجيب محفوظ»، لأنه لم يجد فى نفسه – وهو الأديب الفنان – القدرة على مواصلة العمل مع لجنة تنظر إلى الأدب نظرة سلبية، وتدين الأدباء إدانات قاسية من دون أن تدخل معهم فى حوار ومن دون أن تعطيهم فرصة للدفاع عن أنفسهم. هذه الشهادة تدل على أن «فتوى» اتهام ضد «نجيب محفوظ» صدرت عن وزارة الأوقاف بتوقيع رجال محترمين ولهم مكانتهم العالية وتأثيرهم فى الناس..

على أن لنا ألاّ نسلم برواية الأستاذ «فياض».. إذ أنه لم يقدم دليلا عليها.. فلو أنه قدم صورة مما كتبه الشيخ «الغزالى» كان فى ذلك ما يساند رأيه أو قوله.. والأهم من هذا أن الأستاذ «فياض» لم يذكر ملخصا لمضمون ما يذكر أن الأستاذ «الغزالى» قد كتبه وكان كل ما ذكره الأستاذ «فياض» أنه كان رأيا ضد الرواية، لكن لا يمكن أن نتصور أن كل ما تضمنته الصفحتان هو ذلك، إذ أن تلك هى النتيجة التى انتهى إليها الشيخ الفاضل مما أورده من أقوال وأسباب على صفحتين كاملتين.

* * *

ويمكـــن لنا أن نضيف كمثال علىذلك من الأدب الحديـــث، ذلك الفصل الذى تضمنه كتاب «توفيق الحكيم»: حمارى قال لى.. والفصل نشر فى عام ١٩٤٥م وعنوانه: «حمارى والجنة والنار» وقد اســتهلــه بســؤال حماره له: عن مصيره بعد الموت. فأجابه: «من باب التواضــع، أقول لك فـــى النار» وقد طلب إليه حماره اختراق الحجب وتصور ما فى الجنة والنـــار.. فطـــار به الخيـــال أول الأمر إلى الجنة ليلقى الكاتب «أحمـــد الصاوى محمد» فى الجنـــة يغـــازل الحور العين.. ثم يطلب إلى «رضوان» الإذن له بأن يصدر مجلة فى الجنة.. وبعـــد حصولـــه على موافقته يحصل على إذن آخر بزيارة النار لمدة نصف ســـاعة للحصول علىأحاديث من كبار كتاب مصر حيث علم أنهم جميعا فى النار.. فتعجب كيف دخلوها رغم أن لهم كتبا وأبحاثا عميقة عن الإســـلام وعن نبى الإسلام.. وعندما حصل على الإذن وانتقل إلى النار لقى فيها عميد الأدب العربى والحاج «هيكل»، و«العقاد» و«توفيق الحكيم» ويحاول أن يحادثهم ويناقشـــهم.. وكيف أنه دخل الجنة وليس له كتاب يســـتحق بسببه دخولها سوى كتابه عن «باريس» واستغرق النقاش والتجوال وقتا، وعندما أراد العودة وجد بابها مغلقا دونه فقد استنفد المدة «المصرح» له بها.. ومن هنا نجد أن «الحكيم» سمح لنفسه أن يتحدث عن الجنة والنار حديث أهل الأرض الفانين، وأن يجعل الحياة فيها كالحياة فى الدنيا.. فيها غزل، وفيها مجلات، وفيها موازين مقلوبة: فمن يجعل همه دراسة الدين وعرض ســـيرة النبى ﷺ يكون مصيره النار – وبئس المصير – يصلى لظاها، ويعيش شـــقيا فيهـــا.. ومـــن كان إنتاجه كتابا عن «باريس» يكون مصـــيره «الجنة».. يفعل فيها ما يفعله فى حياته الدنيا.. أليس فى هذا خروج عن الأصول الدينية، والنواميس العقائدية.. وكيف يقـــول ما قاله صراحة وعلى نحو مباشـــر، وليس فيه رمـــز ولا تورية؟ أليس فى هذا خروج قـــد يصـــل إلى حد الكفر ومن ثم يوجب الاســـتتابة؟.. نقول إن المعيار واحد وهو أننا نقيس الكتاب على أساس حقيقة نسبه، ونحن هنا حيال كتاب ينتسب إلى الفن والفكر والإبداع، ومن ثم يكون معياره مستمدا من معايير ذلك الفن.. لا من معايير الدين والعقائد والتاريخ.. طالما أنه من الثابت أن ما قاله لا يمس العقيدة، ولا ينال من الدين.. والله ولىّ التوفيق.

* * *

المبحث السادس

نجيب محفوظ الرمز والقيمة
للدكتور «جابر عصفور»

١ - الكاتـــــب:

لم يكتف الدكتور «جابر عصفور» بمنصبه : أســتاذ الأدب العربي بجامعة القاهرة الذى يســاهم بقــدر كبير في إنمــاء الأدب العربى، بما يلقى من محاضــرات، وبما يقوم به من دراســات، وبما يتولاه من إشــراف على طلبة الدراســات العليا الذين يعملون من بعد فى البحــث فى هذا المجــال.. بل حرص على أن يصــل بأفكاره وآرائــه وتحليلاته العلمية والأدبية إلى القارئ العادى البعيد عن الجامعة والذى لا علاقة له بأساتذتها ودراساتها... فمقالاتــه تملأ الصحف والمجلات، حيث إنه ينشــر العديد مــن المقالات والأبحاث التى تتناول ما هو جار من أمور وما هو مطروح من موضوعات.. وقد تختلف معه، ولكنك ولابد أن تحترمه، لما تقوم عليه كتابته من احترام للذات وللقارئ وللحقيقة فى وقت واحد.

وهو وإن كانت المناصب التى شغلها فى الجامعة بدءا من أستاذ النقد العربى إلى رئيس لقســم اللغة العربية – فقد شــغل مناصب جامعية عديدة خارج مصر سواء فى الكويت أو فى الولايات المتحدة الأمريكية.. كما شــغل مناصب هامة فى مصر منها رئاســته للمجلس الأعلى للثقافة ثم للمركز القومى للترجمة.. ثم تولى وزارة الثقافة لفترة قصيرة استقال بعدها.

وهو وإن كان كتب دراســات ومقالات عديدة عن «نجيب محفوظ»، إلا أنه يهمنا منها كتابــه الأخــير «نجيب محفوظ» – الرمز والقيمة – وهو الكتــاب الذى قامت الجمهورية الليبية بنشرة علىأثر منحه «جائزة القذافى العالمية للآداب» ويخيل إلينا أنه قد جمع فى هذا الكتاب كل ماسبق له أن نشره من دراسات عن «نجيب محفوظ».

والكتاب وإن كان يتناول دراسة أدب «نجيب محفوظ» من نواحيه المختلفة إلا أنه – مع ذلك – قد خص «أولاد حارتنا» بأكثر من فصل فى مؤلفه تناول فيه الرواية وظروف كتابتها ونشرها، ثم ما تعرضت له من بعد من هجوم، مع بيان لأرائه فى كل هذه التطورات.

٢ - تقدير الكاتب لظروف كتابه ونشر الرواية:

يشـــير الكاتـــب إلى الفترة التـــى انصرف فيها «نجيب محفوظ» عـــن الكتابة وهى التى اقترنت بأمرين: أولهما إنجازه للثلاثية، وما شـعر به من حاجة إلى الراحة بعد أن قضى فى كتابتها سنوات أربعا – وإلى قيام ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢م فى ذلك الوقت وما اعتبر معه كثيرون من الكتاب – وهو الآن وزير للثقافة فى وزارة المهندس «إبراهيم محلب» – أن الثورة قد حققت كل ما كانوا ينادون به.. غير أنه بعد فترة ما لبث أن أحسَّ بدبيب الرغبة فى الكتابة تعاوده، فكانت سـعادته لا تـقدر – كما سـبق أن ذكرنا ذلك بالتفصيل فى موضع سـابق – ومن ثم فقد بدأ يتنبه ويسـارع إلى معاودة إمسـاك القلم – وبخاصة ليجيب على الأسئلة التى ابتدأت تراوده..

• وفى هذا يذكر الكاتب قوله: (٢٩٢ وما بعدها):

«عاودته الأسـئلة المؤرقة سـنة ١٩٥٧م؛ وبدأ يتنبه إلى أن هناك شـروط ضرورة جديدة آخذه فى التراكم وفرض الانتباه على النفس. وكان لابد من الاسـتجابة إلى دوافع الأسـئلة ومحاولة الإجابة عنها، خصوصا أنها لم تكن فى جدية أسـئلة الماضى واتجاهها الأحادى وإنما كانت أسـئلة مركبة متعددة الأوجه والمسـتويات، تصـل الفيزيقى بالميتافيزيقى، والنقد السياسى الاجتماعى بنقد الخطاب الدينى الذى يصاحبه ويوازيه. ويبدو أن قراءة التراث السردى الذى يتحدث بلغة المجاز والكناية، مثل (كليلة ودمنة) و(ألف ليلة)؛ و(رسـائل حىّ بن يقظان) و(الغربة الغريبة) وما يشـبهها فى التراث الفارسى الذى عرفه «محفـوظ» فى أمثال (منطـق الطير) «لفريد الدين العطار» – دفعـه إلى الإفادة من تقنياته المراوغة فى ازدواج دلالاتها، وحكاياته الإطارية التى تجمع الكون كله بين دفتيها، هكذا تولـدت «أولاد حارتنـا» علامة على زمن جديد فى الكتابة، وزمـن أحدّ فى الواقع الأكثر تعقيدا الذى توازيه الرواية رمزيا ساعية إلى أسره فى شباك المجازات والكنايات التى تعطى الكثير من المعانى بأقل القليل من اللفظ وكانت بداية السرد ونهايته على لسان أول من عرف الكتابة فى الحارة المجازية التى تحولت إلى فضاء، رمزى للإنسانية كلها يرويها قلم كاتب احترف كتابة شكاوى المظلومين وأسئلتهم الحائرة من أول الخلق إلى نهاية الكتابة، وكانت نقطة التركيز فى كل الأحوال على الظلم الذى يعانيه أولاد الحارة من نظار الحارة وفتواتها وهو الظلم القديم قدم البشرية الذى كان يواجهه ويقضى عليه – إلى حين – مبعوث يهبط إلى

الحارة أو يدخلها كالخلاص والأمل متصديا لشــروط الضرورة كلها، لفترة تطول أو تقصر، فتمتلــىء الأرض عــدلاً بعد أن ملئت جورا إلى أن يصــل الزمن إلى الوقت الذى يتوقف فيه المبعوثون ليصبح تحقيق آفاق الحرية والعدل منوطا بالبشــر الذين يســتعينون بســحر العلم والعرفان الذى يريهم مشرق النور والعجائب من ناحية، وينقذهم نهائيا من العسف والقمع والظلم ليعيشــوا ما يشبه اليوتوبيا التى لامكان فيها لشروط الضرورة، ولا تخلو من الميراث الروحى الذى تراكم بتعاقب المبعوثين».

٣ - نشر الرواية.. والهجوم عليها وعوذ لتقرير الأزهر:

وقد نشرت الرواية بالفعل - كما ذكرنا من قبل - مسلسلة فى جريدة الأهرام، فأثارت بعض الاعتراضات والمناقشات على النحو الذى سبق لنا عرضه.. وكذلك فقد أصدر مجمع البحوث الإسلامية عدة فتاوى لم يتزحزح عنها وخلاصتها أن الرواية وإن كانت «عملا فنيا ممتازا» إلا أنها تحدثت عن الذات الإلهية وعن رســل الله وأنبيائه بما لا يحق ولا يجوز لمسلم أن ينسب إلى الذات المقدسة ما نسبه «نجيب محفوظ» إليها.. وكان ذلك كله - كما ذكرنا من قبل - علاوة على ما تناقلوه من تفســير لأسماء الرواية بما يطابق الذات الإلهية وأصحاب الرســالات الثلاث.. وهو ولا شــك تفســير خاطئ، على النحو الذى فصلناه فى أكثر من موضع.

• ويضيف الكاتب قوله: (ص ٢٩٦).

«ويبدو أن هذا الرأى هو ما ثبت عليه مجمع البحوث حتى بعد أن حصل «نجيب محفوظ» على جائزة نوبل التى أعلنت فى الثالث عشــر من أكتوبر سنة ١٩٨٨م - وأعقب الإعلان احتفــال الدولة بالمؤلــف وتكريم الرئيس لــه بمنحه (**قلادة النيــل**) - أرفع الأوسمة فى الدولة - واســتغل المثقفون المناســبة - وكنت أحدهم - وطلبوا من الرئيس مبارك الإفراج عن الرواية والسماح بنشرها، الأمر الذى أدّى - فيما يبدو - إلى إعادة عرضها على مجمع البحوث الإسلامية الذى ازداد تشدّدا مع تصاعد ضغط جماعات الإسلام السياسى، وكانت النتيجــة أن جدَّد أمينه العام قراره بالرفض فى تقريــره المكتوب فى ١٩٨٨/٢/١م (والذى ســبق لنــا أن أوردنا نصه فى المبحث الأول من هذا الفصــل).. وهو التقرير الذى يرى فى الرواية قصة رمزية واضحة الرمز تشير إلى قصة الحياة والبشر، إلا أنها مع وضوح ردودها تحتوى على خلط شــديد، ولا تنتظم على ســياق تاريخى أو خط رمزى مســتقيم. ولقد قرر

مجمع البحوث الإسلامية تجديد حظر تداول الرواية أو نشرها مقروءة أو مسموعة أو مرئية، وكذلك حظر دخولها بناء على هذا التقرير، وعلى تقارير الأجهزة الرقابية الأخرى»

• ويعلق الكاتب على هذا التقرير بقوله (ص ٢٩٧):

ويتضح من التقرير أمور ثلاثة:

أولها: الإصرار على تكفير الرواية تأكيدا للرأى نفسه الذى صيغت تقاريره منذ حوالى عشرين عاما.

وثانيها: استهزاء التقرير بالنقاد أمثالنا الذين دافعوا عن الرواية، ورأوا فيها - ولا يزالوان - (فنا رفيعا).

وثالثها: «أن تقرير مجمع البحوث لم يكن هو التقرير الوحيد الذى ترتب عليه طلب المثقفين من رئيس الجمهورية إطلاق سراح الرواية: فمن المؤكد أن تقرير مجمع البحوث الإسلامية جاء مصدقا لما أوردته تقارير أخرى من جهات أمنية وغير أمنية، وأحسب أن هذه الأمور الثلاثة تكشف عن استمرار أسباب منع الرواية، وتجذرها من الناحية الرسمية وجنوحه المتزايد إلى التشدد»

والواقع أن الرواية قد نشرت فى مصر فعلا عقب وفاة المؤلف.. وطبعت معها - وضمن مجلدها - كلمتان:

أولاهما: هذه الشهادة.. حول «أولاد حارتنا» - بقلم الدكتور «أحمد كمال أبو المجد».

وثانيهما: بعنوان هذه الرواية بقلم د. «محمد سليم العوّا» - الأمين العام للاتحاد العالمى لعلماء المسلمين. وكلتا الكلمتين تشيد بالرواية من ناحية، وتنفى عنها التفسير الدينى من ناحية أخرى، وسنعرض للكلمتين فى مواضع تالية من حيث المضمون.. وبذلك ظهرت الرواية فى مصر وجرى توزيعها، بل وقد أعيد طبعها أكثر من مرة ربما تجاوزت الثمانى طبعات وكانت «دار الشروق» هى التى قامت بهذه المهمة فى أول إصدار لمؤلفات «نجيب محفوظ» الكاملة وفى طبعة أنيقة وعلى مستوى رفيع فى الطباعة.. ونستطيع أن نقرر أنه بالإقدام على هذه الخطوة خفتت أصوات اللائمين، وقلّت أو انعدمت مقالات من ينسبون إلى الرواية مفهوما دينيا.. بل وربما نسى كثيرون ما كان قد ثار بشأن الرواية من معارك.

• ويضيف الكاتب قوله (ص٣٤٣):

«ولم يعرف هؤلاء الذين وصل بهم التعصب إلى درجة التكفير، ولعلهم تجاهلوا عامدين تقاليد تراثهم الأدبى التى تمايز بين الحقيقة والخيال، ولا تطابق بينهما مهما بلغت درجة المقارنة التمثيلية، واستبدلوا تقاليد التعصب بالتسامح فى تراثهم الدينى الذى ذهب أقطابه إلى أنه لو صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه والإيمان من وجه واحد، حُمل على الإيمان ولم يُحمل على الكفر. وتعمَّد هؤلاء – فى الوقت نفسه – تجاهل بقية أعمال «نجيب محفوظ»، ناهيك عن بقية الأعمال الأربعة التى أشارت إليها حيثيات نوبل فلم يزنوا «أولاد حارتنا» بعشرات غيرها من الأعمال التى لا يمكن لأى منصف تجاهل الجانب الروحى الإسلامى فيها. ومنهم د. «محمد حسن عبد الله» – الذى بدأ يكتب عن الإسلامية والروحية فى «أولاد حارتنا» مستهلا تفسيره السمح المغاير لأدب «نجيب محفوظ» كله – وكانت النتيجة كتابه الذى حمل العنوان نفسه، قاصدا به أن يقوم تفسيرا إسلاميا روحيا فى مقابل التفسيرات الضيقة من أهل اليمين أو أهل اليسار، ومنهم الإسرائيلى «ساصون صوميخ» فى كتابه المكتوب بالإنجليزية عن أدب «محفوظ» بعنوان (الإيقاع المتغير) الذى نشرته دار بريل – ليدن الشهيرة..»

والكاتب هنا إنما ينفذ إلى قلب الإسلام، فليس فى الإسلام تشدّد، وليس فيه إساءة تفسير، وليس فيه تصيّد لكلمات من هنا، وأخرى من هناك، وليس فيه شقٌّ للصدور، وتفتيش فيما بين طوايا المرء وحنايا قلبه.. وصدق الله العظيم إذ يأمرنا ويدعونا بهذه الكلمات المعجزات التى جمعتها آية واحدة، أو جزت، فأعجزت فى قوله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ صدق الله العظيم [سورة الأعراف الآية: ١٩٩].

٤ - عن كتب تكفير الرواية والمؤلف:

اهتم الكاتب بهذا التيار الذى انطلق مؤصلا لفكر التكفير، وباثا دعوته بين جموع الشباب مقررا أن الكتاب المستنيرين استهانوا بهذا التيار، ولم يدركوا خطورته حتى نما وتجبَّر، ثم يعرض بعد ذلك لكتابين رئيسيين – سبق لنا أن عرضنا لكل منهما بالتفصيل فى مبحث مستقل – ولكننا نعاود هنا عرض وجهة نظر الكاتب مع تحاشى تكرار ما سبق ذكره.

أ- عن التيار المتشدد:

• فهو يعرض لهذا التيار بقوله: (ص٣٦٠ وما بعدها):

«إننــا لا نعرف عن حركات أو تيارات التطـرف الدينى إلا القليل.. نحن لا ندرك حجم الثقافة المعادية للاســتنارة، فنحن لا ندرك إلا ما نريد أن ندركه فيما يبدو – لاشــعوريا على الأقــل – ولا نتوقــف إلا على ما نتوقع أن نلقاه ســلفا.. والنتيجة هى أننا نفاجأ بما يحدث فى أغلب الأحيان، ســواء من حيث انتهاك ما تعودنا عليه من قيم ثقافية ومبادىء إبداعية وميراث فكرى وعقلانى يتسم بالتسامح والمجادلة بالتى هى أحسن ولأننا نجهل هذا التراث ولا نعمل على تواصله، أو تنشيطه فى الذاكرة الثقافية للجمعية، فنحن لا نملك رؤية مستقبلية نابعة من معرفة عميقة بكل ميراث الماضى الخلاّق وتيارات الحاضر المتغير، والإمكانات التى تنطــوى عليها العلاقة بينهما.. وقد قادتنى هذه الملاحظة إلى أهمية الاهتمام الحقيقى والجادّ بدراســة الفكر المتطرف المعادى للاســتنارة من ناحية، والمضاد للتقــدم والحوار مع الآخر أو الاعتراف به من ناحية موازية، والبحث عن جذوره وأصوله من ناحية أخيرة..».

«وهــا أنذا أدرك مؤخــرا أن عملية اغتيال «نجيب محفوظ» كانــت حتمية؛ وأننا كان يمكن أن نهجس بذلك لو قرأنا العلامات والإنذارات الســابقة ابتداء من عشــرات الأعمال الإرهابية التى لم تكفّ عن التزايد منذ السبعينيات ولم تتوقف إلى اليوم، ولا أظنها سوف تتوقف فى المستقبل القريب أو المنظور. وأحسب أننا لو كنا تعمقنا دلالة اغتيال «فرج فودة» فى يونيه ١٩٩٢م وغصنا فى دراســة الســياقات التى أدّت إلى عمليــة الاغتيال وأحاطت بها والكتابات التى ســبقتها ومهّدت لها وأعقبتها فى الإشــارة إلى ضحايا محتملة لأدركنا أن الــدور على «نجيــب محفوظ» لابد آت، وعلاماته مئات المقالات العدائية. وعشــرات الفتاوى التكفيرية على امتداد الوطن العربى. فقد انتشرت هذه الجماعة بما أدى إلى زيادة نزعات المحافظة فى المجتمع وســرعة انقلابها إلى نوبات تطرّف تميل إلى ممارسة العنف بعيــدا عن قيم التســامح أو التحديث، هكذا غاب علماء دين مــن أمثال: «محمد عبده»، و«محمد فريد وجدى» والشــيخ «شــلتوت»، وحلّ محلهم علماء من نوع آخر أقرب إلى سوء الظــن، وأســرع إلى التكفير، وقــارن بين موقف هؤلاء – فى الأيام التى نعيشــها وما فعله «محمد فريد وجدى» الذى كان رئيس تحرير مجلة الأزهر ومديرها عندما قرأ الدراسة التى نشــرها «إسماعيل أدهم» فى مجلــة (الإمام) بعنوان: (لماذا أنا ملحــد؟) لقد قرأ «وجدى»

الدراســة، ولم يقبلهــا بالطبع، فأخذ فى تفنيدهــا تحت عنوان: (لماذا أنا مســلم) والردّ علىحجمها بما هو أقوى منها، مجسدا معنى المجادلة بالتى هى أحسن ما دمنا نعتقد أننا على الحقّ، ومعنى التسامح الذى هو من نفحات الإسلام الذى ظهر به آباؤنا الأولون أيام كان لهم السلطان على العالم كله فيما نقول، وذلـك بسبب الحرية العقلية التى كانت مبدأ لهم فى حوار السنّى والمعتزلى والشيعى والدهرى؟ فلم يزد الدين حيال هذه الحرية العقلية إلا هيبة فى النفوس، وعظمة فى القلوب، وكرامة فى التاريخ، وللأسف لم يعد هناك أمثال «محمــد فريــد وجدى» أو «محمد عبده».. وحلّ محلهم.. أولئك الذين ما أســرع مبادرتهم إلى إصــدار فتــاوى التكفير، وأحكام الردّه التى تعنى – فى النهاية – القتل الذى يقوم به الأتباع – أقصد أولئك الذين أسلموا عقولهم لأمراء التكفير ودانوا لهم بالسمع والطاعة، ومن ثم ترجمة كلمات الفتوى إلى طلقات رصاص وطعنات خناجره..

ثــم يمضى قائلا (ص٣٠٤) وأعترف للمرة الثانيــة بأننى لم أعرف أن هذه الكتب التى تتولى تكفير «نجيب محفوظ» صاحب «أولاد حارتنا» – قد كتبت وطبعت وانتشــرت بين المتعاطفين مع فكر أصحابها ليس فى مصر فحسب، وإنما فى غيرها من الأقطار التى آتى فيها فكر التكفير ثماره المرة.».

وهــذا الذى يذكره الكاتب أمر محّير.. فالمفروض فى رجال الدين ومن يتحدثون بإســم الإســلام أنهم قد أدركوا أساسيات الإســلام وأحاطوا بمنهاجه، وعرفوا لبّ عقيدته، وأنه دين يقوم على السماحة والتى تسير، على قاعدة أن الرسول عليه السلام ما خُيِّر بين أمرين إلا اختار أيســرهما، كما أنه لايقوم على إســاءة الظن بسائر المســلمين، واتهامهم – بغير دليل – بالخروج على الدين. دين يدعوا إلى الخير ويسعى إلى العدل، ويحفظ على الإنسان حياته، ويحفظ له كرامته.. مثل هذا الدين المفروض ألا يعرف التطرف، ولا التشــدد، ولا الانحراف.. ولكن للأســف ازدادت حدّة التطرف بين بعض طوائفه ممن يســمون أنفسهم «مســلمين».. ولا أدرى كيف يحتفظ من يبيح دم الآخرين بغير حق بصفة المســلم؟ وكيف يعتبر نفسه داخلا فى حظيرة الإيمان.. ؟

* * *

ب - مع كتابين من كتب التكفير:

عـرض الكاتـب لكتاب الشـيخ «عبـد الحميد كشـك» - كلمتنا في الـرد على رواية «أولاد حارتنـا» - وقد سـبق لنا أن عرضنا لهذا الكتاب بالتفصيـل في المبحث الأول من هذا الفصل - ومن هنا فسـوف نكتنفي بما أبداه «الكاتب» من آراء خاصة به بشـأن هذا الكتـاب - هـذا والكاتب يبدأ حديثـه بقوله (ص٣٦٧) - بأنه يعتقد «أن كتاب الشـيخ «عبد الحميـد كشـك» يمكن أن يغني عن غيره في التمثيـل علىخطاب الكتب المؤلفة ضد رواية «أولاد حارتنا» ثم يذكر بعد ذلك - ص ٣٧٠ - أنه قد استطاع أن يحدد الخصائص المائزة للخطاب الديني الأصولي للكتاب على النحو التالي:

أولا: يتحدث الخطاب عن موضوعه - الرواية - ليس بوصفها عملا تخيليا رمزيا يوازي التاريـخ ولا يطابقـه، وتنفصل مجاراته عـن حقائقه مهما كانت درجـة القرب بين لازمها وملزمها إذا اسـتخدمنا لغة البلاغة ولا يتخذ طرفا تشـبيهاتها فيصبح المشبه عين المشبه به، فالتشـبيه يفيد الغيرية لا العينية، خصوصا أن قرائن الرموز تحرص على إضفاء لوازم البشـر الفانـين عليهـا، بعدا بها عـن أصلها المرموز إليه من ناحية، وتأكيـدا أن هذا غير ذلك وإن شابه في هذه الصفة أو تلك، فالهدف هو جوهر الدلالة، وليس سطح التفاصيل المجازية التي لايمكن أخذها مأخذ الحقيقة في إدراك المجاز وقراءة الاحتمالات الدلالية لموازياته الرمزية.. ولذلك يبدأ خطاب كتاب الشـيخ «كشك» وينتهي بإلغاء كل العلامات المجازية والمصاحبات الاستعارية، والمغايرات التشبيهية، فيرى في الرواية عملا فكريا حرفيا وليس رمزيا. وحقيقة لامجازا، ولذلك لا بد من محاسبة عباراته وجمله بمعناها الظاهر حتى لو كان في ذلك تدمير لمبـدأ أدبيـة الأدب ومجازيته التي هي صفات غير معترف بها أصلا في هذا النوع من القراءة الظاهرية الحرفية التي يتم اختزال لغتها في بعد دلالي واحد، ويتم توجيه هذا البعد بما يتفق والإدانة المسبقة أو المقصد المقرر للحكم الذي يسبق قراءة الكتاب.

ثانيـا: لايعرف خطاب الكتاب ما نسـميه بـأن الأدب كل الأدب حمال أوجه - كما لا يعرف سماحة العقلانية الإسـلامية.. ويقترن غياب السـماحة بغياب إمكانات التأويل ويرفضهـا، وهو المبدأ الذي لا يمكن فهم القرآن الكريم وتنزيه الخالق دونه، وكيف نفهم، ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ - [سـورة النسـاء آيـة: ١٢٥] - أو ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ - [سورة القيامة آية: ٢٢] - إلا إذا تأولناها بما يعني التنزيه ويبعدنا عن التشبيه والتجسيد؟

وبدلا من قراءة الرواية قراءة تأويلية من منظور التسـامح العقلانى تتم القراءة على أسـاس ظاهرى حرفى لا يقبل التأويل أو يعترف به، فيتجه إلى مقصده التكفيرى فى تقاليد حنبلية متشددة رافضة التأويل، وميالة إلى الاتهام المسبق والتكفير الجاهز.

ثالثا: يلزم عن هذه التقاليد إيقاع التطابق بين النص الروائى وعقلية الكاتب ومعتقداته وذلـك دون تمييز بين القول والقائل، وذلك على الرغم من أن التقاليد النقدية البلاغية فى تراثنـا العربـى تمايز بين الاثنين، وتفصل بين ما يوصف بـه القائل وما يوصف به القول منكرة إيقاع الاتحاد بينهما، وهو المبدأ الذى اسـتمر عليه النقد الأدبى فمايز بين المبدعين وشخصياتهم وأقوالهم من ناحية كما مايز بينهم والرواة (على اختلاف أنواعهم) من ناحية موازية، ولولا ذلك لكان راوى «أولاد حارتنا» هو «نجيب محفوظ» وأصدقاؤه فى الرواية هم أصدقاؤه فى الحياة. وتخيل: ماذا يمكن أن يكون عليه الفن لو طابقنا بين القائل والقول، المبدع والشـخصية، الراوى والمروى عنه؟! إن النتيجة ستكون مضحكة، ويكون كل مبدع عشرات الشخصيات الخيرة والشريرة التى رسمها.

رابعا: ويقترن بذلك ما يمكن أن نسـميه «أحادية المقصد» أو «خرافة المقصد» فيما يقول بعـض النقـاد وبدأ ذلك من افتراض أن «أولاد حارتنا» كتـاب دينى حرفى الدلالة، إنكار المجـاز فيه يكافىء إنكار دلالاتـه ومقاصدها الأخرى، فإلى جانـب المقصد الدينى هناك المقصد الاجتماعى، والمقصد السياسـى، والمقصد الاقتصـادى. وتعدد المقاصد هو جزء من تعـدد الدلالات وتفاعلات سـياقاتها، وذلك بما يجعل معنى أى جـزء قابلا للاختلاف حسـب الزاويـة العلائقية التى نراها وقتهـا، والتفاعلات النصية التـى تنتج احتمالات متنوعـة للمعنـى أو المعانى.. وفى حالة «أولاد حارتنا» تحديـدا لا يمكن تجاهل الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى ترتبط بالظلم والعسف والحلم المقموع دائما بمشرق النـور والعجائب... وأتصور أن اختزال الرواية فـى بعد دينى ضيق الأفق.. إنما هو فعل أيديولوجـى، بالمعنى الذى يجعل الأيديولوجيا مرادفة للوعـى الزائف.. ذلك أن القراءة الحرفيـة لا تلفـت الانتباه إلى مـا فى الرواية من إدانة لظلم النظـار، وفتوات الحارة وما يترتب على وجودهم وما يقترن بحضورهم من معتقلات وسـجون.. والسـكوت على هذه الأبعاد والدلالات سكوت عن الحق...

خامسا: أن خطاب الكاتب لا يفارق «أولاد حارتنا» إلى غيرها من أعمال «نجيب محفوظ» السابقة أو اللاحقة التى يمكن أن تؤكد منظورا مغايرا أو حتى مناقضا، أو تسهم فى تعديل أو تغيير المنظور إلى الرواية التى تم اختزالها فى بعد واحد حرفى ذا دلالة..الخ.

والواقع أن القارىء لكتاب الشـيخ يذهله أن الشيخ فضلا عن عدم فهمه للرواية موضوع حديثـه، فإنـه لم يقف فى حديثه عند الرواية وتحليلها، بل إنـه لم يقم بتحليلها وبيان ما يمكن أن يفهمه منها، فقد وقف عند التفسـير الذى تراءى له وتجاهل أنه بصدد رواية وليس بصدد عمل بحثى أو تاريخى، وراح يسبُّ تارة.. ويشتم تارة، ثم يتحدث عن النبّى المختار، وعن أهل بيته، وعن صادق رسـالته، وعن أنصاره، والمؤمنين به حديثا فياضا لا علاقـة له بموضوع الرواية الذى جعلـه موضوعا للكتابة.. حتى إن ما يخص الحديث عن الرواية حديثا خالصا لا يبلغ سوى نسبة ضئيلة جدا من صفحاتها - وهو فى نفس الوقت ليس حديثا، ولا مقالا، ولا بحثا، وإنما هو مجموعة من التخريجات الملفقة، والتفسيرات المريضة، وما يبنى على ذلك من أحكام خاطئة - تصل بالمؤلف كما تصل بالكتاب إلى حد الكفر - والعياذ بالله.

* * *

عرض الكاتب لكتاب الدكتور «المطعنى»:

ويعرض الكاتب - بعد ذلك - لكتاب: جوانيات الرموز المستعارة لكبار «أولاد حارتنا» للدكتور «عبد العظيم المطعنى» - رحمه الله - وقد سبق أن عرضنا فى مبحث كامل من هذا الفصل لذلك الكتاب.. هذا ولم يطل الدكتور «عصفور» فى تناوله إذ أنه لم يجد فيه - من وجهة نظره - خلافا أو اختلافا عن كتاب الشيخ «عبد الحميد كشك» - وإن كنا نختلف فى هذا الرأى كما سبق لنا أن بينّا ذلك فى موضعه

• هذا وبعد استعراض للكتاب يخلص د. «جابر عصفور» إلى قوله:

«ولا يختلـف منطق كتاب «المطعنى» أو غيره عن منطق الخطاب التكفيرى الّذى ينبنى عليه كتاب الشـيخ «عبد الحميد كشـك»، فالخصائص والتكوينات والآليات الخطابية هى فـى النهاية. فقط يمكن الاختلاف فى الوسـيلة أو الاتجاه لكن الاتفاق فى الغاية النهائية والهـدف الأسمى واحـد لا مغايرة فيه. ولذلك يمكن «لعبد الحميد كشـك» أن يعتمد على ثقافة مغايرة، وأن يصوغ خطابه بآليات شفاهية، مقابل «المطعنى» الذى يعتمد على آليات كتابية وعلى محاولة لكشف عن (جوانيات الرموز المستعارة). كأن يمضى فى الطريق الذى

مضـــى فيه «الغزالى» قديمـــا عندما كتب عن (فضائح الباطنية)، ولذلك يتوقف عند كل رمز كاشفا عن نظيره الحرفى فيما لا يخامره شك.. مؤكدا أن القصد كله من تحليل الرواية هو الكشف عن خروجها على الثابت المعلوم من أمر الدين».

ويخلــص الكاتب من ذلــك إلى قوله عن الدكتور «المطعنى»، أنـــه يرى أنه لما كان فهم «أولاد حارتنا» يصعب على القارىء العادى فى مكر الكتابة المراوغة، فإن كتاب «المطعنى» يشرح لهذا القارىء كل أنواع الرموز (الشخصية والمكانية والمعنوية) سواء كانت رموزا شفيفة يمكن فهم معناها بيســـر وســـهولة، أو كثيفة لا يفهم المراد فيها إلا بعد فكر طويل وتأمل عميــق. وخلاصة كتاب «المطعنى» أن الرواية تؤكد أن «محفوظ» كتبها حين كان زاهدا فى (الدين) كل الزهد، ثائرا عليه، فراح يشفى نفسه الثائرة بالأساليب الرمزية الماكرة، مناصرا للعلمانية الجاهلة. فالرواية – من هذا المنظور – آثمة (مجرّمة) بكل المقاييس: وطنيا وقوميا ودينيا. والتماس البراءة لها مســـتحيل مستحيل مستحيل ولذلك يأتى الحكم النهائى على الروايـــة كالتالى ولخص ما انتهى إليه «المطعنى» من نصائح وجهها «لنجيب محفوظ» على النحو السابق لنا ايراده.

ومع موافقتنا على الآراء التى خلص إليها الكاتب إلا أننا نرى أن الشيخ «عبد الحميد كشك» بدا انفعاليا خطابيا طوال صفحات كتابه أما الدكتور «المطعنى»، فقد بدا هادىء النبرة فى محاولـــة للإيهام بأنه يلتمس أســـلوب البحث والتمحيـــص العلمى – بينما أن الحقيقة أنه كان أبعد ما يكون عنهما. غفر الله له ولنا ولجميع من تناول هذا الموضوع بقول أو حديث.

* * *

المبحث السابع

أولاد حارتنا
بين
خصوصيتها المصرية وعموميتها الإنسانية
للكاتب «محمود أمين العالم»

١ - الكاتب:

ناقـد منصف، يجيد التحليل الموضوعى - والفنى - للأعمال الإبداعية، وهو وإن كان يساريّ النزعة - ولاقى بسبب ذلك متاعب كثيرة - إلا أن ذلك لم يكن يؤثر فى عمله النقدى، وإن كان يعلى من شأن من يميلون فى كتاباتهم إلى معالجة أحوال أصحاب الطبقات الدنيا وما يعانون من مشاق. درس الفلسفة، واشتغل بالفكر وبالصحافة، وبالنقد الأدبى، فأبدع فى هذا المجال، وله - وآخرين - كتيب مشهور «فى الثقافة المصرية» مازال موضع إشادة وتقدير.

وقد تناول رواية «أولاد حارتنا» فى فصل مطوّل ضمن «كتاب اليوم» الذى صدر بعنوان حكاية «أولاد حارتنا».. وقد ضم ثلاثة فصول، كان أبرزها - وأكثرها عمقا - هو هذا الفصل الذى كتبه «العالم» وقد كتبه عن علم وعن دراسة، وضمّنه نظرات صادقة، وتحليلات عميقة مزجت بين النظرات الفنية والاجتماعية على حد سواء، كما تعرض لما قيل من التفسيرات الدينية (ذلك الكتاب صدر عام ١٩٩٤م).

٢ - الهم المصرى فى أدب «نجيب محفوظ»:

يقرر الكاتب أن فى أدب «نجيب محفوظ»:- «تنويعات وتغييرات واختلافات وتطويرات لا تتمثل فحسب فى المراحل المختلفة المتجددة لإبداعه الروائى، بل أحيانا داخل المرحلة الواحدة.. مع وجود بعض الثوابت الأساسية فى هذه المراحل جميعا.. فهناك نسق عام لأدبه كله، ولكنه نسق يتدفق بأمواج متتابعة متجددة متنوعة متراوحة مختلفة من الرؤى

والأبعاد والأعماق والتوجيهات والمواقف.. وأقول أنه لم يكن أمرا عابرا أن يبدأ نشاطه الثقافى والإبداعى بترجمة كتاب إنجليزى عن مصر الفرعونية.. ثم يكتب بعد ذلك روايات مستلهمة عن التاريخ المصرى القديم.. وأكاد أقول أن هذه النزعة المبكرة للتعرف على تاريخ مصر، وصياغته روائيا، هى سمة أساسية، وثابت جوهرى فى أدب «نجيب محفوظ» كله.. وإنما أقصد بذلك الهم المصرى الشامل، الكيان المصرى، الهوية المصرية، الحقيقة المصرية، المزاج المصرى، الروح المصرية، المسألة المصرية، الطريق المصرى، لكى تكون مصر، وتتحقق مصريتها، ولكى تعود مصر وتتحرك وتتقدم.. ولهذا فهو فى مشروعه الإبداعى المتنامى لا يؤرخ لمصر تأريخا سياسيا، بل يؤرخ تاريخا عميقا، يجمع بين الاتجاهات السياسية، والأوضاع والمواقف الاجتماعية والشعبية، والأذواق الأدبية والفنية، والقيم الأخلاقية، والملامح الموضوعية والذاتية المختلفة، الفردية منها والمجتمعية فى تفاعلها وتنويعاتها. فى ثوابتها ومتغيِّراتها، فى تناقضاتها وتوافقاتها. وهو لا يعبِّر عن هذا تعبيرا روائيا وصفيا، بل تعبيرا صراعيا من ناحية، وتعبيرا قيميا من ناحية أخرى، وإن لم يفصح عن هذا الجانب التقييمى التوجيهى بشكل جهير فى بنيته الروائية الفنية.. غير أنه كان هناك دائما وما يزال محور أساسى تكاد تدور حوله أغلب تساؤلاته فى تجسيدها الروائى الفنى، هذا المحور – فى تقديرى – هو محور السلطة ببعديها: البعد السياسى العملى، والبعد الأيديولوجى والقيمى. أو بتعبير آخر: طبيعة السلطة الحاكمة المتحكمة فى مصر، وطبيعة الفلسفة والقيم السائدة فى إطار هذه السلطة، وما يواجهها من صراعات وفلسفات وقيم أخرى..» – (الصفحات من ٩٧ إلى ٩٩).

٣ - فى مواجهة الوضع بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م:

ومن الطبيعى ونحن مع كاتب يسارى، أن يصدر فى تقييمه لثورة يوليو ١٩٥٢م – وفى تقييمه لها، وتقييمه لموقف «نجيب محفوظ» منها من واقع نظرة اليسار وإن حرص على أن يلتزم «الموضوعية» و«الحيدة» إلى حد كبير فى حديثه – قال (ص ١٠٠ وما بعدها):

لقد قامت سلطة جديدة، وبدأت ملامح غامضة. لم تتحدد بعد لخريطة جديدة، وكان من الطبيعى أن يتساءل «نجيب محفوظ» مع غيره من المثقفين والمفكرين عامة «هل هذه الثورة هى مجرد انقلاب علوى.. لن يغيِّر من طبيعة السلطة أو بنية المجتمع؟ أم هى ثورة حقيقية ستعيد بناء السلطة والمجتمع بناء جديدا فى مختلف جوانبه؟ ولم تكن

التســاؤلات مجرد تساؤلات نظرية.. ولهذا كان من الطبيعى أن يتوقف «نجيب» المشحون بالهمِّ المصرى لا عن مواصلة اســتكمال مشــروعه السابق فحسب، بل أن يتوقف تماما عن الكتابة؛ بل لعله قال آنذاك: لم يعد عندى ما يقال.. وطوال سبع سنوات.. حققت الثورة العديــد من الأحلام الوطنية والتقدميــة – إلا أن الثورة – فى تحقيقها لهذه الأحلام.. لم تتصادم فقط مع أعوانها التقليديين.. وإنما تصادمت كذلك مع قوى سياســية – اجتماعية وأيديولوجية كانت قد تحالفت معها فى البداية، بل شــاركت معها فى قيام الثورة، مثل حركة الإخوان المســلمين، وفصيل من فصائل الحركة الشــيوعية المصرية. وكان من نتيجة ذلك: تصفية البنية السياســية التى كانت ســائدة، وإلغاء الأحزاب، وفرض نظام التنظيم السياسى الواحد وفضلا عن هذا فقد امتلأت السجون والمعتقلات.. بالشيوعيين.. والإخوان المســلمين.. ولهذا فبرغم ما حققته الثورة مــن إنجازات، واتخذته من مواقف كانت بعض أحلام «نجيب محفوظ» وأحلام المثقفين الوطنيين والتقدميين عامَّة آنذاك. إلا أن هذا الوضع السياسى الملتبس.. قد فجَّر أزمة بين المثقفين والثورة عبَّر عنها «محمد حسنين هيكل» بعد ذلك فى عام ١٩٦١م فى كتابه «أزمة المثقفين».

ولم يكن توقف «نجيب محفوظ» عن الكتابة منذ قيام الثورة حتى أواخر الخمسينيات إلا تعبيرا عن هذا الوضع الجديد الملتبس المتناقض بين شــعاراته ومنجزاته السياسية والوطنية والاجتماعية المتقدمة وبين الشكل غير الديمقراطى فى الممارسة السياسية والاجتماعية.

لا شــك أن الكاتــب عبَّر عــن هذا الوضع بصراحة.. وهو مــا لم يكن «نجيب محفوظ» يبديه فى صراحة – سواء فى كتاباته أو أقواله.. إذ أنه كان ولا شك يشير تلميحا إلى تلك الحقائق التى ذكرها الكاتب فى عبارات صريحة.. ولعل ميل الكاتب إلى اليســار هو الذى دفعه إلى هذه الصراحة، وتلك المصارحة:– وهو ما سوف يدفعه إلى المزيد فيما يلى..!

٤- صدور الرواية فى أشد اللحظات تأزما:

• يذكر الكاتب بعد ما ذكره من تمهيد – ص١٠٢ و١٠٣ – أنه:

«فــى هذا الإطار صدرت رواية «أولاد حارتنا» عام ١٩٥٩م، لعلَّـه بدأ كتابتها قبل ذلك بعامين أو بعام ونصف العام، وبدأت جريدة الأهرام فى نشر الرواية مسلسلة يوميا ابتداء من يوم ٢١ سبتمبر عام ١٩٥٩م حتى يوم ١٩٥٩/١٢/٢٥م – وكان صدورها فى لحظة من أشد لحظات تاريخ ثورة ٢٣ يوليو تأزما: فمئات الشــيوعيين والإخوان المســلمين فى السجون،

والمعركة على أشـدّها بـين قيادة الثورة وبين من كانوا حلفاء لها بالأمس من قوى يسـارية وشيوعية عربية، فضلا عن الاتحاد السوفيتى والمنظومة الاشتراكية والحركات والتنظيمات الديمقراطية والتقدمية فى العالم أجمع».

«وقـد أغامر بالقول بأن «نجيب محفوظ» كتب روايتـه «أولاد حارتنا» كردّ فعل نقدى أدبى إبداعى لهذا الواقع السياسى والاجتماعى والأيديولوجى الجديد الذى أخذت تسعى ثـورة يوليو إلى تحقيقـه. فهذا الواقع الجديد لم يكن قد تحـددّت ملامحه النهائية بعد، وإن تحددت بعض ملامحه، وخاصة فى هذه العلاقة الملتبسـة والمتناقضة بين الشـعارات والمنجزات المتقدمة لثورة يوليو، وبين ممارسـاتها اللاديمقراطية من الناحية السياسـية — وكان «نجيـب» قـد انقطع عن مواصلة الموضوع الاجتماعى الذى كان شـاغله ومادته التى يستلهمها فى إبداعه الأدبى السابق والذى جاءت ثورة يوليو فخلخلت وغيّرت من خريطته. ولهذا لم يستطع أن يكتب عن الواقع الجديد — إذا أراد أن يكتب عنه — بعناصر مستلهمة من الواقع القديم، وما كان هذا الواقع الجديد قد اسـتقرت ملامحه النهائية حتى يتمكن من الكتابة عنه، فضلا عن أن الطابع العسـكرى لسـلطة الحكم الجديد وللوضع العام ما كان يتيح له التعبير الواقعى إذا أراد أن يعبّر عنه. على أن «نجيب محفوظ» كان يريد أن يكتب، وأن يعبّر. وكان مأزقا أن يعيش هذا الالتباس والتناقض بين الشعارات والممارسات، ولعله كان يشير إلى نفسه على لسان الرواية فى افتتاحية الحكايات، كلما ضاق أحد بحاله أو ناء بظلم أو سـوء معاملة، أشـار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء، فقال بحسـره: (هذا بيت جدنا، جميعنا من صلبه، ونحن مسـتحقوا أوقافه، فلماذا نجوع ؟وكيف نضام ؟، ثم يأخذ فى قص القصص والاستشهاد بسير «أدهم» و«جبل» و«رفاعة» و«قاسم» من «أولاد حارتنا» الأمجاد).

والكاتـب هنـا يميل إلى أن يمضـى بالمؤلف إلى منطقة التعبير عـن الوضع القائم عند صـدور الروايـة، بحيث يعبّر عما جرى بأحداث ما وقـع للحارة على مدار تاريخها من ظلم وقهر وعسف.

فالكاتـب تذكـر ما حدث فـى فترة ظهور الرواية من حشـد فى السـجون، ومصادرة للحريات وإقامة تنظيم وحيد يكون هو صوت السلطة وما عداه يخمد.. يتذكر الكاتب ذلك فيعمد إلى تفسير الرواية على أن ما تضمنته من صور للظلم والتعنت وقطع الألسنة إنما يقصد

به المؤلف التعبير عن حاضر يعيشــه، أو الإيماء إليه، أو اســتحضار صورة له من الماضى.. وهذا هو التفســير السياســى الذى قال به البعض. وقد تحتمل الرواية مثل هذا التفسير، أو قد يكون هو بعض مراميها.. وعلى كل فهو يمثل اجتهادا قد يكون له ما يسانده، أو على الأقل ما يبرره.

٥ - الواقع الرمزى والرمز الواقعى: و«الجبلاوى»:

ويمضى الكاتب يتحدث عن «أولاد حارتنا» والأسلوب الذى اختاره «نجيب» لصياغتها ودواعيه إلى ذلك فيقول (ص١٠٣ وما بعدها):

«كانــت حال «نجيب» فى ظل الأوضــاع الجديدة – كحال هذا الراوى الذى أصبح هو نفسه بعد ذلك – تدعوه إلى أن يحكى، وتفرض عليه أن يحكى، بالواقع الرمزى بدلا من الرمز الواقعى الذى كان منهجه الســابق من رواياته، ولم يكن هناك أفضل وأسلم وآمن من تاريخ الرسل نموذجا جاهزا يتخذ من إطاره البنيوى العام، ومن قيمه المثالية الرفيعة مادة ينسج بهما نقده للواقع السائد، ورؤيته الفكرية والفنية التى يتطلع إلى تحقيقها فى مصر، ولمصر، وربما للإنسان المعاصر حيث كان».

«لم يكن الأمر إعادة كتابة لتاريخ هذه الرســالات الدينية، وإنما اســتلهمها رمزا لنقد الحاضر الملتبس، والتبشــير بعالم أفضل يمكن أن تتجدد فيه السلطة تجددا لمصلحة الناس جميعــا. ويزول الالتبــاس، والازدواج بين مرجعية القيم المثالية العليا والممارســة العملية، وتتوافر فيه إمكانية الانتصار النهائى للغايات العليا للرسالات الدينية بالإضافة إلى الخبرات الإنسانية المتجددة التى تتمثل فى المعرفة والعلم والتكنولوجيا».

«على أن رواية «أولاد حارتنا» – فى تقديرى – كانت تجتهد لتقديم موقف نقدى بديل لمصر.. ولهذا، «فالجبلاوى» فى الرواية هو هذا الجد الأكبر لكل أولاد الحارة، الذى يطل دائما على الحارة، ويغمر أفقها بجســمه العملاق، ووصاياه العشــر منذ بداية نشأة الحارة حتى وفاته.. هذا «الجبلاوى» ليس من الضرورى أن يُقرأ فى الرواية باعتبار أنه الله الخالق لكل شــىء.. وإنما على أنه يرمز إلى ما يعنيه الله فى الأديان جميعا من تجســيد معنوى لأشــرف قيم الحق والعدل والمســاواة والمحبه والعلم المســتمر.. إلا أن الله تحديدا وارد فى الرواية فى أكثر من موضع مما يجعل «للجبلاوى» دلالة خاصة مختلفة.. «الجبلاوى» إذن فى الرواية ليس هو الله خالق الكون رب السماوات، وفضلا عن هذا فإن الشروط العشر فى

الرواية ليست هى الوصايا العشر المذكورة فى النصوص الدينية، وإنما هى اشارة متروكة فى الروايـــة مجهُلة بغير تحديد، وفى تقديرى أنها متروكة هكذا عن عمد لأنها وصايا تتجدد بتجدد احتياجات الحياة، رغم جذورها التاريخية الثابتة..».

ويمضى يتحدث عن «الجبلاوى» من زاوية أخرى فيقول (ص ١٠٤، ١٠٥) ما يأتى:

(«الجبـــلاوى» فى هذه الرواية فى إيحائه الآنى الذى يحدده الســـياق التاريخى لكتابة الرواية فضلا عن القراءة الشاملة لأدب «نجيب محفوظ»، هو أقرب ما يكون إلى ما تحمله ثورة ٢٣ يوليو من شعارات ومبادىء وأهداف وقيم أساسية أى من مرجعية قيمية لسلوكها وممارســـتها، كما كان الشـــأن فى ثورة حملتها الرســـالات الدينية من قبل، لهذا لم تفصح الرواية عن حقيقة الوصايا العشـــر، التى يحملها ويخفيها «الجبلاوى»، وأن يكن يحاسب أبناءه بمقتضاها).

ويقـــارن الكاتب بين وضع «الجبلاوى» وتصرفاته المحدودة، وعزلته التى طالت. وبين أوضاع من يسكنون الحارة وينعمون أو يشقون فيها من «الناظر» والفتوات فى ناحية وسائر سكان الحارة من ناحية أخرى، فيقول – ص ١٠٥ – ما نذكره فيما يلى:

«وفى مواجهة هذه القراءة الآنية «للجبلاوى» ووصاياه المبدئية العشـــر، تجرى الممارسة الســـلوكية العمليـــة المتناقضة لهذه الوصايا ولهـــذه المرجعية القيمية عامـــة: ففى مواجهة «الجبلاوى» ووصاياه كان نظار الأوقاف، والفتوات الذين يحمونهم ويشاركونهم فى الاستئثار بريع الوقف، وحرمان أولاد الحارة منه، فضلا عن إذلالهم. إنه التناقض بين المثال والواقع المتحقق. بين القيمة والمرجع، والممارسة المضادة، بين القدرة والنموذج اليدوى».

«خلاصـــة الأمـــر، أن جوهر «أولاد حارتنا» – فى تقديـــرى – هو النقد القيمى الفكرى الرمزى للســـلطة الناصرية للتناقض بين شـــعاراتها ومبادئها وبين بعض ممارساتها وخاصة تلك المتعلقة بالديمقراطية السياســـية، إلا أن الرواية فى الوقت نفسه تسعى إلى تقديم رؤية تبشيرية تزيل بها هذا التعارض بين المثال والواقع، بين السلطة والمجتمع، بين السياسى والأخلاقـــى، بين النظـــرى والعملى، بين الموضوعى والذاتى فى مصر بشـــكل عام، وبهذا تكون هذه الرواية رغم بنيتها الرمزية الملحمية، امتدادا للهم الأكبر الذى كان يشـــغل فكر «نجيب محفوظ»، وضميره وإبداعه الأدبى، وأعنى به قضية السلطة فى مصر..».

وهكذا يخلص الكاتب إلى أن الرواية إنما تعنى الســـلطة فى مصر، بل والســـلطة التى قامـــت بعـــد ٢٣ يوليو.. هى التى تعبر عنها أحداث الروايـــة.. ولعل المؤلف كان يتنبأ بما

ستأتى به الثورة فى الستينيات من حديث عن «الميثاق» الذى هو كالوصايا العشر له الصدارة، وهو المثل الأعلى. الملزم للجميع حكاما ومحكومين، فإن تعذر ذلك، فلا أقلَّ من أن يُستغل فى تأديب – وإذلال – المحكومين. التشبيه القائم أو أوجه الشبه التى يجدها الكاتب بين أحداث وشخصيات الرواية من ناحية وبين ما يجرى علىأرض المحروسة فى عهدها الجديد – من ناحية أخرى – مسألة عادية بالنسبة للكاتب بأفكاره المعروفة؛ ولكننا نلاحظ أنه وإن كانت هناك – ولا شك – بعض أوجه الشبه، إلا أن هناك أكثر من وجه للخلاف – وإن كان هذا التفسير قال به غير يساريين – على كل حال. نحن نحمد للكاتب شجاعته، ومحاولته إيجاد هذا التفسير الذى قارب الحقيقة فى أكثر من موضع، ولكنه بعد عنها أيضا فى مواضع عديدة..!!

٦- مراحل.. وثوابت:

وفى محاولة من الكاتب لتحليل داخلى لبنية الرواية.. يذكر أنها تتكون من خمس مراحل.. على أنه برغم تنوع هذه المراحل واختلافها من الناحية الفلسفية والقيمية فإننا نستطيع أن نتبين بعض الثوابت الأساسية فيها جميعا، وإذا كنا قد عرضنا من قبل فى تلخيصنا للرواية لتلك المراحل الخمس الذى مرت بها الرواية وأحداثها، فإننا نعرض فيما يلى إلى «الثوابت» التى لفتت نظر الكاتب، وما قدرها من دلالات لها – وهو يرى أنها على نوعين: ثوابت مادية تصل به إلى الثوابت المعنوية والقيمية..

• فعن الثوابت المادية يذكر الكاتب «ص١٠٦» قوله:

«ولعل أول هذه الثوابت هو الثابت الجغرافى.. فنحن طوال الرواية نتحرك فى حارة معينة معروفة من حوارى القاهرة.. وتكاد الحارة فى هذه الرواية أن تكون صورة واقعية دقيقة لحوارى وأزقة ومنعطفات الجمالية.. والرواية تعدُّ هذه «الحارة» فى مستهل صفحاتها الأولى أصل مصر أم الدنيا. وهذا ما ينقل الجغرافيا القاهرية المحدودة إلى الجغرافيا المصرية الأكثر اتساعا وامتدادا ثم إلى الجغرافيا الأرضية الإنسانية الشاملة».

«وتشير الرواية إلى ثابت جغرافى آخر فى الخلاء. ويكاد الخلاء يشكل فى الرواية أكثر من دلالة رمزية: فهو المطلق حينا، وهو ساحة الطرد والوحدة والحرمان من رحمة «الجبلاوى» حينا آخر، أو هو ساحة الهروب من طغيان الفتوات حينا ثالثا، وهو ساحة العدوان والمعارك حينا رابعا، وهو ساحة التأمل والاستلهام حينا خامسا..».

«وهناك الثابت اللغوى الذى يعمق الطابع الجغرافى المحدد، ويضفى عليه دلالته المحلية الخاصة أو يؤكد له باستمرار هذه الدلالة، ويتمثل هذا فى لغة الرواية، سواء فى بعض سردها، أو فى حواراتها.. فبالرغم من أنها لغة عربية وضيئة.. فإنها زاخرة بالتعابير والأهازيج الصارخة بشعبيتها القاهرية.. مثل: «يادهية دقى».. «العجل وقع هاتوا السكين».. الخ».

«وتنقلنا هذه.. إلى جغرافيا بلاغية.. وتتمثل فى سلامة التشبيهات الطبيعية.. أى محاولة تفسير بعض الحالات النفسية أو المعنوية بما يشابهها من حالات مادية أو طبيعية وما أكثر أمثلة هذه التعابير.. مثل «انطلق الكلام من فيه كما ينطلق نثار الريق من فيه عند العطس بغير ضابط».. و«دموعك إن هى إلا عرق الخبث الذى يمتلىء به جسدك»..

«أما الثوابت المعنوية الأساسية فى الرواية وفى مقدمتها شخصية «الجبلاوى» التى يهيمن وجودها على الرواية كلِّها.. و«الجبلاوى» – كما سبق أن ذكرنا – هو رمز لمرجعية القيم الإنسانية الأساسية التى يدور حولها الصراع طوال الرواية.. قيم العدل والمساواة والحق والكرامة التى ينبغى أن تسود بين البشر.. فالمعركة طوال الرواية حول «الجبلاوى» ليست مجرد معركة معنوية قيمية أخلاقية بل ترتكز على أساس مادِّى موضوعى هو ملكية الأوقاف وضرورة توزيعها على أولاد الحارة.. على أنه فى مواجهته هناك ثابتان آخران يكملان هذه المرجعية تكميلا ضديا هما نظار الوقف الذى يسيطرون على ريع الوقف وعوائده يحتكرونه لصالحهم وحدهم وهناك ثابت آخر هو امتداد للنظار ويرتبط بالسلطة ممثلا السلطة المعنوية أو التغييب المعنوى عن المرجعية القيمية وهو الحشيش والمخدرات عامة.. إنه يفسد أولاد الحارة ويغيبهم».

وإذ أشار إلى الفتوات كأحد هذه الثوابت.. فإنه انتهى إلى أنه:

«هكذا تقوم بنية الرواية.. منذ جزئها الثانى على ثنائية ضدية استبعادية تتمثل من ناحية «الجبلاوى» وشروطه العشرة كمرجعية أخلاقية ومعنوية وقانونية، وموضوعية وتتمثل من ناحية أخرى فى النظار والفتوات والحشيش كقوة انتهاك لهذه المرجعية وخروج على شروطها»..

ويعرض بعد ذلك إلى مراحل الرواية الخمس على النحو الذى سبق لنا عرضه فى مطلع هذا البحث.. حيث يفتتح الحديث بأن يقرر بأن هذه الثنائية الاستبعادية بين «الجبلاوى» ووصاياه العشر من ناحية، والنظار والفتوات والحشيش من ناحية أخرى، تتمثل فى ثنائية أخرى هى الأصل لهذه الثنائية، وهى ثنائية تنبع منذ البداية من «الجبلاوى» نفسه وتتمثل فى ولديه: «أدهم».. و«إدريس».. ومن «أدهم» يتسلسل نسل «جبلاوى» الولاء وأدهمى

الطبيعــة – لــو صح التعبــير، وإن تنوعت فضائله ودعاويه ورســالاته ويتمثل فى «جبل» و«رفاعــة» و«قاســم».. ويضاف إليهم «عرفــة» وهو الإضافة المعرفيــة العلمية التكنولوجية العصرية لهذه الرموز الدينية.. ومن «إدريس» يتسلسل نسل نظار الأوقاف والفتوات – على أنــه بين نظــار الأوقاف والفتوات ثنائية أخرى قد تصل كذلك إلى حد الإبادة والاســتبعاد عندمــا يحــاول أحد نظار الأوقاف الاســتئثار بريعها دون الفتــوات كما حدث فى مرحلة «عرفــة».. وهكــذا يتحدد معمار الروايــة تحديدا واضحا وحاسما فى هذ الصراع المســتمر الذى يكاد أن يكون مطردا نمطيا من نسل «أدهم»، ونسل «إدريس» إنه ليس مجرد صراع ميتافيزيقى بين مفاهيم وقيم مطلقة، وإنما هو صراع عملى حول مصالح، حول ملكية أرض، ونظام حكم، وفلســفة علاقات محددة بين أولاد الحارة الواحدة، ولاشــك أن هذا الصراع الذى عبرت عنه الرواية تعبيرا رمزيا هو صراع تاريخى إنسانى شامل، كان وما يزال جوهر الصراع البشرى عامة منذ نشأة المجتمع وظهور الملكية الفردية إلى اليوم..»

ويختم الكاتب – بعد استعراض تحليلى للمراحل الخمس بقوله (ص ١١٩):

(إن «أولاد حارتنــا» – لــو صح هذا – هى امتداد للثلاثية فى مرحلة جديدة من تاريخ مصر، وبأسلوب مختلف يتلاءم مع الأوضاع التى كانت سائدة عند صدورها. والتى كانت «أولاد حارتنا» تعبيرا نقديا لها. على أن روايات «نجيب محفوظ» التى صدرت بعد أولاد حارتنا تكاد أن تكون امتدادا لها: تتوزع فيها أولاد حارتنا حاملة الدلالة الإنسانية العميقة لرواية أولاد حارتنا بمســتوى أو بآخر، بأســلوب أو بآخر، ونستطيع أن نتبين هذا بوجه خاص فى روايات: اللص والكلاب والطريق، والســمان والخريف، والشحات، وحكايات حارتنا والحرافيش، وغيرها).

«ولهــذا تكاد رواية «أولاد حارتنا» أن تعبِّر عن النســق العــام لأدب «نجيب محفوظ» فــى مختلــف تحليلاته ودلالاته – أنها ردّ فعل فكرى نقــدى أخلاقى روحى لثورة يوليو ١٩٥٢م. ولكنهــا تخــرج عن حدودها الآنية اللحظية المحــددة لتعبــر عن همومنا المصرية عامة، وتطلعنا ومجاهداتنا لتجاوز هذه الهموم شــأن جميع روايات «نجيب محفوظ»، إلا أنها فى الوقت نفسه تفيض عن حدودنا المصرية إلى حدود إنسانية شاملة دفاعا عن طريق الكرامة والسعادة والخير والمساواة والحرية والتقدم للإنسان فى كل مكان».

* * *

وهكذا يختم «محمود أمين العالم» حديثه التحليلى، أو دراسته النقدية، التى حرص فيها على أن يضع القصة فى مكانها التاريخى الصحيح، وأن يفصِّل ظروف صدورها، ولم يكتف بأن يربط بينها وبين إنتاج «نجيب محفوظ» الذى سبقها بل يحرص على أن يربط بينها وبين ما تلاها من إبداعات ليبدو «محفوظ» وكأنه – وإن تنوع إنتاجه، وإن تعددت أساليبه – إلا أنه إنما يبغى تصوير المجتمع، ونقد آلياته، والكشف عن وقائعه.. هو مهموم بوطنه، وبأبناء وطنه، ومشاكل وطنه، لايفرق كثيرا بين هموم العيش، ومشاكل السياسة، فالكل يصب فى خانة الوطن، وحياة الوطن.. والكاتب وإن نحا بالرواية منحى سياسيا فلم يكن ذلك ليبعد بها عن التفسير الدينى ويبعد عنها شبهته، ولكن لأنه يرى أنها كذلك فعلا، ولا يتصور أن مبدعا مثل «نجيب» يرتضى لنفسه هذه السفاسف التى يريد المفسرون الدينيون أن ينحرفوا بالرواية ناحيتها، فيسيئوا بذلك إلى الفن، وإلى الدين، وإلى المقدسات فى نفس الوقت. «محمود العالم» يريد أن يقول نحن أمام عمل فنى يمثل مرحلة خصبة من مراحل إنتاج «محفوظ»، ونحن إزاء عمل له مدلول سياسى، ومفهوم اجتماعى، وهو بعيد كل البعد عن المفهوم الدينى، وإن كان يعتبر الدين عنصرا عاما وعاملا أساسيا لبناء مجتمع صالح ومع ذلك فنحن نأخذ على العالم ميله المبالغ فيه إلى تسييس الرواية وتعبيرها أو تصويرها للعهد الناصرى.. وإن كنا لا ننكر أن فيها ملامح عديدة تعنى ذلك العهد – ولكنها ليست كل الملامح، ففيها من ذلك العهد وفيها من عهود سابقة، وفيها من الحياة الجارية.. وفيها الكثير من تصوير الحياة المصرية الصحيحة بكل ملامحها وعيوبها.

ولكنها – من قبل ومن بعد – عمل فنى له قيمته، ومكانته.. وإن كان مقترنا برؤى مختلفة، إلا أن ذلك يعلى من قيمته، ويبتعد به عن ذلك المنزلق الذى يريد البعض أن يهووا بهذا العمل إليه..

....

* * *

المبحث الثامن

طبع أولاد حارتنا فى مصر
متى؟ - وكيف؟

قبل أن تنتهي حلقات «أولاد حارتنا» التي كانت تنشر مسلسة في أواخر عام ١٩٥٩م على صفحات الأهرام.. ثارت الزوابع في وجهها، وأبلغ مؤلفها أنها لن تنشر في كتاب في مصر، وكفى ما أثارته من مشاكل عند نشرها في الأهرام..

وقد بادرت دار الآداب في بيروت إلى تلقُّف أصول الرواية وقامت بنشرها في بيروت، ومنها انتشرت في سائر الدول العربية وغير العربية، بما فيها مصر، بحيث أتيح لكل من يريد أن يقرأها ذلك.

ولكنها – مع ذلك – ظلّت غير مسموح بطباعتها ونشرها في مصر لأسباب عديدة سبق أن أشرنا إليها فيما سبق من فصول.. وظل الأستاذ «نجيب» يقول إنه لن يأذن بنشرها في مصر إلا إذا وافق الأزهر. غير أن الأزهر لم يوافق!

ومع ذلك قامت دار الشروق بطبع الرواية ونشرها في مصر – وقد أصدرت طبعتها الأولى في ديسمبر ٢٠٠٦م – كما أصدرت طبعتها الثامنة في سبتمبر ٢٠٠٩م..

أما كيف صدرت؟ هل وافق الأزهر؟

أمـا عن موافقة الأزهر.. فلا أعتقد أن موافقة رسمية قد صدرت عنه، وتضمنت عدولا عن الآراء السابقة التي أبداها مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر..

ولا أعتقد أن دار الشروق بعثت إليه بطلب تخبره فيه بعزمها على طبع هذه الرواية وتلتمس منه إذنا.. ففي حدود علمي إن مثل هذا الطلب لم يرفع إلى الأزهر، وبالتالي فلم تصدر موافقة عليه. وإلا لكانت دار الشروق نشرته وزينت به الكتاب.

غير أن الدار عند إقدامها على نشر الرواية نشرت على غلافها الخلفي كلمة للكاتب الإسلامي المعروف: دكتور «محمد سليم العوا» تضمنت كلاما طيبا عن الرواية.

كما أن الدار نشرت في صدر الرواية شهادة للدكتور «أحمد كمال أبو المجد» وهو كاتب ذو ميول إسلامية وله كتابات وأحاديث مشرفة عن الإسلام.

وما زالت هاتان الكلمتان تنشران مع كل طبعة من طبعات الرواية.. وإن كانت «الشهادة» نقل موضعها إلى الصفحات الأخيرة من الكتاب.

ونشهد أن كلمة الدكتور «محمد سليم العوا»، وشهادة الدكتور «أحمد كمال أبو المجد» جديرتان بأن تعتبرا على رأس الكتابات التى تناولت الرواية بالدراسة والعرض.. ولكن نكتفى بشهادة الدكتور «أحمد كمال أبو المجد».

* * *

هذه الشهادة

الشهادة التى توشك أيها القارىء - أن تتابع سطورها القليلة، سبق نشرها «مقالة» فى «الأهرام» يوم ٢٩ ديسمبر ١٩٩٤م، أى منذ أكثر من عشر سنوات، طرأت فيها علىحياتنا الثقافية والسياسية أمور جسام ازدادت فيها تجاربنا الفردية والجماعية ثراء وتنوعا، وأحاطت بنا على مرّ شهورها وأيامها، أحداق وتطورات كبرى، داخل مصر، وعلى امتداد عالمنا العربى وامتداد الدنيا كلها.. تغيّرت بسببها نظرتنا إلى كثير من أمورنا الخاصة وأوضاعنا العامة.. ووقف بسببها كثير منا من نفسه وأمته موقف المراجعة والتأمل، والمجاهرة بالنقد لما يستحق النقد من أوضاعنا، كما ارتفعت نبرة المطالبة بالإصلاح السياسى والاجتماعى والثقافى، وانقدحت - بسبب ذلك كله - شرارة حوار بدأ ثم تصاعد، ولا يزال دائرا بين جماعات الكتاب والمفكرين والباحثين ممّن يطلق الناس عليهم «النخبة المثقفة» التى تفكر للمجتمع كلّه، وتطرح بين يديه قضاياه وهمومه، وتشتغل معه بطموحاته وتطلعاته وآماله فى الغد القريب والمستقبل البعيد..

لذلك، حين عَرضت علىَّ دار الشروق أن تجعل «هذه الشهادة» مقدمة لرواية «أولاد حارتنا» لكاتبنا الفذ الكبير «نجيب محفوظ» لم أتردد فى قبول هذا الاقتراح ولكنى رأيت من الضرورى أن أعيد قراءة هذه الشهادة، وأن أعيد قراءة «أولاد حارتنا» مرة أخرى، حتى أستوثق من أن ما سطره القلم عام ١٩٩٤م لا يزال - عند صاحبه على الأقل - صالحا عام ٢٠٠٦م،وأن ما شهدتُ به فى شأن هذه الرواية التى أحدثت فى حياتنا

الثقافية دويا ظلَّت أصداؤه تتردَّد سنوات طويلة لازال موضع إيمانى واقتناعى.. فلما فعلت ذلك، بدا لى أن ليس عندى ما أضيفه أو أغيِّره من سطور هذه الشهادة.. إذ الأمر – فى نهايته – يدور حول قضيتين لم يتحول فكرى ولم يتغير فى شأنهما:

أولاهما: أن من أصول النقد الأدبى التمييز الواجب بين الكتاب الذى يعرض فيه الكاتب فكرته ويحدد مواقفه، ملتزما – فى ذلك – بالحقائق التاريخية، والوقائع الثابتة، دون افتئات عليها، ودون مدارة لما يراه فى شأنها.. وبين الرواية التى قد يلجأ صاحبها إلى الرمز والإشارة، وقد يدخل فيها الخيال إلى جانب الحقيقة العلمية، ولا بأس عليه فى شىء من ذلك، فقد كانت الرواية – قديما وحديثا – صيغة من صيغ التعبير الأدبى، تختلف عن «الكتاب» والالتزام الصارم الذى يفرضه على مؤلفه.. وفى إطار «أولاد حارتنا» فإننى فهمت شخصية «عرفة» بأنها رمز للعلم المجرد.. وليست رمزا لعالم بعينه، كما فهمت شخصية «الجبلاوى» على أنها تعبير رمزى عن «الدين» وليست بحال من الأحوال تشخيصا رمزيا للخالق سبحانه وهو أمر يتنزه عنه الأستاذ «نجيب محفوظ» ولا يقتضيه أى اعتبار أدبى فضلا عن أن يستسيغه أو يقبله.

القضية الثانية: حرية التعبير والموقف منها، ذلك أنه مع التسليم بأن الحريات جميعها إنما تمارس فى جماعة منظمة، ولذلك لا يتأبى منها على التنظيم والتعبير إلا حرية واحدة هى حرية «الفكر والاعتقاد» بحسبانهما أمرا داخليا يسأل عنه صاحبه أمام خالقه، دون تدخل من أحد، حاكما كان ذلك الأحد أو محكوما.. أما حين يتحول الفكر إلى تعبير يذيعه صاحبه وينشره فى الجماعة، فإن المجتمع يسترد حقه فى تنظيم ذلك التعبير دون أن يصل ذلك التنظيم إلى حد إهدار أصل الحق ومصادرة جوهر الحرية، ذلك أن الهدف من إجازة هذا التنظيم إنما هو حماية حقوق وحريات أخرى فردية أو جماعية قد يمسها ويعتدى عليها إطلاق حرية الفرد فى التعبير، وتمنعها على التنظيم والتقييد، ويبقى مع ذلك صحيحا أن الأصل هو الحرية، وأن التقييد استثناء تمليه الضرورة، والضرورة إنما تقدر بقدرها، ومن شأن الاستثناء ألا يقاس عليه أو يتوسع فيه.

وأهم من هذا كله.. أن الشهادة التى قدمتها ليست رأيا لى، وإنما هى تفسير كاتب «أولاد حارتنا» لما كتبه، وبيان واضح لا يحتمل التأويل لموقفه من القضايا الكبرى التى أثارتها تلك الرواية.. وهى – على كل حال – آخر ما صدر عن «نجيب محفوظ»، أمدَّ

الله فــى عمره، حول القراءة الصحيحة «لأولاد حارتنــا» باعتبارها «رواية» للخيال وللرمز فيها دور كبير.. وليست.

«كتابا» يقرأ قراءة حرفية للتعرف على موقف مؤلفه من القضايا التى يطرحها بعيدا عن الرمز والخيال..

وأدعــو الله تعالى أن تتســع عقولنا وقلوبنــا لمزيد من حرية الكتاب والأدباء وســائر المفكرين فى التعبير عن آرائهم؛ وإطلاق مواهبهم بالصيغ الأدبية التى يختارونها، دون حجر أو وصاية أو مســارعة إلى الاتهام وإســاءة الظن.. حتى لا «تكتم الشــهادة» بيننا وتموت، وحتى لا تتجمد الأفكار علىأطراف الألسنة والأقلام.. فتحرم الجماعة من زاد ثقافى وعلمى تحتاج إليه، وهى تشــق طريقها للانبعاث والنهضة وســط زحام حضارى وثقافى لا سابقة له فى التاريخ.

د. أحمد كمال أبو المجد

يناير ٢٠٠٦م

* * *

حول «أولاد حارتنا»

حين وقع الاعتداء الغادر على أديب مصر وكاتبها الكبير «نجيب محفوظ»، كنت خارج مصر.. وحين عدت إليها طلبت من الصديق الأستاذ «محمد سلماوى»، وهو من تلامذته المقربين، أن يصحبني إليه لنؤدى واجب الاطمئنان عليه.. ولكنه - وسط شواغله الثقافية - تأخر في ترتيب تلك الزيارة حتى عاد الأستاذ «نجيب محفوظ» إلى بيته قبل أيام من عيد ميلاده الذى شاركه فى الاحتفال به كثيرون من محبِّيه ومقدِّريه.. وإذا بالأستاذ «سلماوى» يتصل بى ليخبرنى أنه رتب للزيارة موعدا فى الخامسة من مساء اليوم التالى، وأننا سنذهب فى صحبته ومعنا المهندس «إبراهيم المعلم»، الذى تربطه ووالده بالأستاذ «نجيب محفوظ» علاقات ودّ قديمة وموصولة، ومعنا كذلك الإذاعى والإعلامى المخضرم «أحمد فراج».

وعلى باب «نجيب محفوظ» استقبلتنا بالحفاوة المصرية المعهودة السيدة الفاضلة زوجته.. ثم جاء الأستاذ «نجيب محفوظ» فى خطوات ثابتة طمأنتنا على قرب اكتمال شفائه، وأخذ يرحّب بنا فى ود شديد، ثم جلس بيننا.. وسادت فترة من صمت قصير، لأن أحدا منا لم يعد لهذا اللقاء أكثر من كلمات السؤال عن الصحة والتهنئة بعيد الميلاد.. ثم بدا لى - على غير ترتيب ولاإعداد - أن أقطع هذا الصمت.. فوجدتنى أقول: يا أستاذ «نجيب»، الجالسون معك الليلة كلهم من قرائك، جيلنا كان يجد فى كتاباتك ورواياتك شيئا بين فن الأدب وفن التصوير، وذلك بما نسجته فى وصف القاهرة وحياة أهلها، ونماذجهم المختلفة من وشى دقيق عامر بالألوان ملىء بالتفاصيل، حتى ليكاد القارىء يسمع فيه أصوات الناس، ويرى وجوههم، ويتابع حركتهم فى شوارع القاهرة وأزقتها ومساجدها ومقاهيها، ويكاد - دون أن يشعر - يدخل طرفا فى علاقات بعضهم ببعض.. وكم من مرة تعرَّف بعضنا على أحياء القاهرة وشوارعها بما كان قرأه عنك فى وصفها وتصوير حياة أهلها.. وأضفت: ثم إنك يا أستاذ «نجيب» تظل - فى خواطرنا - قبل كل شىء وبعد كل شىء كاتبا وأديبا مصريا خالصا، لم تدجن كتاباته وآراؤه بتأثيرات غربية تنال من نكهتها المصرية ومذاقها العربى الأصيل.

وبدا من قسمات وجه الأستاذ «نجيب محفوظ» وحركة يديه أنه يقبل هذا الوصف له ولكتاباته وأنه يرتاح إليه.. فشجعنى ذلك على أن أتقدم فى الحوار خطوة أخرى، فقلت:

ويبقى أن نسـألك عن رأى عبـوت عنه منذ أسـابيع قليلة حين بعثت برسـالة وجيزة إلى الندوة التى نظمتها الأهرام تحت عنوان «نحو مشروع حضارى عربى»، فقد قلت للمشاركين فى الندوة: إن أى مشـروع حضارى عربى لابد أن يقوم على الإسـلام، وعلى العلم.. ولقد وصلت رسـالتك – على قصرها – واضحة وصريحة ومسـتقيمة ولا تحتمل التأويل، ولكن يبقـى – ونحن معك نسـمع لك وننقل عنـك – أن تزيد هذا الأمر تفصيلا، نحتاج جميعا إليه وسـط المبارزات الكلامية التى يجرى فيها – ما يسـتحق الحزن والأسف – من ألوان تحريف الكلام وتزييف الآراء والافتئات على أصحابها..

وفى حماسة شديدة، وصوت جهير ونبرة قاطعة، انطلق «نجيب محفوظ» يقول: وهل فى تلك الرسـالة جديد ؟.. إن أهل مصر الذين أدركناهم ،وعشـنا معهم، والذين تحدثت عنهم فى كتاباتى كانوا يعيشـون بالإسـلام، ويمارسون قيمة العليا.. دون ضجيج ولا كلام كثير.. وكانت أصالتهم تعنى هذا كله.. ولقد كانت السماحة وصدق الكلمة وشجاعة الرأى وأمانـة الموقـف ودفء العلاقات بين الناس، هى تعبير أهل مصر الواضح عن إسـلامهم.. لكنّى فى كلمتى إلى الندوة أضفت ضرورة الأخذ بالعلم، لأن أى شـعب لا يأخذ بالعلم ولا يدير أموره كلها على أساسه لايمكن أن يكون له مستقبل بين الشعوب.. إن كتاباتى كلها، القديم منها والجديد، تتمسـك بهذين المحورين: الإسـلام الـذى هو منبع قيم الخير فى أمتنا، والعلم الذى هو أداة التقدم والنهضة فى حاضرنا ومستقبلنا.

وأحـب أن أقول: إنه حتى رواية «أولاد حارتنا» التى أسـاء البعض فهمها لم تخرج عن هذه الرؤية. ولقد كان المغزى الكبير الذى توجت به أحداثها.. أن الناس حين تخلوا عن الدين ممثلا فى «الجبلاوى»، وتصوروا أنهم يستطيعون بالعلم وحده ممثلا فى «عرفة» أن يديروا حياتهم على أرضهم (التى هى حارتنا).. اكتشفوا أن العلم بغير الدين قد تحول إلى أداة شـر، وأنه قد أسـلمهم إلى استبداد الحاكم وسـلبهم حريتهم.. فعادوا من جديد يبحثون عن «الجبلاوى».

وأضاف: إن مشـكلة «أولاد حارتنا» منذ البداية أننى كتبتها «رواية»، وقرأها بعض النـاس «كتابـا»، والرواية تركيب أدبى فيـه الحقيقة وفيه الرمز، وفيـه الواقع وفيه الخيال.. لا بأس بهذا أبدا.. ولايجوز أن تحاكم «الرواية» إلى حقائق التاريخ التى يؤمن الكاتب بها، لأن كاتبها باختيار هذه الصيغة الأدبية لم يلزم نفسه بهذا أصلا وهو يعبر عن رأيه فى رواية..

وفى ثقافتنا أمثلة كثيرة لهذا اللون من الكتابة، ويكفى أن نذكر منها كتاب «كليلة ودمنة»، فهو مثلا يتحدث عن الحاكم، ويطلق عليه وصف «الأسـد» ولكنه بعد ذلك يدير كتابته كلها داخل إطار مملكة الغابة وأشخاصها المستمدة من دنيا الحيوان.. منتهيا بالقارئ فى آخر المطاف إلى العبرة أو الحكمة التى يجريها على ألسنة الطير والحيوان.. وهذا هو الهدف الحقيقى الذى يتوجه إليه كل كاتب صاحب رأى.. أيا كانت الصيغة التى يمارس بها كتاباته..

قلت: الواقع أننى قرأت «أولاد حارتنا» منذ عدة سنوات، وأذكر أننى تعاملت معها حينذاك على أنها رواية وليست كتابا، ولذلك تفهمت ما امتلأت به من رموز تداخل فى صياغتها الخيال، ولم أتصور أبدا أن كاتبها كان بهذا التداخل يحاول رسم صور تعبر عن موقفه من الحقائق التى يتناولها ذلك الخيال أو تشير إليها تلك الرموز. ولكن الذى استقرّ فى خاطرى على أى حال وبقى فى ذاكرتى منها إلى يومنا هذا، والذى رأيته - معبّرًا عن موقف كاتبها الذى يريد إيصاله إلى قرائه - هو تتويج حلقات روايته الرمزية بإعلان واضح عن حاجة «الحارة»، التى ترمز للمجتمع الإنسانى، إلى الدين وقيمه التى عبر عنها الرمز المجرد (الجبلاوى) حتى وإن تصور أهل الحارة غير ذلك وهم معجبون ومفتونون «بعرفة» الذى يرمز إلى سلطان العلم المجرد والمنفصل عن القيم العادية والموجهة لأهل الحارة.

وتابع الأستاذ «نجيب» حديثه الأول قائلا:

إننى حريص دائما على أن تقع كتاباتى فى الموقع الصحيح لدى الناس، حتى وإن اختلف بعضهم معى فى أرائى، ولذلك لما تبينت أن الخلط بين «الرواية» و«الكتاب» قد وقع فعلا عند بعض الناس، وأنه أحدث ما أحدث من سوء فهم، اشترطت ألا يعاد نشرها إلا بعد أن يوافق الأزهر على هذا النشر، (ولايزال هذا موقفى إلى الآن).

قلت: إننى أتمنى - يا أستاذ «نجيب» - أن يسمع الناس منك هذا الكلام الواضح الذى لا يحتمل التأويل، ليعرفوه منك بدلا من أن يَعْرِفُوهُ من خلال شروح الآخرين، وائذن لى أن أقول إنى كنت واحدا من الذين يجدون هذه المعانى التى حدثتنا بها الآن حاضرة فى ثنايا كثير من كتاباتك القديمة والجديدة، وكانت تعبيرا دقيقا عن منهج جيلنا وجيل آبائنا فى فهم الإسلام، فقد كانوا - وكنا معهم - نتنفس الإسلام تنفسا ونحيا به فى هدوء واطمئنان، دون أن تملأ مجالسنا ومجالس الآخرين بالكلام الكثير عنه.

وحين أوشكت الزيارة أن تتحول بهذا الحوار العفوى إلى ندوة، تدخل الأستاذ «أحمد فراج» قائلا فى حماسة: كم كنت أتمنى أن يسمع الناس - كل الناس - هذا الحوار

الهادىء حول هذه القضايا الساخنة. وأرجو أن يأذن لى الأستاذ «نجيب محفوظ» بتسجيل هذا الكلام كله مرة أخرى فى ندوة تليفزيونية قصيرة لا تتجاوز الدقائق العشر.. توضع بها النقاط على الحروف، ويعرف الناس، الموافق منهم والمخالف، حقيقة رأى الأستاذ «نجيب محفوظ» الذى عبر عنه الآن، كما عبرت عنه رسالته الوجيزة إلى ندوة الأهرام.

قال الأستاذ «نجيب محفوظ»: إنى شاكر ومقدّر هذا الاهتمام، ولكنى أشفق على نفسى من فتح باب الأحاديث التليفزيونية.. وأنا لا أزال فى نقاهة لا تحتمل مثل هذا المجهود.. ولكنى – بدلا من هذا – أقترح أن يكتب الدكتور أبو المجد هذا الحوار الذى دار كما دار.. وسأكون راضيا عن ذلك كل الرضا..

وفى إطار هذه الرغبة الموثقة بإذن صريح من الأستاذ «نجيب محفوظ» وبشهادة ثلاثة من ضيوفه الكرام.. ولدت فكرة هذا المقال.. الذى هو عندى شهادة أرجو أن أدرأ بها عن كتابات «نجيب محفوظ» سوء فهم الذين يتعجلون الأحكام ويشرعون فى الاتهام، وينسون أن الإسلام نفسه قد أدرجأ كثيرا من الظنون السيئة فيما دعا إلى اجتنابه من آثام.. كما أدرأ عن تلك الكتابات الصنيع القبيح الذى يصر به بعض الكتاب على أن يقرءوه فى أدب «نجيب محفوظ» ما يدور فى رءوسهم هم من أفكار، وما يتمنون أن يجدوه فى تلك الكتابات، مازحين أنفسهم قوامة لايملكها أحد على أحد، فضلا عن أن يملكها أحد منهم علــى كاتب له فى دنيا الكتابة والأدب ما «لنجيب محفوظ» من القدم الثابتة، والتجربة الغنية، والموهبة الفذة النادرة التى أنعم بها عليه الله.

أدعو الله أن يتم على أديبنا الكبير نعمة العافية حتى يمسك القلم من جديد مواصلا عطاءه الأدبى الذى يغنى العقل والوجدان، وواهبا ما بقى من عمره المديد – بإذن الله – لتجليه الأمرين العظيمين اللذين أشار إليهما فى رسالته إلى ندوة الأهرام: الدين، الذى به هداية الناس وراحة النفوس، والذى يفيء ألوانا من المحبة والسماحة ودفء العلاقات والتسابق إلى الخير، على حارتنا الكبيرة مصر.. والعلم، الذى تحيا به العقول، والذى هو مفتاح أمتنا، وكل أمة، إلى أبواب المستقبل التى تتزاحم اليوم أمامها شعوب الدنيا كلها لتكون لها مكانة فى ساحته التى تتشكل معالمها الجديدة يوما بعد يوم.

د. أحمد كمال أبو المجد

الأهرام ٢٩ ديسمبر ١٩٩٤م

وفى الحقيقة أن ما سوف أسوقه فيما يلى ليس تعليقا على هذه الشهادة التى تتصف بالإنصاف، وتحرّى قول الحق، لأنها تقوم على فهم صحيح، وإدراك متسع، وهى صادرة عن صاحب فكر له فى الدراسات الإسلامية قدم راسخة، وله فى فهم العقيدة الإسلامية نظرات سديدة، ولا يقدم أحكامه إلا بعد أن يحسن الدرس، ويتعمق المسألة، ويحيط بالموضوع من جميع أطرافه، وهو فضلا عن ذلك كله من علماء القانون الأفذاذ، ومن العاملين فى مجاله عملا دائبا متفردا هو موضع التقدير على جميع النطاقات الداخلية والعربية والإسلامية والعالمية.. فأن يقول ما قاله من أنه قرأ الرواية على حقيقتها فلم يجد فيها سوى تصوير صادق، ودعوة مخلصة لضرورة تنقية الإيمان من شوائبه، وإكبار الدين الصحيح على النحو الذى أنزل به، واتخاذه شريعة حياة، ومنهج سلوك، مع عدم الإغفال عن ضرورات العلم، والأخذ بأسبابه فعلى ركيزتين من الدين والعلم يمكن أن ينهضه المجتمع، وترتقى الحياة. وأن هذا هو جوهر رسالة «نجيب محفوظ» سواء فى هذه الرواية أو فى سواها من أعماله الفنية وإبداعاته الرائعة.

* * *

الفصل السابع

المحاكمة الخامسة

أمام منصة القضاء

تقديم:

نعــم.. وقف «نجيب محفوظ» أمام منصــة القضاء «الجنائى» متهما بتهمة ما جالت له بخاطر، ولا فكَّر فيها فى يوم من الأيام، وهى تهمة ازدراء الأديان، ووقف المدعى - وهو أول من يتكلم - يطالب بتوقيع أقصى العقوبة عليه. فضلا عن مطالبته بالحكم له بتعويض مدنى.. والعجيب أن تلك المحاكمة جرت و«نجيب محفوظ» ما يزال ملازما بيته على أثر حادث العدوان عليه.. وإذا كان ذلك العدوان الآثم قد أحدث ما يشــبه الزلزال، فقد كان ذلك الاتهام وتلك المحاكمة أشبه ما يكون بتوابع الزلزال..

والعجيب أن هذه المحاكمة - غير المعقولة، وغير المقبولة - استغرقت خمس جلسات أمام محكمة جنايات «المنصورة» وعلى امتداد الفترة من ١٩٩٥/٥/٢٣م إلى ١٩٩٥/١١/٣٠م حيث صدر الحكم فى تلك الجلسة الأخيرة..

وعلى مدى تلك الجلســات أُبديت مرافعات، علت فيها الأصوات، واحتدم فيها شأن الخصومات، ناهيك عمَّا قُدم من مذكرات من الدفاع فضلا عمَّا قُدم من حوافظ مستندات.

وأنــا أروى قصــة هذه المحاكمة وما دار فيها وما انتهت إليه روايةَ شــاهد عيان، كان مشــاركا فى ســير الأمور، بــل كان هو محامى «نجيب محفوظ»، يدفــع عنه هذه التهمة الظالمة، ليبرئ ساحته أمام «محكمة الجنايات».

ولعل الأمر يبدو غريبا إذ يصل إلى القضاء، ويأخذ هذه الأوضاع.. ولكنه ليس غريبا على من وقفوا فوق منابر الوعظ والهداية وجعلوا همَّهم الأكبر الإساءة إلى «نجيب محفوظ»، كما أنه ليس غريبا على من نشروا المقالات، وأصدروا المؤلفات يشتمون فيها الرجل، ثم يفتون بأنه مرتد ومن الجائز قتله..!

فمــن الطبيعى أن يكــون تقديم «نجيب محفوظ» إلى تلك المحاكمــة حلقة من حلقات السلســلة التى رويناها، بل لعلها كانت هى وحدها الحلقة التى يمكن أن توصف بالعدالة

حيث أتيح فيها للمتهم أن يبدى أقواله، ويُسمِع القضاء دفاعه؛ ولا يصدر القضاة حكمهم إلا «بعد المداولة» ويدوِّنون حكمهم فى مدوّنة تُسجِّل الواقعة والتهمة وتفصِّل الأسباب التى بنى عليها ذلك الحكم..

ولعل الأمر بعد هذه المقدمة يحتاج إلى أن نروى تفاصيله: فما هى قصة تلك المحاكمة؟ ومن كان المدعى الذى حرّكها وأثارها؟ وكيف تمت المحاكمة؟ وماذا قيل فيها من اتهامات؟ وماذا كان دفاع المتهم؟ وبماذا قضت المحكمة؟ وما هى معقبات الحكم؟

ذلك ما نفصله فيما يلى.

١ - صحيفة الدعوى:

الاتهام أقيم عن طريق الادعاء المباشر بناءا على صحيفة دعوى حررها المدعى وقيدها فى قسم شرطة «السنبلاوين» – دقهلية – وأُعلن بها المتهم: «نجيب محفوظ عبد العزيز» – على عنوان منزله فى شارع النيل بالعجوزة، وقد تم الإعلان ووجب الحضور أمام «محكمة جنايات المنصورة» فى اليوم المحدد بالإعلان.. وقد تعذر حضور «المتهم» فى ذلك اليوم الموعود لأكثر من سبب، فتأجل نظر الدعوى لجلسة ١٩٩٥/٦/٢١م حيث حضر «المتهم» بوكيل.. أثبت حضوره بموجب توكيل خاص، وبذلك اكتمل للجنحة أطرافها: النيابة العامة: سلطة اتهام.

«نجيب محفوظ عبد العزيز» – متهم – (قبلت المحكمة بصفة استثنائية حضوره بوكيل عنه).

أ – الأستاذ / «السيد السيد عبد الرحمن» وشهرته «السيد عبد الرحمن» – المحامى – المدعى

- فما هى القصة؟
- وبم يدعى السيد المدعى؟
- بل وما علاقته هو «بنجيب محفوظ» حتى يدّعى عليه؟
- وكيف يُتصور أن يُقدم «نجيب محفوظ» – متهما – وهو المريض اللازم بيته على أثر حادث العدوان الآثم الذى لم يكن قد تم برؤه منه بعد؟ لذلك تفصيل يجب أن نورده..

٢ - جنحة مباشرة:

من المقرر قانونا - وعملا - أن للنيابة العامة أن تجرى تحقيقاتها فيما يعرض عليها من تحريات، أو فيما يقدم إليها من شكاوى وبلاغات، فإذا قدَّرت أن هناك وجها لإقامة الدعوى الجنائية أصدرت قرارها بالإحالة، وإلا قررت الحفظ أو الأوجه لإقامة الدعوى.

وكذلك فقد أعطى «قانون الإجراءات الجنائية» لعموم الأفراد إمكانية أن يرفعوا قضاياهم إلى محكمة الجنح مباشرة عن طريق صحيفة دعوى يحررونها ويسودون صفحاتها بما يشاءون من ادعاءات، ثم يعلنونها إلى من يوجهون إليهم اتهاماتهم التى ينفردون بصياغتها، وإعدادها، واتخاذ إجراءات رفع الدعاوى المتعلقة بها، والمقامة على أساسها.. كل ما على هؤلاء من قيد هو أن تقف اتهاماتهم عند حدود «الجنح» دون أن تتخطاها إلى «الجنايات».. فهذه تنفرد النيابة العامة بإصدار أوامر الإحالة بشأنها إلى المحكمة المختصة.

ومن هذا المنطلق أقام الأستاذ «السيد عبد الرحمن» المحامى - من السنبلاوين دقهلية - جنحه مباشرة ضد «نجيب محفوظ عبد العزيز» وآخرين طالبا معاقبتهم بموجب المواد: ١٦٠، ١٦١، ١٧١ عقوبات.. فما هى هذه المواد، وما هى وقائع الاتهام المطلوب محاكمتهم وتوقيع أقصى العقوبة عليهم بموجبها؟ مع إلزامهم بدفع تعويض مدنى لسيادة المدعى المدنى - عما أصابه من أضرار نتيجة الواقعة المنسوبة للمتهمين؟

ذلك حديث يحتاج إلى تفصيل..

٣ - التهمة.. المتهمون:

وقبل أن نعرض للتهمة نقدم بيانا بالمتهمين كما حددهم السيد المدعى فى صحيفة دعواه..

وأول ما نذكره أن السيد المدعى أقام دعواه - بالطريق المباشر - بصحيفة أودعت قلم كتاب المحكمة بتاريخ ١٢/١٢/١٩٩٤م - مطالبا بالحكم - لسيادته بتعويض مؤقت مقداره: ٥٠١ جنيها، مؤسسا دعواه على ما ناله من ضرر نتيجة للأفعال التى نسبها إلى المذكورين فيما يلى إذ يتهمهم بارتكاب الأفعال المؤثمة بالمواد ١٦٠، ١٦١، ١٧١ من قانون العقوبات - والمتهمون هم - كما حددهم سيادة المدعى:

أ - «نجيب محفوظ عبد العزيز» - (أديب - يعمل كاتبا بجريدة الأهرام).

ب - «جلال دويدار» - رئيس تحرير جريدة الأخبار.

جـ - «فاروق الشاذلى» - المحرر بالأخبار.

وقد أعلنت هذه الصحيفة إلى السيد / «نجيب محفوظ عبد العزيز» بتاريخ ١٩٩٥/٦/٥م

أما عن التهمة: فقد نسب سيادة المدعي بالحق المدني إلى المتهمين الثلاثة ما يأتي:

«إنهم في يوم ١٩٩٤/١٢/٧م تعدوا على كل الأديان التي تؤدي شعائرها علنا بأن نسبوا إلى الله العظيم باعتبار أن عظمته هو محور العبادة والتقديس في كل هذه الأديان اسما من غير أسمائه الحسنى وهو «الجبلاوي» وذلك على سبيل الامتهان على النحو المبين بالأوراق» وطلب معاقبتهم بالمواد سالفة الذكر.

وفي ثنايا صحيفته ذكر رواية لما حدث على أنه عندما أجريت «لنجيب محفوظ» العملية الجراحية على أثر ما وقع عليه من عدوان - وبعد أن أفاق من التخدير سأل عن الوقت الذي ستجرى فيه الجراحة، فلما قيل له إن الجراحة أجريت وانتهت وأنه أفاق منها قال ما معناه أنه بذلك يكون «الجبلاوي» راضيا عني.

وأضاف المدعي أن «نجيب محفوظ» يعني بذلك الذات الإلهية.. فهو بذلك قد أساء إلى ذات المولى - سبحانه وتعالى - وإذ نشرت صحيفة الأخبار ذلك في عددها الصادر بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٧م فيكون محرر الخبر ورئيس التحرير مسئولين مع «نجيب محفوظ» عن هذه الجريمة المؤثمة بمواد الاتهام وهي جريمة ازدراء الأديان، ومن ثم وجب تقديم ثلاثتهم إلى المحاكمة لتوقيع أقصى عقوبة يفرضها قانون العقوبات عليهم..!!

وكان على المدعي أن يوضح مآتي الاتهام - فذكر في ثنايا صحيفته - وفي دفاعه الشفوي أمام المحكمة أن «لنجيب محفوظ» عملا قصصيا تحدث فيه عن الذات الإلهية وأطلق عليها مسمى «الجبلاوي» - وهو الأمر الخارج على الدين، بل والذي يمثل ازدراء للأديان.

ولعل أطرف ما وقع في المحاكمة هو عندما تصدى دفاع «نجيب محفوظ»، وسأل السيد المدعي: وهل قرأ رواية «أولاد حارتنا».. فكانت إجابته المجلجلة أنه لم يقرأها مضيفا قوله: وحاشاه أن يقرأها لما تنطوي عليه من خروج..

ولا ندري كيف يمكن لإنسان أن يحكم على عمل ويصفه بصفات معينة دون أن يكون قد قرأه، وأحاط بما تضمنه..!!

ولكن هذا هو ما وقع، وما صرح به السيد المدعي في عبارات واضحة قرعت أسماع الجميع..

٤ - المحاكمة:

استمرت المحاكمة طوال الفترة من ١٩٩٥/٥/٢٣م حتى ١٩٩٥/١١/٣٠م حيث جرت المحاكمة على مدى خمس جلسات كان منها الجلسة التى أعلن فيها الحكم.

وكان من الطبيعى أن يكون القول الأول للمدعى، حيث وقف خطيبا يكيل الاتهامات كيلا للمتهمين الثلاثة في حدود مواد الاتهام، ويؤكد ما ينسبه إلى «نجيب محفوظ» من ارتكابه جريمة ازدراء الأديان، وأنه بقولته تلك إنما عبر عن هذا الازدراء بأوضح تعبير، وأن هذا أمر ما كان يجوز، فذات الإله سامية عالية مقدسة لا يحق لبشر أن يمسها أو يقرب منها.. فكيف إذا ما تجاوز فرد ذلك إلى تسميتها باسم ليس من الأسماء الحسنى التى سمى بها المولى نفسه؟ إن ذلك البشر يكون قد خرج على الحدود، وخالف الشريعة، فحق عليه العقاب الدنيوى، فضلا عما ينتظره في الآخرة من ألوان العذاب..!

ملاحظة: أود أن أقرر أن ما ذكرته فى الفقرة السابقة هو ما تعيه الذاكرة مما قاله المدعى فى مرافعته.. وأؤكد أنه ليس نص ما ذكره بل هو مجمل المعانى التى دار حولها الحديث. فإذا كنت قد أخطأت التعبير، أو تجاوزت أو أقللت.. فليس لما قيل أصل مثبت فى الأوراق، فلم تتضمن محاضر الجلسات إثباتا لتفاصيل المرافعات.. وقد تخون الذاكرة.. لكن تبقى صحيفة الدعوى، ومادة الاتهام، فهما تؤكدان ما ذكرت من معان.

على كل فقد نهض دفاع المتهم بالعبء، حيث قدم العديد من المذكرات التى أعدها بأوجه الدفاع المختلفة، مما سنعرض له فيما يلى من بنود.

٥ - دفاع «نجيب محفوظ»:

• تضمن الدفاع ناحيتين:

أولاهما: أحد الدفوع الشكلية.

ثانيهما: تفصيلا لأوجه الدفاع الموضوعى.

• وذلك على النحو الدينى نورد ملخصا وموجزا له فيما يلى:

أ - عن الدفع الشكلى:

ذكرنا فى بداية الدفاع أن هناك العديد من الدفوع الشكلية، ولكننا لا نتمسك سوى بواحد منها هو الدفع بعدم قبول الدعوى لانتفاء شرط المصلحة الشخصية والمباشرة فضلا

عن انتفاء الصفة بالنسـبة للسـيد المدعى بالحق المدنى. ومتى انتفى شرط المصلحة وتحقق الصفة أصبح من المحتم القضاء بعدم قبول الدعوى، وامتنع بالتالى على المحكمة السير فى إجراءات المحاكمة.

وذلك أن حق المدعى بالحق المدنى فى الالتجاء إلى المحكمة الجنائية بطلب معاقبة المتهم جنائيًا إنما هو مترتب أصلا على حقه المقرر له فى إقامة دعواه المدنية أو بعبارة أخرى أن حق المدعى فى إقامة الدعوى الجنائية هو استثناء من القاعدة العامة التى تقصر هذا الحق علــى النيابة العامة (أو غيرها من الهيئات التى حددها القانون) وإذا أجيز للمدعى بالحق المدنى أن يرفع دعواه بالطريق المباشر، فإنما للمطالبة بحقوقه المدنية الناتجة عما ناله من ضرر نتيجة لما يدعيه من جرم وقع من «المتهم» أى أنه يلزم أن تكون الدعوى المدنية مقبولة حتى تنتج أثرها فى تحريك الدعوى الجنائية، وتقوم الدعويان أمام المحكمة.

وفى هذا الصدد، فإنه يشـترط أن تكون الدعوى المدنية مقبولة، أى مسـتكملة للشروط التى حددها القانون لقبول الدعوى ومن أهمها شروط المصلحة.. حيث تنص المادة (٣) من قانون المرافعات (قبل استبدالها بموجب القانون رقم ٨١ لسنة ١٩٩٦م) على ما يأتى:

«لا يقبل أى طلب أو دفع لا تكون لصاحبه فيه مصلحة قائمة يقرها القانون»

وقــد أجمــع الفقه والقضاء على أن هذا النص يوجب أن يكــون لرافع الدعوى مصلحة قائمة وحالة وشخصية مباشرة.. وتكون المصلحة فى الدعوى شخصية عندما تكون مرفوعة باسـم صاحب الحق المعتدى عليه المطلوب حمايته، وهى لا تكون كذلك إلا إذا كان رافع الدعوى هو صاحب الحق أو من يباشـره باسمه، ويشـترط لقبول الدعوى أن تكون مصلحة رافعها فى قبولها شـخصيته ومباشـرة، ويعبر بعض الشـراح عن شرط المصلحة الشخصية والمباشـرة بشـرط الصفة.. (د. عبد المنعم الشـرقاوى الوجيز فى قانـون المرافعات المدنية والتجارية - ١٩٥١م - ص ٢٣ وما بعدها)..

وعلى ضوء ما تقدم.. هل توافر شـرطا المصلحة والصفة بالنسـبة للمدعى بالحق المدنى فى الدعوى الماثلة؟

وقد أجاب الدفاع على هذا السـؤال بقوله: إن السـيد المدعى يذكر فى صحيفة دعواه ما يلــى: «ولما كان الطالب مسـلما ويغير ويقدس اسـم جلالة الملك الحـق ربه الله العظيم وأصابه ضرر مادى وأدبى كبير يقدر مؤقتا بمبلغ ٥٠١ جنيها على سبيل التعويض المؤقت من جراء سلوك المتهمين».

وقد عقب الدفاع بقوله:

«هذه هى العبارة التى أوردها المدعى بالحق المدنى: لقد أصابه ضرر مادى وأدبى كبير من جراء سلوك المتهمين (المتمثل فيما ادعاه بغير وجه حق من تسمية المولى عز وجل وتقدست أسماؤه بإسم من أسماء البشر».

وكان لنا أن نضيف تعقيبا آخر هو:

من أين أتى – أو تأتى له – أن يدعى تلك الدعوى بالنسبة «للنجيب محفوظ»؟ من أين له أن يقرر بأن «نجيب محفوظ» إنما يقصد «بالجبلاوى» الذات الإلهية، وهو لم يصرح بشيء من لك؟ ولم يقل ما يمكن أن يفهم منه أنه يعنى ذلك؟

ثم كان لنا أن نتساءل:

ما هو الضرر الذى أصاب السيد المدعى شخصيا ومباشرة؟ وما هو كنهه؟ ثم ما هى المصلحة الشخصية المباشرة للمدعى التى أضيرت، وحدث عدوان عليها ؟ إن المدعى لم يبينٌ لنا شيئا من ذلك، مكتفيا بكلمة عابرة، لاتثبت شيئا مما يدعيه..

إن ما ذكره المدعى من كونه مسلما هو موضع احترام.. لكن ما أضافه من أنه يغير.. فهى كلمة غير مفهومة ولا موضع لها هنا – لأنه لا يمكن أن يقصد إلا أنه «يغار» على مالله من قدسية ليس لأحد أن يمسها..

وهكذا فإننا نخلص إلى أنه فضلا عن أن الواقعة التى يدعيها المدعى هى واقعة غير صحيحة وغير ثابتة – فإن انفراد المدعى دون عباد الله أجمعين بتوافر مصلحة شخصية قائمة بالنسبة له بما تجعل من حقه تقاضى تعويض عما أصابه من ضرر يدعيه – إنما هو أمر غير مقبول، ولاسند له من واقع أو من قانون.

ومن ناحية أخرى فإنه ليس من الجائز – فى القانون المصرى – الاستناد إلى دعوى الحسبة – فى مثل هذه الحالة، فليس لذلك سند من القانون، ولا من التطبيقات القانونية الجارية.

وقد خلصنا من ذلك كله إلى أن المدعى بالحق المدنى ليست له مصلحة شخصية قائمة ومباشرة إذ لم يقع تعد على أى حق له، ولم يصب شخصه بأى ضرر نتيجة فعل أى من المدعى عليهم.. وليست له صفة فيما يدعيه.. ومن ثم حق لنا أن نطالب بعدم قبول الدعوى الماثلة لانتفاء توافر شرطى المصلحة والصفة بالنسبة للسيد المدعى بالحق المدنى..

ب - عن الدفاع الموضوعى:

ومع التمسك بالدفع الشكلى، فإن دفاع «نجيب محفوظ» تناول أيضا الدفاع الموضوعى وقد أشار إلى إعادة رواية الواقعة على وجهها الصحيح.. والواقعة التقطها السيد المدعى مما نشر فى جريدة الأخبار بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٧م.. وما نشر كان تحت عنوان «نص أقوال «نجيب محفوظ» أمام نيابة أمن الدولة.. وقد أخذت تلك الأقوال يوم ١٩٩٤/١٠/٢١م.. أى أن الصحيفة لم تنشرها فى يوم تحريرها بل بعد ذلك بما يجاوز شهرا ونصف شهر، وقد وردت على لسان «نجيب محفوظ» تلك الفقرة التى يروى فيها ما حدث منذ وقع التعدّى عليه إلى أن أدخل مستشفى الشرطة، وأجريت له جراحة.. حيث يذكر:

«وأنا بعد ما فقت سألت المدام وقلت لها دول رايحين يعملوا لنا عملية. فقالت لى إن العملية اتعملت خلاص. وده دليل على أن «الجبلاوى» مش غضبان منى، وفضلت قاعد فى المستشفى فى عناية تامة لغاية دلوقتى»

هذا هو كل سند السيد المدعى فيما وجّهه من اتهام.. وقبل أن نمضى فى مناقشته نشير إلى أن أقوال «نجيب محفوظ» نفسه المنشوره فى ذات الصفحة، وتحت نفس العنوان والتى أدلى بها فى نفس المحضر.. بل وأدلى بها تالية للفقرة موضوع الاتهام مباشرة حيث ذكر ما يأتى مما نورده بنصه:

«وده كل اللى أنا فاكره ومستعد لأى سؤال ممكن أجاوب عليه وأحب أن أوضح شىء مهم بخصوص رواية «أولاد حارتنا» التى يتخذها الإرهابيون سندا أو دليلا لهم على استباحة دمى، أو على أننى مرتد على حد قولهم وهو أن هذه الرواية ألفت قبلها روايات كثيرة وكانت تطبع كتب. رواية «أولاد حارتنا» كانت بداية اتصالى بالصحافة وكانت تنشر مسلسلة فى جريدة الأهرام وبداية مش معقول يكون رواية فيها مجازفة فكرية أو اجتراء على الذات الإلهية وأختارها لكى تنشر على عناوين الصحف – هذا من ناحية – ومن ناحية أخرى «أولاد حارتنا» مثل «كليلة ودمنة» تخلق عالما متطورا لتوحى بعالم وراءه فنحن بين الحيوانات عايشين فى غابة. ولكن نعرف ويعرف القارىء العادى أن إحنا نقصد نقد البشرية ونظم الحكم والعلاقات بين الأفراد وحكمة الحكماء وسفاهة السفهاء ولكن ما دام التزمنا إن إحنا نكون فى الغابة فلازم يكون أبطالنا حيوانات ولا نحاسب ونحن بنعاملهم معاملة الحيوانات لأننا بنعامل المرموز له بالحيوان وعلى نفس النمط أنا مشيت فى «أولاد حارتنا» بأعرض فيها

لمصريين فى حارة وأسـلوب حياتهم الظالم بكل ما فيه ثم يجىء ناس اللى أنا رمزت لهم برمز الرسـل وغيره ليدافعوا عن الحارة وعلشان وصية «الجبلاوى» تنفذ علشان يخش هذا الرمز فى الحارة فى صراع مع الأشـرار التى فيها اللى بينهبوا الوقف ويظلموا العباد حتى فـى النهاية ينتصر الحق رامزا لانتصـار دين من الأديان. بالعكس الرواية بتصور إن الدين لعب دورا فى تطوير البشـرية والدفاع عن أبنائها باسـم المبادىء الإلهية. وفى ذات القصة يجـىء واحد اسمه «عرفة معجبانى» بنفسـه وادعى أن هو اللـى بيقدر يصلح الحارة مش «الجبـلاوى» ولا غيره وادعى كمان أن «الجبلاوى» مـات وراح لحاله، وإذ به يقع تحت سيطرة ناظر الوقف، وكل علمه يسخره فى خدمة «الناظر» وليس فى خدمة الحارة ولذلك هو بنفسـه قال يجب إحيـاء «الجبلاوى» وموت «الجبلاوى» وإحيـاؤه رمز للفكر والعودة للإيمان بإحياء «الجبلاوى» وأنا عايز أقول إن الرواية دى من وجهة نظرى أنا ككاتب أول تبشير بضرورة اكتمال العلم بالإيمان والرواية تقول بصريح العبارة إن الدين أنقذ البشرية من المظالم وإن العلم قادر أيضا على أن يرتقى بها ويحسـن حالتها ولكن بشـرط ألا يحيد عن مبادىء الدين. وهناك دليل آخر على أن هذه الرواية لا تتضمن ارتدادا أو كفرا أو طعنا فى الأنبياء والرسـل أن هذه الرواية كتبت منذ عام ١٩٥٩م وتم نشـرها وحجبت عن النشر إلا أن العقـاب عليها يأتى بعد فوات هذه المدة الطويلة وبعد حصولى علىجائزة نوبل مما يدل على أن القصد من الاعتداء على ليس هو أخذى بما ورد بهذه الرواية وإنما اتخذوها وسيلة أو مبررا لقتلى بدون سبب».

هـذا ما ذكـره «نجيب محفوظ» فى أقواله فى محضر النيابـة العامة تاليا للعبارة التى التقطها السـيد المدعى – من ذات المحضر – مباشـرة.. وقد وجّه إليه المحقق عقب ذلك العديد من الأسئلة على النحو التالى:

• س: ومـا قولك فيما جاء بأقوال المتهمين.. من أن رواية «أولاد حارتنا» التى قمت بتأليفهـا تدور باختصار فـى مضمونها حول قصة الكون والخلـق، وأنك قمت بتصوير الـذات الإلهية فى هذه الرواية فى شـخص «الجبلاوى» وانتهيـت فى هذه الرواية إلى إخـراج «الجبلاوى» مـن التكية لأنه هو الحل الوحيـد لإصلاحها لأن الناس يجب أن تعيش من غير إله ولا دين؟

• جـ: أولا أن هؤلاء الذين يدّعون ذلك لا يقرأون القصص الأدبية بعين أدبية أو إنسانية تريد أن تعرف الحقيقة، وصراع الخير والشر، إنما المهم أن العمل فى نظرهم يكون خاضعا حرفيا لتعليمات الدين وحتى فى ذلك فإنهم يغالون لأن الدين نفسه عرض قصة الخير والشر، وقصة عصيان إبليس على الذات الإلهية ورواياتى كلها تدور حول مفاهيم واضحة لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون القصد منها التعرض لأى دين من أديان السماء أو الازدراء به، والقول بأننى كافر أو مرتد افتراء بل إنه فى اعتقادى صادر عن أشخاص لا يعرفون أمور دينهم الصحيح، لأنهم لو يعرفون ذلك لا يحكمون على رجل مثلى من رواية واحدة بينما أنا لى العديد من الروايات والمؤلفات، ولم يقل أحد عنها أنها تنكر الذات الإلهية، أو تتعرض بالتهوين من شأن الدين وحتى على فرض أننى فى رواية «أولاد حارتنا» تعرضت للذات الإلهية أو كفرت كما يقولون فما الذى أدراهم أننى قد أكون عدت لصوابى وأننى فى هذا العمر الطويل منذ كتابتى لهذه القصة لم أغير موقفى هذا على فرض صحة مايدّعون وهو فرض جدلى، ولماذا لو أنهم عندهم القدرة على الحوار والفهم والوصول إلى المعانى والمضامين لم يأتوا إلىّ ليناقشونى فيما كتبت حتى يكون حكمهم علىّ بالقتل بعد سماع أقوالى على الأقل بدلا من أنهم يأخذونى غدرا وغيلة وفى النهاية أحمد الله، وحسبى الله ونعم الوكيل.

• س – هل لديك أقوال أخرى.

• جـ – لا.

* * *

فهذه هى أقوال «نجيب محفوظ» نفسه، تنفى كل ما نسب إليه، وتؤكد أن ما ادعاه المدعى محض ترديد لادعاءات باطلة لا سند لها من واقع ثابت.. فالأستاذ «نجيب محفوظ» تحدّث بنفسه عن روايتة «أولاد حارتنا» – وعرض للرمز فيها، وأنه لا يعنى بها أن يروى قصة الخلق والتكوين، وإنما هو يتحدث عن الخير والشر، وعن تطور الحياة الإنسانية وأنه لا خير فى حياة بدون دين وتدين، وأنه لا يمكن للعلم أن يتقدم إلا إذا اقترن بالإيمان.. هذا ما طرحه بنفسه، ونفى نفيا قاطعا أن يقصد «بالجبلاوى» الذات الإلهية.. فهذه الذات لها التقديس والإجلال، تسمو على الصفات وعن التمثيل وعن أن تكون موضوعا لرواية..

وقد أضاف «نجيب محفوظ» أن عيب من يتهمونه أنهم لايقرأون، وأنهم يوجهون التهم جزافا وليست على أساس من علم أو قراءة.. وقد أقر السيد المدعى نفسه أنه لم يقرأ رواية «أولاد حارتنا» أو على الأقل لم يكن قد قرأها حينما أقام دعواه، أقر بذلك فى جلسة المحاكمة العلنية..

وقد مضى الدفاع بعد ذلك فى مقولات عديدة لا نجد داعيا لتكرارها أو عرضها مرة أخرى من واقع مذكرات الدفاع.. التى تناولت الموضوع من جميع جوانبه وبصفة خاصة النواحى القانونية التى تحدِّد لكل جريمة أركانا، وتضع لثبوتها شروطا، فقد خلصنا من ذلك إلى أن أيا من ركنى الجريمة – محل الاتهام – سواء الركن المادى أو المعنوى لم تقم له قائمة.. فضلا عن أن أيا من الشروط التى استلزمت التطبيقات ضرورة توافرها لم يكن لها وجود. الأمر الذى خلصنا منه إلى طلب البراءة.

وقدمت حوافظ مستندات عديدة تنطوى علىأحاديث مع «نجيب محفوظ» ومقالات وآراء نشرت عنه.. لكبار الكتاب وقادة الرأى.

* * *

٦- الحكم:

وبجلسة ٣٠ نوفمبر ١٩٩٥م – أصدرت محكمة جنايات المنصورة حكمها الفاصل فى الدعوى إذ قضت بعدم قبول الدعوى لانتفاء شرطى المصلحة والصفة – مع إلزام المدعى بالمصروفات.

وقد يدعو ذلك إلى التساؤل: لم لم تقض المحكمة بالبراءة.. وهل كان لديها شك فى براءة «نجيب محفوظ»؟

ونجيب بأن القانون يوجب على المحكمة ألا تتصدى للحكم فى «موضوع» أية دعوى إلا بعد أن يقضى فى الدفوع الشكلية – أو بعبارة أخرى أن الحكم لا يعرض للموضوع إلا بالنسبة لدعوى مقبولة شكلا – فإذا شاب الشكل عيب جعل الدعوى غير مقبولة، توقف القضاء عند ذلك وحكم بعدم قبول الدعوى لثبوت ذلك النقص الشكلى فى شروط قبولها، وعلى رأسها انتفاء شرط المصلحة بالنسبة للمدعى.. وهكذا فإن الحكم لم يتعرض لموضوع الاتهام مكتفيا بأن قضى بأن المدعى منتفية صفته ومصلحته بالنسبة لهذه الدعوى الأمر

الـذى يوجـب على المحكمة أن تقضى بعدم قبول دعواه ضد من اختصمهم – ووجه إليهم الاتهام – فى صحيفة دعواه. وهكذا رفعت الجلسة، وأغلقت الملفات، واستحال الموضوع إلى خبر تنشره الصحف..

وننقل فيما يلى ما نشـره صاحب هذه الأوراق فى صحيفة «أخبار الأدب» عقب إعلان حكم عدم قبول الدعوى، واعتبار الموضوع منتهيا بالنسبة للأستاذ «نجيب محفوظ».

* * *

٧ - كلمة ختامية:

• ليس دفاعا عن متهم..!!

مبنى قديم، ولكنه متماسك، ومازال محتفظا بمجده السابق، يوحى لمن يدخله بالمهابة والاحـترام.. وقاعة «الجنايات» إلى يمين القادم.. ما إن يدخل القاعة حتى يفاجئه «قفص المتهمـين» إلى يمينه، «منصـة القضاة» فى مواجهته.. والقاعـة غاصة بجمهور الحاضرين يتقدمهـم – فى الصفوف الأولى – المحامون بأروابهم السـوداء: يضعون أمامهم حقائبهم التى تغصّ بالأوراق والمستندات.. والمراجع.

* * *

ونـودى على رقـم (٩ رول).. الجنحـة الصحفية. ووقف المدعى بالحـق المدنى يلقى مرافعتـه فـى صوت جهورى. مؤكدا أن المتهم قد أذنـب، وأن ذنبه لايغتفر.. وأنَّى له أن يلتمس الغفران من وقع فى إثم عظيم؟!

على رسلك يا سيدى المدعى، فالموضوع أبسط من ذلك، والحقيقة واضحة جلية لاتحتاج إلى كل هذه الأقوال، ولا تستلزم ما أنت عليه من انفعال!

ولكن المحكمة لا تسمح بهذه المقاطعة، إذ يلزم أن يأخذ المدعى حقه كاملا فى عرض دعواه، وبسط حججه وأسانيده..

فلتمض سيدى المدعى، ولتكمل استشهاداتك ومقولاتك التى أجهدت نفسك فى سبكها وصياغتهـا وإضفاء صبغة مـن الجدية عليها، وكأنما نحن بصدد خطـر داهم، وأمر جلل يقتضى التعاون لدفعه، والوقوف فى وجهه، والحيلولة دون آثاره المدمرة..!!

• وأخيرا ينتهى من بسط دعواه ليقف الحاضر عن الطرف الآخر متسائلا.
• بأى صفة أقام المدعى دعواه؟
• وماهى مصلحته الشخصية والمباشرة فى هذا الادعاء؟
• وما هو الضرر المباشر الذى حاق بالمدعى وحده دون سائر عباد الله المؤمنين؟
• وكيف أجاز المدعى لنفسه أن يلقى الاتهام جزافا، وأن يشكك فى عقائد الآخرين، ويصفهم بما يستعيذ كل مؤمن بالله أن يوصف به؟!

وهل كان للسيد المدعى القدرة والمقدرة على أن يشق صدور الآخرين وينفذ إلى داخلها ليعرف ما تنطوى عليه من عقائد، وليحكم على تلك العقائد حكما صحيحا يقيس درجة الإيمان، ويحدد مدى صحته؟

• يالله!

لقد وصلنا إلى زمن عُدنا فيه إلى «محاكم التفتيش» ومن أسف أن هذه المحاكم ينصبها بعض الأفراد يقيمون من أنفسهم «سلطة اتهام» تبيح لنفسها أن توجه إلى من تشاء ما تشاء من تهم تتصل بالعقيدة وتشكك فى إيمان كل صاحب فكر أو رأى وكل من شارك بقلمه وفنه فى إثراء الحياة العقلية والفنية بما قدم من إبداع كان ثمرة موهبة ربانية وجهد بشرى وإخلاص مستمر ومتصل..

ويجئ السيد المدعى فى هذه الدعوى – وفى غيرها – لينصب من نفسه مدعيا عاما يحاسب الناس على أفكارهم، ويسائلهم على إبداعاتهم، ويفتش فى ضمائرهم ليخرج بما يخرج به من نتائج تصم من أوقعهم الحظ فى قبضته بأسوأ ما يمكن أن يوصف به إنسان ويطالب بأن يؤخذوا جميعا بأقصى درجات الشدة!! وكيف لا وقد قالوا قولا لا يوافق هواه، ولم يلتزموا فيما قدّموه بما يراه، فحقت عليهم اللعنة، وباءوا بغضب عظيم..!!

لا.. يا سيدى المدعى.. فمازلنا نعيش فى مجتمع يحسن التمييز بين الحق والباطل بين الطيب والخبيث، وهو مجتمع صادق الحسّ، قادر على إدراك الحقيقة بنفسه دون أن يخدع بالاتهامات التى تلقى جزافا ودون أن يقتنع إلا بما هو حق وصدق..

ثم ما هى التهمة التى تنسبها – سيدى المدعى – إلى ذلك الشيخ الوقور الذى أفنى عمره فى عمل دائم دؤوب رفع به رأس وطنه عاليا بين سائر الأوطان، وجعل اسم بلده يتردد فى أنحاء العالم مقترنا باسمه بما حقق من إبداع، وبما قدّم من روائع، وبما أثمر جهده فى عالم الفن والأدب من آثار تحققت فيها الأصالة والعمق مع قدر من الإبداع لم يتوافر إلا لقلائل..؟

• بماذا تتهم – سيدى المدعى – هذا العلم الشامخ، والرمز الكبير؟

• وهل قرأت ما أبدع، وعرفت ما كتب، وتذوّقت روائعه الفنية المتفردة؟

• من أسف – يا سيدى – أنك ترفع صوتك قائلا: إنك لم تقرأ له شيئا، ولا تحب أن تقرأ له شيئا مما كتب..!!

أنت وما تشاء يا سيدى.. لك أن تقرأ أو لا تقرأ.. ولكن عليك قبل أن تحكم على أمر أن تحسن تصوره. وقبل أن تقضى فى دعوى أن تطالع أوراقها.. ومن هنا فإن ما نقول به يبدو عجيبا وغريبا.. إذ كيف تقطع سيدى المدعى فى الأمر دون أن تحيط بأبعاده؟ وكيف تصدر حكما تخالف فيه إجماع العالم كله دون أن يكون لديك سبب واحد تقيم عليه اتهامك متجاهلا كل الأصوات التى تعلو من حولك مشيدة بذلك الرجل المحبوب مصدر الفخر لنا جميعا.؟ ولكنه فى نظرك أنت وحدك «المتهم» بما تنسب إليه من تهم لا أساس لها، ولا دليل على أى منها، وكأن كل ما بناه وقدّمه لا يساوى شيئا فى نظرك..! فلماذا ذلك كله؟

الجواب فى بساطة: لأنك لم تقرأه ولم تتعرف عليه، ولم تغص فى أعماقه.. ولو أنك قرأت وتعمقت لتغيرّ رأيك، وعدلت عن كل مقولاتك. ومن ثم فأنا ألتمس لك العذر، وفى نفس الوقت فإننى أدعو لك بالمغفرة – فالله – سبحانه وتعالى – هو الغفور الرحيم.

وما أكثر ما قيل وما حرر من مذكرات! وما أكثر ما قُدم من مستندات! بينما لم يكن ثمة موضوع حقيقى عليه خلاف أو يدور حوله اختلاف.. فالأمر فى جميع الأحوال يدور حول فكر وإبداع قيمة مصرية أجمع العالم كله على وضعها فى أسمى مكان..! ولكنه الزمن الذى لا أود أن نصفه بأى من الأوصاف هو الذى جعل من الحقائق المؤكدة موضعا لجدل، وموضعا لنقاش، بل ولاتهامات تمس أقدس ما يعتز به المؤمن: صدق العقيدة، واكتمال الإيمان!!

وتؤجل الدعوى المرّة بعد المرّة.. ومن «دور» إلى «دور مقبل» إلى أن يأتى اليوم الذى يؤذن فيه بالقول الفصل.

وتعاد المحاكمة، وتعاد المرافعات من بدايتها، ليعيد كل طرف قول ما سبق أن قال، ويدفع ذلك أكثر من صاحب ضمير حىّ ليتقدم منضما إلى دفاع المتهم.. ويشارك أكثر من أحد فى هذا الدفاع الذى يؤكد أننا بصدد أعمال لفنان مبدع يقدم أفكاره، وإبداعاته صريحة حينا – رامزة أحيانا أخرى، ولكنها فى جميع أحوالها أعمال تدعو إلى الخير، وتبشّر

بالأمل، وترسم صورة مثلى لحياة تجمع بين العلم والإيمان: فإيمان بلا علم يقصر عن بلوغ الغايــة، وعلم بلا إيمــان لا يقود إلى الخير أبدا، وإنما لابد مــن أن يجتمع العلم والإيمان ليرقــى المجتمع، ويمضى فــى طريق الخير والنموّ والبناء – تحوطه رعاية الله التى تحوط دائما العالمين المؤمنين..

ويصدر القضاء حكمه فى نهاية الأمر.. معليا كلمة الحق، مبرئا ساحة الرجل مما نسب إليــه، مؤكدا أن الســيد المدعى ليس هو صاحب الحق فى توجيــه مثل تلك الاتهامات أو التشكيك فى عقائد أى من عباد الله..

وتخلــو القائمــة من جمهورها الحاشــد، ويخلو قفص الاتهام ممــن كانوا يملأونه منذ لحظات بعد أن تفرّق كل منهم إلى حال سبيله.. هذا إلى بيته.. وذاك إلى سجنه.. وإن كان صوت هيئة المحكمة وهى تعلن كلمة الحق بأنه ليس لأحد أن يكفّر أحدا، وليس لمسلم أن يشــكك فى إيمان مسلم – سيظل يتردد فى أرجاء القاعه، وكل قاعة تشهد محاكمة للفكر ومساءلة لصاحب إبداع..!!

* * *

الفصل الثامن

فصـــل الخطـــاب

ربمـــا كان عنوان «فصل الخطاب» غير دقيق، وغير متفق مع مانريد قوله، ففيما يتصل بنواحـــى الفن والإبداع – ليس هناك ما يمكن أن نصفه بأنه « الكلمة الأخيرة» أو «الحكم النهائى» أو «فصل الخطاب» فكيف إذا اقترنت العملية الإبداعية وكذلك إذا اقترن الإنتاج الفنى، بأفكار سياسية وأهداف اجتماعية، وآراء فلسفية؟ وتلك جميعها – فى حد ذاتها – مثار جدل متصل ونقاش مســتمر، لا تكاد تســتقر عند رأى، أو تقف عند نهاية..! وكيف تســتقر، والفكر لا يكف عن التطور. والنظرة إلى شــئون الحياة ما تفتأ تتجـدد، وتتنكر لما سبق أن خلصت إليه؛ وتأخذ بما تراءى لها على نحو مختلف، وفى صورة متباينة..

ثم إننا لسنا بإزاء إبداع قد تجّمد، أو فكر قد تحجّر، فالمبدع – فى تصورنا – هو عدة أشخاص فى شخص واحد، لا يستقر على حال، ولا ينتهى عند وضع، فهو لا يفتأ محلّقا ليأتى بجديد، وليستكشف ما قد يكون مجهولا لديه.. ولدينا من باب أولى..!!

وفى نفس الوقت فهذا الفنان يجد نفســه فى صدام أو صراع مع من هم مشــاركون له فى عوالمه؛ وهو صدام أبدى لم يتوقف – ولن يتوقف – مادام هناك فن، وفكر، وإبداع!

فنحــن – علــى ذلك – أو لذلك – لابــد أن نحاول جاهدين – أو لاهثين – أن نتابع هذه التيارات المتدفقة، وأن نســاير هذه العوالم المتجددة.. فما نرضى لأنفســنا أن توصف بالتخلف أو الجمود.

فكيــف والحــال كذلك نقول – أو ندعى – أننا وصلنا إلى «فصل الخطاب» – وأن هذا الفصل فيه ختام القول، وخلاصته... وأننا من بعد سنتوقف عند ختامه؟

نقول – لأننا لابد أن نتوقف عند حدّ، وننهى الحديث عند موقف، فهذا هو ما يتفق مع طبائع الأشياء، ومقتضيات الأمور – لا أكثر ولا أقل – !!

ومع ذلك تبقى ملاحظتان:

أولاهمــا: أننا إن توقفنا اليوم عنــد هذا الحد – فإن ذلك لا يحول بيننا وبين أن نعود إلى الحديث – إن كان فى العمر بقية – مرة فأخرى..

وثانيهمـا: أنه مع ماقلناه فإن عنونـة هذا الفصل بأنه «فصل الخطاب» كما تبدو غير مقبولة أو معقولة.. فإنها يمكن أن تكون مستساغة على أساس أن توقعنا يقتضى أن نحدّد إلى أين وصل بنا المطاف؟ وعمَّ أسفرت عنه هذه الصفحات؟ وما هى النتائج المحددة - إن كان يمكـن تصوّر وجـود نتائج محددة فى عالم يقوم على ضرورة الإبـداع المتجدِّد، والفن المتطور، والفكر الذى لا يكفّ عن الطيران والتحليق..!

١ - قصة الخلق والرسل:

عندمـا اكتملت ملامح «أولاد حارتنا» - حينما كانت تنشـر فى «الأهرام» مسلسـلة.. وتصادف أن طالعها البعض ممن فاجأتهم الرواية، ولم يكن لهم سابقة عهد بمثلها، تابعوها ليتعرفـوا علىحقيقتها، فكان أن قدَّروا أنها ليسـت رواية بقدر ما هى كتاب يتحدث عن قصة الخلق، وتتابع الأديان، وتاريخ البشـرية، ومن هنا كان من الطبيعى وما دام هذا هو فهمهم - وتقديرهم - لهذا العمل، أن تثور لديهم اعتراضات، وتفسيرات قامت على سوء الظن، وأن هذا العمل قد مسّ الأديان، وأساء إلى الرسل...!!

وراحوا يستدلون علىذلك بما يوجد من أوجه شبه كبيرة سواء فى تتابع الأحداث، أو فيمـا يقـال من دعوات.. وعلىذلك فقد خلصوا إلى أنه ما كان ينبغى لكاتب - أيا من كان - أن يعرض لهذه الأحداث، وتلك السـير، على النحو الذى تضمنه العمل، أو أن يُظهر الشـخصيات التى لها قداسـتها، وجلالها كسائر البشـر، وما كان يصح أن يفرض عليهم الانحراف فى بعض المواضع - أو يوصفون بأوصاف تحقِّر من شـأنهم.. وتهبط بمكانتهم، بينما أنهم لاينبغى التحدث عنهم إلا بكل إجلال، وألا يوضعوا إلا فى المكانة التى ارتضاها لهم المولى العظيم.. والا فكيف يجوز أن يجلس هؤلاء - من ذوى القداسة والتعظيم - على المقاهى، ويشاركوا العباد حياتهم بل ومباذلهم..؟!

والأدهـى من ذلك حديث الكاتب عن «الذات الإلهية» - حديثا يجعل من تلك الذات بشـرا من الناس، يجوز عليها ما يجوز على البشر، وهو أمر فى غاية الخروج والخطورة، فما ينبغى أن نعرض للذات الإلهية إلا بكل تقديس وتعظيم وإجلال.. فهو - سـبحانه - مالـك الملـك، وخالق الكون، ومدبِّر الحياة.. وما يحقُّ لإنسـان أن يقرب من ذاته إلا بكل تعظيم وألا يتحدث عنه إلا بأسمى آيات التعظيم..!

وعلىذلك فنحن بإزاء عمل يروى قصة الخلق، ويتتبع حياة الرسـل وتوالى الرسالات، ولكنه يطلق على الرسـل أسماء أخرى، وينسـب إليهم أفعالا تسـىء إلى مكانتهم، ثم هو

لايلتزم بالسير الثابتة عنهم، ولايقف عند ما هو معروف عنهم، من صفات ورسالات، بل ينحرف عن الروايات الثابتة، ويأتي من عنده بأحداث مختلفة، ويجرى على ألسنتهم كلمات ما كان يصح أن تنسب إليهم، بل إنه لا يروى كل أحداث سيرهم كما وقعت، بل يختصر ويعدِّل، ويغير، ويبدل متجاهلا أنه إنما يتناول قصص أشرف الخلق أجمعين على مر العصور، وتوالى الدهور..!!

وعلى ذلك فما كتبه «نجيب محفوظ» فى تلك الحلقات المسلسلة هو خروج على الدين، وإساءة للرسل، فضلا عما تضمنه من ذكر للذات الإلهية بما لايصح ولا يحق لبشر أن يقوله..!

وكان ما تقرر - على أثر انتشار هذه المقولات - من أن يكتفى المؤلف بنشر روايته مسلسلة وألا تطبع فى كتاب فى مصر، بحيث لا يتاح لمن لم يقرأها - أو لم يتابعها - أن يطالعها أو يقرأها فى كتاب مكتمل. وإلا فكيف يباح للعامة أن يقرأوا كتابا يقوم على الخروج على الدين، وينطوى على إساءات بالغة وعدوان آثم - ما كان يصح أن يقع من كاتب، وما كان يجوز لصحيفة أن تنشره!

الخطير فى الأمر أن ذلك أصبح هو الحكم النهائى بالنسبة لهذا العمل - وقضى عليه بألا ينشر فى كتاب نزولا على هذا الحكم الذى صدر فى غيبة من صاحب الشأن، ودون الاستدعاء إليه، أو سؤاله لمعرفة وجه الحق فى هذا القضاء.. بل لقد أكَّد البعض أن مصدرى هذا الحكم لم يقرأوا هذا العمل القراءة الواعية.. أو هم على الأقل لم يستوعبوه على حقيقته، ولم يحيطوا بمقاصده وأهدافه الصحيحة... ومن ثم جاء حكمهم قاصرا؛ ورأيهم خاطئا مخالفا لوجه الحق، وللفهم الصحيح.

ومع ذلك، فقد أصبح هذا الحكم هو النافذ، وأصبح من المتعذر أن تنشر تلك الرواية فى مصر، وإن كان ذلك لم يمنع «بيروت» من أن تبادر إلى طبع رواية «أولاد حارتنا»، وبالطبع تسربت منها نسخ إلى مصر وإلى غير مصر.. إلا أن «نجيب محفوظ» لم يكن ليوردها ضمن قائمة كتبه، ولم يكن يشير إليها عند تعداد مؤلفاته، بل إنه مضى يقول إنه لن يأذن بنشرها إلا إذا أذن «الأزهر» بذلك، على أساس أن الاعتراض الرسمى كان نتيجة لتقرير أصدره أحد الباحثين فى مجمع البحوث الإسلامية غير أن الأمر كان يمضى هادئا، وكان الحديث عن «أولاد حارتنا» لا يتكرر كثيرا.. بل ولم يكن ينشغل به سوى نفر كبير أو قليل من المفكرين والنقاد.. حتى كاد أن يندثر.

٢ - تجدد الهجوم على أولاد حارتنا:

غـير أن الأمر تجدّد مرة أخرى بل اشـتعل على أثر فوز «نجيب محفوظ» بجائزة نوبل العالمية وما ورد في تقرير اللجنة من أنه كان من بين الأعمال التي رشحته للجائزة: رواية «أولاد حارتنـا» مع أعمال أخرى، منها الثلاثية وسـواها، إلا أن ذلك نبّه نفرا من الناس لمعاودة الحديث عن الرواية وتناولها على نحو أشدّ ضراوة وأكثر عنفا - فقد جـدّد الأزهر فتواه مرة أخرى، وأوصى بالاسـتمرار في عدم نشـرها.. لكن الأمر لم يقف عند هذا الحدّ، بل تجاوزه إلى آراء تنشـرها العديد من الصحـف، وإلى فتاوى يصدرها العديد مُمن يصفون أنفسـهم بأنهم علماء الدين، ثم إلى خطب يجهر بها خطباء المسـاجد.. بل وقد ظهر أكثر من مؤلف خصّصه كاتبه للهجوم على تلك الرواية..

وقد انتهى هؤلاء إلى أننا بإزاء كتاب فيه خروج على الدين، ومساس بالذات الإلهية، وراحـوا يكررون نفس المقولات: عدم التزام بالسـير الصحيحة للأنبياء، ونسـبة أحداث وأقوال إليهم ليس لها أصل في السـير الصحيحة فضلا عن المسـاس بالذات الإلهية بأن ينزلها منزلة البشر..

وزاد البعض على ذلك بأن أضافوا جديدا... إذ تساءلوا كيف يقول الكاتب أن الإله يمكن أن يموت، وأن العلم هو الذى لابد أن ينتصر ويحقق التقدم للبشـرية.. فهو كاتب علماني خارج على الدين، غير ملتزم بأحكام الشريعة، ولا بصحيح العقيدة.

ومن هنا اختلفت أحكامهم:

فالبعض منهم أفتى بردّة المؤلف، وبالتالي أصدر حكمه بقتله.. فالمرتد جزاؤه القتل..

......والبعض أفتى - ونصح - الكاتب بأن يتوب إلى ربه، ويسقط ذلك العمل من مؤلفاته، ثم عليه أن يستغفر الله من ذنبه، لعله - سبحانه - يتكرم بغفران ذنبه، وبقبول توبته..

وكان أن استجاب البعض لتلك الفتاوى والمقولات، فحاول أن ينزل على حكم «شيخه» وينفّذه في شـخص المرتد، ويقضي على حياته، ولكن سـهم المعتدى لم يصب «نجيبا» في مقتل، وإن ناله بأذى شديد، وأحدث به عجزا صاحبه حتى وفاته!

ولعـل أعجـب ما قيل كانـت «خطب» ذلك الشـيخ المفـوّه، الذى جعـل موضوعها «نجيب محفـوظ» وكتابـه. وكان الشـيخ ذا مقـدرة فائقة على الخطابـة - كما ذكرنا -

وله جمهور كبير يحتشد خلفه، ويستمع إلى خطبه.. ويتأثر بها، ويأخذها مأخذ القول الصحيح، والرأى الدينى المتفق مع حكم الشريعة. ثم زاد الشيخ فأصدر كتابا جمع فيه مقولاته السابقة، التى تشهد عليه بأقصى درجات التطرف والانحراف.

والأكثر إثارة من ذلك كله أن يأتى أستاذ من جامعة الأزهر فيصدر هو الآخر كتابا جعل همَّه الأول فيه أن يثبت أن «نجيب محفوظ» لم يقصد بكتابه إلا أن يورد صور الأنبياء محرَّفة، وأن يضمِّن كتابه عدوانا على الذات الإلهية، وأن ينتصر للعلم دون الدين.. وراح يبتدع الأدلة والاستدلالات والشهادات على ذلك ليثبت صحة مقولاته، ويؤكد سلامة استنتاجاته، ويقدِّم بدل الدليل الواحد أدلة عديدة ومتعددة.. وليخلص من ذلك كله إلى أننا بإزاء عمل خارج، وإن على صاحبه أن يعلن التبرؤ منه.. وبذلك يدخل التاريخ الشريف من أوسع أبوابه.

٣ - أحاديث «نجيب محفوظ»:

والعجيب أنه قد أجريت أحاديث عديدة مع «نجيب محفوظ» حول «أولاد حارتنا» وقال فى عبارة صريحة: إن حكم الإسلام أن من يرتد، لابد أن يستتاب أولا، فإن أصر على كفره كان للإمام أن ينفذ فيه الحد.. هذا إذا كان مرتدا كافرا، وقد ثبت كفره وارتداده بما لايدع مجالا للشك..

ومن هنا كان عجيبا أن يدعى البعض أنه يحق قتل «نجيب محفوظ»، دون أن يكون قد ثبت كفره أو ارتداده، فضلا عن ضرورة أن يستتاب، فالرجل مسلم صادق الإيمان، وصاحب عقيدة سليمة، ولم يقل شيئا مما نسبه من يدعون العلم، ويعطون لأنفسهم الحق فى الفتيا، بل وإصدار الأحكام.

وأوضح «نجيب» فى أكثر من حديث أنه لم يكن بصدد كتاب تاريخى، ولا مؤلف دينى، بحيث يلتزم بصحة الوقائع، وبالالتزام بالنصوص، وإنما كان بصدد عمل أدبى، رواية يعرض فيها لمجموعة من الناس هم «أولاد حارتنا» يتحدث عنهم، ويصف ما وقع لهم من أحداث، وما تعرضوا له من خير وشر، وهو وإن كان قد قدم المصلحين الذين تغلبوا على الطغاه، وحققوا قدرا من العدالة، فقد قدمهم على أنهم بشر من البشر، وليسوا رسلا ولا أنبياء.. وإذا كان هناك من يرى فى هذه الشخصيات مشابه من شخصيات تاريخية أو دينية، فإن ذلك لايعدو أن يكون رمزا. دون أن يعنى المطابقة أو رواية التاريخ لأننا بصدد عمل فنى، وإبداع أدبى، ولسنا بصدد كتاب تاريخى، ولا مؤلف دينى، ومن ثم

وجب أن تكون قراءته قراءة لرواية، تقوم على أحداث وشـخصيات، وتتفاعل الشخصيات مع الأحداث، ومع أهل الحارة، وإن كان من بينهم مصلحون فهم أولاد الحارة – أو أحد أحيائها – يعملون على أن يردوا إليهم حقوقهم فى الوقف – المملوك للجميع.

والمشـكلة – كما يراها «نجيب محفوظ» – هى أن البعض يقرأون هذه الرواية بمفهوم يفترضونه سـلفا، وعلى أسـاس تفسـيرات قيلت من قبل، والكثير منهم لم يتعودوا قراءة الروايات أو الأعمال الفنية، ولذلك فإنهم يسلّمون بما يتردّد من تفسيرات خاطئة، ويجهدون أنفسهم فى ردّ شخصيات الرواية إلى شخصيات التاريخ، ثم يأخذون على المؤلف فى ضوء التفسيرات ما يأخذونه من خروج.

بينمـا أن هذا العمل لو قرئ على حقيقتة، وبما يقـوم عليه من أحداث، تتطور بتطور الأيام، وتختلف باختلاف الأشخاص، لكنها تتواءم مع اختلاف الأزمنة، وتتنوع مع تنوع الأفكار، ومع ما يسـعى إليه المصلحون مـن تجديد، وإصلاح، وتحقيق للعدالة، فيهزمون حينا، وينتصرون أحيانا.. ولكن انتصاراتهم تتطور، ويتسـع نطاقها فبعد أن كانت تشمل بعض الأحياء إذا بها تشمل جميع الأحياء.. وإذا بها تضع بذرة العلم، وتدعو إليه، وفى ذات الوقت يثبت أن العلم ما هو إلا أحد جناحى التقدم، إذ لابد من الاستناد إلى الدين.. فكلا العلم والدين هما عمادا التقدم والنجاح..

وخلاصة ما انتهى إليه «نجيب محفوظ» فى أحاديثه – وما أراد أن يؤكده لقرائه – أن «أولاد حارتنا» ينبغى أن تقرأ على حقيقتها، بعيدة عن التفسيرات السلفية، أو التوجهات الدينية. تقـرأ.

كرواية فنيه، لها مقاصدها وأهدافها التى يحق لكل قارئ أن يسـتخلصها بنفسه وأن يسبغ عليها رؤياه الخاصة، ونظرته الذاتية..

٤ - وماذا قال النقاد الأدباء:

والواقـع أن هناك شـبه إجماع على أن روايـة «أولاد حارتنا» مـن الإبداعات المتميزة «لنجيـب محفـوظ»، وإن كان البعض يرى أنها وإن انطوت على إبداع، فهى أقل شـأنا مما سـبقها.. وممـا كتب «نجيب» بعدها. ولكن النقاد أجمعـوا على نفى «تهمة» الخروج على الدين والمساس بالمقدسات، والتعدى على الذات التى لايصح التعدى عليها بحال من الأحوال أجمعوا على نفى ذلك عن الراوى والرواية..

وذهبوا إلى أن الراوى مسلم حسن الإسلام، متمسك بدينه، حريص على مرضاة ربه.. بل إن أحد الباحثين الدارسين ممن عرضنا لهم تحدث حديثا مطولا عن الإسلامية والروحية في أدب «نجيب محفوظ» وهو بحث موثق له شواهده، كما أن له دلالاته.. وقد كان - والحق يقال - بحثا ممتعا، وعميقا، وجديدا في بابه.. وقد أخذ من رواية «أولاد حارتنا» أكثر من شاهد ودليل علىأننا بصدد رواية تتوافق مع المفاهيم الإسلامية تمام التوافق.

والرواية - هى عمل فنى.. ويجب أن تقرأ على أنها عمل فنى - إبداعى لمؤلف روائى، وتقوم علىأحداث وأحاديث، وفيها صراع متصل بين الخير والشر كما هو دأب الحياة الدنيا، وفيها سعى من البعض لتحقيق العدالة، ولكن أحداثها بشرية، صادرة عن بشر من غمار الناس أو من خيارهم، تنطوى صدورهم على ما تنطوى عليه صدور سائر البشر من حب الخير أحيانا ونزعة للشر فى أحيان أخرى، وسعى إلى الإصلاح فى مرات، وعمل علـى التعدّى والغبن والتسلط فى مرات أخرى، ومن هنا كان الصراع على مدار حلقات الرواية، ولكنه صراع هادف يهدف إلى تحقيق العدل والحق والمساواة..

وأما عن اقتراب شخصيات وأحداث الرواية من أحداث التاريخ، وسير الأنبياء، فلم يكن قصد الراوى أو هدفه من ذلك هو رواية تلك السير أو الحديث عن أولئك الأشخاص، فقد كان ذلك أبعد ما يكون عن تصوره أو تفكيره، وإلا ففيم كان هذا الحرص على بشرية المصلحين - وهم الذين ذكر الدينيون أنهم يرمزون إلى أشخاص الأنبياء ويحكون سيرهم - فقد كانوا فى الرواية بشرا من البشر، وناسا من الناس، يجرى عليهم الصواب والخطأ، ولا يرتفعون عن المستوى العادى لأولاد الحارة إلا بمقدار ما تمتلىء صدورهم بالرغبة فى الإصلاح، وتسمو أفكارهم إلى المثل العليا، وينذرون أنفسهم لبذل الجهد، والتضحية بالنفس والنفيس، ولكنهم لا يدّعون اتصالا بالذات الإلهية، ولا يدّعون إلى رسالة قد بعثوا بها...... وحتى صلتهم «بالجبلاوى» فكانت صلة بصاحب الوقف وصاحب الوصايا العشر ليس لها ظل إلهى، وليست صادرة عن مصدر سماوى - إنها حياة عادية متطورة، متفاعلة، مضطربة أو مستقيمة، مجتمعة أو متفرقة، قد تبلغ منتهى السوء والقسوة والظلم، ثم تنفرج عن خير، وتحقق قدرا من العدالة والمساواة، و«الجبلاوى» شخص أرضى لا يعبّر عن السماء، ولا هو صاحب الكون.. إنه صاحب الوقف والمتصرف فيه، والمسيطر عليه، قد يرخى قبضته حينا، ولكنه يعود إلى العمل على استرداد الأمر، وفرض السيطرة عن طريق

من يوجِّه من قبله، ومن يختاره لهذه المهمة.. كلهم أفراد من البشـر، ليسوا رسلا من قبل الإله، وليسوا أصحاب رسالات سماوية..

- ولكن فيم محاولة التمثيل بأصحاب الرسالات؟
- وفيم حشد العديد من الرموز التى تتيح للمؤولين الفرصة لكى يؤوِّلوها حسب هواهم؟
- وفيم الاقتراب فى سير هؤلاء من سير الأنبياء الثلاثة؟
- وفيم هذه الأوجه العديدة من التشابه والمشابهة؟

ذلك أسـلوب اختاره المؤلف، وليس لأحد أن يفرض عليه أسـلوبا لا يعدوه، أو يطلب منـه أن يروى أحداثا دون أحداث، أو يعرض لأشـخاص دون آخريـن. فحريته مطلقة، واختياراته لا يحكمها، ولا يتحكم فيها إلا ما يقيم عليه إبداعاته من أسـس، وما يختاره لفنه من منهاج.

ولكن ليس للقارىء أن يفسِّـر الرواية بتفسـيرات لا تدلّ عليها، ولا يسـند إليها أنها إنما تعنى بهذه الشـخصية فلانا، أو سـواه طالما أن هناك مغايرة بين الشـخصيتين فى أكثر من ناحية، وجعل تصرفاتها شـخصياته نابعة من ذواتها، ومتفقة مع طبائعها، وهى فى عمومها تصرفات بشـر نابعة من بشـريتهم، تتطور مع تطوُّر الرواية وتساعد فى تنامى أحداثها، دون أن تقف عند حد محدود..

هى إذن شخصيات بشرية، قد يسموا البعض فى مثله، ويرتفع بأفكاره، ولكنه لا يعبر عن شخصية دينية، ولا يحدِّث عن حدث له فى التاريخ صداه، الأمر الذى يبرىء الرواية مما أضيف إليها، وأدخل عليها من تفسـيرات وتأويلات دينية.. وذلك لأن مسـايرة هذه التفسيرات تؤدى بالقارىء إلى ضلال، وبالرواية إلى غير حقيقتها، وبما لم يُرده كاتبها لها، وينحرف بها إلى ما لم يقصده مؤلفها من إبداعه لها..

لم يكـن «نجيب محفوظ» فـى «أولاد حارتنا» كاتبا لقصة تاريخية، وإلا لكان منهاجه غـير المنهـاج، ولا هو كان يكتـب قصة دينيـة، وإلا لراعى الحقائق الدينيـة، والوقائع التاريخية، والتزم بما حكاه القرآن رواية عن الرسل أجمعين.. ذلك أن «نجيبا» لم يختر أيا من السـبيلين وإنما اختار الأسلوب الروائى المعتاد، وإن قارب بين بعض أحداثه وأحداث دينية معروفة ولكن مقاربته لم تكن تطابقا ولا مشـابهة كاملة، إنما هى تكتفى بالرمز، أو بالإشارة، أو بالاستلهام، لكن سائر الحوادث هى من تأليفه وإبداعه وكذلك الشخصيات،

فهي شخصيات بشرية كاملة البشرية، تتصرف تصرف البشر، وتتحدث بلغة «الحارة» وأسلوب العصر، ولا تدعي وحيا، ولا تنسب القول إلى سواها.. ولذلك يستحيل على ذي فهم أن يساير «الدينيين» في تفسيراتهم، إنه إن فعل يكون هي المخطيء والمستحق للوم.. ولا ذنب على المبدع..

ومع ذلك فإذا ذهبت في تفسير مضمون الرواية إلى أنه دعوة لمقاومة الظلم، وأنه فهم لطبائع الطغاة علىحقيقتها، وأن المظلوم إذا لم يطالب بحقه ضاع عليه، وأن الإنسان تعلو قيمته ومكانته بعلو همته، وأن الإيمان لابد وأن يقترن بالعلم فكلاهما هام لتحقق التقدم والوصول إلى النجاح.. إذا قلت هذا أو ماهو من قبيله فأنت لم تخرج عن الرواية وأنت تتحدث عنها وفي إطارها، تستوحي أحداثها وأحاديثها، تمضي مع مؤلفها في استنباط ما رما إلى تحقيقه – من ورائها – من أهداف، والتعبير عنه من غايات.. وأنت بذلك برئت من الشطط، وبعدت عن الانحراف..

٥- وبعد.. فما هو القول الفصل؟

عقب وفاة «نجيب محفوظ» أذن لرواية «نجيب محفوظ» أن تظهر إلى عالم النور، وأن يتم طبعها في مصر، لتجد رواجا شديدا، وتعاد طباعة الرواية مرة بعد الأخرى، وكان نشرها مقترنا – كما ذكرنا – بشهادتين لعالمين إسلاميين: شهد أولهما بأنها ليس فيها تعدّ على الدين، أو مساس بالذات الإلهية، أو إساءة إلى التواريخ المقدسة، بل هي عمل روائي يُقرأ كما تقرأ كل الروايات ذات المستوى الرفيع.. أما العالم الثاني فكان قوله أن الرمز يحتمل التأويل وما كان محتملا التأويل وجب حمله على أحسن وجوهه..

فهل كان ذلك بمثابة القضاء ببراءة الرواية وسلامة موقف الراوي؟

لا نقول ذلك، ولا نذهب إليه.. بل إننا نقول إن ما قيل حول الرواية في البداية كان مرجعه هم قائلوه، وهم الذين فسّروا، وقالوا، وادعوا، ثم صدقوا أنفسهم ونشروا أقوالهم، وأذاعوا أحكامهم..

وإذ أسفر الفهم الصحيح للرواية عن أن شيئا مما قاله أولئك المفسرون الذين أخطأهم التوفيق في تفسيراتهم لا يطابق الواقع، ولا يتفق مع التقييم العميق.. فإن لنا أن نخلص إلى أنه متى استبانت الأمور على حقيقتها، وجرت قراءة الرواية دون إضافات من القارئ،

ودون خـــروج بها إلى عوالم غير عالمها، ومنحها صفات ليســت لها - تكشــفت الحقائق واضحة بأننا إزاء عمل روائي لا يمثل خروجا ولا ينطوى على عدوان أو مساس، وأن لك أن تعجب به وترضى عنه، كما أن لك ألا ترضى عنه، وتخسف به الأرض.. أنت ونظرتك، وذوقك.. ولكن ليس لك أن تخرج به عن كونه عملا فنيا إبداعيا، وأنه ليس كتاب تاريخ، أو عقيدة، أو دين.. ومن ثم يجوز عليه ما يجوز على كل الآثار الأدبية من النقد، والتقييم، والتحليل، وصولا إلى وضعه فى مكانه الصحيح من الإنتاج الأدبى بصفة عامة، ومن إنتاج «نجيب محفوظ» بصفة خاصة.

والله ولى التوفيق

دكتور/ أحمد السيد عوضين

القاهرة ٢٠١١/١/٢٨م

* * *

الفهرس

كلمــــة ٣
خطة ومنهاج ٧
الفصل الأول: الرواية والراوى ١٠
الفصل الثانى: أولاد حارتنا – الرواية فى صفحات ٢٦
(١) أدهم ٢٩
(٢) جبل ٣٢
(٣) رفاعة ٤٧
(٤) قاسم ٦٤
(٥) عرفة ٩١
(٦) ولنا.. كلمة ١١٦
الفصل الثالث: المحاكمة الأولى: تصرفات السلطة وتقرير الأزهر ١٢١
أولا: تصرفات السلطة ١٢١
ثانيا: تقارير الأزهر ١٢٧
الفصل الرابع: المحاكمة الثانية: من فوق المنابر ١٣٧
الفصل الخامس: المحاكمة الثالثة: المحاكمة السرية ١٤٤
الفصل السادس: المحاكمة الرابعة: محاكمة.. قضاتُها.. كتاب ١٦٧
المبحث الأول: كلمتنا فى الرد على أولاد حارتنا للشيخ كشك ١٦٩
المبحث الثانى: جوانيات الرموز المستعارة.. د. المطعنى ١٧٨
المبحث الثالث: عن حكاية أولاد حارتنا للدكتور عبد الجليل شلبى ٢٠٩
المبحث الرابع: أولاد حارتنا.. فيها قولان – محمد جلال كشك ٢١٦
المبحث الخامس: أولاد حارتنا بين الفن والدين – رجاء النقاش ٢٢٢
المبحث السادس: نجيب محفوظ – الرمز والقيمة د. جابر عصفور ٢٣١
المبحث السابع: أولاد حارتنا بين خصوصيتها المصرية وعموميتها الإنسانية ٢٤٢
المبحث الثامن: طبع أولاد حارتنا فى مصر – متى؟ وكيف؟ ٢٥٢
الفصل السابع: المحاكمة الخامسة: أمام منصة القضاء ٢٦١
الفصل الثامن: فصل الخطاب ٢٧٦
الفهرس: ٢٨٦

مؤسسة
دار المعـارف
قطـاع التسويق وتنظيم المعارض

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
القاهرة	الإدارة والمكتبات	٩ شارع كامل صدقى بالفجالة	٢٥٩٠٥٩٤٨	٢٥٩٠١٧٦٦
	مكتبة ثروت	٢٧ شارع عبد الخالق ثروت	٢٣٩٣٦١٢٣	٢٣٩٣٦١٢٣
	مكتبة السيدة زينب	ميدان السيدة زينب ناصية شارع قدرى	٢٣٩١٣٨١٣	
	مكتبة شبرا	١٠٥ شارع شبرا أمام مدرسة التوفيقية	٢٢٠٢٣٨٦٦	
	مكتبة ماسبيرو	خلف دار المعارف ومجلة أكتوبر	٢٥٧٧٠٧٧	
الإسكندرية	مكتبة سعد زغلول	٤٢ شارع سعد زغلول	٠٣/٤٨٠٧٦٤٤ ٠٣/٤٨٠١٣٤٥	٠٣/٤٨٠٧٧٣٨
	مكتبة التحرير	٢ ميدان التحرير بالمنشية	٠٣/ ٤٨٧٩٩٥٣	
	مكتبة محرم بك	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
	جهاز المعارض بالإسكندرية	مساكن الجمهورية خلف نقطة شرطة أميروزو	٠٣/ ٤٢٩٤٧٠٣	
طنطا	المكتبة	خلف مسرح البلدية شارع القنطرة	٠٤٠/٣٣٣٢٣٥١	
المنصورة	المكتبة	شارع الجمهورية بجوار إدارة جامعة المنصورة	٠٥٠/ ٢٣٩٦٢٨٧	
الإسماعيلية	المكتبة	بجوار نادى الشجرة – شارع شبين الكوم	٠٦٤/ ٣٣٤٦١٩٢	
الزقازيق	مكتبة المنتزه	ميدان المنتزه – بالزقازيق	٠٥٥/ ٢٣٠٥٠٢٢	
	مكتبة عرابى	ميدان أحمد عرابى سابقا	٠٥٥/ ٢٣٦٥٠٢٢	

منطقة	الفرع	العنوان	تليفون	فاكس
العريش	المكتبة	شارع الجيش أمام قسم العريش	٠٦٨/ ٣٣٦١٨٩٠	
السويس	المكتبة	سوق فيصل السياحى- حى فيصل	٠٦٢/ ٣٦٧٢٩٦٦	
أسيوط	أسيوط	شارع جلال الدين السيوطى	٠٨٨/ ٢٣٣٤٥٠٤	
	منطقة أسيوط الجديدة	عمارة الأوقاف رقم ٢ ش سعد زغلول	٠٨٨/ ٢٣٣٠٠٠٨	
سوهاج	الإدارة العامة والحسابات	خلف الساحة الشعبية بجوار قصر الثقافة	٠٩٣/ ٢٣٢٤٣٤٧	
قنا	الإدارة والمكتبة	شارع الجميل	٠٩٦/ ٥٣٢٣٢٣٠	
أسوان	الإدارة والمكتبة	السوق السياحى	٠٩٧/ ٢٣٠٣٨٣١	